موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

أحاديث رمضان

أحاديث رمضان ١٤٢٧ هـ

صلاح الأمة في علو الهمة

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١-٦٠) : سعادة الإنسان بعلو همته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

فجوة وخلل: معرفة الحق وعدم العمل وفقه:

أيها الإخوة الكرام، هناك حالة تكثر الشكوى منها ؛ أن الإنسان يعرف الحقيقة، لكن لا يشعر بقوة في العمل وفقه، هناك فجوة، مع أنّ الحق واضح، الأمور ناصعة، الحق أبلج، الحلال بين، الحرام بين، و مع ذلك فهناك تقصير في العمل وفق هذه القناعات، أين الخلل ؟ في الإرادة، هناك إنسان ضال ما عرف الحقيقة، إذاً لم يعمل بها، لكن المغضوب عليه هو الذي عرف الحقيقة، و عمل بخلافها.

علوّ الهمة من الأيمان:

إذاً: سلسلة هذه الدروس إن شاء الله تحت عنوان صلاح الأمة بعلو الهمة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((علو الهمة من الإيمان))

[ورد في الأثر]

الواقع العملي للطالب الذي يريد النجاح فقط لا ينجح، أما الذي يريد التفوق ينجح

والشاهد الآخر:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: ٢]

الامتحان لا من أجل فرز الناجحين عن الراسبين، لا، الامتحان من أجل تقييم الناجحين وفق درجات، الأصل أن تنجح، الأصل أن تكون لك همة عالية، لذلك هذا الكلام ورد في قوله تعالى:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

[سورة الواقعة]

مقام العبد في الأخرة بحسب واقعه في الدنيا:

السابقون في الدنيا إلى الخيرات سبقوا في الآخرة إلى الجنات، الآخرة مكانك فيها، أو مقامك فيها بحسب واقعك في الدنيا، وقالوا:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

[سورة الزمر: ٧٤]

لولا أن الإنسان جاء إلى الدنيا، و دعي إلى معرفة الله، وهناك عبادات، هناك ضوابط، هناك عبادات تعاملية، لولا أن الإنسان في الدنيا استطاع أن يتعرف إلى الله، وأن يتقرب إليه لما كان له مكان في الآخرة، لذلك الآخرة تُقيم بواقعك في الدنيا، والسابقون السابقون في الدنيا أولئك المقربون، وهناك فرق كبير بين المتقرب إلى الله والمقرَّب من الله، المتقرب بسعيه، أما المقرب فبفضل الله، وهذا فرق دقيق.

لذلك في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، والدليل:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد: ٦]

في الدنيا، لولا أنهم ذاقوا طعمها لما عرفوا عظمة هذه الجنة، لذلك يقول بعض العارفين: " إنه لتمرٌّ بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طرباً ".

أقول: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا العيش إنهم لفي عيش طيب، أي في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

قوة الأنسان علمية وعملية:

١ ـ السعادة في استكمال القوتين العلمية والعملية:

أيها الإخوة الكرام، الإنسان عنده قوتان قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوف على استكمال قوتيه العلمية والعملية، وكلامها شرط لازم غير كاف.

هناك قوة علمية نظرية، وهناك قوة عملية تطبيقية، إذا اكتفى الإنسان بواحدة لا يفلح، لماذا ؟

٢ – طريق استكمال القوة العلمية:

استكمال القوة العلمية إنما يكون:

١ ـ بمعرفة فاطره، وبارئه.

٢ ـ ومعرفة أسمائه وصفاته.

٣ ـ ومعرفة الطريق التي توصل إليه.

٤ ـ ومعرفة آفاتها.

٥ ـ ومعرفة نفسه، ومعرفة عيوبها.

فبهذه المعارف الخمس يحصل للإنسان كمال قوته العلمية، فينبغي أن تعرف الله، وأن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، وينبغي أن تعرف الطريق إليه، و ينبغي أن تعرف الصوارف في هذا الطريق، والعقبات في هذا الطريق، وينبغي أن تعرف نفسك أين أنت من هذا القرآن ؟ أين أنت من السنة ؟ هل أنت مطبق لها أو مقصر ؟ و ينبغي أن تعرف عيوب نفسك، بهذه المعارف الخمس تكتمل القوة العلمية، لذلك قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: ٢٥]

العلماء قالوا: " نهاية العلم التوحيد، و نهاية العمل التقوى ".

دائماً هناك جانب نظري وجانب عملي:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: ٢٥]

(لا إله إلا الله) الجانب العلمي، . فَاعْبُدُونِ . الجانب العملي.

٣ – طريق استكمال القوة العملية:

إن القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوق الله سبحانه وتعالى، والقيام بها، إخلاصاً وصدقاً، ونصحاً وإحساناً، ومتابعة وشهوداً لمنته وفضله، وشهوداً لتقصير العبد في أداء حق ربه، فالعبد المؤمن يستحيي دائماً من أن يشهد عمله، إنه يشهد فضل الله عليه، المشكلة ـ وأتمنى أن أضع يدي عليها ـ هناك معرفة جيدة جداً، إنسان حضر دروس علم ثلاثين سنة، سمع تفسير القرآن

بأكمله، قرأ أحاديث رسول الله آلاف المرات، واستمع إلى تفسيرها، قرأ سير الصحابة الكرام، امتلأ هذا الإنسان علماً، الآن أين عمله ؟

حقيقة التلاوة:

لذلك القرآن الكريم يصف الله عز وجل المؤمنين بأنهم . يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ .، وحق تلاوة القرآن كما قال العلماء: " أن تقرأه قراءة صحيحة وفق قواعد اللغة أولاً، ثم أن تقرأه إن أمكن، والأفضل أن تقرأه وفق قواعد علم التجويد، ثم أن تفهمه، ثم أن تتدبره، التدبر كلما قرأت آية تسأل نفسك أين أنا من هذه الآية ؟ هل أنا مطبق لها ؟ مع من ؟ ثم أن تطبقه، قراءة وفق قواعد علم اللغة، وقراءة وفق قواعد علم التجويد، ثم فهم القرآن، ثم تدبره، ثم تطبيقه، فلذلك لله عز وجل آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، والإيمان بآيات الله هي الطريق الوحيدة السالكة إليه، فتعرفه من خلقه، وتعرفه من أفعاله، وتعرفه من كلامه.

ماذا فعلت فيما علمت ؟!!

النقطة الدقيقة بعد أن عرفت ماذا فعلت ؟ ماذا عملت ؟ ما ربط الله فضله إلا بالعمل:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

[سورة الإسراء: ١٩]

لذلك التمنيات بضائع الحمقى:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: ١٢٣]

والعلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته، إنما هو وسيلة، والعلم ما عُمل به، فإن لم يُعمل به كان الجهل أولى:

و عالم بعلمه لم يعملن مُعذب من قبل عباد الوثن

***

فأنت بحاجة إلى قوة علمية، أن تعرف الله، أن تعرف أسماءه، أن تعرف صفاته، أن تعرف الطريق إليه، أن تعرف الصوارف في هذا الطريق، وأن تعرف العقبات في هذا الطريق، وأن تعرف نفسك، وأن تعرف عيوبها، ودائماً الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح. أيها الإخوة الكرام، ورد في بعض الآثار القدسية: " إني لا أنظر إلى كلام الحكيم وحكمته، ولكن أنظر إلى همّه وهمّته.

الكلام سهل، إنسان آتاه الله ذاكرة قوية، قرأ، وحفظ، وتكلم، ونال مكانة في المجتمع، الكلام سهل جداً، ولكن أين أنت من هذا الكلام ؟ لذلك أكثر الناس الذين ينصرفون عن الدين بسبب أناس لهم مظهر ديني، ولهم انتماء ديني، وأساؤوا العمل، من هنا ورد في الأثر:

((استقيموا يُستقم بكم))

[الطبراني في الكبير والأوسط والصغير عن سمرة]

إني لا أنظر إلى كلام الحكيم وحكمته، ولكن أنظر إلى همه و همته.

قيمة المرء ما يطلب لا ما يحسن:

لكن الشيء الدقيق جداً أنه حينما يقال: قيمة كل امرئ ما يحسن، الحقيقة أن قيمة كل امرئ ما يطلب، لأن الفضل بيد الله، الله عز وجل ذو الفضل العظيم، لا تُكلف إلا أن تطلب، إلا أن تطلب فقط:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت: ٦٩]

من هو البخيل ؟ الذي يعجز عن أن يسأل الله عز وجل.

أيها الإخوة الكرام.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: ١١١]

الناس يعيشون الواقع الملموس لا الخبر القرآني:

ثمة مشكلة، أن الدنيا محسوسة ملموسة، والآخرة خبر في القرآن، ومشكلة الناس أن هناك واقعاً، وأن هناك خبراً، يعيشون الواقع، تمرّ أمامه امرأة جميلة، يرى بيتاً عظيماً، يرى مركبة فارهة، يرى بناء شامخاً، يرى طعاماً طيباً، هذه الدنيا محسوسة تحت سمعك وبصرك، أما الآخرة فهي خبر في القرآن:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

[سورة الضحى: ٤]

العاقل تحكمه الأخبار القرآنية لا الواقع الملموس:

فأنت كإنسان آتاك الله عقلاً يجب أن يحكمك الخبر، لا أن يحكمك الواقع، هذا شيء دقيق جداً، كإنسان راكب دراجة وجد طريقين، طريقا هابطا، وطريقا صاعدا، كل شيء في الطريق الهابط يدعوه إلى السير فيه، وراكب دراجة ليس معه محرك، النزول مريح جداً، والطريق جميل، ومعبَّد، وفيه أزهار ورياحين، فيه أطيار، والطريق الصاعد متعب لراكب الدراجة، وبه حفر، وأكمات، وعقبات، فالإنسان من دون أن يقرأ، ومن دون أن يقرأ خبر عن الله عز وجل يختار الطريق الهابط، وهذا حال أهل الدنيا جميعاً، يعيش أحدُهم الواقع، يعيش ظرفه، هناك لوحة عند مفترق الطريقين كتب عليها: " الطريق الهابط ينتهي بحفرة مالها من قرار، فيها وحوش كاسرة وجائعة، والطريق الصاعد ينتهي بقصر منيف هو لمن دخله "، هذه اللوحة الصغيرة عبارة عن أربع كلمات تعكس لك قرارك، فتأخذ قرارا مئة وثمانين درجة خلاف الأول، فتسلك الطريق الصاعد، وتَدَع الطريق الهابط، هذا هو الفرق.

هناك مركبة عامة، والقصة قديمة، تنطلق من ساحة المرجة، وتتجه إلى المهاجرين، تقف باتجاه الشرق، في أيام الصيف الجانب الأيمن فيه شمس محرقة، والجانب الأيسر ظل ظليل، الإنسان يصعد إلى هذه المركبة، فإذا عطّل عقله يجلس في الظل بداهة، وإذا أعمل عقله يجلس في الشمس، لأن هذه المركبة باتجاه الشرق خلال دقيقة واحدة تدور حول النصب التذكاري في المرجة، فتنعكس الآية، فبين أن تستمتع بالظل دقيقة، وتحترق عشرين دقيقة، وبين أن تتحمل الشمس دقيقة، وتستمتع بالظل عشرين دقيقة فرق كبير.

كنتُ أضرب مثلاً كثيراً، إنسان ذاهب إلى حمص ليأخذ مبلغاً ضخماً له عند أحد الناس، في أيام الشتاء الطريق مقطوعة، بعد أن خرج من دمشق قرأ لوحة كتب عليها: " الطريق إلى حمص مقطوعة بسبب تراكم الثلوج في النّبك "، أربع كلمات يعطونه قراراً معاكساً للسفر، فيرجع، لو أن دابة تمشي لا تقف إلا عند الثلج، ما الذي يحكم الإنسان ؟ إما أن يحكمه الواقع فهو كالدابة، وإما أن يحكمه النص فهو الإنسان.

أنت إنسان مؤمن معك نص.

من أهم صفات المؤمنين: الإيمان بالغيب:

أيها الإخوة الكرام، مرة ثانية الدنيا محسوسة ملموسة تحت سمعك وبصرك، بينما الآخرة وعد، لذلك أول صفة للمؤمنين قال تعالى:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة]

فالذي يؤمن بالواقع مصيره إلى الهلاك، والذي يؤمن بالغيب يؤمن بإخبار الله له، فلذلك هذه الدنيا تغر، وتضر، وتمر، هذه الدنيا دار من لا دار له، و لها يسعى من لا عقل له، و الدليل أن الإنسان يسعى، و يسعى، و يسعى، فإذا توقف قلبه فَقَدَ كل ما يملك في ثانية واحدة، هذه الدنيا سباق الأحمق. تصور ألف سيارة في تسابق شديد، أول سيارة وصلت للهدف فوقعت في حفرة، والثانية وقعت، والأخيرة وقعت، والكبيرة وقعت، والصغيرة وقعت، والقديمة وقعت، والحديثة وقعت، ما هذا السباق، الموت ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، ينهي ذكاء الذكي، وغباء الغبي، ينهي وسامة الوسيم، ودمامة الدميم، ما لم يكن لك هدف فهذا الطريق لا يقود إلى السعادة، ولا إلى السلامة.

يجب أن يكون لك هدف نبيل في الحياة:

يجب أن يكون لك هدف، ومع الأسف الشديد أجري استبيان فكانت النتيجة مؤلمة جداً، أن سبعة وتسعين بالمئة من الناس ليس لهم هدف، إما أن تخطط، وإما أن يُخطط لك، إما أن يكون لك هدف واضح، وإلا خسرتَ، والآية واضحة جداً:

(أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أهْدَى أمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الملك: ٢٢]

الإنسان كله بضربات قلبه، كل مكانة الإنسان بقطر الشريان التاجي، كل مكانته وهيمنته وقوته بسيولة دمه، كل مكانته بنمو خلاياه، إذا نمت نمواً عشوائياً انتهت حياته، إذا تجمد الدم في عروقه انتهت حياته، إذا توقف قلبه انتهت حياته.

لذلك أيها الإخوة الكرام، الذي يجعل كل أهدافه في الدنيا مقامر ومغامر، والذي نقل أهدافه إلى الآخرة هو العاقل، لذلك قالوا: من قدّم ماله أمامه سَرَه اللحاق به.

قد تجد إنساناً كل إمكاناته سخرها في الدنيا، كلمة الموت ينخلع لها قلبه، أما إذا كان لإنسان أعمال صالحة كثيرة فإنه لا يخشى شيئا، وا كربتاه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

الموت عرس المؤمن:

كل بطولتك أن يكون الموت عرساً لك، أن يكون الموت عيداً، أن يكون الموت تحفة.

حدثني طبيب قلب قال لي: و الله لما يأتيني مريض معه آفة قلبية أحس أنه مات قبل أن يموت من شدة الهلع، لأن وضعَ البيض كله في سلة واحدة، بينما المؤمن نقل اهتماماته إلى الآخرة، فعنده شيء إذا لقي الله عز وجل، لذلك أنا قرأت ودرست سبعين صحابياً، والله الشيء الذي يلفت النظر أن هناك قاسماً مشتركاً واحداً بينهم، وهو أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند ملاقاة ربهم. سيدنا سعد بن الربيع تفقده النبي عقب معركة أحد، فلما أرسل بعض الصحابة إلى مكان المعركة الصحابي الجليل رآه بين القتلى، لكنه يتحرك، قال له يا: سعد، أنت مع الأموات أم مع الأحياء ؟ قال له: مع الأموات، ولكن أبلغ رسول الله مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ، في أعلى درجات سعادته، وأبلغ أصحابه الكرام أنه لا عذر لكم إذا خُلص إلى نبيكم و فيكم عين تطرف، كان في أعلى درجات سعادته.

لذلك أيها الإخوة الكرام، هذه السلسلة من الدروس متعلقة بعلو الهمة:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأنعام: ١٦٢]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٠٢-٦٠) : علو الإيمان في الهمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع صلا ح الأمة في علو الهمة في القرآن الكريم:
أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد في موضوع جديد محوره صلاح الأمة في علو الهمة
يا ترى هل في القرآن الكريم آيات كثيرة أو قليلة تشير إلى هذا المعنى ؟

الآية الأولى:

في الآية الأولى قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: ١٠٢]

معنى: حَقَّ تُقَاتِه:

حق تقاته أي أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وأن تشكره فلا تكفره.

الآية الثانية:

قال تعالى:

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج : ٧٨]

معنى: حَقَّ جِهَادِهِ:

أن تجاهد في الله حق الجهاد، ألاّ تدخر وسعاً إلا وتبذله في سبيل الله.

الآية الثالثة:

من الآيات التي تشير إلى أن علو الهمة من الإيمان قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً* نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)

[سورة المزمل]

مِن معاني: قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً:

أن تقف ساعة وزيادة تستمع إلى جزء من كلام الله مجود، وأنت خاشع لله فهذا من قيام الليل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

((ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

الإنسان بين أن يعيش لنفسه وأن يعيش للناس:

شيء آخر، المؤمن لا يعيش لنفسه، قد تعيش لنفسك، لمصالحك، لدخلك، لبيتك، لتزيين بيتك، لاقتناء مركبة فارهة، للنزهات، للرحلات، للسياحة، للاستمتاع بالحياة، لكنك تعيش صغيراً، وتموت صغيراً، أما إذا عشت للناس، إذا حملت هم المسلمين، إذا اهتممت بما يؤلمهم، إذا خففت عنهم، إذا نشرت الحق، إذا تمسكت بالكتاب، إذا حملت الناس على طاعة الله، ولو كنت فقيراً تعيش كبيراً، وتموت كبيراً.

قسم الناس زمرتان: الأنبياء و الأقوياء:

أيها الإخوة الكرام، ملخص الملخص، البشر كما تعلمون ملايين مملينة، ستة آلاف مليون، قممهم زمرتان: أنبياء وأقوياء، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والأنبياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء يمدحون في غيبتهم، والأقوياء في حضرتهم.

الآن البشر جميعاً من دون استثناء أتباع لقوي أو نبي، إن كنت من أتباع النبي فرأسمالك كمالك، وإن كنت من أتباع القوي فرأسمالك قوتك، فهنيئاً لمن كان من أتباع الأنبياء.

الآية الرابعة:

أيها الإخوة الكرام، من الإشارات إلى أن علو الهمة من الإيمان، قال تعالى:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

[سورة السجدة: ١٦]

مِن معاني: تَتَجَافَى جُنُوبُهم:

وأن تستيقظ على صلاة الفجر، وأن تَدَع الفراش الدافئ في الشتاء، وأن تنزع عنك اللحاف، وتقوم على طاعة الله، فأنت ممن تعنيهم الآية:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ)

السيدة خديجة رضي الله عنها دعت النبي عليه الصلاة والسلام، وقد جاءه الوحي إلى أخذ قسط من الراحة فقال كلمة لا تنسى، قال: يا خديجة انقضى عهد النوم.

الآية الخامسة:

أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

[سورة ص]

مِن معاني ذِكرى الدّار:

من أجل أن تكون متفوقاً، من أجل أن تكون عالي الهمة، من أجل أن تكون مع السابقين السّابقين، من أجل أن تكون مع المقربين إلى الله عز وجل، يجب أن تتذكر الآخرة باستمرار.

سألوا طالباً نال الدرجة الأولى في الامتحان: بمَ نلت هذه الدرجة ؟ فقال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي ولا ثانية طوال العام الدراسي.

إنّ المؤمن الصادق في كل موقف، قبل أن يعطي، قبل أن يأخذ، قبل أن يتكلم، قبل أن يغضب، قبل أن يرضى، قبل أن يصل، قبل أن يقطع، ما موقفي من الله يوم القيامة ؟ يتصور دائماً أن الله يسأله: لِمَ فعلت هذا، لمَ ابتززت مال فلان ؟ لمَ كذبت على فلان ؟ لمَ غششت فلاناً ؟ لمَ طلقت زوجتك ؟ لمَ أهملت أولادك ؟ المؤمن لا يكون عالي الهمة إلا إذا تصور في كل ثانية أن الله سيسأله وسيحاسبه، لذلك من خاف الله في الدنيا أمّنه الله يوم القيامة، ومن أمِن الله في الدنيا أخافه يوم القيامة.

الآية السادسة:

أيها الإخوة الكرام، يبدو أن هناك دورات مكثفة، أنت لك وضع اعتيادي وضع، طبيعي، لكن تحتاج من حين إلى آخر إلى دورة مكثفة، قال تعالى:

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)

[سورة الأعراف: ١٤٢]

مِن معاني: وَوَاعَدنا مُوسى:

لذلك وأنتم في هذا الشهر الكريم في دورة مكثفة من أجل أن تحققوا قفزة نوعية، لعلها تنسحب على بقية شهور العام، لذلك الله عز وجل ما اصطفى هذا الشهر الكريم إلا لينسحب الصفاء فيه على كل أشهر العام، وما اصطفى بيت الله الحرام إلا ليكون القرب من الله في كل مكان، وما اصطفى سيد الأنام إلا ليكون الناس جميعاً سائرين على نهجه القويم وصراطه المستقيم.

الآية السابعة:

لا زلنا في النصوص التي تؤكد علو الهمة الله عز وجل يقول:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: ١٢]

من معاني خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ :

هناك من يأخذ الكتاب بضعف يتساهل، يقصر، يؤخر، يلغي بعض الأعمال الصالحة لسهرة ممتعة يَدَع درس علم لمتعة طارئة، يَدَع عملاً صالحاً، هذا لم يأخذ الكتاب بقوة.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: ١٢]

خذه بعزيمة، والله عز وجل وصف بعض الأنبياء أنهم من أولي العزم.

الآية الثامنة:

شيء آخر، يقول الله عز وجل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: ١٤٨]

المسابقة والمنافسة محمودة في الآخرة، ومذمومة في الدنيا، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين]

الآية التاسعة:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات]

التنافس من أجل الآخرة لا من أجل الدنيا:

لذلك الاختلاف مذموم أحياناً، وحيادي أحياناً، ومطلوب أحياناً أخرى، مذموم إذا كان على الدنيا بسبب الحسد والهوى والمصلحة، قال تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

[سورة آل عمران: ١٩]

أما الاختلاف الحيادي فنقص المعلومات يسبب اختلافاً، أما الاختلاف المحمود فهو التنافس، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين]

إن في القلب شعثا لا يلهمه إلا الإقبال على الله:

أيها الإخوة الكرام، لازلنا في النصوص التي تتعلق بعلو الهمة، يقول بعض العلماء وهو ابن القيم رحمه الله تعالى: " إن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإقبال على الله ".

قد تملك المال الوفير، قد تملك المنصب الرفيع، قد تملك الصحة الطيبة، قد تملك أسرة رائعة، قد تأتيك الدنيا من كل أطرافها، لكن هناك نقص لا يملأه إلا الإيمان.

" إن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله ". في خلواتك مع الله، وفي القلب حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة الله، وفي القلب قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفي القلب نيران حسرة لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، ودوام ذكره، والإخلاص له.

لا سعادة للمعرض عن الله:

أيها الإخوة الكرام، إذا كان هناك إنسان واحد في الأرض من آدم إلى يوم القيامة مُعرضاً عن الله، وسعد فهذه الآية ليست من كلام الله، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه]

بعض العلماء تساءل: هذا حال الفقراء فما حال الأغنياء والأقوياء ؟ الدنيا بين أيديهم، فكان الجواب: ضيق القلب، فالمُعرض عن الله في قلبه ضيق لو وزع على أهل بلد لكفاهم، لذلك من صحّ فراره إلى الله صحّ قراره مع الله، ففروا إلى الله.

هناك قيود: الرزق، والزوجة، والأولاد، والمصلحة، والقلق، والمنافسة، هذه كلها أقنعة مزيفة، وكلها كلاليب تمنعك من الانطلاق إلى الله، فجاءت الآية:

(فَفِرُّوا إِلَى اللهِ)

دعك من هذه العلائق مع الخلائق، وفر إلى الله، فمن صحّ فراره إلى الله صحّ قراره مع الله. وقال العلماء وهو المحاسبي: " من صحح باطنه بالمراقبة زين الله ظاهره بالمجاهدة ". باطنك إذا كان طاهراً يسبغ الله عز وجل عليك ثوب الطهارة، من أصلح باطنه أصلح الله ظاهره، أما من أفسد باطنه فلا بد من أن يفضحه الله بعقر داره.

الآية العاشرة:

الآية الآن:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)

[سورة الكهف: ١٦]

من معاني الكهف:

أين الكهف في هذه الأيام ؟ بيتك، جنة المؤمن بيته، وجامعك، هذا كفان، لأنك في البيت تطيع الله، أمر البيت إليك، أما أمر المقهى فليس إليك، أمر المقصف ليس إليك، وكذا الأغاني، والنساء الكاسيات العاريات، أما بيتك فتقيم أمر الله فيه، إذاً: الكهف في هذه الآية بيتك:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)

[سورة الكهف: ١٦]

و مسجدك.

أيها الإخوة الكرام، بيت من الشعر قاله شاعر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأدخله السجن عقاباً له، هذا البيت هو شعار كل إنسان الآن وهدف:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها و اقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

لمجرد أن تتوجه إلى أن الأمر أن تكون مرتاحاً، طاعماً ناعماً، لذلك قال عليه الصلاة و السلام:

((ألا يا رُب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة))

بالمقابل:

((ألا يا رُب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مين، ألا يا رب مهين لنفسه و هو لها مكرم))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير

كن ذنبا مع أهل الحق، ولا تكن رأسا مع أهل الباطل:

لذلك قالوا: كن ذَنَباً مع أهل الحق، ولا تكن رأساً مع أهل الباطل.

المؤمن الصادق يركل بقدمه مكانة رفيعة لا ترضي الله، ويقبل أن يكون فقيراً أو ضعيفاً إذا كان طريق القوة وطريق الغنى على حساب دينه، الأصل أن القوي والغني فرص العمل الصالح أمامه كثيرة جداً، إلا أن طريق القوة أو طريق الغنى إذا كان على حساب دينك، وعلى حساب مبادئك، وقيمك فالفقر والضعف وسام شرف للإنسان.

الصحابة كانوا يتنافسون والنبي يطلب النخبة:

أيها الإخوة الكرام، كان أصحاب النبي يتنافسون، وكان عليه الصلاة والسلام يطلب النخبة، كيف ؟ الجميع لهم مكانة عند رسول الله لكن النبي يريد أن يكون من حوله من النخبة فقال:

((اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب، قال: وكان أحبهما إليه عمر))

[الترمذي عن ابن عمر]

لمّا أسلم سيدنا حمزة توقفت قريش عن إيذاء النبي وأصحابه، ولما أسلم سيدنا عمر صلوا في بيت الله الحرام، لذلك كل الدعاة إلى الله عندهم إخوان كثر، لكن بعض هؤلاء الإخوة الكرام يحملون معهم، وبعض الإخوة الكرام يحتاجون إلى من يحملهم، فالأولى أن تكون ممن يحمِل لا ممن يُحمَل، تفوق، وعلم، وقدرة، ومهارة، وقدم، هذه القدرة، وتلك المهارة بين يدي عملك الصالح يوم القيامة.

الآية الحادية عشرة:

قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف: ٢٨]

آية واضحة جداً، قال تعالى:

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: ٢٨]

من لم تكن له بداية محر قة لم تكن له نهاية مشرفة:

لذلك قالوا: " مَن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة ".

على مستوى الدنيا، إذا طلب الإنسان العلم، ودرس، وتعمق، وسهر الليالي نال ثمرة يانعة في حياته الدنيا، في أي فرع، أما إذا أمضى حياته في اللهو واللعب كان في مؤخرة الناس في الدنيا قبل الآخرة.

هناك حسابات دقيقة، لذلك قالوا: البطولة أن تأتي المقدمات متناسبة مع النتائج.

ليس المفروض أن ينجح كل الطلاب في الجامعة، قد يرسب بعضهم، أو معظمهم، المطلوب في الجامعة أن تأتي النتائج متوافقة مع المقدمات، لذلك قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

[سورة فصلت: ٤٦]

لو أن إنساناً ـ للتقريب ـ تألق نجمه كثيراً، وكان دخله كبيراً، وذو مكانة عالية، ووضعه الاجتماعي بأعلى مستوى، بسبب أنه نال شهادة عالية جداً من جامعة عريقة، إذا مرّ بهذه الجامعة يقول: لولا هذه الجامعة، لولا الدراسة المضنية، لولا السهر، لولا التعب، لولا الهم، لولا القلق ما نلت هذه المرتبة، فالبطولة في النهاية لا في البداية، البطولة أن يكون الإنسان قد حقق الهدف من وجوده، الله عز وجل خلقك لجنة عرضها السماوات والأرض، ولمجرد أن تنصرف عن الله فإنك تحتقر نفسك، قد ترفض آلاف الأشياء، ترفضها احتقاراً لها، أما إذا رفضت الدين فإنك تحتقر نفسك، ينبغي أن تقبل هذا المنهج العظيم.

ينبغي أن يكون محسوبا على الله:

وينبغي أيضاً ألا تكون محسوباً على جهة أرضية، أنت لله، ولا يليق بك أن تكون لغير الله.

سألوا عالماً جليلاً ـ توفاه الله ـ وقد جاءته زياراتٌ عَقِب مرض أصابه بمئات الألوف، فسأله إنسان حاوره في الإذاعة: ما هذه المكانة التي حباك الله بها ؟ فأجاب إجابة رائعة قال: لأنني محسوب على الله.

أنت كمؤمن ينبغي أن تكون محسوباً على الله، لا على جهة أرضية، لا يليق بك أن تحسب على جهة أرضية، إن حُسبت على جهة أرضية فقد قزمت نفسك، وحجّمتها.

أيها الإخوة الكرام، قضية علو الهمة هي طريق إلى صلاح الأمة، وإن شاء الله نتابع هذا الموضوع في دروس قادمة، ونسأل الله أن تترجم إلى عمل أن تترجم إلى أحوال، وأن تترجم إلى همة عالية

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٠٣-٦٠) : الإخلاص

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الإخلاص بشكل عملي:

أيها الإخوة الكرام: مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة ، والحديث عن الإخلاص ثانية، ولكن بشكل عملي، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية: ١٢٠)

١ – أثر القصة في الجانب العملي:

إنّ قلب سيد الخلق، وحبيب الحق يزداد ثبوتاً على الإيمان بسماع قصة نبي، لماذا القصة لها تأثير شديد ؟.

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف الآية: ١١١)

لأن القصة حقيقة مع البرهان عليها، الحقيقة نظرية مجردة مع البرهان عليها ، لذلك أحد أشد الأساليب التربوية تأثيراً القصة، وأحد أشد الوسائل الهدامة في المجتمع تأثيراً القصة، فإما أن ترقى بالإنسان، وإما أن تسمو به، وإما أن تجعله في أسفل السافلين.

٢ – أقوال العلماء في أهمية قصص الصالحين وآثارها:

لذلك يقول الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ: " الحكايات عن العلماء، وعن محاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم ".

أيها الإخوة، قضية أن يأتي إنسان معاصر لك يتحمل الضغوط نفسها، والإغراءات نفسها، والصوارف نفسها، والعقبات نفسها، والظروف الصعبة نفسها، ثم ينتصر على نفسه، هذه القصة أبلغ من أي موضوع نظري، لذلك الدعاة إلى الله، والمعلمون، والمرشدون يعتمدون القصة الواقعية، لأنها تؤكد الحقائق، والإنسان بالقصة يزداد إيماناً.

قال بعض العلماء وهو مالك بن دينار: " الحكايات تحف الجنة، وهي خير وسيلة لإشعال العزائم، وإثارة الروح والوثابة، وقدح المواهب، وإبكاء الهمم، وتقويم الأخلاق، والتسامي إلى معالي الأمور، والترفع عن سفاسفها، هي قراءة سير النبغاء الصلحاء، والتملي من اجتلاء مناقب الصالحين والربانيين، والاقتراب من العلماء النبهاء العاملين المجددين ، فذلك خير مهماز لرفع الهمم، وشد العزائم، وسمو المقاصد، وإنارة القلوب، واحتلال ذرى المجد الرفيع، واغتنام الباقيات الصالحات، وإخلاص النيات ".

لذلك يمكن ـ أيها الأب ـ أن تقدم لأولادك قصة تسمو بهم، ويمكن أيها المعلم أن تتحدث لطلابك بقصة تسمو بهم.

مرة جاءني اتصال من بلاد بعيدة جداً، وقال لي المتصل: أنا تبت بسبب شريط من دروسك، أقسم بالله أنه سمعه خمسين مرة، وكان له عمل من أقذر الأعمال، وعلى أثر هذا الشريط الذي فيه قصة تاب إلى الله توبة نصوحا، فلما سافرت إلى تلك البلاد التقيت به ، وقد عدل سلوكه ١٨٠ درجة. أحياناً قصة مؤثرة جداً أبلغ من مُحاضر، والله عز وجل قال:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ)

القصة فيها إنسان له ظروف، أمامه عقبات، لأن رسول الله بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وانتصر على نفسه، كان سيد البشر.

نماذج عملية للإخلاص:

النموذج الأول: كتمان الإنفاق:

أيها الإخوة، بعض النماذج التي يمكن أن تنفعنا، النبي عليه الصلاة والسلام علمنا كيف الإخلاص، في كتمان الإنفاق قال:

((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجل ـ من هذه السبعة ـ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد]

إخفاء الصدقة دليل الإخلاص، لأن الذي أنفقت من أجله يعلم، دون أن تُعلم أحداً.

١ – النموذج الثاني: داب العلماء والصالحين في إخفاء الإنفاق:

ـ كان بعض العلماء يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به، ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب، من أجل أن تتأكد من إخلاصك، يمكن أن تصلي ركعتين قبل صلاة الفجر دون أن تذكرها لأحد، لو أنك ذكرتها الأمر اختلف، دون أن تذكرها لأحد.

ـ وكان بعض العلماء يُبَخّل، يعني يُتهم بالبخل، فلما مات وجدوا أنه يُعيل مئة أهل بيت، كلّ دخْله موزع على مئة أسرة دون أن يعلم أحد.

ـ وبعض الأشخاص الصالحين حينما مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل من الأغذية إلى المساكين.

أيها الإخوة، السلف الصالح كانوا حريصين حرصاً لا حدود له على إخلاص نياتهم إلى الله عز وجل.

ـ كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فَقَدوا ما كانوا يؤتون به في الليل، أناس كثيرون تأتيهم النفقات في الليل، يطرق الباب، ويوضع المال، هم لا يعلمون، فلما مات أحد الصالحين انقطعت هذه الأموال فعلموا أنها منه.

ـ ابن المبارك رحمه الله، مرة التقى بشاب، ثم زار البلدة مرة ثانية، فعلم أنه عليه دَين، فأرسل مَن دفع عنه الدين، وسار عائداً إلى بلدته، تبعه الشاب، قال: لا أعلم عنك شيئاً، مَن أنت ؟ لم يذكر له أنه هو الذي فكّ دينه.

قد نجد أشخاصا أرجو أن يكونوا قِلّة، إذا عملَ عملا صالحا لا يبقي إنسانًا ما يحكي له، البارحة عملنا هكذا، فلان لحم كتفه من خيرنا، فلان لو ما أعطيناه ما صار رجلا، هذا المنّ في الصدقة.

ملحوظة مهمة: إن تبدو الصدقات فنعما هي:

هناك ملحوظة:

مرة كنت في حفل تبرع للأيتام، كان إعلان عن المبلغ، هذا الإعلان مقبول شرعاً، وأحيانا فيه حاجة، والإعلان كبير جداً، في سنة من السنوات اقتُرح أن يعطى الأغنياء أوراقا يكتبون المبالغ، المبلغ هبط للعشر، أحيانا فلان دفع مئة، الثاني شريكه، وأنا مئة، أما إن أعطيته ورقة يكتب خمسة آلاف.

(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ)

(سورة البقرة الآية: ٢٧١)

إنّ الصدقة إذا توجهت إلى جهة خيرية فالأولى أن تعلن.

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

أما إذا توجهت إلى إنسان فالأولى أن تكتم، الحكمة تقتضي أن تعلن في موقف، وأن تكتم في موقف، حتى حينما يقرأ إنسان القرآن من شدة إخلاصه هو يقرأ القرآن دخل شخص فغطى المصحف بثوبه، وهناك شخص يتمنى أن يراه الناس يقرأ القرآن.

التورع بالصبر أولى من أظهار الأعمال :

دخل أحدهم مسجدا يريد الذهاب إلى الحج، ومعه مبلغ من الليرات الذهبية ، يتوسم في مصلين إنسانا صالحا أن يجعله عنده أمانة، فنظر إلى واحد رأى في صلاته خشوعا، يغمض عينيه، ويعصر جبينه، فتوسم فيه خيراً، فبعد أن انتهى من صلاته قال له: أنا معي مبلغ من المال، أعجبتني والله صلاتك، سأضعه عندك أمانه، إلى أن أعود من الحج، قال له: أيضاً صائم سيدي، قال له: والله ما أعجبني صيامك.

دون أن يشعر الإنسان يحب إن كان في عبادة أن يُرى، إن كان في إنفاق أن يُرى، إن كان في صلاة أن يُرى، لا مانع، لكن الأكمل إذا كانت العبادة خالصة لله عز وجل الأولى أن تكتمها، وأفضل أنواع الزهد إخفاء الزهد.

ويروى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه يقول تلميذه أبو بكر: " كنت مع أبي عبد الله نحواً من أربعة أشهر، وكان لا يدع قيام الليل، وقراءات النهار، فما علمت بختمة ختمها "، فقد كانت عبادته قيام الليل، تلاوة القرآن دون أن يعلم به أحد، الأولى أن تحرص على إخلاصك، هذه عبادة لله فاجعلها بينك وبين الله.

يقول الإمام أحمد: " أشتهي ما لا يكون "، أي أشتهي مكاناً لا يكون فيه أحد من الناس حتى أبتعد عن ما يسمى بالرياء.

تنبيه بليغ: ترك العمل خوف الرياء شرك :

لكن هناك ملاحظة مهمة جداً، وهي أنك إذا تركت العمل الصالح خوفاً من النفاق وقعت في الشرك، العمل الصالح لا يترك، لا مؤاثرة في الخير، والخير كله في المؤاثرة، كيف ؟

أنا أتيح لي عمل صالح، هناك يأتي الشيطان، ويقول: أنت إذا فعلته أمام الناس أردت بها العمل أن تعلو عندهم، لا، هذا كلام شيطاني، لو أخذ به كل واحد منا لألغيت الأعمال الصالحة، إذا أتيح لك عمل صالح فلا تتردد أبداً، افعله ولو كنت في ملأ من الناس، لعلك تشجعهم.

مرة إنسان فقير جداً عنده ثمانية أولاد، ودخله أربعة آلاف، ولا يكفيه الدخلُ يومين، هو مستخدم في مدرسة، ورث أرضا، قيمتها أربعة ملايين، فهناك محسن كبير في أحد أحياء دمشق أراد أن تكون هذه الأرض مسجداً، فسعرها مناسب، ووجهتها مناسبة، فلما جاء المحسن ليطلع على الأرض ميدانياً، والتقى بصاحب الأرض كتب له سندا بنصف مبلغ الأرض، قال له: متى الثاني ؟ القسم الثاني ؟ قال له: عند التنازل، قال له: أي تنازل ؟! قال له: تذهب إلى الأوقاف كي تتنازل عن الأرض، لأنها سوف تكون مسجداً، قال له: مسجد ؟! أمسك بهذا السند، ومزقه، وقال: والله استحي من الله أن أبيع أرضاً تغدو مسجداً، وأنا أولى منك أن أقدمها لله عز وجل، يقول هذا المحسن الكبير: والله ما صغرت في حياتي أمام إنسان كما صغرت أمام هذا الفقير الذي لا يملك من حطام الدنيا إلا هذه الأرض، أحياناً العمل الصالح دون أن تقصد إذا ظهر يكون له تأثير كبير جداً.

أخ يعمل في دائرة قريبة من جامع الطاووسية، طلب من رئيسه بالدائرة إجازة ستة أيام، رئيسه عصبي المزاج، قال له: لا أوافق، قال له: هذه استهلكتها، أنا أصلي كل يوم ربع ساعة، جمعتها فكانت كلها ستة أيام، حتى أبرّئ ذمتي، يقسم بالله هذا الأخ يقول: أنا أموت ولا أصدق أن يدخل هذا الإنسان المسجد، رآه في الأسبوع القادم في هذا المسجد، ما هذه الأمانة ؟

استقيموا يستقم بكم:

لذلك النبي قال:

((استقيموا يستقم بكم))

[الطبراني في الكبير عن سمرة]

أحياناً استقامتك دعوة، أمانتك دعوة، عفتك دعوة، صدقك دعوة، المؤمن شاء أم أبى داعية، لأنه ملتزم، وقاف عند كتاب الله، ببعض الدوائر يكون الموظف نزيها جداً، نزاهة تربك مَن حوله، نزاهته حجة على من حوله.

مرة حدثني مدير سجن قال لي: يأتي قاض، وليس عنده مركبة، يأتي بالمركبات العامة إلى مكان بعيد عن دمشق، ليلتقي بالمساجين كي يفهم منهم ملابسات القضية، حتى يكون حكمه دقيقا، قال لي: والله حينما يأتي نكبره إكباراً لا حدود له، ليس مكلفا بالمجيء، خوفاً من أن يقع في خطأ في الحكم

يأتي.
أحياناً دون أن تشعر استقامتك، صدقك، أمانتك، نزاهتك، عفتك دعوة.

لا أكتمكم، الآن الصين في أعلى درجات رواجها التجاري، لو جاء إنسان من بلادنا ليأخذ وكالة ماذا يفعلون معه ؟ هذا أحدث ما سمعت، في فندقه يرسلون له فتاة، فإن فتح الباب لا يعطونه الوكالة، وإن رفضها يأخذ الوكالة، عنده مبادئ، عنده قيم، يخاف هؤلاء الذين لا يعرفون الله، وجودوا أن الإنسان الملتزم بدين مستحيل أن يقع في خيانة، إذاً:

((استقيموا يستقم بكم))

أنا لا أريد أن نلغي العمل والعياذ بالله لخوفنا، هذا فهم ما أريده إطلاقاً، لكن يمكن للعمل إن ظهر دون أن تشعر، ودون أن تريد، ودون أن تحرص عليه يمكن لهذا العمل إذا ظهر أن يكون قدوة للآخرين، وأنا أؤكد لكم أن معظم الذين يؤمنون بوقت متأخر بسبب إنسان لفت نظرهم.

كنا مرة في الحج فرأينا إنسانا شكله شكل أوربي، سمعت عن قصته أنه كان عنده طالب سوري، وعنده فتاة جميلة جداً، اشتهى أن يضبط هذا المستأجر الطالب السوري ينظر إلى ابنته، أبداً، فكان غض بصره سبب إسلام صاحب البيت، أقول لكم:

((استقيموا يستقم بكم))

كلما زادت استقامتك زادت دعوتكم دون أن تشعر، لذلك نحن الآن نسمي الدعوة الصامتة، أنت دون أن تتكلم بأي كلمة، دون أن نطق ببنت شفا استقامتك، أمانتك، عفتك إتقان عملك وسام شرف لك، وهذا قد يدعو الناس إلى سلوك منهجك في الحياة.

لا مانع من ظهور العمل الصالح من غير قصد:

أحياناً يقول الحسن البصري: " كان الرجل يجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها ، فإذا خشي أن تسبقه قام.

هناك أشخاص يتمنى بعضهم أن يبكي أمام الناس بكاء خشوع، أحواله عالية جداً، السلف الصالح كان يحاول ألاّ يظهر بكاءه أمام الناس من شدة ورعه.

مرة رجل بكى، وعلا صوته فقال الحسن: " إن الشيطان ليبكي هذا الرجل "، أخذه الحال، وهو آكل للمال الحرام.

هناك حالات إظهار الورع، وإظهار التقوى والصلاح، نحن إذا ظهر عملنا فلا مانع، لكن أن يكون مقصوداً فهناك خلل في الإيمان، فلا تقصد أن يظهر هذا العمل، فإذا ظهر فلعل الله سبحانه وتعالى شاء له أن يظهر ليكون عبرة، ويكون موعظة.

بعض حالات السلف الصالح في عباداتهم، في صلاتهم، في صيامهم، في بكائهم في خشوعهم، في تلاوة قرآنهم، يحاولون ألا يظهروا هذا أمام الناس حفاظاً على إخلاصهم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٠٤-٦٠) : الإخلاص

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس فلاح الأمة في علو الهمة.

العاقل يواجه المشكلة ولا يقفز عليها:

مثال مِن واقع الناس: ظاهرة التعرق بين الصحة والمرض:

الإنسان أحياناً يتعرق كثيراً، ويعزو هذا التعرق إلى الحر الشديد، لكن أحياناً يفاجأ أنه كثير التعرق في جو بارد، ثم يقرأ مقالة عن أن هذا التعرق في جو بارد دليل آفة قلبية، بعد أن قرأ هذه المقالة بدأت متاعبه، وبدأت همومه، وحاول أن يتصل بأطباء، وأن يجري التحليلات، وبعض الفحوصات، بعد أن قرأ هذه الكلمات في هذه المقالة دخل في متاعب كثيرة جداً.

هذا المثل ينطبق على درس اليوم، والإنسان البطل الذي لا يحابي نفسه، والإنسان البطل الذي لا يقفز على المشكلة، بل يواجهها.

الإخلاص:

الدرس اليوم عن الإخلاص، ونحن جميعاً معنيون في هذا الموضوع، لذلك قال بعض العلماء: " أدركنا الناس وهم يراؤون بما يعملون ".

١ ـ الرياء محبط للعمل:

إنه يعمل، ويُري الناس عمله كي يستجدي مديحهم، يراؤون بما لا يعملون، حينما راءى الناس بما لا يعلمون سقط عملهم، ومعنى إحباط العمل أن تسقط نيته، أو أن يسقط شكله، فهناك عمل سيئ، وعمل محبط، وعمل جيد، لكن نيته سيئة، هذا العمل المحبط، لذلك:

((يؤتى برجال يوم القيامة، لهم أعمال كجبال تهامة، يجعلها الله هباءاً منثورا قيل: يا رسول الله جلهم لنا، قال: إنـهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنـهم إذا خلوا بمحارم الله انتـهكوها))

[الطبراني في الأوسط عن ثوبان]

مرة رجل ما فاتته تكبيرة الإحرام في الصف الأول أربعين عاماً، فغلبه النوم مرة، فاستيقظ مذعوراً، وقال: ماذا يقول الناس عني اليوم ؟ معنى ذلك هذا العمل العظيم أن تصلي صلاة الفجر في المسجد في الصف الأول أربعين عاماً كنت بهذا العمل تنتزع إعجاب الناس.

٢ ـ صعوبة معالجة النية:

فهذا موضوع خطير جداً، والإنسان من أصعب الأشياء عليه أن يتابع نيته ، ويتابع عمله، أما النية فهي التي تقيّم العمل، لذلك: " أدركنا الناس يراؤون بما يعملون "، فصاروا الآن يراؤون بما لا يعملون.

وقال بعض العلماء: " تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل ".

مع الإخلاص ينفع قليل العمل وكثيره، ومن دون إخلاص لا ينفعك قليله ولا كثيره. وقال بعض العلماء: " أعربنا في القول " ـ قول فصيح، معاني دقيقة، أدلة قوية، تحليل عميق صوت رخيم، إلقاء رائع، العبرة بنية هذا العمل ـ

((من تعلم العلم ليماري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار))

[أخرجه الترمذي عن كعب بن مالك]

والأحاديث الصحيحة التي تؤكد هذه المعاني كثيرة جداً.

((يا رب، علمت العلم، يقول الله له: كذبت، تعلمت العلم ليقال عنك: عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار))

[مسلم عن أبي هريرة]

انتبه إلى نيتك.

من علامات عدم الإخلاص :

هناك بعض المؤشرات:

١ـ إذا اختلف العمل بين أن تكون بين المؤمنين، وبين أن تكون وحدك فهذا دليل عدم الإخلاص، العمل إذا اختلف.

٢ـ إذا اختلفت العبادة، بين أن تكون في خلوتك، وبين أن تكون في جلوتك، فالإخلاص ضُعف في هذا العمل إذا اختلف.

٣ـ إذا أثنى الناس عليك أو ذموك، اختلف بالذم، وتألق بالمديح، هذا دليل ضعف الإخلاص.

من علامات الإخلاص

١ـ من علامات الإخلاص: أنك لا يختلف عملك، وأنت في ملأ، أو أنت وحدك .

٢ـ من علامات الإخلاص: أن العمل لا يزيد بالمديح، ولا ينقص بالذم.

٣ـ من علامات الإخلاص: أن تقبض ثمن عملك مباشرة من الله.

وهذا هو الثواب، أنت رفعت عملاً إلى الله مخلصاً، فعاد عليك من الله سكينة ، وجدت حلاوتها في قلبك، ثلاثة مؤشرات مهمة جداً في تقييم العمل، وكان بعض العلماء إذا قرأ قوله تعالى:

(وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)

(سورة محمد)

يقول: " اللهم إنك إن بلوت أخبارنا فضحتنا، ونتكت أستارنا، وأنت أرحم الراحمين ".

إذا كان سيدنا الصديق، وهو المؤمن الأول الذي قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام :

((ما طلعت شمس، ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر))

[رواه ابن النجار عن أبي الدرداء]

إذا كان الصديق حينما مُدح قال: " اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون "، هذا دعاء الصديق.

إذاً: لا تحاب نفسك، لا تقل: أنا مخلص.

قال بعض العلماء: " هناك إخلاص يحتاج إلى إخلاص "، الدليل القوي على الإخلاص قول الله عز وجل:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ)

(سورة البينة)

الجوارح تنصاع لمنهج الله، لكن القلب عبادته الإخلاص

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

(سورة الإنسان)

لا يعلم النية إلا الله:

بالمناسبة، الإخلاص ليس في بني البشر واحد يتطلع على إخلاصه هذا بينك وبين الله، والله عز وجل ستّير، ماذا ينطوي قلبك هذا بعلم الله، فلذلك كما علمنا النبي الأدب قال:

احذروا الحُكم على بواطن الناس:

((إنما نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر))

[رواه مالك عن ابن شهاب بن عدي بن الخيار]

لو شاهدت إنسانا قدم أرضا كبيرة جداً لبناء مسجد، أنت لا تملك إلا أن تكبّر هذا العمل، لو جاء من يهمس في أذن هذا الملاك الكبير أن أراضيه ليست منظمة، أسعارها قليلة، فإذا قدمت أرضاً لبناء مسجد اضطرت البلدية أن تنظم أرضك، وأن تجعلها مقاسم، وبهذا يتضاعف ثمنها، وهو لا يصلي أصلاً، فقدم أرضاً لبناء مسجد، هو عند كل البشر محسن كبير، أما عند الله فلا وزن لهذا العمل إطلاقاً، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

(سورة الفرقان)

عبادة الجوارح وعبادة القلب:

لذلك:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ)

هذه عبادة الجوارح،

(مُخْلِصِينَ)

هذه عبادة القلب.

القلب : عبادته الإخلاص.

العين : عبادتها غض البصر.

الأذن : عبادتها ألا تصغي إلى باطل.

اللسان p: عبادته أن ينضبط بالخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

اليد p: عبادتها الإحسان والعطاء، وليس البطش.

الرِّجل p: عبادتها السير إلى المساجد، لا إلى الملاهي، فكل عضو من أعضائك له عباده، والقلب عبادته الإخلاص.

أقوال العلماء في طلب الإخلاص:

القول الأول:

قال بعض العلماء: " الإخلاص نسيان رؤية الخَلق بدوام النظر إلى الخالق ".

المخلص ينظر إلى الله، هل أنا في مرضاته ؟ هل هو راضٍ عني ؟ هل هذا العمل يرضيه، هل هذا الموقف يرضيه ؟ والبشر غير المخلصين ينظرون إلى البشر، لعلي أخطأت، لعل مكانتي تضعضعت، لعل شعبيتي ـ إن صح التعبير ـ فقدتها، والآن الأخبار كلها عن شعبية الإنسان فقط، موضوع الإخلاص لم يدخل إطلاقاً بالحسابات، يجرى استفتاء يقول لك: هبطت شعبيته من ٦٠ إلى ٣٥، أو إلى واحد.

القول الثاني:

وقال بعض العلماء: " الإخلاص أن تكون الحركة والسكون في السر والعلانية لله تعالى ". أنت بين حاليين، متحرك أو ساكن، في بيتك أو أمام الناس، الإخلاص أن تكون الحركة والسكون في السر والعلانية لله تعالى.

أحاديث عظيمة في الإخلاص والرياء ؛

والنبي عليه الصلاة والسلام أشار إلى الإخلاص بأحاديث كثيرة جداً، من هذه الأحاديث:

((نَضّرَ الله امْرَأَ سَمِعَ مِنّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتّى يُبَلّغَهُ، فَرُبّ حَامِلِ فِقْهٍ إلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بفَقِيهٍ))

[رواه الترمذي، وأبو داود عن زيد بن ثابت]

إنسان معه معلومات كثيفة جداً، وإلقاءه جيد، لكن إخلاصه ضعيف، إذاً ليس بفقيه، إنسان معلوماته محدودة، أما إخلاصه فشديد، هذا أفقه منه.

((وَرُبّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بفَقِيهٍ))

خطورات طلب الدين للدنيا:

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((بشِّر هذه الأمة بأنه مَن عمِل منهم عملَ الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب))

[أحمد عن أبيّ بن كعب]

أيها الإخوة، أرجو ألا أبالغ: لو معك سند بمليار دولار، مثل افتراضي، موضوع على وجهه الآخر ورقة بيضاء، السند على الوجه الأول، أما خلفه فأبيض، وهذا الإنسان توهم أنها ورقة عادية، وأجرى عليها بعض الحسابات، ثم مزقها، ثم اكتشف أنه مزق هذا السند، يكاد يموت من الألم، هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، هذا الذي يستخدم الدين للدنيا هذا الذي يكسب بالدين، هذا الذي يرتزق بالدين.

وقال الإمام الشافعي: " لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين ".

هذا الذي يرتزق بالدين اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً.

قيل لبعض العلماء: " ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفس، وطلب الدنيا، وإرضاء الخلق ".

سمعت عن إنسان في بلد من العالم الإسلامي، أنه ما أوتي واحد بهذا البلد فصاحة كفصاحته، وإتقانَ إلقاء كإتقانه، وتحليل الموضوع كتحليله، وتشقيقه كتشقيقه، والتعليل كتعليله، والإطلالة الرائعة كإطلالته، ومع كل ذلك كل هذا النشاط لمصلحته فقط ، ولا يعبأ بهمِّ المسلمين العام، مصلحته فوق كل مصلحة، هذا من ضعف الإخلاص.

وقال بعضهم: " أقبل على تعلُّم الإخلاص، فوالله إن عِلمه خير العلم، وفقهه الفقه كل الفقه ". مِن هنا قال سيدنا عمر رضي الله عنه: << تعاهد قلبك >>.

خلاصة مؤشرات الإخلاص:

أيها الإخوة، مرة ثانية: الشيء العملي هناك ثلاث مؤشرات على إخلاصك:

١ ـ عدم اختلاف العبادة بين الخلوة والجلوة:

أن عبادتك، واستقامتك، وورعك لا تختلف أنت في بيتك، أو مع المؤمنين، ولا تختلف وأنت في بلدك أو في بلد آخر، الإنسان ببلده معروف، يسعى دون أن يشعر إلى أن يلمع صورته أمام مَن

حوله، لكن إذا سافر فلا أحد يراقبه، وليس معروفاً إطلاقاً، وقد يفعل كل الانحرافات، علامة الإخلاص أن استقامتك وورعك لا تختلف بين أن تكون مع المؤمنين في ملأ، وبين أن تكون وحدك في البيت، ولا تختلف بين أن تكون في بلدك، وأنت في هذا البلد معروف، وبين أن تذهب إلى بلد بعيد لا أحد يعرفك، ولا أحد يراقبك، هذا مؤشر.

٢ ـ عدم اختلاف العمل بالمدح والذم:

المؤشر الثاني: العمل لا يختلف بالثناء والمديح، أو بالذم والتجريح، أنت تبتغي وجه الله.

٢ ـ عدم قبض ثمن العمل مؤشِّر على خلل في الإخلاص:

والمؤشر الثالث: ما لم تقبض ثمن عملك الصالح الخالص فهناك خلل في هذا العمل، قبض الثمن أنك إذا رفعت إلى الله عملاً خالصاً يأتيك من الله سكينة تسعد بها ، فالسكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

شروط قبول العمل:

آخر شيء بالإخلاص: العمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين، وكل شرط لازم غير كافٍ:

الشرط الأول:

أن يكون صواباً، أي وفق منهج الله.

الشرط الثاني:

وأن يبتغى به وجه الله، أن يكون خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، فإن لم يوافق السنة العمل مرفوض ولو كان مخلصاً.

حفلة غنائية يرصد ريعها للأيتام، خير إن شاء الله، النية طيبة بحسب الظاهر، أما الشكل فغير مقبول، يانصيب خيري، لذلك العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية: ١٩)

العمل الصالح مقيد برضاء الله عز وجل، لا أن ترضي الناس به، وهناك مليون عمل صالح يرضي الناس، لكن هناك أعمال لا ترضي الله عز وجل، فالبطولة أن يكون العمل خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

قاعدة جليلة في إخلاص النية:إنما الأعمال بالنيلت:

هذا الدرس مقلق، ومتعب، ومزعج، لماذا ؟ لأن الأعمال الصالحة واضحة، لكن قيمتها بنيتها، والحديث المتواتر الذي يعد أصلاً في هذا الدين:

((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))

[متفق عليه عن عمر]

مثلا: لو أنك أيقنت أن شراب الليمون يؤذي هذا المريض، وقد يفعل به فعلاً في معدته كبيراً جداً، معه قرحة بدرجة عالية من الخطورة، والشراب الحامض قد يفاقم هذا المرض، وأنت قدمت له كأس شراب بكل أدب، هذا العمل يمكن أن يكون جريمة، وقد تضرب إنسانًا، وتتمنى أن يتأدب بأدب الله، قد يكون ابنك، أخطأ خطأ كبيرا، ولا بد من إحداث خبرة مؤلمة كي يبتعد عن هذا الخطأ، فالمظهر ضرب، وأنت بهذا الضرب ترقى عند الله، والمظهر الأول تقديم ضيافة، وأنت بهذه الضيافة تسقط عند الله، فالعبرة بنية العمل، وسيدنا عمر يقول: << تعاهد قلبك

لا بد أن تقيمَ تحليلا ذاتيا، تأملا ذاتيا، تقييما لعملك، وعندنا مؤشرات، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تترجم هذه الحقائق إلى سلوك

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة، والحديث عن العلم، وفي هذا الدرس حديث عن ثمرات طلب العلم.

قيمة العلم:

العلم أيها الإخوة قوة هائلة، وهو أعلى الرتب، يعطيك العلم طاقة لا تقدر بحدود الزمان والمكان، يكسبك العلم علواً ومنزلة، ويمهد الطريق أمامك بالرفعة في الدنيا والآخرة:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: ١١]

صور رائعة مت مواقف علماء المسلمين مع الأمراء !!!

١ – عطاء بن أبي رباح:

دخل سليمان بن عبد الملك الحرم، ومعه الوزراء والأمراء والحاشية، وقادة الجيش، وكان حاسر الرأس، حافي القدمين، ليس عليه إلا إزاره ورداؤه، شأنه كشأن أي حاج محرم من المسلمين، ومِن خلفه ولداه، وهما غلامان كطلعة البدر بهاء، وكأكمام الورد نضارة و طيباً، وما إن انتهى خليفة المسلمين، وأعظم ملوك الأرض من الطواف من البيت العتيق حتى مال على رجل من خاصته، وقال: مَن عالم مكة ؟ فقال: عطاء بن أبي رباح، قال: أروني عطاء هذا، فالتقى به فوجده شيخاً حبشياً أسود البشرة، مفلفل الشعر، أفطس الأنف، إذا جلس بدا كالغراب الأسود، كأنه رأسه زبيبة، مشلولاً نصفه، لا يملك من الدنيا درهماً و لا ديناراً، فقال سليمان: أأنت عطاء بن أبي رباح الذي طوق ذكرك الدنيا ؟ قال: هكذا يقولون، قال: فبمَ حصلت هذا العلم وهذا الشرف ؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي ـ أنا مستغن عنهم، وهم محتاجون إلى علمي، فإذا كان الذي يطلب العلم محتاجاً إلى ما عند الناس، والناس مستغنون عن علمه، ما حاله ؟ فقال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي الذي انقطعت له ثلاثين عاماً، قال سليمان: لا يفتي في المناسك إلا

عطاء.

وحدث بعد اللقاء الأول أن اختلف سليمان وأبناؤه في مسألة من مسائل الحج، فقال: خذوني إلى عطاء بن أبي رباح، فأخذوه إلى عطاء، وهو في الحرم، والناس متحلقون حوله، فأراد سليمان أن يجتاز الصفوف ـ خليفة المسلمين ـ ويتقدم إليه، وهو الخليفة، فقال عطاء: يا أمير المؤمنين، خذ مكانك، أي ابقَ في مكانك، ولا تتقدم الناس، فإن الناس سبقوك إلى هذا المكان، فلما أتى دوره سأله المسألة فأجابه، فقال سليمان لأبنائه: يا أبنائي، عليكم بتقوى الله، والتفقه في الدين ".

قالوا: العالم شيخ، ولو كان حدثاً، والجاهل حدث، ولو كان شيخاً، قال: " يا أبنائي عليكم بتقوى الله، والتفقه في الدين، فوالله ما ذللت في حياتي إلا لهذا العبد ".

خليفة المسلمين أكبر ملوك الدنيا يقول: " والله ما ذللت في حياتي إلا لهذا العبد.

٢ – أبو حنيفة النعمان:

التقى أبو جعفر المنصور بأبي حنيفة، فقال: " يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا، فقال أبو حنيفة: ولِمَ أتغشاكم، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه ؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء ؟ ".

يقول سليمان بن عبد الملك: " فوالله ما ذللت في حياتي إلا لهذا العبد "، لأن الله يرفع من يشاء بطاعته، وإن كان عبداً حبشياً لا مال، ولا نسب، ويذل من يشاء بمعصيته، وإن كان ذا نسب وشرف.

ثم قال سليمان لأحد ولديه: يا بني، هذا الذي رأيته يا بني، ورأيت ذلنا بين يديه هو وارث عبد الله بن عباس الصحابي الجليل الذي أوتي فهماً في القرآن الكريم، وكان موسوعة في كل العلوم، ثم أردف يقول: يا بني، تعلم العلم، فبالعلم يشرف الوضيع، وينبه الخامل، ويعلو الأرقاء إلى مراتب الملوك، لأن رتبة العلم أعلى الرتب، تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم ـ أصبحتم سادة ـ وإن كنتم سوقة عشتم ".

٣ – الحسن البصري:

مع والي يزيد:

مرة كان الحسن البصري عند والي البصرة فجاءه توجيه من يزيد، يبدو أنّ هذا التوجيه لو نفذه والي البصرة لأغضب الله، ولو لم ينفذه أغضب يزيد، ونحاه عن منصبه، كان عنده الحسن

البصري، قال له: ماذا أفعل ؟ أجابه إجابة يجب أن تكون شعاراً لكل واحد منا، قال له: " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".

أيها الإخوة الكرام، حتى في هذا العصر صُنّاع القرار من يأمرهم ؟ العلماء في كل اختصاص، العلماء في العالم هم يملون على صنّاع القرار قراراتهم، فلذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

مع الحجاج بن يوسف:

الحسن البصري قام بتأدية أمانة العلم، وهي التبيين في عهد الحجاج، ويبدو أن أناساً نقلوا للحجاج ما قاله الحسن البصري، فغضب الحجاج، وأرعد، وأزبد، وقال: يا جبناء، يخاطب مَن حوله، والله لأروينكم مِن دمه، ثم أمر بقتله، وجاء بالسياف، ومدّ النطع، وطلب الحسن ليقطع رأسه في مجلسه، من هاب الله هابه كل شيء، ومن لم يهب الله أهابه الله من كل شيء، فاستدعى الحجاج الحسن، وجاء الجنود بالحسن البصري، فلما دخل إلى مجلس الحجاج الحسن البصري، ورأى السياف واقفاً، والنطع قد مد أيقن بالموت، حرك شفتيه، ولم يفهم أحد بماذا حرك شفتيه، فإذا بالحجاج يستقبله، ويقول له: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيد العلماء، ومازال يقربه، ويقربه حتى أجلسه على سريره، واستفتاه في موضوع، وضيفه، وعطره، وودعه، صعق السياف، والحاجب، فلما خرج تبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فُعل بك، فماذا قلت لربك ؟ قال له: قلت: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

٤ – مع الشيخ بدر الدين الحسني محدِّث الشام:

والله يروي التاريخ أنه كان رجل في الشام من ألصق الناس بالشيخ بدر الدين الحسني، وقد أراد السلطان العثماني أن يدعو هذا الشيخ الجليل شيخ الشام كلها إلى استنبول لحفل، أرسل له رئيس الوزارة الصدر الأعظم على بارجة من استنبول إلى بيروت، ومن بيروت جاء بالسيارة إلى دمشق، ودخل على الشيخ، وقدم له دعوة السلطان لحضور الاحتفال، فمن شدة هيبة الشيخ قال له: أنا ما أرغب، قال: لا أرغب، انتهى الأمر، لا يوجد أحد يراجعك، فعاد إلى استنبول طبعاً بعد أسابيع، وصل إلى إنطاكية صدر أعظم رئيس وزارة حاكمة ثلث العالم أن شيخًا في الشام لا يستجيب لدعوة السلطان، خاف على منصبه، فعاد ثانية ليأخذه بالقوة، عاد خلال أسبوع آخر، ووصل إلى بيروت،

وانتقل إلى الشام، ودخل على الشيخ، كان يصلي، فلما سلم من صلاته قال له: أنت جئت مرة ثانية، قال له: نسيت أقبل يدك سيدي، هذا العلم، هذا الورع، هذه التقوى، هذا حب الله عز وجل، هذا الإيمان بالآخرة، بما نلت هذا المقام ؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.

الحياة كلها قرار واحدحاسم:

١ ـ مع قرار الصحابي الجليل عقبة بن عامر:

إخواننا الكرام، عقبة بن عامر الجهني أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وأنا في الفلوات، يقول عقبة: أرعى غنيمات لي، الآن فلان عنده دكان صغير، فلان عنده بقالية، فلان عنده تجارة متواضعة، فلان عنده بيوت للإيجار، بهذا المعنى أرعى غنيمات لي، فما إن تناهى إليّ خبر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تركتها، ومضيت إليه لا ألوي على شيء، فلما لقيته قلت له: يا رسول، الله أتبايعني ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: فمن أنت؟ قال: أنا عقبة بن عامر الجهني، قال: يا عقبة، أيهما أحب إليك أن تبايعني بيعة أعرابية أم بيعة هجرة ؟ أي تبقى في مكانك في البادية ترعى الغنيمات، وتبايعني، أو أن تهاجر، وأن تأتي إلي لتكون معي، قال: بل بيعة هجرة، وكنا اثني عشر رجلاً ممن أسلموا نقيم بعيداً عن المدينة لنرعى أغنامنا في بواديها، فقال بعضنا لبعض: لا خير فينا، والله إذا نحن لم نقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بعد يوم كي نتفقه في الدين، ويسمعنا مما يُنزل عليه من وحي السماء، فليمض كل يوم واحد منا إلى يثرب، وليترك غنمه لنا فنرعاها له، فقلت: اذهبوا أنتم دائماً إلى رسول الله واحداً بعد الآخر، وليترك لي الذاهب غنمه، أي كان حريصاً على غنماته، قال لهم: اذهبوا أنتم جميعاً، وأنا أبقى عند الغنيمات، لأني كنت شديد الإشفاق على غنيماتي من أن أتركها لأحد، ثم طفق أصحابي يغدو الواحد منهم بعد الآخر على النبي صلى الله عليه وسلم، ويترك لي غنمه أرعاها له، فإذا جاء أخذت منه ما سمعت، وتلقيت عنه ما فقه، لكنني ما لبثت أن رجعت إلى نفسي، وقلت لها: ويحك يا نفس، من أجل غنيمات لا تسمن، ولا تغني تُفوتي عليك صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والأخذ عنه مشافهة من غير واسطة، ثم تخليت عن غنيماتي، ومضيت لأصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه هي المقدمة.

أيها الإخوة، لم يكن يخطر على بال عقبة بن عامر الجهني، لم يكن يخطر على باله حين اتخذ هذا القرار كان حريصاً على غنيماته، وغنيماته ملء حياته، فآثر أن يبقى مع غنيماته، وأن يرسل أصحابه إلى النبي الكريم، للأمانة يستمع منهم يومياً إلى ما قاله النبي، لكن وجد أنه من أجل غنيمات يضيع صحبة رسول الله ؟!!

قال: لم يخطر على بال عقبة حين اتخذ هذا القرار قرار صحبة رسول الله، وترك غنيماته، لم يكن يخطر له على بال حينما اتخذ هذا القرار الحاسم والحازم أنه سيغدو بعد عقد من الزمن، أي عشر سنوات عالماً من أكابر علماء الصحابة، وقارئاً من شيوخ قرائها، وقائداً من قواد الفتح المرموقين، عالم وقارئ وقائد، ووالٍ من ولاة الإسلام المعدودين.

عقبة بن عامر الجهني ما كان يخطر على باله حينما ترك غنيماته أنه سيغدو عالماً من أكابر علماء الصحابة، و قارئاً من شيوخ قرائها، و قائداً من قواد الفتح المرموقين ووالياً من ولاة الإسلام المعدودين، ولم يكن يخطر له على بال أيضاً، وهو يتخلى عن غنيماته، ويمضي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه سيكون طليعة الجيش الذي يفتح أم الدنيا وقتها دمشق، هو الذي فتح دمشق، ويتخذ لنفسه داراً بين رياضها النضرة عند باب توما، ولم يكن يخطر له على بال أنه سيكون أحد القادة الذين سيفتحون مصر أيضاً، وأنه سيكون والياً عليها، ويتخذ لنفسه داراً في سفح جبلها المقطم، وبعدها اشترك هذا الصحابي الجليل في قيادة حملة بحرية لفتح جزيرة رودس في البحر المتوسط.

٢ ـ مع قرار سيد غطفان نعيم بن مسعود:

لما جاء نعيم بن مسعود سيد غطفان لمحاربة النبي العدنان في معركة الخندق فكر، أجرى حواراً ذاتياً في لحظة واحدة انقلب من عدو للحق إلى أكبر عون لرسول الله، ماذا قال ؟ قال: يا نعيم، لماذا جئت إلى هنا ؟ من أجل أن تقاتل هذا الرجل الصالح ؟ ماذا فعل ؟ سفك دماً، انتهك عرضاً، نهب مالاً ؟ لماذا تحاربه ؟ أين عقلك يا نعيم ؟ أيليق بك أن تحاربه أين عقلك ؟ فقام، وهو رئيس المعسكر، واتجه إلى معسكر النبي، ودخل على النبي عليه الصلاة والسلام، لما نظر إليه قال: نعيم ؟ قال: نعيم، قال: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت مسلماً، وأعلن إسلامه، قال له: مرني ؟ قال له: أنت واحد ؟ قال له: مرني ؟ قال له: خذل عنا، وتسعة أعشار سبب نجاح معركة الخندق بسبب نعيم بن مسعود، لم يكن يعرفه اليهود أنه أسلم، ولا القرشيون، فشقّ صفوفهم، وأوغر صدر كل طرف على الطرف الآخر، وهذه حيلة ذكية جداً سخرها للحق.

لماذا أنت متمسك بالدنيا، متمسك بمحل صغير، بشيء بسيط، اطلب العلم، العلم يرفعك إلى أعلى عليين، العلم يرفع مقامك عند الله:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

رتبة العلم أعلى الرتب:

مرة التقيت بإنسان يعمل في اللحم، قصاب، قال لي: أنا وأبو الحسن الكردي رفاق في عمل واحد، قلت له: أين الثرى من الثريا، هذا شيخ القراء، أو من كبار قراء دمشق، فالعلم يرفع الإنسان إلى أعلى عليين، لذلك رتبة العلم أعلى الرتب، اطلب العلم.

سأقول لكم كلمة: أنا لا أصدق ولا للحظة واحدة أن تطلب العلم بإخلاص ثم لا يستخدمك الله في الدعوة إليه، ثم لا توفق في التأثير في الناس، اطلب العلم، وعندئذ يتولى الله أن يهبك قوة التأثير، قال تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

[سورة النور: ٣٦]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٠٦-٦٠) : قيمة العلم ومكانته

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

تعريفات وأبعاد :

بادئ ذي بدء بالتعريف المادي:

١ – تعريف الجماد وأبعاده:

الجماد كائن يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعاد ثلاثة، وله وزن.

١ – تعريف النبات وأبعاده:

النبات كائن يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعاد ثلاثة، وله وزن، وينمو.

١ – تعريف الحيوان وأبعاده:

والحيوان شيء يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعاد ثلاثة، وينمو، و يتحرك.

١ – تعريف الإنسان وأبعاده:

أما الإنسان فهو كالجماد شيء يشغل حيزاً في الفراغ، وله أبعاد ثلاثة، وله وزن، وينمو كالنبات، ويتحرك كبقية المخلوقات المتحركة، ويفكر.

العقل من ميزات الإنسان :

ميز الله الإنسان على بقية المخلوقات بأنه أودع فيه قوة إدراكية، وما لم يفكر هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به، وما لم يفكر هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به.

العلم والعمل من قيم الترجيح:

لذلك الله عز وجل اعتمد قيمتين للترجيح بين خلقه، اعتمد قيمة العلم، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: ٩]

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

واعتمد قيمة العمل، قال تعالى:

[سورة المجادلة: ١١]

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: ١٣٢]

في القرآن الكريم الذي يرجح بعض الناس على بعض قيمة العلم وقيمة العمل، الآن مع الآيات الكريمة التي تبين أن قيمة العلم أعلى قيمة.

الأدلة القرآنية على علو قيمة العلم:

الآية الأولى:

يقول الله عز وجل:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ)

[سورة آل عمران: ١٨]

فالله عز وجل استشهد بأهل العلم دون غيرهم، وفي هذه الآية إشارة إلى تزكيتهم وتعديلهم، هم عدول عند الله، وهم مزكون عند الله، واستشهد بهم على أجل مشهود، وهي كلمة الإسلام الأولى: (لا إله إلا الله).

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ)

[سورة آل عمران: ١٨]

أيها الإخوة، حينما نفى الله عز وجل أن يكون هناك موازنة أو مناسبة بين الذين يعلمون، والذين لا يعلمون عُلِم أن قيمة العلم هي أعلى قيمة، وفي بعض المدارس الكبرى في دمشق لوحة بخط أكبر خطاط كتب عليها: رتبة العلم أعلى الرتب.

لو أن طفلاً صغيراً قال: أنا معي مبلغ عظيم نقدره بمئتي ليرة على كلمة عظيم، ولو أن مسؤولاً كبيراً في دولة قوية أرادت أن تغزو بلداً، فقال هذا المسؤول: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً، كلمة عظيم من مسؤول كبير بدولة قوية كبيرة عملاقة نقول: قيمة هذه الكلمة مئتا مليار، من مئتي ليرة إلى مئتي مليار بعملتهم.

الآية الثانية:

فإذا قال ملك الملوك:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: ١١٣]

أبشروا يا طلاب العلم، رتبة العلم أعلى الرتب، وما من مرتبة تعلو عليها.

إن الله أعطى الملك لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطى الملك لفرعون، وهو لا يحبه، وأعطى الملك لسيدنا سليمان، وهو يحبه، إذاً: ما دام هذا العطاء يشمل المؤمن والكافر إذاً ليس مقياساً، أعطى المال لمن لا يحب، أعطاه لقارون، أعطاه لمن يحب، لسيدنا عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، إذاً ليس المال مقياساً.

الآية الثالثة:

لكن:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة يوسف: ٢٢]

الكرامة التي يتميز بها المؤمن أن الله علّمه.

الآية الرابعة:

أيها الإخوة، قال تعالى:

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى)

[سورة الرعد: ١٩]

ماذا يقابل طالب العلم ؟ إنسان أعمى.

الآية الخامسة:

قال تعالى:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ)

[سورة سبأ: ٦]

لقد أثنى الله عز وجل على طلاب العلم، لأنهم يرون أن هذا القرآن الكريم حق، بينما معظم الذين شردوا عن الله عز وجل يرونه كلاماً من صنع البشر.

الآية السادسة:

قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: ٤٣]

جعل الله أهل الذكر، أي أهل القرآن مرجعاً في قضايا العلم.

الآية السابعة:

أيها الإخوة:

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً *وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً)

[سورة الإسراء]

أؤكد لكم أنه ما من مرتبة أعلى عند الله ممن طلب العلم الشرعي، لكن يقول بعض العلماء: حيثما وردت كلمة (العلم) في القرآن الكريم وفي السنة فإنما تعني العلم بالله، لأن اختصاصاً نادراً يدرّ عليك مبالغ طائلة هذا نوع من الحِرف، لذلك فرقوا بين العقل والذكاء، فقالوا: ما كل ذكي بعاقل، قد يتسلم الإنسان أعلى منصب، لأنه يملك أعلى شهادة، منصب جامعي، ومع ذلك إذا كان لا يصلي، ولا يعرف الله، ولا يعمل لآخرته فهو عند الله جاهل، ولو ارتقى إلى أعلى منصب علمي، لذلك قالوا: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعجب بنفسه.

مرة كنا في تشييع جنازة، ولي صديق في مراحل التعليم الإعدادي صار عميد كلية الطب، لم يدخل، ولم يصل، وهو في سن متقدمة، فالإنسان يرى نفسه أكبر من أن يصلي، أكبر من أن يعبد الله.

أيها الإخوة، قيمة العلم أعلى قيمة، العلم بالله، والعلم بمنهجه، والعلم بالكليات الكبرى، فلسفة الكون،

فلسفة الحياة، فلسفة الإنسان، إذاً: ما كل ذكي بعاقل، قد تحصّل أعلى شهادة في العالم، فإن لم تعرف الله فأنت عند الله لست بعالم، لأنه كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه، بل هو القرآن الكريم آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، قال تعالى:

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)

[سورة العنكبوت: ٤٩]

الآية الثامنة:

أيها الإخوة، قال تعالى:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: ١١]

الإيمان قد يكون فطرياً، والآية التي وضعت شعاراً في جامعة دمشق:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

لم يقل: زدني مالاً، لم يقل: زدني وجاهة، لم يقل: زدني عمراً مديداً، كبار العلماء عاشوا أقل من خمسين سنة، الذين تركوا مؤلفات بركات هذه المؤلفات لا تنقضي إلى يوم القيامة، عاشوا أقل من خمسين سنة، وفي بلدة في بعض البلاد الآسيوية يعمر أهلها فوق المئة والخامسة والعشرين، فهذا العمر الزمني أتفه أعمار الإنسان، لأن العبرة بالمضمون، لذلك أقسم الله عز وجل بعمر النبي، قال له:

(لَعَمْرُكَ)

[سورة الحجر: ٧٢]

إله الكون يقسم بعمر إنسان لأنه فيما أعتقد لم يضيع ثانية واحدة من هذا العمر.

الآية التاسعة:

قال تعالى:

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

[سورة طه: ١١٤]

الآية العاشرة:

أيها الإخوة، الله عز وجل يرشدنا ويقول:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

[سورة يونس: ٥٨]

قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، المؤمن حينما يفهم كلام الله، أو يفهم حديث رسول الله، أو يفهم حقيقة عن الله، أو يفهم حقيقة عن نفسه، يطرب لها أشد الطرب، قال تعالى:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

[سورة يونس: ٥٨]

الفضل هنا العلم، والرحمة الاتصال بالله، إذا عرفت الله، واتصلت به هذا الذي ينبغي أن تفرح له، لكن الناس يفرحون بشراء بيت فخم، هذا البيت مؤقت، لا بد أن تغادره، تدخله كل يوم على رجليك، و مرة ستخرج منه في نعش، ولا بد من ترك هذا البيت.

لو تزوجت بأجمل امرأة في الأرض فلا بد أن تتركها، أو أن تتركك، والدنيا كلها زائلة، إلا إذا عرفت الله، فهذه المعرفة تنفعك بعد الموت، سيدنا علي يقول: << العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا بني مات خزان المال و هم أحياء >>.

مرة سألت طلابي: من يذكر اسم تاجر كبير عاش في الشام في عام ألف وثمانمئة وخمسة وتسعين، وله مئة علامة ؟ فكروا، فكروا، فكروا، ما أجاب واحد منهم، قلت: وأنا مثلكم لا أعلم، لكن من لا يذكر سيدنا صلاح الدين ؟ سيدنا عمر، الإمام الشافعي، هؤلاء الأعلام، << مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة >>.
<< الناس ثلاثة: همج رعاع أتباع كل ناعق، لم يلجؤوا إلى عالم رباني، احذر يا بني أن تكون منهم، وعالم رباني عرف الله فاستقام على أمره >>.

الادلة النبوية على علو قيمة العلم:

الآن الحديث:

الحديث الأول:

((الدنيا ملعونة ـ لأنها تغر، وتضر، وتمر ـ ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، وعالم ومتعلم))

[الترمذي، ابن ماجه عن أبي هريرة]

العلم جهاد كبير :

والعلم أفضل الجهاد، وطلبه في سبيل الله، لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، ولهذا كان الجهاد على نوعين، جهاد باليد واللسان، وجهاد بالحجة والبرهان، والدليل الله عز وجل جعل تعليم العلم جهاداً كبيراً قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان]

الحديث الثاني:

أيها الإخوة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...))

[ابن ماجه، أحمد]

والجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، أنت حينما تأتي إلى بيت من بيوت الله تطلب العلم تضع لك الملائكة أجنحتها، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة.

إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير، والنبي عليه الصلاة و السلام لخص دعوته كلها بأنه معلم، قال:

((إنما بعثت معلماً إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

الحديث الثالث:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ مَرْحَبًا، مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[ابن ماجه، الترمذي]

حينما تعتني بطالب علم هذا قد يغدو مرجعاً كبيراً في بلده، قد يغدو مسؤولاً كبيراً عن الأمور الدينية في بلده، فلذلك:

((مَرْحَبًا، مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

لا أكتمكم أن سمعة هذا البلد الطيب في موضوع العلم في العالم الإسلامي تفوق حد الخيال، هناك مراكز إسلامية أكبر من هذه البلدة إلا أن هذه البلدة لها سمعة في العالم الإسلامي في رعايتها لطلاب العلم تفوق حد الخيال، لذلك قال عليه السلام:

((فضل العالم على العباد كفضلي على أدناكم))

[الترمذي عن أبي أمامة الباهلي]

كم هي المسافة بين مقام رسول الله وبين مقام أدنى مؤمن على وجه الأرض ؟ هذه المسافة هي نفسها بين العالم وبين العابد، العابد مقاومته هشة لأدنى ضغط يخرج عن دينه، ولأدنى إغراء يخرج عن دينه، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن الله تبارك وتعالى يباهي الملائكة بالقوم الذين يتذاكرون العلم، ويذكرون الله ويحمدونه على ما منّ عليهم منه.

الحديث الرابع:

لكن الكلام الجامع المانع:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

وموت عالم مصيبة لا تجبر، وثلمة لا تسد، ونجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم. هذه مجموعة أحاديث دمجت في بعضها.

يَقُولُ الفُضَيْلِ بْن عِيَاضٍ: " عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَى كَبِيرًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ ".

أيها الإخوة، والعالم هو الصديق، والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون، والصديقية مرتبة تأتي بعد مرتبة الأنبياء، بعض الأئمة يسأل: إلى متى تطلب العلم ؟ قال: إلى الموت، بالسبعين اطلب العلم، لأن آية واحدة لو عرفتها، وطبقتها لكنت في أعلى عليين.

الأنبياء والعلم:

أيها الإخوة، استعراض سريع، إن إبراهيم كان أمة بعلمه.

سيدنا يوسف:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة يوسف: ٢٢]

سيدنا موسى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة القصص: ١٤]

سيدنا عيسى:

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

[سورة المائدة: ١١٠]

سيدنا داود:

(وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ)

[سورة ص: ٢٠]

سيدنا الخضر:

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)

[سورة الكهف: ٦٥]

سيدنا سليمان:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة الأنبياء: ٧٩]

وفي النبي الكريم:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الجمعة: ٢]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٠٧-٦٠) : علو الهمة في الدعوة إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة عظيمة: إنها سورة العصر:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة ، والموضوع اليوم علو الهمة في الدعوة إلى الله، الترتيب مقتبس من قول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

جواب القسم أن الإنسان خاسر لا محالة.

(إِلَّا)

رحمة الله في إلا.

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

الإنسان خاسر ما لم يعمل وفق شريعة الله:

أي ؛ ما لم تؤمن، وما لم تعمل وفق إيمانك، وما لم تدعُ إلى ما آمنت به، وما لم تصبر على البحث عن الحقيقة، ثم العمل وفقها، ثم الدعوة إليها فأنت خاسر، قد تحقق نجاحا كبيرا في التجارة، قد تحقق نجاحا كبيرا في الصناعة، في تسلم مناصب رفيعة، في نجاحات خاصة، في نجاحات خدمية، في نجاحات تجارية، لكن بنص القرآن الكريم الإنسان خاسر، وهو جواب القسم ما لم يؤمن ويعمل وفق إيمانه، ويدعو إلى ما آمن به، ويصبر على الإيمان، وعلى العمل، وعلى الدعوة إلى الله.

حقائق مهمة مستنبطة من سورة العصر:

الحقيقة الأولى: الدعوة إلى الله ركنٌ من أركان النجاة:

الحقيقة الأولى في الموضوع: أن في سورة العصر إشارة إلى أن أركان النجاة أربعة، أحد أركان النجاة:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

أحد أركان النجاة، الدعوة إلى الله ربع النجاة، هذا في سورة العصر.

الأدلة القرآنية المثبتة أن الدعوة على الله ركن للنجاة:

الآية الأولى:

أما في آية أخرى فيقول الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية: ١٠٨)

فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة بنص الآية الكريمة ليس متبعاً لرسول الله.

الآية الثانية:

نأتي بأية أخرى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ٣١)

إذاً: الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، ليس فرض كفاية، هي فرض كفاية لقوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: ١٠٤)

(مِنْكُمْ)

من للتبعيض، التفرغ لطلب العلم، والتعمق فيه، والتبحر فيه والتفرغ له والرد على كل الشبهات، والإجابة عن معظم الأسئلة هذا فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الكل، أما أن تدعو إلى الله في حدود ما تعلم، ومع من تعرف فهذا فرض عين.

استمعت إلى درس تأثرت به، يجب أن تنقله إلى من حولك، في حدود ما تعلم ومع من تعرف، هذه الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، والدليل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

والدليل الثاني:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

أما كفرض كفاية فهو التفرغ، والتبحر والتعمق، والرد على كل الشبهات، هذا اختصاص، هناك أناس تخصصوا في العلم الديني، في علم العقيدة، في علم التفسير، في علم الحديث، في علم التشريع.... إلخ.

الدعوة إلى الله المصحوبة با لعمل الصالح أحسن كلمة على الإطلاق:

أيها الإخوة، الدعوة إلى الله أحسن كلمة تقال في الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة، والدليل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة فصلت الآية: ٣٣)

أي أن الدعوة من دون عمل صالح يؤكدها لا قيمة لها إطلاقاً، لذلك ما من شيء يتذبذب بين أن يكون أقدس عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء كالدعوة إلى الله، وما من شيء يسقط من عين الناس، ولا يستأهل ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله، بين أن تموت من أجلها، وبين أن ترتزق بها.

فلذلك:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

ضرورة الأسلوب الحسن في الدعوة:

العمل الصالح يؤكد مصداقية الدعوة، لذلك من دعا إلى الله بمضمون هزيل، بفهم ساذج، بخرافات، بمنامات بكرامات، بشطحات، بقصص مضحكة، أو من دعا إلى الله ولم يجد من دُعي بهذه الدعوة

مصداقية في الداعي، قال بعض العلماء: هذا المدعو بهذه الطريقة، وبهذا الأسلوب لا يعد عند الله مبلغاً، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة.

الإخلاص في الدعوة ك

لذلك صدّق أن أعلى مقام في الأرض أن تُخلص في دعوتك إلى الله، لا أن تدعو إلى ذاتك، ينبغي أن تدعو إلى الله بإخلاص، علامة إخلاصك أن تتبع لا أن تبتدع، علامة إخلاصك أن تتعاون لا أن تتنافس، علامة إخلاصك أن تقبل الآخر، وأن تحترمه، وأن تأخذ ما عنده من إيجابيات، يعني الإتباع والتعاون وقبول الآخر علامة الإخلاص، والابتداع والتنافس، ورفض الآخر علامة الدعوة إلى الذات، لذلك الدعوة إلى الله أحسن كلمة تقال في الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة، ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات.

الدعية صورة طبق الأصل لدعوته:

أنت أمام لوح بلور مستورد، متقن، نظيف، هذا اللوح المستورد المتقن النظيف يريك ما وراءه فقط، وقد تنسى وجوده، وقد تتابع السير لأنك لا تراه، هكذا الداعية لوح شفاف يشف عن حقيقة هذا الدين، أما إذا لفت النظر إلى ذاته إليه صار لوحا آخر مغشى، يغتم على ما وراءه، ويبرز خصائصه، فكلما ازددت إخلاصاً أصبحت شفافاً، وكلما ابتعدت عن الإخلاص لفت النظر إلى ذاتك لا إلى هذا الدين العظيم.

يقول الإمام الحسن البصري: " إن النهوض بواجب الدعوة أمر شاق، ولكنه شأن عظيم ".

قبل قول الحسن البصري إن النهوض بواجب الدعوة أمر شاق، ولكنه شأن عظيم أما الحسن البصري يقول: هو المؤمن:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

هو المؤمن، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله، وهذا ولي الله.

المسلم داعية أينما كان:

وأنت تاجر، وأنت صناعي كبير، وأنت طبيب، وأنت محامٍ، وأنت مهندس، وأنت بائع، وأنت مزارع، أية حرفة تقبل أن صاحبها أن يكون داعية إلى الله أية حرفة، في حدود ما تعلم، ومع من تعرف أديت فرض العين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

الدعاة إلى الله نواب الأنبياء وورثتهم:

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: " مقام الدعوة إلى الله أشرف مقامات التعبد "، يعني أعلى درجات العبادة أن تدعو إلى الله، والدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، الدعاة إلى الله ينوبون عن المرسلين في الدعوة إلى الله، والناس تبع لهم، والله سبحانه وتعالى قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه، وعصمته من الناس، الآمر ضامن، إذا أمرك أن تدعو إليه هو يضمن لك سلامتك ، ويضمن لك التوفيق، ويضمن لك أن تزال العقبات من أمامك، وأن تصان من الصوارف وهكذا المبلغون عن أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه ولو آية.

((بلغوا عني ولو آية))

[صحيح البخاري عن ابن عمرو]

أنت حضرت خطبة جمعة تأثرت بها، يمكن أن تكتب على وريقات ملخصها، جلست مع أولادك، مع زوجتك، مع زميلك في العمل، مع شريكك في التجارة، أو أخذت شريطاً، وأعطيته لمن تثق بأنه سينتفع به، أنت بهذا أسقطت عنك الواجب الذي أمرك النبي به.

((بلغوا عني ولو آية))

دعاء النبي للدعاة والمبلغين:

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لمن بلغ عنه ولو حديثاً دعا له فقال عليه الصلاة والسلام:

((نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها))

[أخرجه أصحاب السنن وابن حبان عن زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود]

أنت عندك أسبوع، حضرت خطبة جمعة، أو درس، الآن لقاءاتك، دُعيت إلى طعام، دُعيت إلى سهرة، دُعيت إلى لقاء، سافرت مع إنسان، يمكن أن تأخذ هذا الذي سمعته من درس الجمعة، أو من خطبة الجمعة، وتحاول أن تنقله لمن حولك، أؤكد مرة ثانية في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

يقول عبد الله بن مسعود: << إن لله عند كل بدعة كيد ولياً من أوليائه يذبّ عنها ـ أي يدافع عنها ـ وينطق في علاماتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن، وتوكلوا على الله >>.

أهل العلم والدعاة يحفظون دين الله:

الله عز وجل حفظ لنا هذا الدين، ليس معنى حفظ الدين ألا يأتي من ينقضه، أو من يهاجمه، هذا شأن الله عز وجل، سمح له، لكن أنت كمؤمن واجبك أن ترد عليه، هو هذا شأنه، فإذا كان الإنسان بعيداً عن الله، دأبه أن يهاجم الحق، وأهل الحق، والكتاب والسنة، والتدين، والالتزام، والعفة، والأمانة، هذا شيء من طبيعة الحياة، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، أما أنت من شأنك كمؤمن أن ترد على هذا، لذلك قلت: إننا إذا طلبنا الاعتذار هذا يقزم حجمنا، ويقلل من قدسية ديننا، يجب أن تقارع الحجة بحجة والدليل بالدليل، والتصريح المعلن بتصريح معلن، والحوار بالحوار، والندوة بالندوة ، والكلام بالكلام.

قول النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا علي، يا علي:

((فوَ اللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه]

أثمن مال في الجزيرة حمر النعم.

((من دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل أجر من اتبعه إلى عمله إلى يوم القيامة))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

إذا هداك الله، أو وفقك الله إلى هداية إنسان، هذا الإنسان وأهله وأولاده وذريته إلى يوم القيامة في صحيفتك.

الدعوة إلى الله بين الواجب العيني والواجب الكفائي:

أيها الإخوة الكرام، يقول بعض العلماء: " الدعوة إلى الله واجبة على من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم "، أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله.

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرةالآية: ١٥١)

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة الآية: ١٥٢)

١ – الدعوة إلى الله فرضا كفائيا:

كما أن النبي ذكرنا أنه يجب أن تذكر الآخرين، وهذا واجب على مجموع الأمة ، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية، بالتفرغ، والتعمق، والتبحر فرض كفاية، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به.

إذاً: هذا شأن الدعوة كفرض كفاية.

١ – الدعوة إلى الله فرضا عينياً:

أما شأن الدعوة كفرض عين هذا يجب على كل مسلم أن يكون داعية إلى الله بشكل أو بآخر. الآن:

((مَنْ دَلَّ على خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فاعِلِهِ))

[رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري البدريّ رضي الله عنه]

((مَنْ دَعا إلى هُدىً كانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلَ أجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ أجُورِهِمْ شَيَئا))

[رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

والنبي عليه الصلاة والسلام دعا لكل الدعاة، قال:

((نضر اللّه امرأ سمع مقالتي فبلغها. فرب حامل فقه غَيْر فقيه. ورب حامل فقه إِلَى من هُوَ أفقه منه))

[رواه مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن نمير، عَن زَيْد بْن ثابت]

إذاً: يدعو النبي عليه الصلاة والسلام لمن ينقل هذا الكلام.

لا بد من الدعوة بعد الاستماع والتعلم:

والله هناك أخ لا يحسن الدعوة، لكن اقتنى أشرطة، وأصبح يوزعها على أقربائه بشكل دقيق، فيمكن أن تنقل شريطا، أن تنقل مقالة، أن تنقل خطبة، لا تبقَ جامداً، لا تبقَ متبقياً، إلى متى تتلقى ؟ متى تلقي العلم ؟ إلى متى تأخذ ؟ متى تعطي ؟ هل يعقل أن تمضي كل حياتك في الأخذ

إنسان يدرس في الجامعة خمس سنوات، ست سنوات، عشر سنوات، بعد ذلك يُدرس، يتعلم الطب بعدها يُطبب، يتعلم الهندسة بعدها ينشئ مساكن، يتعلم التجارة يُتاجر إلى متى تتلقى ؟ هل يليق بمؤمن أن يبقى طول عمره يستمع، ولا ينطق ولا بكلمة، لا ينطق إلا بأمور الدنيا، ثلاثين سنة

تحضر دروس علم، أما آن الأوان أن تنطق بكلمة حق لمن حولك لأولادك، لزوجتك، لجيرانك، لزملائك، لذوي قرابتك، لمن يلوذ بك.

((نضر اللّه امرأ سمع مقالتي فبلغها. فرب حامل فقه غَيْر فقيه. ورب حامل فقه إلَى من هُوَ أفقه منه))

والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعلي رضي الله عنه لما أعطاه الراية يوم خيبر:

((فوَ اللَّهِ لأنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه]

إذاً: أن تقول: أنا ليس شأني أن أكون داعية، الدعاة فلان، وفلان، وفلان، كبار العلماء هم الدعاة، لا، وأنت داعية، وأنت مؤمن، وقد تكون عند الله كبيراً، وقد تكون عند الله عظيماً، لأن الله يتعامل معك مع نواياك، إذا نويت هداية الخلق يطلق الله لك لسانك ويهب كلامك قوة تأثير.

فلذلك يجب أن تراجع عملك من حين لآخر، هل استطعت أن أهدي أناساً حولي ؟ هل التزموا ؟ هل ثابروا على الصلاة ؟ هل ثابروا على طاعة الله ؟ هل طبقوا منهج الله في بيوتهم ؟ هنا بطولتك، أنت في المسجد تأتي كي تتلقى التعليمات من الله، وتعود إليه ثانية كي تقبض الثمن، آما أن تظن أن الحضور فقط هو العمل، هناك من يتوهم أنه لمجرد حضورك في المسجد انتهى كل شيء، أنت صاحب دين من الطراز الأول، لا، حضور المسجد لتلقي التعليمات، وحضور المسجد لقبض الثمن، أما دينك في محلك التجاري في عملك، في معملك، في عيادتك، في مكتب المحاماة.

ليست الدعوة محصورة في كبار العلماء:

أيها الإخوة، أنشِئ بالأزهر نمط جديد ما آتى أكله كما أتمنى، لكن الأزهر يعلم الطب، والدين، يرسل الطبيب إلى بلد إسلامي، الطبيب داعية، والمهندس داعية والمحامي داعية، فأنت لك حرفة، لكن حولك أناس، حولك أشخاص، حولك زملاء، حولك متعاملون معك، فإذا كنت داعية، بمعنى كنت أولاً قدوة لهم، وبمعنى آخر دعوتهم إلى الله عز وجل، ليس شرطاً أن تتكلم أنت، هناك من يتكلم عنك.

فلذلك من ظن أن الدعوة إلى الله من اختصاص العلماء الكبار فهو واهم، من اختصاصك أنت، لكن دعوة فرض العين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٠٨-٦٠) : من هو الداعية إلى الله - قصة جابر بن عبد الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمات موجزة في الدعوة:

المقدمة الأولى:

أيها الإخوة، بينت بفضل الله عز وجل أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، بينما الدعوة إلى الله كفرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، التي هي فرض كفاية تعني التعمق، والتخصص، والتبحر، والقدرة على رد كل الشبهات، والإتيان بكل الأدلة والتحليلات، لكن من هو الداعية إلى الله ؟

المقدمة الثانية:

قد يتوهم الواحد منا أن الدعوة مجموعة معلومات، نصوص، تحليلات، أفكار يحفظها الداعية فيلقيها على الناس، الحقيقة أن أقل شيء في الدعوة هو المعلومات، لكن أكبر شيء فيها القلب الكبير، الرحمة، التواضع، أن تعيش مشكلات الناس، أن تكون مشكلة أخيك مشكلتك، أن تفرح لما يفرح، أن تتألم لما يتألم.

الداعية من خلال قصص الصحابة مع النبي عليه الصلاة والسلام:

١ ـ قصة جابر بن عبد الله:

لذلك سألقي على مسامعكم قصة عن جابر بن عبد الله، قال:

خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع، جابر بن عبد الله شاب في ريعان الشباب قال: مرتحلاً على جمل لي ضعيف، يبدو أن هذا الشاب كان فقيراً، استشهد أبوه في معركة،

وخلف له إخوة كثراً، فكان فقيراً، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت الرفاق تمضي، أي تسبقني، ناقاتهم قوية، ناقتي ضعيفة، وجعلت أتخلف، لأن جملي ضعيف، حتى أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما لك يا جابر ؟ قلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا، قال: فأنِخه، وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم جمله، ثم قال له: أعطني هذه العصاة من يدك، ففعلت، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخس بها الجمل نخسات، يعني عدة نخسات، أي وكزه بها وكزات، ثم قال: اركب، فركبت، فانطلق جملي، والذي بعثه بالحق صار جملي يجاري ناقة رسول الله، وتحدث معي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أتبيعني جملك هذا يا جابر ؟ قلت: يا رسول الله بل أهبه لك، قال: لا بل بعنيه، قلت: فسُمْني لي، ماذا تدفع ؟ فقال: فأخذته بدرهم، هكذا قال عليه الصلاة والسلام، قلت: لا، إذاً يغبنني رسول الله.

دروس وعبر:

ـ أرأيت إلى هذا التواضع.

ـ إلى هذه النفس اللطيفة.

ـ إلى هذه المداعبة الراقية.

ـ إلى هذا القلب الكبير.

ـ إلى هذه الرحمة.

المعلومات أقلّ ما في الدعوة إلى الله، أكبر ما فيها قلب كبير، قلب رحيم، شخصية متواضعة، أفق واسع.

قال: لا، إذاً لو بعتك بدرهم يغبنني رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني أن الدرهم قليل، قال: فبدرهمين، قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم الثمن حتى بلغ الأوقية، يبدو أكبر بكثير من الدرهمين، قلت: قد رضيت، يعني بعتك بهذا المبلغ، قال: قد رضيت ؟ قال: نعم هو لك، قال: قد أخذته، ثم قال لي: يا جابر هل تزوجت ؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: ثيباً أم بكراً ؟ قلت: بل ثيباً، قال: هلا تزوجت بكراً ؟ قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعاً، فتزوجت امرأة جامعة، يعني أرملة، خبيرة، ناضجة، فتزوجت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن من أجل تربيتهن، وتقوم عليهن، فقال: قد أصبت إن شاء الله، كلام جيد، قال: أخبرت امرأتي الحديث، وما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: سمعاً وطاعة، يعني بع جملك لرسول الله.

الإنسان أحياناً إذا عملَ عملا صالحا تقوم عليه الدنيا في البيت، تقول امرأته: نحن أولى، أما المرأة الصالحة فلا تكون عقبة بين زوجها وبين ربه.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله، حسب الاتفاق، ثم جلست في المسجد قريباً منه، قال: وخرج النبي عليه الصلاة والسلام فرأى الجمل، قال: ما هذا؟ قالوا: هذا جمل جاء به جابر، قال: فأين جابر ؟ فدُعيت به، فقال: تعال يا ابن أخي ـ أريت إلى هذا الكلام الطيب ـ خذ برأس جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال له: اذهب بجابر، وأعطه أوقية.
ـ أحياناً تحب أن تساعد إنسانا، خذ هذا من مال زكاتي، النبي ساعده بطريقة لطيفة، اشترى الجمل منه، واتفقوا على السعر، بعدها وهبه الجمل، ودفع له الثمن.

ـ دائماً المؤمن لطيف.

ـ المؤمن لا يخدش حياء إنسان.

ـ لا يحمر وجهه.

ـ لا يضعه في موقف حرج.

ودعا بلالاً فقال: اذهب بجابر وأعطيه أوقية، فذهبت معه، وأعطاني أوقية، وزادني شيئاً يسيراً، قال: فوالله ما زال هذا المال نمو عندنا، ونرى مكانه في بيتنا، هذا نموذج للدعوة.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ)

(سورة الأحزاب)

حقيقة الدعوة:

الدعوة قلب كبير، الدعوة حلم، الدعوة تواضع، الدعوة موآنسة، الدعوة مرح، هناك عند بعض الناس كهنوت، وتقطيب، وهيبة، ومكانة، وقداسة، لا نريد كل هذا، كن واحداً من إخوانك، كن طبيعيا، هذا النبي الكريم مع شاب صغير، شاب في ريعان الشباب فقير، يا ابن أخي، يا جابر، يا ابن أخي، ساومه على الجمل، ودفع له مبلغا زهيدا ليستفزه، وجابر فهم القصة، قال له: لا أبيعك، إذاً يغبنني رسول الله، هذا الجو اللطيف، هذا المرح البريء، هذا التواضع، هذه الرحمة.

طبعاً القصة مجتزأة من قصة طويلة، ذكر له أن بيتي ما فيه أثاث إطلاقاً، قال له: إن شاء الله يكون لك هذا الذي تريده، أنا أخذت مقاطع من القصة.

٢ ـ قصة عثمان بن مظعون:

أيها الإخوة، كان من بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابي جليل هو عثمان بن مظعون، وكان عثمان متبتلاً غير مشفق على نفسه، حتى لقد هم ذات يوم أن يتخلص كلياً من نداء غريزته، وذات يوم دخلت زوجته على السيدة عائشة رضي الله عنها فوجدتها عائشة رثة الهيئة، مكتئبة المحيا، فسألتها عن أمرها، قالت: إن زوجي عثمان صوام قوام، في النهار صائم، وفي الليل قائم، ولا حاجة له بي، أهملت نفسها، لا عناية لها إطلاقاً، ثيابها رثة، فأخبرت السيدة عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحال هذه المرأة، امرأة عثمان بن مظعون، فالتقى النبي الكريم بعثمان، وقال له: يا عثمان، أما لك بي أسوة ؟ قال عثمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وماذا ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: تصوم النهار، وتقوم الليل ؟ مؤنباً، قال: عثمان إني لأفعل، قال عليه الصلاة والسلام : لا تفعل، إن لجسدك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعطي كل ذي حق حقه.

هذه زوجة تحتاج إلى زوج، يؤنسها، يجلس معها، يحدثها، تحدثه، يلاطفها ليس لها إلا زوجها، فإذا أعرضت عنها، من لها غيرك ؟.

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت زوجة عثمان إلى بيت النبوة عطرة نضرة متألقة، صار هناك عناية، كأنها عروس، واجتمع حولها النسوة اللاتي كانت تجلس بالأمس رثة يائسة، وأخذن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهاء وزينة، انقلاب جذري، قلن لها: ما هذا يا زوج ابن مظعون ؟ لك أن تقول يا زوجة، ويا زوج ؟ قالت وهي مغتبطة: أصابنا ما أصاب الناس.

الداعية يحل مشكلات الناس:

كان يهتم عليه الصلاة والسلام بإخوانه، بأسرهم، بزوجاتهم، بحقوقهم، فإن أردت أن تكون داعية يجب أن يكون همك هم الناس، لذلك ورد في بعض الثناء على النبي الكريم:

يا من كانت الرحمة مهجته، والعدل شريعته، والحب فطرته، والسمو حرفته ومشكلات الناس عبادته.

حل مشكلات الناس عبادات الداعية، المدعو لا يحتاج إلى فصاحة، لا يحتاج إلى نصوص كثيرة، يحتاج إلى قلب كبير، يحتاج إلى أب، يحتاج إلى صديق، يحتاج إلى مؤنس، يحتاج إلى قريب.

٣ ـ قصة الحجاج بن علاط السلمي:

نتابع مواقف النبي عليه الصلاة والسلام: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر الحجاج بن علاط السلمي، فأسلم، وكان غنياً كثير المال، فقال: يا رسول الله، إن مالي عند امرأتي، أم شيبة بمكة، ومتفرق في تجار مكة ـ يقول لك الآن تاجر ٣٠ مليونًا ديونا موزعة، رأس ماله بين الناس ـ فأذن لي يا رسول الله أن آتي مكة لأخذ مالي قبل أن يعلموا بإسلامي، له عندهم مبالغ كبيرة، فإذا علموا بإسلامه لا يعطونه شيئاً، قال له: فأذن لي أن آتي لآخذ مالي قبل أن يعلموا بإسلامي، عندئذٍ لا أقدر على أخذ شيء منه فأذن له النبي عليه الصلاة والسلام، ثم قال الحجاج ـ هنا المشكلة ـ قال: يا رسول الله، لا بد من أن أقول، أي أن أتقوّل، أو أذكر ما هو خلاف الواقع، أريد الكذب بالمعنى الصحيح، حتى أحتال به لأخذ مالي، حتى أحتال بأن أقول غير الواقع لأخذ مالي، فقال عليه الصلاة والسلام برحمته، وكماله: قل ما شئت.

من يسمح لك أن تتكلم بكلمة خلاف الواقع الآن ؟ يقص رقبتك، فقال له: قل ما شئت، قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء بمكان رجالاً من قريش يستمعون الأخبار، ما كان اتصالات مثل الآن، الخبر يأتي من المسافرين، ويسألون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر ليحاربها، وهي من أقوى قرى الحجاز، وهم يتجسسون الأخبار من الركبان، وكان بينهم تراهن عظيم على مئة بعير حول من سيغلب، أهل خيبر أم رسول الله، فلما رأوا الحجاج، ولم يكونوا علموا بإسلامه قالوا: الحجاج ؟! والله عنده الخبر اليقين، يا حجاج، إنه قد بلغنا أن القاطع، يسمون النبي القاطع، قد سار إلى خيبر، فقال الحجاج: عندي من الخبر ما يسركم، فاجتمعوا عليه يقولون: إيه يا حجاج قل، قال الحجاج: فقلت لهم: لم يلقَ محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل مثلهم، فهزم هزيمة لم يسمع بمثلها، وأسر محمد، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث فيه إلى مكة، هناك يقتل، ليشفى بقتله صدور أهل مكة، فنقتله بين أظهرهم، لمن كان أصاب من رجالهم، فانطلق هؤلاء الرجال فرحين أشد الفرح إلى أهل مكة، فقيل لهم: قد جاءكم الخبر، هذا محمد، إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم، ثم قال لهم الحجاج: أعينوني على غرمائي، أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد، وأصابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فجمعوا لي مالي على أحسن ما يكون، استرد كل ديونه بهذه الطريقة، يريد أن يأخذ المال، ويشتري ميراث محمد عليه الصلاة والسلام ، ففشا ذلك بمكة ، وأظهر المشركون الفرح والسرور، وانكسر من كان بمكة من المسلمين، المسلمون صعقوا ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب كان مسلماً، فجعل لا يستطيع أن يقوم، من شدة حزنه بهذا الخبر، ثم بعث العباس إلى الحجاج غلاماً ليقول له: يا حجاج الله أعلى وأجلّ من أن يكون الذي جئت به حقاً، هذا حسن الظن بالله، هذا شيء مستحيل وألف ألف مستحيل، أن يسمح الله لأهل خيبر أن يأخذوا محمداً أسيراً، وينقلوه إلى مكة ليقتل هناك، فقال الحجاج للغلام:

اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: ليخلِّ لي بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره، يريد ألا يسمع أحد، واكتم عني، فأقبل الغلام فقال: أبشر أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً كأن لم يمسه شيء، وأخبره بذلك، فأعتقه العباس رضي الله عنه لوجه الله، أعتق الغلام من شدة الفرح، وقال: لله عليّ عتق عشر رقاب على هذا الخبر السار.

فلما كان الظهر جاء الحجاج فناشد العباس أن يكتم عنه ثلاثة أيام، حتى يخرج، ويصل إلى مكان بعيد، وقال: إني أخشى الطلب، فلما مضى ثلاث فأظهر أمرك، وطالت على العباس تلك الأيام الثالث، عمد العباس رضي الله عنه إلى حلة أنيقة جداً فلبسها، وتخلق بخلوق، تعطر، وأخذ بيده قضيباً حتى أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون: إذا مر بهم لا يصيبك إلا الخير يا أبا الفضل، يظنون مشركاً مثلهم، وهذا والله من التجلد بحر المصيبة، أنت تكابر، قال: كلا والله، والله الذي حلفتم به لم يصبني خير بحمد الله، أخبرني الحجاج أن خيبر فتحها الله على يدي رسوله صلى الله عليه وسلم، وجرت فيها سهام الله، وسهام رسوله، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت ملكهم، وإنما قال لهم ذلك ليخلص ماله منكم، وإلا فهو ممن أسلم، فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، فانتقلت الكآبة من المسلمين للمشركين، فقال المشركون: ألا يا عباد الله انفلت عدو الله، يعنون حجاجاً، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر الصحيح.

من يرضى أن يقال عنه: إنه قد أسر من أجل أن يؤمن لأصحابه رأس مالهم، قال له: قل ما شئت.

الدعوة أخلاق:

أيها الإخوة، الدعوة أخلاق، الدعوة رحمة، الدعوة حلم، الدعوة قلب كبير الدعوة تواضع، الدعوة محبة، وليست معلومات فقط، المعلومات موجودة بأي مكان بكتاب الكتاب ليس عبئاً على أحد موضوع تقرأ فيه كما تشاء، فلذلك الدعوة أخلاق:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٨)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٠٩-٦٠) : من علامات علو الهمة التمسك بالكتاب والسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

التمسك بالكتاب والسنة يتناقض مع الإنسان:

من صفات الإنسان الذي أكرمه الله بعلو الهمة أنه يتمسك بالكتاب والسنة، ولكن شاءت حكمة الله أن يكون التمسك بالكتاب والسنة أحياناً متناقضاً مع مصلحة الإنسان، هنا المشكلة، لذلك قال عليه الصلاة و السلام:

((ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان))

[متفق عليه عن أنس]

الفرق بين حلاوة الإيمان وحقائق الإيمان:

لابد من التفريق بين حلاوة الإيمان وحقائق الإيمان.

حقائق الإيمان أيّ إنسان على مستوى جيد في الإدراك يقرأ أركان الإيمان، أركان الإسلام، العقائد، العبادات، المعاملات، الآداب، و يفهم شيئاً عن الدين كثيراً، هذه حقائق الإيمان، ولكن حلاوة الإيمان شيء آخر، بينهما كما بين أن تنطق بمليار دولار، أو أن تملكها، المسافة نفسها، بين أن تمتلك خارطة لقصر، وبين أن تمتلكه وتسكنه، بين أن تمتلك صورة لمركبة فارهة، وبين أن تمتلك هذه المركبة، وأن تنتفع بها، لذلك فرق كبير بين حقائق الإيمان وحلاوة الإيمان، يقول الواحد الديان:

(فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ)

[سورة الفتح: ١٨]

هذه السكينة يسعد بها الإنسان ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء.

بنود حلاوة الإيمان:

البند الأول: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ـ البند الأول: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا....))

[البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

معنى حب الله ورسوله:

أنا لا أصدق أن في العالم الإسلامي كله مسلم واحد لو سألته: ألا تحب الله ورسوله أكثر من أي شيء آخر ؟ لقال: بلى، أحب الله ورسوله، ليس هذا هو المعنى إطلاقاً، المعنى أن يكون الله في قرآنه، والنبي في سنته، أي الأوامر القرآنية، والنواهي القرآنية، والأوامر النبوية، لأن كلام النبي وحي غير متلو، ولأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: ٧]

أن يكون الله في قرآنه، والنبي في سنته، توجيهات الله، وتوجيهات النبي حينما تتعارض مع مصلحتك، وتؤثر طاعة الله وإرضاءه، ونيل رضاه، وتضع مصلحتك تحت قدمك الآن دفعت ثمن حلاوة الإيمان.

هذا الذي ظهر من الصحابة شيء عجيب، المؤاثرة، التضحية، الإخلاص، بذل الغالي والرخيص، النفس والنفيس، لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، ولأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان، باعوا كل شيء، واشتروا مرضاة الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: ١١١]

الحياة من دون سعادة جحيم لا يطاق:

فلذلك أيها الإخوة، من دون حلاوة إيمان الدين عبء، أوامره ثقيلة، كله محرمات فيما يتوهم الإنسان البعيد عن الله:

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ)

[سورة البقرة: ٤٥]

الصلاة:

(إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة: ٤٥]

أما إذا قذف الله في قلبك السكينة، أو أذاقك حلاوة الإيمان تعيش حياة والله الذي لا إله إلا هو تنطوي على سعادة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم.

أنا أصدق ملكاً واحداً اسمه إبراهيم بن الأدهم، كان ملكاً، ثم أصبح عارفاً بالله، قال: " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "، لأنه كان ملكاً، ولأنه يعلم ما عند الملك، الدنيا كلها بين يديه، فلذلك:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))

أن يكون الله في أوامره ورسوله في أوامره إذا تعارضت مع مصالحه آثر جانب طاعة الله، ولم يعبأ بمصالحه، عندئذ دفع ثمناً باهظاً، وسلعة الله غالية، عندئذ يذوق حلاوة الإيمان، وإن لم تقل: أنا في جنة ففي الإيمان خلل.

" في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ".

إذا لم تقل: أنا أسعد الناس في كل الظروف ؛ مع إقبال الدنيا، مع إدبارها، قبل الزواج، بعد الزواج، قبل أن يكون لك بيت، بعد أن يكون لك بيت، فإذا وصلت إلى الله وصلت إلى كل شيء. " ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، و إن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، عبدي أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

أيها الإخوة الكرام:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا....))

بين قوانين الحياة والقوانين الإلهية:

لكن ما الذي يحصل ؟ أنت حينما تعيش مع الناس تستنبط من حركة الحياة قوانين و قواعد، هذه القواعد و القوانين مستنبطة من حركة الناس، هذه القواعد و القوانين تتناقض مع قوانين الله عز وجل، فإذا كنت في منصب، إذا أرضيت مَن هم فوقك، ولم تعبأ بمن هم تحتك تتوهم أن مركزك

يقوى، هذا قانون مستنبط من حركة الحياة، فإذا مدحت مديحاً كاذباً، ولم تكن صادقاً فيما تقول، ولم تنصح، ولم تذكر الحقيقة المُرة التي هي أفضل ألف مَرة من الوهم المريح، تتوهم أن مركزك في هذا العمل يقوى، والحقيقة عكس ذلك، وحينما تؤثر طاعة الله، و طاعة رسوله، ولا تعبأ بمصالحك، بل تعبأ برضوان الله يخضعك الله لقوانين لا تعرفها إنها العناية الإلهية، يزداد مركزك قوة، وتزداد عند الله رفعة، وتزداد عند الناس تألقاً، فلذلك ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

حينما تؤثر إرضاء الله على مصالحك، أولاً: أذاقك الله حلاوة الإيمان، هذه الحلاوة سمها سعادة، سمها سكينة، سمها رضا، سمها سرورا، هذه تسعد بها و لو فقدت كل شيء، و تشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، و يا رب، ماذا فقد من وجدك ؟ و ماذا وجد من فقدك ؟

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

قال عليه الصلاة والسلام:

((إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يَردَا علي الحوض))

[الحاكم عن أبي هريرة]

إذا توهمت أن التعامل الربوي أربح، وأن التأمين على المركبة الكامل أكثر راحة، وأن التقسيط الربوي أيسر لحكمة بالغة هناك تسهيلات محرمة، فالظاهر تحقق المصلحة، تذهب إلى بلاد بعيدة، إن اشتريت بيتاً بالتقسيط فأنت معفى من ضرائب كثيرة، والبيت ملكك، لا تدفع أجرة له، بل تدفع من ثمنه، وأنت مالك البيت لأربعين سنة، أو لثلاثين سنة، فكل المنطق والمصلحة يدعوك إلى أن تشتري بيتاً بتقسيط ربوي، بينما لو استأجرت بيتاً فعليك ضرائب كثيرة، والبيت ليس لك، وفي أي لحظة قد يخرجك صاحب البيت منه، تجد الواقع والمصلحة والمنطق أن تشتري بيتاً بتقسيط ربوي، ومن عدم الحكمة ومن عدم المرونة في الحياة لا تستأجر بيتاً.

لو أن إنساناً أراد طاعة الله، ولم يعبأ بمصلحته، الآن يُعامل معاملة خاصة، يعامل بقانون العناية الإلهية، يعامل بتوفيق يفوق حد الخيال، واحفظوا هذا الحديث:

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه و دنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

حينما تترك شيئاً يحقق لك مصلحتك، قد ترفض منصباً رفيعاً، لكن أن تكون في هذا المنصب لابد من أن تفعل شيئاً لا يرضي الله، فتقول: معاذ الله، الله هو الغني، الآن تخضع لقانون العناية الإلهية، فيعوضك الله خيراً من هذا المنصب.

((ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه و دنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

والله الذي لا إله إلا هو لزوال الكون أهون على الله من أن يضيع عبداً آثر طاعته، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، هذه أول نقطة.

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا.....))

لذلك الصحابة وضعوا الدنيا تحت أقدامهم فكانوا أعلاماً فيها، اسمعوا هذه الكلمة: إذا آثرت آخرتك على دنياك ربحتهما معاً، و إن آثرت الدنيا على الآخرة خسرتهما معاً، لذلك كما قلت: " أنت تريد، وأنا أريد ـ كما جاء في الأثر القدسي ـ فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

البند الثاني: وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ

الآن:

((...وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ.....))

من ثمن حلاوة الإيمان الولاء والبراء، أن تحب المؤمنين، ولو كانوا فقراء، ولو كانوا ضعافاً، وأن تتبرأ من غير المؤمنين، ولو كانوا أقوياء، وكانوا أغنياء، قضية الولاء والبراء هي الدين، يجب أن توالي المؤمنين، لكن لمجرد أن تلتقي مع أهل الدنيا، تثني على أناقتهم، وأذواقهم، ولباقتهم، وحكمتهم، ودماثتهم، ولا ترى معاصيهم، وخرقهم لحدود الله، واستهانتهم بكتاب الله، وعدم اهتمامهم بكلام الله، ترى بيوتهم، وأناقتهم، ونعومتهم، وتجد المؤمن فقيرا، أحياناً بيته غير جميل، بيته صغير، دخله محدود، لأنه شريف ما قبل أن يأكل درهماً حراماً، عندما يترفع إنسان عن الحرام لن يكون غنياً، سيكون فقيراً، لذلك ولاءك أيها المؤمن للمؤمنين، تحبهم، تقدرهم، تقدر استقامتهم، تقدر نزاهتهم، تقدر فقرهم أحياناً، لماذا هو فقير ؟ والله آلاف المؤمنين لو أنهم تساهلوا في تطبيق دينهم لكانوا من كبار الأغنياء، لكن دينهم يمنعهم، الإيمان يمنعك.

إذاً:

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

الولاء والبراء، لذلك قال العلماء: هناك حب في الله، وهناك حب مع الله، الحب في الله عين التوحيد، والحب مع الله عين الشرك.

تحب الله إذاً تحب رسول الله، تحب الله إذاً تحب أصحاب رسول الله جميعاً من دون استثناء، تحب الله إذاً تحب المؤمنين، تحب الله إذاً تحب المساجد، بيوت الله.

مرة سألوا امرأة عن رأيها في التعدد، وهي مؤمنة، وأستاذة جامعية، قالت: كيف أدلي برأيي في التعدد، وقد سمح الله به ؟ ولاءها للشرع، أما هي كأنثى فينبغي أن تكره التعدد، ولاءها أقوى من كراهيتها، ولاءها أقوى من أنوثتها، الولاء والبراء.

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ...))

هل أنت مستعد أن تحب في الله ؟ أما أن تحب مع الله إنسانا غنيا قويا، ومعه الدنيا بين يديه، لمجرد أن تقترب منه، وأن تعلن ولاءك له يغدق عليك فتحبه، هذا حب مع الله، هذا الحب مع الله عين الشرك.

البند الثالث: وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ:

((... وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

ثمة مؤمنون لا يعدّون ولا يحصون على حَرْف، مادامت أموره ميسرة، مادام دخله جيدا، مادام يبجَّل، و يعظَّم، ويحترم، ويوضع في الصف الأول فهو مؤمن، أما إذا انتقص من مكانته عن غير قصد يدَع كل دروس العلم، هذا الذي يعبد الله على حرف، مادام هناك تعظيم، وتكريم، وتبجيل، وفي كل دعوة دُعي، وفي كل نزهة دعي، فهو مؤمن، أما إذا انتقصت من كرامته من دون أن تشعر، من دون قصد يقيم الدنيا ولا يقعدها، هذا يعبد الله على حَرف.

لذلك الله عز وجل قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: ٢٣]

بينما ضعيف الإيمان الذي يعبد الله على حرف، لمجرد أن رأى قريشاً، والعرب قد أحاطت بالمدينة في معركة الخندق، وقد قال الله عز وجل:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)

[سورة الأحزاب: ١٠]

قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب: ١١]

فلذلك:

((... وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

أي هو في الأعماق لا تصرفه عن منهجه سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، أحَد أحَدٌ، هذا المؤمن، لذلك هذا المؤمن ذاق حلاوة الإيمان، يقول بعض العلماء: " في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "، إنها جنة القرب، يؤكد هذا المعنى القرآن الكريم:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

[سورة محمد: ٦]

حينما أدعوك إلى أن تتمسك بالكتاب والسنة، الربا حرام، التأمين حرام، أنت حينما تتمسك بالكتاب والسنة، وتتوهم أن هذا التمسك قد يضر بمصلحتك، لكن الله أولى أن تطيعه، ما الذي يحصل ؟ تكسب الدنيا والآخرة، تكسب الدنيا، لأن الله يخضعك لقوانين لا تعرفها، قوانين العناية الإلهية، والآخرة تبقى مع الله قريباً منه، لذلك لا تظن القضية سهلة، أنه سأتمسك بالكتاب والسنة، يوجد أشياء محرمة، وهي عند الناس بديهية لابد منها، وهناك معاملات تجارية، معاملات ربوية، معاملات اقتصادية، كلها تخضع للحرام، يقول لك: الناس كلهم هكذا، بلوى عامة، عندئذ أنت وضعت يدك على حقائق الإيمان، ولم تذق حلاوة الإيمان، أصبح الدين عبئاً وقيوداً وحدوداً، يا أخي لا بأس، لست مرتاحاً، أما حينما تطيع الله طاعة كما أراد الله تذوق حلاوة الإيمان:

فليتك تحلو و الحياة مريـرة و ليتك ترضى و الأنام غضاب
و ليت الذي بيني و بينـك عامر و بيني و بين العالمين خـراب
إذا صحّ منك الوصل فالكل هين و كل الذي فوق التراب تراب
أطع أمرنـا نرفع لأجلك حـجبنا فإنا منحنا بالرضا مَن أحبنـا
و لذ بحمانا واحتم بجنابنــا لنحميك مما فيه أشرار خـلقنا

***

حينما تنعقد صلتك بالله عز وجل، وتذوق حلاوة الإيمان تعلم كم كنت شقياً قبل أن تؤثر طاعة الله على حظوظ نفسك.

أما ماذا نفعل، وهذا الأمر بلوى عامة، ونحن مضطرون، وهذا الأمر فيه فتوى مِن شخص بمصر. مرة سئلت عن هذه الفتوى، قلت لهم: لا تجدون عالماً في العالم الإسلامي من القطاع الخاص يفتي بالربا، قد يكون قطاعاً عاماً.

أيها الإخوة عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا،وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٠-٦٠) : من علو الهمة التمسك بالسنة في آخر الزمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٨-٠٩-٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام ، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

من علامات علو الهمة:

١ ـ التمسك بسنة رسول الله في زمن الغربة:

المؤمن الصادق ، ولا سيما في آخر الزمان متمسك أشد التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وقد قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: ٣١]

فاتباع النبي عليه الصلاة والسلام في منهجه التفصيلي من علامات علو الهمة ، وبعلو الهمة تصلح الأمة ، لذلك أول خصيصة لهذا المتمسك المتبع للسنة الشعور بالغربة ، لذلك المؤمنون في أهل الإسلام غرباء ، يقول لك: بلد إسلامي ، يصلون في جوامع ، فالمؤمن المتمسك بمنهج الله في أهل الإسلام يشعر بالغربة ، وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنة في المؤمنين غرباء ، لذلك:

((بدأ الدين غريباً ، وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

[مسلم عن أبي هريرة]

حينما تشعر بنوع من الغربة فأنت عالي الهمة ، وحينما تشعر أنك مع الناس ، والناس كلهم خير وبركة ، ولا مشكلة ، والكل طيبون ، والكل آدميون ، وهم غارقون في المعاصي والآثام ، هذا مؤشر خطير جداً ، تجلس في جلسة فيها مزاح رخيص ، وتعليق خبيث ، وموضوعات ساخنة ، وموضوعات حميمة ، ووصف لبعض مفاتن النساء ، والكل أصحاب دين ، ويحبون الله ، ومن رواد المساجد ، حينما تشعر أنك في مجتمع غريب تشعر بالغربة فهذا من علو الهمة ، لأن الله عز وجل يقول:

﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

[سورة الأنعام: ١١٦]

من خصائص الغربة:

١ – الغربة تكون في مكان دون مكان:

هذه الغربة أيها الإخوة تكون في مكان دون مكان ، يمكن أن تذهب إلى عرس ، النساء شبه عاريات ، ويمكن أن تذهب إلى مسجد فيه راحة كبيرة جداً ، مكان دون مكان ، لذلك عالي الهمة يلزم الأمكنة التي يرتاح بها ، يمكن أن تذهب إلى نزهة ، إلى مكان عام فيه غناء وغمز ولمز وإطلاق بصر ونساء فاتنات ، يمكن أن تذهب أنت وأهلك إلى مكان جميل لكن ما فيه اختلاط ، إذاً بمكان دون مكان.

٢ – الغربة تكون في زمان دون زمان:

وبوقت دون وقت ، هناك أماكن جميلة ، لكن في الصيف ليس لك مكان فيها إطلاقاً ، لكن في وقت آخر لك مكان في هذه الأمكنة ، أنت مؤمن متميز ، فلذلك إذا كنت مع الناس في كل شؤونهم ، في أماكنهم ، في أماكن نزهاتهم ، ولم تشعر بالغربة ، مع أن المعاصي والآثام كثيرة جداً فهذه مشكلة.

من خصائص أهل الغربة:

١ – أهل الغربة أهل الله حقاً:

أهل الغربة أهل الله حقاً ، هذه الغربة لا وحشة على صاحبها ، بل هو أشد الناس أنساً بالله عز وجل ، والاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

١ – المؤمن غريب لكنه اجتماعي لبق:

أريد أن أؤكد لكم أن المؤمن غريب ، هو اجتماعي لبق لطيف ، وظله خفيف ، ومرن ، ويألف ، ويؤلف ، لكن عنده مبادئ ، عنده منهيات ، عنده خطوط حمر ، علامة المؤمن أن في حياته خطوطا حمراء ، هذه في حرام.

الآن حينما تتمسك بالسنة يمكن أن تفقه حكمتها ، ويمكن ألا تفقه ، لكن بداعي إيمانك الشديد تتمسك بالسنة ، فهمت حكمتها أم لم تفهم ، لأن بعض العلماء قالوا: علة الأمر الإلهي إنْ في القرآن ، وإنْ في السنة أنه أمر ، لذلك لما ذهب عالم من علماء الشام إلى بلاد بعيدة ، والتقى بإنسان هداه الله إلى الإسلام من تلك البلاد ، ودار الحديث حول لحم الخنزير ، وبدأ العالم الدمشقي يشرح ، ويشرح ، ويشرح عن مضار لحم الخنزير ، فكان ذلك العالم أشد فقهاً من هذا العالم الأول ، قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه ، إله يحرم شيئًا ، فهمت الحكمة أم لم أفهم ، لأنك مع طبيب يحمل شهادة عليا ، ولك ثقة بعلمه ، يقول لك: دع الملح ، لا تفكر في حكمة هذا النهي ، هو قال لي ، مثلاً، يقول لك طبيب آخر: يجب أن تبيع بيتك في الطابق الرابع ، وأن تسكن في طابق أرضي ، لا تحاوره إطلاقاً ، فكيف مع الواحد الديان ؟!

لذلك الإمام يقول الغزالي: " يا نفس ، لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين ، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً: ما أكفركِ ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله؟ إذاً: ما أجهلكِ ".

كفر دون كفر:

إنّ أيّ إنسان يعصي الله ، والأمر واضح ، والنهي واضح ، مدموغ بالكفر ، هذا كفر دون كفر ، هناك كفر يخرج من الملة ، وهناك كفر دون كفر ، دليله ، قال تعالى:

(أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة: ٥٤]

بنص هذه الآية هو كافر ، كافر بالتفاصيل ، كافر بمفردات المنهج ، مؤمن بوجود الله ، فهذا كفر ، لكن دون كفر.

النتفاع بالشيء أحد فروع العلم به:

لذلك أيها الإخوة ، قال العلماء: " الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به " كيف ؟

اقتنيت مكيفاً ، وأنت إنسان مثقف ، معك دكتوراه بالتكييف ، لك عمل في البلد كبير جداً في التكييف، اقتنيت مكيفاً ، وفتحته ، فجاءك الهواء البارد ، أنت أعلم مَن حولك بخصائص هذا الجهاز، وآلية عمله ، وعلى أي مبدأ بني ، وكيف يأتي الهواء البارد ، ويأتي إنسان لا يقرأ ولا يكتب ، يقتني جهاز تكييف ، ويفتحه ، ويأتيه الهواء البارد ، فعظمة هذا الشرع أن أي إنسان طبقه قطف ثماره عن علم ، أو عن غير علم ، فهم حكمته ، أو لم يفهم ، أدرك المقاصد البعيدة ، أو لم يدركها.

عليك بخاصة نفسك ،ودع العوام:

١ – انتشار الشح والهوى والعجب:

أيها الإخوة.

مُروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ـ المادية المقيتة ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ـ وهوىً متبعاً ـ يميل الناس إلى المتع الرخيصة المباحة ، أما الآن فالناس يميلون إلى المتع الرخيصة المحرمة.

((حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ الْعَوَامَّ))

[الترمذي ، النسائي ، ابن ماجه]

بمعنى انجُ بنفسك ، أحياناً الفتن تنتشر ، والانحرافات تصبح هي الأصل.

٢ – تبدُّل القيم:

قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون ـ عجبوا ـ قالوا وما أشد منه ؟ قال كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، قالوا أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال وأشد منه سيكون ، قالوا وما أشد منه ؟ قال كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

هذه حالة خطيرة جداً ، تبدل القيم ، انعكاس القيم.

١ – ما المقصود بخاصة النفس ؟

أيها الإخوة ، عليك بخاصة نفسك ، أهلك ، وإخوانك ، وأصدقاءك ، وجيرانك المؤمنين ، وزملاءك في العلم ، هي واسعة ، مَن تثق به ، من كان على شاكلتك ، من كان يحب الله ، من كان يطيع الله عز وجل ، عليك بهؤلاء ، ودع عنك أمر العامة ، أنت لا تستطيع أن تنهى امرأة متفلتة في الطريق عن تفلتها ، لا تستطيع أن تقول كلمة ، هكذا طبيعة الحياة الآن.

بشرى نبوية صادقة:

أيها الإخوة ، لكن كبشارة:

((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة))

[مسلم عن سعد بن أبي وقاص]

هذه الفئة ، ولو أنها صغيرة ، لكنها حجة ، والبطولة ألا ينفرد الباطل في الساحة ، لو أن هناك مجتمعا صغيرا ، جامع صغيرا ، فيه التزام ، فيه تطبيق ، فيه ورع ، فيه محبة ، فيه تماسك ، فيه تعاون ، فيه تضامن ، فيه إيثار لله عز وجل ، فهذه البقعة الضوئية الصغيرة تنمو ، وتنمو ، وتنمو، لكن الخطر كل الخطر أن ينفرد الباطل في الساحة هذا أخطر شيء ، أما بأي بلد إسلامي ، والحمد لله هناك أماكن جيدة ، ودعوة خالصة ، وعلماء ورعون ، ودعوة صادقة ، فما دام هناك بؤرة ضوئية متألقة فنحن بخير ، لأن كل إنسان يبحث عن مقصده.

مرة ذهب إنسان إلى بلد مشهور بالتفلت ، قال لي: والله ما رأيت شيئاً ، وهو قصده أهل العلم ، قصده مدارس العلم ، المساجد ، إخوانه المؤمنين ، قال: والله ما رأيت شيئاً ، يذهب إنسان آخر إلى بلد يرى كل شيء منحرف ، أنت وقصدك من هذه الزيارة .

قصة ومعتبر:

ثمة قصة أرويها كثيراً ، لكن مناسبتها هنا أن مشكلتنا الأولى أننا نبيع ديننا كله بعرض من الدنيا قليل ، الرجل يمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً ، ويصبح مؤمناً ، ويمسي كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل:

هذا إمام مسجد في لندن ، نقل إلى بلدة في ظاهر لندن ، فاضطر أن يركب مركبة كل يوم ليؤدي الصلوات هناك ، أعطى السائق قطعة نقد كبيرة ، ردّ له السائق البقية ، عدها فإذا هي تزيد عشرين سنتاً على ا يستحق ، لأنه إمام مسجد ، ويخاف من الله ، قال: ينبغي أن أعيد المبلغ إلى السائق ، قال له الشيطان: هذه شركة عملاقة ، ودخلها فلكي ، وأنت إنسان فقير ، والمبلغ زهيد ، لا يقدم ولا

يؤخر ، وأنت في أمسّ الحاجة إليه ، هو هبة من الله لك ، دون أن يشعر مدّ يده إلى جيبه ، وأعطى السائق العشرين سنتاً ، فابتسم السائق ، قال له: ألست أنت إمام هذا المسجد ؟ قال له: بلى ، قال: حدثت نفسي قبل يومين أن آتيك في المسجد لأتعبد الله عندك السائق ولكنني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي إليك ، فأدرك هذا الإمام عظم الجريمة التي كاد يقترفها لو أبقى المبلغ في جيبه ، فأغشي عليه ، فلما صحا من غفوته قال: يا رب كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً.

كيف تكون تصرفات المسلمين سبب عداء الغرب لهم:

١ – المسلمون يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل:

إنّ سبب تخلفنا ، وسبب كراهية العالم للمسلمين ، وسبب الحرب الشعواء ، وسبب الحرب العالمية الثالثة المعلنة على الإسلام المسلمون ، لأنهم باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل.

١ – الغرب يفهم الإسلام من تصرفات المسلمين لا من مرجعيته:

أنا أقول دائماً: العالم الغربي لا يفهم الدين من مرجعياته ، لا يمكن أن يفهم إنسان غربي الإسلام من كتاب فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ولا من تفسير القرطبي ، لا يفهم الإسلام إلا من المسلم الذي أمامه فقط ، فإذا كان هذا المسلم الذي أمامه غير مطبق لكتاب الله ضعف الإسلام في نظر هذا.

مثال من الواقع الغرب في فهم الإسلام:

ذهب شاب إلى بلاد بعيدة ، وأحب فتاة حباً جما ، لكن ليست مسلمة ، فلما عرض على أبيه الزواج منها أقام عليه النكير ، وكاد يتبرأ منه ، ويحرمه من الميراث ، فلما اقترح عليه بعد حين أنها لو أسلمت أيوافق ؟ قال له: أوافق ، هذا اشترى لها كتباً عديدة باللغة الإنكليزية ، وقال لها: إن أسلمت أتزوجك ، شرط الزواج بك إسلامك ، أخذت هذه الكتب ، وقرأتها بعيدة عنه ، طلبت إجازة أربعة أشهر ، لا تلتقي به أبداً حتى لا يكون عليها ضغط ، وقرأت هذه الكتب بهدوء وعناية ، وقد مرت هذه الأشهر على الشاب أربعين سنة ، هكذا من شدة تعلقه بها ، فلما انتهت المدة ، والتقى بها نطقت كلمة اختل توازنه ، قالت له: لقد أسلمت ، ولكنني لن أتزوجك ، لأنك بحسب ما قرأت لست مسلماً. هذا الواقع ، نصلي بجوامع ، الإسلام بعملك ، الإسلام بكسب مالك ، الإسلام بإنفاق مالك بطريقة

احتفالك ، بأفراحك ، بأتراحك ، الإسلام بتنفيذ دقائق الشرع ، إن الإنسان ليعبد الله ستين عاماً ، ثم يضر في الوصية ، فتجب له النار.

أسر عريقة ، وأسر يقال عنها: تقية ، يحرمون البنات ، يعطون الذكور فقط بطريقة أو بأخرى ، البنات يجبرن على توكيل أخيهم الأكبر ، والأخ الأكبر يأخذ كل ثروة الأب ، والله آلاف القصص البنات يحرمن من حقهم في الميراث ، إسلام في الجوامع ، وفي الصلاة ، لكن المنهج التفصيلي غير مطبق ، بكسب المال ، بإنفاق المال ، بتوزيع الإرث ، فلذلك أيها الإخوة ، حينما يبقى الإسلام شكلاً وإطاراً ، وحينما يصبح الإسلام تقاليد وعادات وفلكلورا عندئذ تكون الطامة الكبرى.

يقول بعض العلماء ، وهو ابن القيم رحمه الله: " رأس الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن يحمله على باطل يقترفه ".

لما قال الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء]

قالوا: " القلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله ، وسلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله ، وسلم من عبادة غير الله ، وسلم من تحكيم شرع غير شرع الله ، هذا القلب السليم ".
هل عندك إمكان أنك إذا قرأت مقالة علمية في مجلة مرموقة تخالف آية قرآنية أن تركل الموضوع كله بقدمك ؟ هذا الإيمان ، هل عندك قوة أن النظام الاقتصادي في العالم كله نظام ربوي ، وأنت تعتز بنظام اقتصادي ما فيه ربا إطلاقاً ، هذه البطولة ، أما علاقاتنا المالية فعلاقات ربوية ، مناسباتنا الاجتماعية مناسبات غربية متفلتة ، الآن بدأ يظهر في المجتمعات الإسلامية أعراس مختلطة ، نساء كاسيات عاريات ، ورجال ، في البطاقة: والطيبون للطيبات ، فهذا التفلت مع المحافظة على العبادات الشكلية هذه مشكلة المسلمين ، فعلو الهمة يقتضي اتباع السنة ، والمتبع لسنة النبي عليه الصلاة والسلام يعد غريباً في هذا الزمان.

نصيحة إلهية قيمة: فأووا إلى الكهف:

لذلك أقول لكم ما قال الله لفتيان أهل الكهف:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)

[سورة الكهف: ١٦]

نحن كهفنا جامعنا ، وكهف المؤمن بيته ، جنة المؤمن داره ، أما غير المؤمن فجنته الملاهي والمقاصف ، والمتنزهات العامة ، والاختلاط ، وكل شيء يدعو إلى التفلت ، فلذلك أيها الإخوة علامة أنك عالي الهمة الإحساس بالغربة ،

((بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء ، أناس صالحون في قوم سوء كثير))

[مسند أحمد عن ابن عمرو]

عندما لا تعرف قواعد اللغة العربية ، وإنسان قرأ نصّا أمامك فيه ثمانية وثلاثون غلطة ، وأثنيت عليه ، ثناؤك عليه دليل أنك لا تفقه شيئاً في اللغة ، أما حينما تتابع قواعد اللغة ، وتكتشف ثمانية وثلاثين غلطة بقراءته تكون عالماً باللغة ، فتأتي الغربة من العلم.

حينما تعلم ، وترى الناس لا يعبئون بطاعة الله ، وكل حياتهم حياة تقليد أعمى ، لو دخل الناس جحر ضب لدخلتموه ، يجب أن يكون في البنطال فتحات كبيرة حتى تظهر منها بشرة الرجل ، تقريباً هذه الموضة ، نحن أضعنا عقولنا إطلاقاً.

لذلك أيها الإخوة ،

((بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء ، أناس صالحون في قوم سوء كثير))

[مسند أحمد عن ابن عمرو]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١١-٦٠) : علو الهمة في أداء العبادات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

علو الهمة اليوم في أداء العبادات:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة ، وعلو الهمة اليوم في أداء العبادات.

وكما تعلون، لو شبهنا الدين الإسلامي بمثلث قُسّم إلى أربعة أقسام، في رأس هذا المثلث العقيدة، وبعدها العبادات، وبعدها المعاملات، وبعدها الأخلاق، فديننا: عقيدة وعبادة، ومعاملات، وأخلاق، إن صحت العقيدة صح كل شيء، يأتي بعد العقيدة العبادات، والعبادات شعائرية وتعاملية، العبادات الشعائرية:

الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة.

منزلة الصلاة وأهميتها في الإسلام:

١ – الصلاة فرض لا يسقط بحال:

فالصلاة تقع على رأس العبادات الشعائرية، ذلك لأن الصلاة هي الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال، فإذا سقط الحج عن الفقير والمريض، وسقط الصيام عن المريض والمسافر، وسقط الزكاة عن الفقير، وشهادة ألا إله إلا الله ينطق فيها مرة في العمر، بقيت الصلاة الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال.

((من أقام الصلاة فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

((ولا خير في دين لا صلاة فيه))

[ورد في الأثر]

وأول ما يحاسب العبد يوم القيامة عن الصلاة.

الآن: علو الهمة في أداء الصلوات.

٢ – لا بد مع الصلاة مِن علم:

العبادة على رؤوس العباد أحلى من التيجان على رؤوس الملوك، لكن لا بد من أن ننوه إلى أن العبادة إذا أديت أداء صحيحاً من دون علم فهي مقبولة، وصاحبها ناجٍ، لكن مقاومة هذا المؤمن العابد هشة، لا تقف أمام الإغراء أو الضغط، سريعاً ما ينهار أمام فتنة أو ضغط قوي، بينما العالم كالجبل الراسخ، لا يتأثر لا بسبائك الذهب اللامعة، ولا بسياط الجلادين اللاذعة.

((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم))

[أخرجه الترمذي عن أبي أمامة]

وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

إذاً يجب أن يكون مع الصلاة علم، العلم حارس، العلم يقوي الإيمان.

لكن الآن نحن في الصلاة، لن يسأم العباد المؤمنون من عبادة ربهم ومناجاته، لذلك قالوا: رحم الله رجالاً نصبوا أبدانهم لخدمة مولاهم، وكابدوا العبادة حتى استمتعوا بها، وإذا أقبل وقت الطاعة اشتاقوا إليها، وحنت أرواحهم للقيام بها.

وقال بعض العلماء: رأيت الفوائد ترد في ظُلم الليل، ولو يعلم الناس ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً.

٣ – الصلاة ميزان:

والصلاة في الحقيقة ميزان، فمن وفى استوفى، من وفى استقامته حقها استوفى من الصلاة ثمراتها، بشكل بعيد عن النصوص ما دام هناك معصية، ما دام هناك تقصير، ما دام هناك تساهل، ما دام هناك دخل فيه شبهة، ما دام هناك علاقة فيها شبهة، ما دام هناك عدم انضباط، ما دام هناك عمل لا يرضي الله، ما دام هناك شهوة لا ترضي الله فالإنسان محجوب عن الله، أعجبه ذلك أو لم يعجبه، أدرك ذلك أو لم يدرك، أنت بإرادتك يمكن أن تقف، وأن تفتتح الصلاة بتكبيرة الإحرام، وأن تقرأ الفاتحة، وتقرأ سورة قراءة صحيحة، وأن تركع مطمئناً، وأن تسجد، وأن تؤدي حركات الصلاة وكلماتها بالتمام والكمال، ولكن المعصية، وأكل الحقوق، والتجاوزات، وعدم الانضباط فيما بين الصلوات كل هذا حجاب للإنسان عن ربه، فالبطولة لا أن تحابي نفسك، كل إنسان يصلي.

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

تفكّر في ملكوت السماوات والأرض، تفكر في هذه الآيات، الله عز وجل جعل الكون كله مظهراً لأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، فما لم يكن هناك تفكر، وتعرف إلى هذه الذات الكاملة لم يكن هناك إدراك لعظمة الله عز وجل.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر الآية: ٦٧)

الموقف الكامل في الصلاة من الأيات التكليفية:

أقول لكم: حينما تقرأ القرآن، وتقف عند آية أمر، ما الموقف الذي تقف من هذه الآية ؟ كيف تتدبر هذه الآية ؟ ينبغي أن تأتمر، وإذا قرأت آية فيها نهي، ما الموقف الذي تقفه ؟ يجب أن تنتهي، وإذا قرأت آية في وصف الجنة ما الموقف الذي ينبغي أن تقفه ؟ ينبغي أن تسعى إلى الجنة، وإذا قرأت آية فيها وصف للنار ما الموقف الذي ينبغي أن تقفه ؟ أن تبتعد عنها باتقاء المعاصي والآثام، وإذا قرأت آية فيها وصف للذات الإلهية ينبغي أن تبادر إلى القرب منه، وإذا قرأت آية فيها وصف لأمم سابقة أهلكهم الله عز وجل ما الموقف الذي ينبغي أن تقفه ؟ أن تتعظ، هذا تمهيد.

الموقف الكامل في الصلاة من الأيات الكونية:

فإذا قرأت آية كونية ما الموقف الذي ينبغي أن تقف منها ؟ ينبغي أن تتفكر في خلق السماوات والأرض، من أجل أن تعرف الله، لأنك إن عرفته عرفت كل شيء، وإن فاتتك معرفة الله فاتك كل شيء، في القرآن الكريم في ١٣٠٠ آية تتحدث عن الكون، ما موقفك منها ؟ التفكر، والتفكر طريق معرفة الله.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

الآية واضحة.

الآن:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

(سورة القدر)

ألف شهر تعبد الله عبادة من دون تفكر تعدلها ليلة واحدة، تفكرت في خلق السماوات والأرض فقدرت الله حق قدره، وأصل الدين معرفة الله.

لذلك: كلما قرأت آية كونية اعلم علم اليقين أن هذه الآيات منهجك في التفكر، والله اختار لك من بين مليار، مليار، مليار إلى أن ينقطع النفس، أو إلى أن تنتهي الحياة اختار لك ١٣٠٠ آية، نسميها أحياناً رؤوس الموضوعات، هذه موضوعات التفكر، فإذا تفكرت فيها عرفت عظمة الله عز وجل، وكلما ازدادت معرفتك بالله ازدادت طاعتك له، لذلك:

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي))

حينما تدخل لتقابل وزيرا تعتني بهندامك، وإن جلست أمامه تتجه إليه، ما رأيت واحداً يقابل إنسانا له منصب رفيع، ومعه جريدة يقرأها أمامه، أو يعبث بسبحته، أو يتلفت يمنة ويسرة، يجلس بأدب، ثيابه أنيقة، يتجه إليه، فما موقفك إذا توجهت إلى خالق السماوات والأرض ؟ لا تجعل الله أهون الناظرين إليك، لا تجعل الله، لذلك صلاة من دون معرفة بالله عز وجل تؤدى شكلاً.

" إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي " .

أثر المعاملات في إقامة الصلاة:

إن غير المستقيم يمكن أن يؤدي حركات الصلاة بالتمام والكمال، وغير المستقيم يمكن أن يقرأ ما ينبغي أن يقرأ في الصلاة بالتمام والكمال، لكن غير المستقيم لا يمكن أن يتصل بالله في أثناء الصلاة، لأن ذنبه حجاب بينه وبين الله، أنا أفهم معنى إقامة الصلاة أن تستقيم على أمر الله قبل الصلاة.

مثلاً: بائع بسوق تجاري، أكثر الذين يدخلون هذا المحل نساء كاسيات عاريات، فلو فرضنا شابا في هذا المحل يملأ عينيه من محاسن هؤلاء النساء، ويحادثهن حديثاً ليناً، ويرتكب كل معاصي العين، أذن الظهر والجامع إلى جانب المحل، هو إنسان مسلم وورع، دخل إلى المسجد ليصلي، يتوضأ، ويقف في الصلاة، ويقرأ، وبركع، ويسجد ، لكن هذه الساعات الثلاث التي أمضاها في معصية العين لا يستطيع أن تنعقد صلته بالله عز وجل، هذه حقيقة مرة، لكنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح، ما دام هناك مخالفات، ودخل غير مشروع، واعتداء على حقوق الآخرين، وغش، وتدليس، واستغلال جهل الذي أمامك، وأنواع الغش التي لا تعد ولا تحصى فلا صلة للإنسان في هذه الصلاة.

أحيانا يقول لك من يشتري عندك قطعة قماش: أرجو أن تنتقي لي أجمل الألوان، وعندك ثوب لونه كاسد، لونه غير جميل، تقول له: هذا أجمل لون، هذه الموضة، حينما قلت هذه الكلمة، ثم جاء وقت الصلاة لا تستطيع أن تنعقد صلتك بالله لأنك غششته.

أنا أقول كلاما دقيقا: من أجل أن تتصل بالله ينبغي أن تكون صادقاً، ينبغي أن تكون أميناً، ينبغي أن تكون عفيفاً، ينبغي أن تضبط جوارحك، ينبغي أن تضبط دخلك ، ينبغي أن تضبط إنفاقك، ينبغي أن تضبط بيتك، ينبغي أن تضبط زوجتك، بناتك، أولادك، فإذا كنت وفق منهج الله كان انعقاد الصلاة سهلا جداً.

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

(سورة البقرة)

هذا كلام دقيق: المسلمون مليار ونصف مليار إنسان، وفي الأعم الأغلب جميعهم يصلي، ولكن لا وزن لهم في الأرض، وفي الحديث الصحيح:

((لَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود، ابن ماجه، أحمد عن ابن عباس]

فما بال الملايين المملينة ليست كلمتهم هي العليا، كيف يستنجد سيدنا خالد بن الوليد بسيدنا الصديق، ليرسل له خمسين ألف جندي مددًا في معركة معه فيها ثلاثون ألفا، ويواجه ثلاثمئة ألف، أرسل له الصديق واحدا، القعقاع بن عمرو، وصل إليه قال له: أين المدد ؟ قال له: أنا المدد، والله شيء كالخيال، شيء لا يصدق، قال له: أنت المدد ؟! معه كتاب، فتح الكتاب يقول الصديق لسيدنا خالد: << فو الذي بعث محمداً بالحق، إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم >>، وهو رجل واحد. الآن المليار بأف، كان الواحد بألف، كان الواحد بمليون، الآن المليار بألف وكلهم يصلون، اقرؤوا قوله تعالى:

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

(سورة التوبة الآية: ٥٤)

يصلون.

(وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

(سورة التوبة الآية: ٥٤)

هناك كفر دون كفر، ما دام لست مصدقا أن الربا حرام، وأن التدليس حرام، وأن الغش حرام، وأن اللقاءات النسائية المتفلتة حرام، وكان سلوكك غربيا، احتفالات، أعيادك، أفراحك، أحزانك، دخلك، إنفاق مالك، لكن يضع مصحفا في السيارة، وبالمحل التجاري:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

(سورة الفتح)

مظاهر الدين رائعة، ويوم الجمعة ثياب بيضاء، وعطر، ومسك، كله درجة أولى، إذا لم يصاحبها استقامة فلن تقطف من الدين شيئاً، هذه حقيقة مُرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

[ورد في الأثر]

واللهِ هناك مئات الألوف من الدعاوى من مسلمين فيها باطل، وفيها كيد في قصر العدل، مئات ألوف الدعاوى، يأكلون المال الحرام، يأخذون أموال الناس، ولا يؤدونها، يغشون في بيعهم وشرائهم، السلوك كله غلط، وننتظر النصر من الله ؟!.

الصحابة الكرام وهم نخبة البشر، ومعهم سيد البشر، لأنهم عصوه يوم أُحُد لم ينتصروا، لو أنهم انتصروا لسقطت طاعة رسول الله، وفي حنين لم ينتصروا لأنهم أشركوا قالوا: لن نغلب من قلة، لذلك أيها الإخوة، قال الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

من صفات المصلين الواردة في القرآن:

لكن دققوا، أنا أقول: إنسان، هذه الكلمة تنطبق على ستة مليارات، قلت: إنسان مسلم مليار ونصف، إنسان مسلم عربي ٣٠٠ مليون، إنسان مسلم عربي مثقف ٥٠٠ ألف فرضاً، مليون، إنسان مسلم عربي مثقف طبيب ١٠٠ ألف، إنسان مسلم عربي مثقف طبيب قلب ٢٠٠، كلما أضفت صفة ضاقت الدائرة، لذلك:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

ضاقت:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون)

من صفات المصلين الواردة في السنة:

هناك شروط للصلاة، لذلك:

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي ـ فكر ـ وكف شهواته عن محارمي ـ استقام ـ ولم يصر على معصيتي ـ تاب ـ وأطعم الجائع وكسا العريان، ورحم المصاب ـ له عمل ـ))

والله هناك أناس يمضون عشرات السنين لا يقدمون لله شيئاً.

((وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، كل ذلك لي ـ مخلص فكر واستقام، وتاب وأخلص ـ))

((وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة نورا يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أيها الإخوة الكرام، هناك شيء دقيق: لو أردت أن تعدد نشاطاتك في التجارة، كم نشاطا فيها ؟ أكثر من ألفي نشاط، شراء محلات، مستودعات، تعيين موظفين، استيراد بضاعة، أخذ وكالات، جمع أموال، مئات النشاطات، التجارة كلها تضغط بكلمة واحدة، التجارة تعني أن تربح، فإن لم تربح فلست تاجراً.

خلاصة النشاط الديني: الأتصال بالله:

كم من نشاط ديني ؟ مليون، تؤلف كتابا، تحضر مؤتمرا، تلقي خطبة، تصلي ، تقرأ كتاب فقه، تعمل جمعية خيرية، مليون نشاط ديني، الدين كله مضغوط بكلمة واحدة أن تتصل بالله، إن لن تتصل لم تقطف من الدين شيئاً، الاتصال بالله يجعل بالقلب رحمة يجعل بالقلب يتواضع، فيه محبة، فيه إنصاف.

هل يمكنك أن تعامل خادمة في البيت كما تعامل ابنتك تماماً ؟ إن لم تفعل فلست مؤمناً.

هل يمكن أن تعامل زوجة ابنك في البيت كما تعامل ابنتك ؟ هذه غير هذه، البنت تعطى ألف تبرير لأخطائها، أما زوجة الابن فلا تعطى تبريرا، لستَ إذًا منصفا، المؤمن منصف، هل يمكن لزوجة رجل تعامل أولاده من زوجة أخرى كما تعامل أولادها ؟ هذا هو الدين، إذا لم تعشق المؤمن فليس بمؤمن، من أدبه، تواضعه، وإنصافه، وصدقه، وأمانته، وعفته، أما فقط يصلي.

أحيانا تجلس في جلسة لا تجد فرقا بين مصلٍّ وغير مصلٍّ أبداً، بالمزاح، وإطلاق البصر، لا فرق أبداً، الفرق أنه يصلي إذا لم يكن الفرق بمليون نقطة فليس مصلياً.

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي ـ فكر ـ وكف شهواته عن محارمي ـ استقام ـ ولم يصر على معصيتي ـ تاب ـ وأطعم الجائع ـ له عمل صالح ـ وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي ـ أخلص ـ النتائج: وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلما ـ كل النقائص الأخلاقية تحت كلمة جهالة، وكل الفضائل تحت كلمة حلم ـ على أن أجعل الجهالة له حلما ـ مؤمن رحيم، مؤمن منصف، مؤمن متواضع مؤمن ورع، مؤمن عفيف، مؤمن صادق، مؤمن أمين ـ والظلمة نورا ـ مهتدي يرى الحق حقاً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه ـ على أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة نورا ـ الآن ـ يدعوني فألبيه ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٢-٦٠) : من علامات علو الهمة العناية بالصلاة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة النشاط التجاري: الربح:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة، والموضوع اليوم تطبيق عملي لموضوع الصلاة، فكما تعلمون كيف أن التجارة لها نشاطات لا تعد ولا نحصى، بدءاً من شراء الأرض، وبناء المحل أو المعمل، والمستودعات والمكاتب، وتعيين الموظفين، واستقدام المندوبين، وعقد الصفقات، وبيع البضاعة، وجمع ثمنها، والدعاية، والإعلان، والمحاسبة، عشرات، بل مئات، بل ألوف النشاطات تجمعها كلمة التجارة، لكنه يمكن أن تضغط كلها في كلمة واحدة، "هي الربح "، فإن لم تربح فلست بتاجر.

الآن تصور إنسانا يحمل أعلى شهادة في إدارة الأعمال، وفي التسويق من أرقى بلد في العالم، وخسارته مستمرة، وإنسان أمي لا يقرأ، ولا يكتب أرباحه طائلة، من هو التاجر ؟ العبرة أن تحقق الهدف، هذا تمهيد.

خلاصة النشاط الديني: الصلاة:

الدين كم نشاطا فيه ؟ حضور دروس علم، قراءة كتب، دعوة، إلقاء محاضرات، إلقاء خطب، تأسيس جمعيات، إنشاء ميتم، إنشاء مستشفى، إنشاء مستوصف، نشر كتب قديمة، تحقيق، أكثر من مليون نشاط يجمعها الدين، ومع ذلك يمكن أن يضغط الدين كله بكلمة واحدة، هي الصلاة، لأنها الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، وأول ما يحاسب الإنسان من عمله عن صلاته، فإذا صحت صح عمله.

من علامات الهمة العناية بالصلاة:

فلذلك أيها الإخوة، من علامات علو الهمة العناية بالصلاة، وذكرت أن الإنسان بإمكانه أن يقوم إلى الصلاة، وأن يتوضأ، وأن يقف، وأن يقرأ، وأن يركع، وأن يسجد لكنه لن يستطيع أن يتصل بالله إلا إذا استقام على أمره، كل بني آدم خطّاء، أما الإنسان المقيم على مخالفة، وهو يعلم أنها مخالفة،

ويصلي ؟! هذا مستحيل ! ذلك من أجل أن تنعقد الصلاة لا بد من التوبة النصوح، لا بد من استقامة على أمر الله حتى تنعقد الصلاة.

ضوابط لتفادي الغلو في العبادات:

الآن لئلا نقع في التطرف، أو في الغلو أضع بين أيديكم مجموعة قواعد تضبط المؤمن من أن يغالي في عباداته، ومن أن يقصر في عباداته.

الضابط الأول: ألا يحصل للمؤمن ملل يفقده لذة العبادة:

ألا يحصل للمؤمن ملل يفقده لذة العبادة، من مبالغته في العبادة يفقده لذة العبادة، بدليل قول النبي الكريم:

((ليصل أحدكم نشاطه))

[متفق عليه]

ما دمت نشيطاً صلِّ، أما إذا تعبت، وأصبحت الصلاة عبأ عليك، ولا تستطيع متابعتها، وقد ألزمت نفسك ما لا يلزم فالأولى أن تكف عن متابعة الصلاة النافلة.

إذاً: أنت تصلي طبعاً الفرائض، والسنن الراتبة لا علاقة لها بالموضوع إطلاقاً ، الحديث عن النوافل، عن أن علو الهمة يحتاج إلى إتقانٍ للعبادات، أول شيء ألا يحصل ملل يفقد المؤمن لذة العبادة بدليل:

((ليصل أحدكم نشاطه))

بعضهم يؤثر التشدد في أن من تاب، وقد فاته أعوام مديدة من الصلاة يلزمونه أن يصلي كل الصلوات التي فاتته، وقد يكون هذا فوق طاقته، وقد يكره الناس بالتوبة، أنت حينما تتوب إلى الله توبة نصوحًا فلا شيء عليك.

((من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه]

((من حج لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

والتوبة النصوح تهدم ما كان قبلها.

((فمن تاب إلى الله توبة نصوحا أنسى الله حافظيه وجوارحه، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[أخرجه أبو العباس بن تركان الهمذاني عن أبي الجون]

إذاً: ينبغي أن تصلي الفرائض والسنن والنوافل، من دون أن تحملك النوافل على أن تكره الصلاة، أو أن تملها، أو أن تسأمها، هذا أول شرط: أن يكثر بحسب طاقته، والدليل:

((عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ))

[رواه شُعَيْبُ بْنُ يُوسُفَ عَنْ يَحْيَى عَنْ عَائِشَةَ]

لا تكلف نفسك ما تطيق، هناك أقوال صدقوا ليس لها أصل، أن أحد العلماء صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عاما، صدقوا هذا ليس له أصل، ولا يحتمله أحد من بني البشر، وحينما تضع حالات قديمة فوق طاقات البشر تُيئّس الناس من التزام أمر الله عز وجل، كن واقعياً، فسنة النبي متكاملة، متوازنة، يمكن أن تحقق بها أعلى الدرجات، أما أن تترنم بقصص لا أصل لها من أجل أن ترى نفسك لا شيء أمام هؤلاء هذا شيء فيه مبالغات

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

(سورة المائدة الآية: ٧٧)

وهذه تنسحب علينا أيضاً.

الضابط الثاني: ألاّ يفوت ما هو أهم:

ألا يفوت ما هو أهم، أحياناً من أجل قيام الليل تفوتنا صلاة الفجر في وقتها، وقيام الليل سنة، صلى، وتعب، ونام، واستيقظ بعد الشمس، لا، لا يجوز، الفرض أولى، ألا تفوت ما هو أهم من هذه النافلة، يقول سيدنا عمر:

<< لأن أشهد الصبح في جماعة أحب إلي من أن أقوم ليلاً >>

هناك فرائض وسنن، ألا يضيع حقاً شرعياً، الزوجة حينما تمضي الليل كله في صلاة قيام الليل، وتهمل أولادها صبحاً، وتهمل زوجها، وتهمل حاجة زوجها إليها هي أدت نافلة، لكن على حساب واجب تركته، والإنسان ينبغي أن يعبد الله فيما أقامه.

الضابط الثالث: ألا تبطل نافلة العبادات رخصة شرعية:

ألا تبطل نافلة العبادات رخصة شرعية، كما ظن الرهط الذين تقالّوا عملَ النبي في بيته، وقول أحدهم: أنا لا أتزوج النساء، هذه رهبانية، والإسلام ليس فيه رهبانية، قال عليه الصلاة والسلام:

((أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن عائشة]

الضابط الرابع: ألاّ يوجب على نفسه ما ليس بواجب:

ألا يوجب على نفسه ما ليس بواجب، ابن مظعون كان في النهار صواماً، وفي الليل قواماً، فضيع حق زوجته.

وأنا أقول لكم: هناك عبادات تبنى على إيذاء الآخرين، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يصلي إماماً بأصحابه كان أخف الناس صلاةً في تمام، والذي صلى وقرأ الواقعة عاتبه النبي، وقال: يا معاذ:

((أفتَّانٌ أنْت))

[متفق عليه]

كان إذا صلى كان أخفّ الناس صلاة، لكن دققوا فيما سأقول: أما لما صلى وحده اقتدى به أحد الصحابة دون أن يعلم النبي، قرأ البقرة قال: لعله يركع، قرأ آل عمران قال: لعله يركع، قرأ النساء، وصف دقيق جداً لصلاة النبي وحده، شيء عجيب، كان غارقاً في محبة الله، أمضى معظم الليل في صلاة، فإذا أردت أن تصلي وحدك صل ما شئت، أما إذا أردت أن تأم الناس ينبغي أن تصلي بشكل لا يؤذيهم، وأحيانا هناك عدوان في الدعاء، الإطالة في الدعاء عدوان، لذلك إن صليت إماماً فينبغي ألا تفتن الناس، الذي قرأ الواقعة قال له:

((أفتان أنت يا معاذ))

أحد الصحابة انسحب من الصلاة، والعتاب كان للإمام لا للمؤتم، فلذلك إن صليت إماماً فكن أخف الناس صلاةً، أما إذا صليت وحدك فقلّد النبي صل ما شئت.

الضابط الخامس: أن يأتي بالعبادة بتمامها:

أن يأتي بالعبادة بتمامها، بدليل:

((لا يَفْقهُ مَنْ قرأ القُرآنَ فِي أقلّ مِنْ ثلاثٍ))

[رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

قصص من نسج الخيال والمبالغة:

كثير من القصص أنه كان يختم في ليلة واحدة، ٦٠٠ صفحة، نحن ساعة وربع تقريباً نقرأ جزءا، وهناك ثلاثون جزءا، ثلاثون في ساعة افرض ثلاثين بساعة ثلاثين ساعة ، كيف يختم القرآن بليلة؟ ماذا قرأ، مستحيل ! إذا كانت القراءة لا تؤدي إلى فهم المعنى وإلى عقل المعنى، وإلى التفاعل مع المعنى، فهذه ليست قراءة.

مرة حدثني أخ، قال لي: هناك نوع من الحج يقوم به بعض الحجاج، قال لي: يصلي العصر في جدة، ويركب مركبته إلى مكة، الطريق فارغ، والكعبة ليس فيها أحد ، كل الحجاج في عرفات، يصلي العصر في جدة يوم عرفة، وينقل إلى مكة، والطريق فارغ، يدخل إلى بيت الله الحرام، هناك أشخاص معدودون، يطوف في خمس دقائق حول الكعبة تماماً، ويسعى، ويتوجه إلى عرفات، يجلس في أول عرفات، تغيب الشمس يرجع تواً أول واحد ماشيا، وقد جاء آخر واحد، ورجع أول واحد، يرمي الجمرات، ويتحلل، ويوكّل في الرمي أشخاصا، حجته كلها أربع ساعات، فأنا علقت على هذه الحجة: أن إنسانا دُعي إلى طعام نفيس، جاء إلى بيت الداعي، وكتب: لقد حضرت، وانسحب، ما أكل شيئًا، أثبت وجوده فقط.

فلذلك أنت حينما تبالغ قد تضيع شيئًا آخر.

الضابط السادس: المداومة على العبادات:

أن تداوم على هذه العبادات، لأن:

((أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة]

حضرت درس جمعة فداوم عليه، درس الفجر داوم عليه، عملت عملا صالحا تابعه، لأن في الدوام تراكما، ومع التراكم تكون الثمار الطيبة.

لكن إنساناً أحياناً يتوجه توجها رائعا جداً لفترة محدودة، ثم يختفي، هذا خطأ كبير، حاول أن تتدرج ببطء وثبات، وكل عبادة ارتحت لها تابعها، وداوم عليها.

الضابط السابع: ألا يجتهد بحيث يورث الملل لغيره:

ألا يجتهد بحيث يورث الملل لغيره، المتكلم لا يشعر بالتعب، ولا بالجوع، ولا بالعطش، ولا بالحر، ولا بالقر، أما المستمع يكون الوقت ثقيلا جداً عليه، يجب أن تراعي حاجة الناس.

فلذلك اجلس إلى الطعام وأنت تشتهيه، وقم عنه وأنت تشتهيه، وكذلك في التدريس، وفي الصلوات، إن كنت تؤمّ الناس فاجعل الصلاة محببة للناس.

الضابط الثامن: ألا تعتقد أن هذا المؤمن أنه أفضل عملاً من النبي:

ألا تعتقد أن هذا المؤمن أنه أفضل عملاً مما كان النبي عليه الصلاة والسلام .

النقطة الدقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما هاجر من مكة إلى المدينة هاجر خفية وتسللاً، وفي جنح الظلام، واتجه مساحلاً، وقبع في غار ثور ثلاثة أيام، سيدنا عمر هاجر نهاراً جهاراً فمَن الأشجع ؟ النبي مشرّع، سيدنا عمر ليس مشرّعاً، لو هاجر سيدنا رسول الله كما هاجر عمر لعدّ اقتحام الأخطار واجباً، ولعد أخذ الحيطة حراماً، لهلكت أمته من بعده، فالنبي لما صلى صلوات معتدلة، ولم يثقل على أصحابه لأنه مشرّع، فإذا صليت صلاة أطول فإياك أن تتوهم أنك سبقت رسول الله، لأنه مشرّع قدم لك الحد الأدنى، لكن أنت أحياناً قد تصلي أكثر مما صلى النبي الكريم، إياك أن تتوهم أنك أفضل عمل مما فعله النبي عليه الصلاة والسلام.

أربع نقط يجب مراعاتها في علاقات المسلم:

دائماً الإسلام وسطي، والإسلام معتدل، كنت أقول لكم دائماً: أنه لا بد من أن تراعي أربع نقاط في حياتك:

النقطة الأولى: علاقتك بالله.

النقطة الثانية: علاقتك بأهلك وأولادك.

النقطة الثالثة: علاقتك بعملك.

النقطة الرابعة: علاقتك بصحتك.

فما لم تعتن بهذه الكتل الأربع فأيّ خلل في واحدة منها ينسحب على بقية مناحي حياتك، فهذا أيضاً أيها الإخوة من الوسطية والاعتدال.

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

وغرة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، والصلاة هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، وأول ما يحاسب عنه المرء يوم القيامة صلاته، وإذا صلت إماماً فكن خفيف الظل، لا تثقل على من وراءك، أما إذا صليت وحدك فقلد النبي عليه الصلاة والسلام، صلِ ما شئت، لكن الكلمة الفيصلة، الكلمة الدقيقة في هذا المقام: أعظم شيء في الصلاة أن تعدّ لها، أن تعدّ لها الاستقامة، فإن استقمت كان الطريق إلى الله سالكاً، وبينك بين الله كما يقال خط ساخن، أما إذا لم تستقم عندك هاتف غالٍ، لكن ليس فيه خط، مهما يكن الهاتف غالي الثمن بلا خط، بلا حرارة، فلا قيمة له أبداً.

فلذلك اعتنِ بالخط الساخن بين وبين الله، وهذا الخط الساخن يبقى ساخناً ما دمت مستقيماً، فإن خرقت الاستقامة، انقطع الخط وبقي الجهاز لا يغني، ويسمن من جوع.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٣-٦٠) : ما الفرق الحقيقي بين من يصلي وبين من لا يصلي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.
النقطة الدقيقة في هذا الدرس ما الفرق الحقيقي بين من يصلي و بين من لا يصلي ؟

الفرق الحقيقي بين المصلي وغير لمصلي في الدنيا:

أقول لكم بادئ ذي بدء: إنه إن لم يكن هناك فرق كبير جداً في كل جوانب حياة الإنسان، بدءاً من عقيدته، ومروراً بنفسيته، وانتهاء بوضعه العام، فمعنى ذلك أن الذي يصلي لم يقطف ثمار صلاته، نحن نتحدث عن علو الهمة.

تقريباً: معظم المسلمين يصلون، لكن ما الفرق الدقيق بين من يصلي ومَن لا يصلي ؟ ليس الفرق أن هذا ناج أو هذا غير ناج، هذا موضوع متعلق بالآخرة.

أنا أريد الفرق في الدنيا، حينما تلتقي بإنسان مصلٍ، وتلتقي بإنسان لا يصلي، هل تجد فرقاً كبيراً ؟ أو لو جلست مع اثنين، ولا تعلم أيهما يصلي، هل تكشف من الذي يصلي ؟

١ ـ غير المصلي هلوع خائف:

نحن في علو الهمة، الحقيقة هذا السؤال أجاب عنه القرآن الكريم في سورة المعارج، فقال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: ١٩]

وقد قال العلماء: حيثما وردت كلمة إنسان معرفة بـ (أل) فهو الإنسان قبل أن يؤمن:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

[سورة إبراهيم: ٣٤]

إن الإنسان خُلق في أصل خلقه هلوعًا، في أصل فطرته ضعف خلقي لا ذنب له به، هكذا جبله الله، هكذا خلقه الله، هكذا فطره الله:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: ١٩]

شديد الخوف ينخلع قلبه لشبح مصيبة، لتقرير طبي ينبئه بمرض عضال ينتهي به إلى الموت:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: ١٩]

يخاف على وجوده، يخاف على سلامة وجوده، يخاف على كمال وجوده، يخاف على أهله، يخاف على أولاده، أي في أصل خلقه خوف شديد:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

[سورة المعارج: ٢٠]

٢ ـ غير المصلي جزوع مضطرب:

ينهار، يضطرب:

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: ٢١]

٣ ـ غير المصلي جزوع مضطرب:

إذا مسه الخير يقتّر على من حوله، قد ينفق على نفسه الملايين المملينة، أما على غيره فيعطي أقلّ مما ينبغي.

ما الفرق بين الذي يصلي والذي لا يصلي ؟ قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

من صفات المصلي:

ـ المصلي لا يخاف.

ـ واثق من أن الله لا يضيعه.

ـ واثق من أن الله لا يتخلى عنه.

ـ واثق من أن الله يدافع عنه.

ـ واثق من أن أمره بيد الله لا بيد خصومه، لا بيد الأقوياء:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود]

ـ المصلي يرى أن أمره بيد الله وحده، وأن الله يعلم، يعلم سره وجهره، يعلم نياته الطيبة، يعلم استقامته، يعلم عمله الصالح، وأن الله لا يضيعه، ولا يستوي المحسن مع المسيء.

مثلاً:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية: ٢١]

ـ أريد أن أؤكد أنك إذا كنت تصلي حقيقة فلا يمكن أن تصاب بهذه الأمراض التي هي في أصل خلقك، شدة الخوف، الانهيار، الكآبة.

انتشار مرض الكآبة في غير المصلين:

والله أيها الإخوة، يكاد مرض الكآبة يكون أكثر الأمراض انتشاراً في الذين لا يصلون، يشكون مرض الكآبة، الخوف، القلق لأنه لا يصلي، لأنه لا يعلم أن الأمر بيد الله، لأنه لا يعلم أن الله عز وجل هو الفعال:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ* فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة البروج]

هو يرى الشركاء هم الفعالون، يرى الأقوياء بيدهم مصير بلادنا، بيدهم اقتصادنا، يروجونه أو يضعفونه، بيدهم استقرارنا، يقلقوننا، أو نستقر إذا انبطحنا أمامهم، هذا الشعور مستمر، فلذلك المصلي يجب أن يكون معافى من هذه الأمراض، القلق، توقع المصيبة، توقع الشر.

واللهِ تجلس مع إنسان من شدة ما هو خائف ومنقبض، ومعه كآبة شديدة لا تستطيع بعد حديثه أن تقف:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

[سورة المعارج]

سوداوي، متشائم، قلق، محبط، يائس، الآن في أكثر المجالس كلام يسميه بعض المثقفين جلد الذات، أينما جلست نتهم أمتنا، نتحدث عن تخلفنا، نتحدث عن ضعفنا، نتحدث عن انقساماتنا، هذا من ضعف إيماننا، هذا من ضعف اتصالنا، قلة قليلة قلبت موازين المنطقة بخلاف جميع القوانين، بخلاف المعطيات الثابتة، بخلاف ما ينبغي أن يكون، إذاً: الله موجود، الله فعال، الأمر بيده:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: ٦٢]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: ٥٤]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: ٨٤]

مادام هناك تشاؤم، وسوداوية، ويأس، وإحباط، وقلق، والمسلمون انتهوا، أعداؤهم أقوياء، الإعلام بيد أعدائهم، والمال بيد أعدائهم، ومقدرات الأرض بيد أعدائهم، والتحالفات ضدهم، هذا الشعور شعور إنسان لا يصلي.

تطمينات وضمانات الله للمصلي للعابد :

١ – عدم تعذيبهم:

أما حينما تتصل بالله فلك عليه حق، الله عز وجل أنشأ للمؤمن حقاً عليه:

((يا معاذ، ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه ؟ قال: الله و رسوله أعلم، ثم أجابه قال يا معاذ حق العباد على الله إذا هم عبدوه ألا يعذبهم))

[متفق عليه عن معاذ]

تطمين آخر:

٢ – التسليم بالقضاء والقدر:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: ٥١]

تطمين ثالث:

٣ – عدم الخوف والحزن:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: ٣٠]

٤ ـ الحياة الطيبة:

تطمين رابع:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: ٩٧]

هذه التطمينات أقوى من كل شيء، أقوى من كل ظرف، أقوى من كل معطيات، أقوى من كل ظروف.

ما لم يكن هناك فرق صارخ بين من يصلي ومَن لا يصلي فلن نقطف ثمار الصلاة، إنها صلاة جوفاء.

الآية:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: ١٩]

هلوع في أصل خلقه:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

الفروق النفسية العامة بين المصلي وغير المصلي:

واللهِ أعرف أخاً مؤمناً طبيباً، توفاه الله، أصابه مرض عضال، وهو أعلم الناس بأخطار مرضه، هو أعلم الناس أن أجله قريب، نزوره أحياناً، تفاؤله عجيب، رضاه بقضاء الله وقدره لا يصدق، وإنسان بكامل صحته، بكامل دخله الفلكي، كامل معطيات الأمور لصالحه، يشعر بقلق وخوف، فالفرق الكبير الصارخ بين من يصلي ومن لا يصلي أن الذي يصلي متماسك، متوازن، معنوياته عالية، ثقته بالله كبيرة، متفائل، يرى أن الأمر بيد الله، ألم يقل أحد العلماء: " ماذا يفعل أعدائي بي، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، و إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

كلما ضاقت الشخص بالصفات ضاق الموصوف:

ولكن كما ذكرت فيما أعتقد سابقاً: قد تقول: مصلٍّ، يوجد مليار وخمسمئة مليون يصلون، لكن هؤلاء المصلون لهم صفات، وقد قال المناطقة: الصفة قيد.

للتوضيح: قُل: إنسان، ستة آلاف مليون، أضف إليها كلمة مسلم، مليار ونصف ، أضف إليها كلمة عربي، كم مليونا ؟ ثلاثمئة مليون، أضف إليها كلمة مثقف، أضف إليها كلمة طبيب، أضف، أضف، كلما أضفت كلمة ضاقت الدائرة، الآن:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج]

معنى: على صلاتهم دائمون:

أي لا ينامون ؟ لا يأكلون ؟ لا يعملون ؟ لا يذهبون إلى أعمالهم ؟ لا ليس هذا هو المعنى، هو يصلي الصلوات الخمس، لكن بين الصلاتين مع الله، بين الصلاتين مع الله بالدعاء، مع الله بالاستغفار، دَائِمُون[مع الله بالابتهال، مع الله بكل جوارحه، هذا معنى:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

[سورة المعارج: ٣٤]

من الصفات المادية الحسية للمؤمن:

الإنفاق:

يؤدون زكاة أموالهم عن طيب نفس:

(لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

[سورة المعارج]

(إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)

[سورة ص: ٤٦]

موقف المصلي من يوم القيامة:

المؤمن قبل أن يفعل شيئاً ماذا أجيب الله يوم القيامة لو سألني ؟ قضية الدار الآخرة والموت والحساب والعذاب لا تبتعد عن ذهنه إطلاقاً:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ *وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ*فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

[سورة المعارج]

كل كلمة تضيق الدائرة، هؤلاء الذين يصلون، وهذه صفاتهم، لا يعيشون حالة الهلع ولا الجزع، وإذا مسهم الخير فهم كرماء، بنوا حياتهم على العطاء، فلذلك ليس الفرق بين المصلي وبين غير المصلي أن المصلي ناج من المساءلة يوم القيامة، والذي لا يصلي سيحاسب، هذه قضية إجرائية بعد الموت، أما ما لم يكن هناك فرق في التصور، في النفسية، في التفاؤل، في الثقة، في معنويات مرتفعة، فهذه الصلاة لم نقطف ثمارها، و الحقيقة لا يليق بإله عظيم له أمر عظيم ألا نقطف ثمار هذا الأمر.

أحاديث نبوية في أثر الصلاة في المؤمن:

لذلك:

((الصلاة عماد الدين))

[الجامع الصغير عن عمر]

((كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة))

[أبو داود عن حذيفة]

وكان يقول:

((أرحنا بها يا بلال))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

خلاصة الفروق بين المصلي وغير المصلي:

حينما تصلي تشعر براحة، تشعر أنك أديت واجب العبودية لله عز وجل، تشعر أنك تحت مظلة الله، تشعر أن الله لا يتخلى عنك، تشعر أنك في رعاية الله، في حفظ الله، في تأييد الله، في توفيق الله، تشعر أنك بأعيننا كما قال الله عز وجل:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: ٤٨]

أي ما لم تتبدل حياتك تبدلاً جذرياً، ما لم تنعطف انعطافاً نوعياً بعد الصلاة فابحث عن صلاة ترفع معنوياتك.

الانهيار والضعف، والشعور باليأس والخذلان، والإحباط، هذه الأمراض بدأت تستشري في المسلمين عقب النكسات المتلاحقة، والتحديات المستمرة، وكيف أن العالم كله يحارب المسلمين في شتى بقاع الأرض لكن المؤمن:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: ٢٣]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٤-٦٠) : علو الهمة في عبادة الصيام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-٠٩-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

كلمة تمهيدية حول الصيام:

أيها الإخوة الكرام، ننتقل إلى عبادة الصيام، ولكن قبل أن نمضي في الحديث عن الصيام لا بد مِن مثل يوضح ذلك.

لو أن إنساناً يحمل أعلى شهادة طب من بلد متفوق في الطب، درس الطب خمسًا وثلاثين سنة، ويحمل أعلى مرتبة علمية هناك، لو أردنا أن نراه بأعيننا ماذا ينطبع على شبكية العين ؟ إنسان في عيادة يرتدي رداء أبيض، لعل على عينيه نظارات، لعل في عنقه سماعة قلب، لعل في جيبه ميزان حرارة، هذا هو الشكل الظاهر لهذا الطبيب المتفوق، لو جئنا بإنسان أمي لا يقرأ ولا يكتب، ارتدى ثوباً أبيض، ووضع في رقبته سماعة قلب، وفي جيبه ميزان حرارة، وعلى عينيه نظارة، الشكل واحد، لكن كم هي المسافة بين الاثنين ؟ خمسًا وثلاثين سنة دراسة، مع تفوق، مع قدرات ذكائية عالية جداً، مع خبرات، وذاك إنسان لا يقرأ ولا يكتب.

بين صائم وصائم:

١ – الصيام الشكلي:

سامحوني بهذا المثل، أحياناً هناك من يصوم، وهناك من يصوم، واحد كالطبيب الأول، والصائم الثاني كالمتمثل للطبيب، الصيام له شكل، استيقظ على السحور تسحر، وفي أثناء الإفطار أكل عند المغرب، وجاء إلى المسجد، لكن سلوكه ليس فيه التزام إطلاقاً، ولسانه لا ضبط فيه، ولا دقة في كسب ماله، ولا في إنفاقه، فتجد مليارا وخمسمئة مليون مسلم لا وزن لهم في العالم، ولا هيبة، ولا قرار، وأمرهم ليس بيدهم، بينما أصحاب النبي عليهم رضوان الله كانوا قمماً، فلذلك حينما نؤدي العبادات أداءً شكلياً هذه لا تقدم ولا تؤخر.

٢ – صيام العوام وصيام المؤمنين:

مثلاً: صيام العوام ترك الطعام والشراب، وصيام المؤمنين ترك المعاصي والآثام صيام الخواص ترك ما سوى الله.

بعض الناس يصومون ليدافعون بصيامهم التدني، وبعضهم يصوم فيتابعون الترقي، وشتان بين النموذجين.

لذلك قالوا في الصيام كلمات رائعة جداً، قالوا: الصوم عبادة السادات، وعبادة السادات سادات العبادات، وأحلى أعطيات.

والصوم أغلى معانية الإخلاص.

٣ – بين المنهيات في الدين والممنوعات في القوانين:

بالمناسبة، أكثر المنهيات في الدين يقابلها ممنوعات في القوانين، السرقة محرمة في الدين، ممنوعة في القوانين، لكن في بعض العبادات عبادة غض البصر ليس هناك قانون في الأرض يحرم إطلاق البصر، لحكمة بالغة الأوامر والنواهي التي ينفرد بها الدين تؤكد إخلاص الإنسان، لا يوجد جهة بالأرض تدينك لو دخلت البيت، وأغلقت الباب، وتناولت الطعام والشراب في نهار رمضان، ولا أحد يعلم هذا أساساً، لكن حينما تدخل إلى البيت في أيام الصيف، وتكاد تموت عطشاً، والبيت فيه ماء بارد، ولا تستطيع أن تضع قطرة ماء في فمك، ما الدليل ؟

٤ – مراقبة الله الفرق الكبير بين المنهيات في الدين والممنوعات في القوانين:

أنت تراقب الله ومؤمن أن الله معك وأن الله يعلم لذلك هذا الصوم عبادة الإخلاص وغض البصر أيضاً عبادة الإخلاص، هذه الأوامر والنواهي التي ينفرد بها الدين عن القوانين، الذي يأخذ بها تؤكد أنه مخلص.

طبيب أمامه امرأة، يحق له أن ينظر إلى موطن الداء، لكن إذا اختلس نظرة إلى مكان آخر لا يحل له أن ينظر إليه لماذا يشعر أن الله يعلم ؟ هذا إيمانك، أنت طبيب مسموح لك أن تنظر إلى موضع العلة في جسم المرأة، لو أنك نظرت إلى مكان آخر أية جهة في الكون تضبط هذه المخالفة ؟ مستحيل لجهة في الأرض بإمكانها أن تضبط هذه المخالفة، لذلك قال تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

لو أنك أضمرت لا سمح الله، ولا قدر نية سيئة لإنسان، هل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تكشف هذه النية ؟ عليم بذات الصدور، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

سؤال عظيم: ماذا هو الصوم ؟!!!

١ ـ الصوم عبادة الإخلاص:

فلذلك هذا الصوم هو العبادة الوحيدة التي خصت بالإخلاص، والإخلاص تجرد من الدنيا، وأقنعتها المزيفة، وشهواتها الزائلة وحطامها، الإخلاص تجرد وخلاص، والصوم هو العبادة الوحيدة التي خصت بالنسبة إلى الله عز وجل، كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به. يقول لك الأب: أيها الشاب، احرص على تنظيف أسنانك قبل أن تنام، هذا التوجيه الأبوي لصالح الابن، وقال لك: ادرس يا بني، المستقبل للعلم، قد يلقي الأب على الابن آلاف التوجيهات، لكن مرة الطعام على الطاولة، والطعام شهي، والابن جائع، وهذا الطعام طعام أبيه، والمال حلال، ولا داعي أن يقول له: لا تأكل، فلما قال الأب لابنه: لا تأكل، قال: سمعاً وطاعة، ما فهم الحكمة، لكن مكانة الأب، وأدب الابن حمله على الطاعة، لذلك:

((كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي، وأنا أجزي به))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الغاية القصوى من الصوم إعداد القلوب للتقوى، والشفافية والحساسية والخشية من الله، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة]

مرة سمعت رواية أن سيدنا خالدا رضي الله عنه أمسك ضباً، وأكله أمام النبي عليه الصلاة والسلام، والرواية قد تبدو عجيبة، النبي عليه الصلاة والسلام حينما وضع له طعام ضب لم يأكل، قال: يا رسول الله، أحرام أكله ؟ قال: لا، ولكن تعافه نفسي.

لماذا أكل هذا الصحابي الجليل سيف الله هذا الضب ؟ هو رأى أن المسلمين قادمون على الفتوح، وقد يعانون في الصحراء المجاعة، لذلك كان قدوة في تناول طعام تعافه النفس أمام مَن حوله، حينما رآه النبي يفعل هذا قال وقتها: خالد سيف من سيوف الله، الحياة فيها جهاد، فيها معركة قاسية بين الحق والباطل.

٢ ـ الصوم تدريب على المشقة:

الصوم عبادة تدربك على المشقة ألا تأكل، ألا تشرب، فيه إعداد نفسي رائع جداً، كلما طلب الطفل شيئاً يقدم له، حينما يكبر لا يحتمل، أما طفل يشتهي هذا الطعام، ولم يأت به والده، حينما يعاني الإنسان بعض المتاعب تتربى نفسه تربية عالية جداً، المسلم أمام دعوة، أمام نشر حق، أمام جهاد، فيجب أن يتدرب في أيام السلم على تحمل بعض المشقات، وأقلّ مشقة يتحملها ترك الطعام والشراب، الحياة رسالة، الحياة هدف، الحياة عمل، الحياة جهاد، الحياة بذل، الحياة تضحية، فالصيام دربك على أقل مشقة يمكن أن تحتملها، أن تدع الطعام والشراب من الفجر، وحتى غياب الشمس.

٣ ـ الصوم تدريب على المهمات:

دربك على مهمات، لماذا في الكلية الحربية يدربون المغاوير على أكل الأفاعي، وعلى أعمال شاقة، على اختراق النار أحياناً، على القفز من مكان مرتفع، التعلق بالحبال، إنها تدريبات قاسية جداً ؟ لأن هؤلاء المغاوير أمامهم مهمات صعبة جداً، أنت حينما تفهم أن الحياة استرخاء واستمتاعا تكون بعيداً بُعد الأرض عن السماء عن فهم حقيقة الحياة، نحن في دار تكليف، ولسنا في دار تشريف، نحن في دار عمل، ولسنا في دار أمل، نحن في دار نسعى لجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك:

قف دون رأيك في الحــياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

هذا الشهر تدريب على تحمل المشاق، لذلك إعداد القلوب للتقوى والشفافية والحساسية والخشية، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة]

٤ ـ الصوم تدريب يربِّي الإرادة:

والصوم كما قلت قبل قليل: إعداد للأمة التي فرض عليها الجهاد في سبيل الله.

شيء آخر، الصوم أعظم مربٍّ للإرادة، وعندنا مشكلة أن الإنسان كل طلباته متوافرة، لا يحتمل أن يجوع، لكن حينما يأتي شهر الصيام، وأنت غني، و أنت قادر أن تأكل أطيب الطعام تمتنع عن الطعام والشراب، تشعر بالعبودية لله أحياناً، أهم شخصية في الأرض إذا صامت من بعد الظهر كل

الخواطر كأس شراب، كأس عصير، ماء بارد، الإنسان مفتقر إلى لقمة طعام، هذا من أجل أن تعرف من أنت، أنت عبد، لذلك لما وُصف الأنبياء بأنهم كانوا يأكلون الطعام، و يمشون في الأسواق، إذاً: ليسوا آلهة، حياتهم متوقفة على لقمة طعام، وعلى شربة ماء، فكل عظمة الإنسان تفتقر إلى شربة ماء، وهذا الوزير الذي قال لهارون الرشيد: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنع منك ؟ قال: بنصف ملكي، قال: فإذا مُنع إخراجه ؟ قال: بنصف ملكي الآخر، الملك كله لا يساوي شربة ماء.

٥ ـ الصوم سياحة في سبيل الله:

الصوم هو السياحة في سبيل الله، كل يوم نخرج من البيوت إلى المساجد.

٦ ـ الصوم نظام توقيتي:

هذه الحركة المنتظمة نظام، كل هذه الأمة تأكل في وقت واحد، تمتنع عن الطعام بوقت واحد هذا نظام جماعي، يوجد للعبادات أبعاد بعيدة جداً، أمة بأكملها تمتنع عن الطعام و الشراب بدقيقة واحدة، هذه عبادة نظام، عبادة جماعية، وكلها تجتمع في المساجد، هذا شيء رائع جداً.

٧ ـ الصوم نظام مراقبة الله:

ومن أعظم آثار الصوم أن نفس الصائم تراقب مولاها، أنت أحياناً يُقال لك إنك مراقب، كل كلمة تنطق بها تحسب لها ألف حساب، فإذا كان خالق السماوات والأرض يراقبك، يا ترى هل وقعت في خطأ ؟ بكلمة، بنظرة.

الحكمة من مشروعية زكاة الفطر:

لماذا شرعت زكاة الفطر ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((طهرة للصائم، وطعمة للمسكين))

[أبو داود، ابن ماجه عن ابن عباس]

أي طهرة للصائم من أقلّ مخالفة، نظرة مفاجئة ليست مقصودة، شعرت أن هناك خطأ، إذاً لابد من ترميم، زكاة الفطر طهرة للصائم، وطعمة للمسكين.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ:

((مُرْنِي بِأَمْرٍ آخُذُهُ عَنْكَ ؟ قالَ: عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ))

[النسائي، أحمد]

من ميزات الصوم والصائمين:

١ – الصابرون هم الصائمون، والصائمون هم الصابرون:

كأن الصوم ينفرد من بين العبادات بميزات كثيرة جداً:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر: ١٠]

أجمع علماء التفسير على أن الصابرين هم الصائمون:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر: ١٠]

الصابرون هم الصائمون.

٢ – لا يؤخذ من الصيام يوم القيامة لمظالم العباد:

للصوم مزية خاصة، جميع العبادات توفى منها مظالم العباد، وفي يوم القيامة صلوات بميزان حسناتك، لو أنك اغتبت واحداً تؤخذ من ثواب صلواتك بعض الصلوات، توضع في ميزان الذي اغتبته، لذلك مرة قال شخص للآخر: لقد اغتبتني ؟ قال له: ومَن أنت حتى أغتابك ؟ لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أبي وأمي، لأنهم أولى بحسناتي منك، ومن أنت حتى أغتابك ؟ إلا الصوم لا يمكن أن يؤخذ من الصوم كفارات للذنوب.

هذا الحديث في البخاري:

((لِكُلِّ عَمَلٍ كَفَّارَةٌ وَالصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ))

هذا الصوم محصن من أن تأخذ منه كفارات للذنوب، بينما بقية العبادات تؤخذ منها كفارات للذنوب.

٣ ـ الصيام كفّارة للصائم:

والصوم كفارة للصائم فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره تكفرها الصيام))

[متفق عليه عن حذيفة]

ما بدر منك طوال العام من بعض المخالفات، وبعض الأخطاء، و بعض التقصيرات، و فيما يتعلق بالأهل، و بالمال، و بالنفس، و بالولد، و بالجار، و يكفرها الصيام، و ويكفي الصائم تشريف الله له، و والملائكة تصلي عليه، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ))

[أحمد]

والحديث صحيح، في صحيح الجامع الصغير.

والصوم جنة من النار، قال عليه الصلاة والسلام:

((من صام يوماً في سبيل الله باعد الله عنه جهنم مسيرة مئة عام))

[الجامع الصغير عن عقبة بن عامر]

((من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة]

٤ ـ للصائم باب خاص يوم القيامة هو باب الريان:

والصوم يقابله يوم القيامة السقيا من العطش، والصوم في الشتاء الغنيمة الباردة، وباب الريان لا يدخله إلا الصائمون فإذا دخل آخرهم أغلق، لا يدخل فيه أحد غيرهم، ومن دخل شرب، ومن شرب لا يظمأ أبداً.

٥ ـ الصوم سبيل إلى الجنات:

والصوم سبيل إلى الجنات، قال عليه الصلاة والسلام:

((من ختم له بصيام يوم دخل الجنة))

[الجامع الصغير عن حذيفة]

٦ – هذا خطاب الله للصائمين يوم القيامة فأبشِروا:

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

[سورة الحاقة]

قال مجاهد وغيره: نزلت في الصائمين.

٧ – شفاعة الصيام لصاحبه يوم القيامة:

والصوم يشفع لصاحبه يوم القيامة.

٨ – دعاء الصائم مستجاب:

ودعوة الصائم لا ترد.

٩ – الصوم شعار الأبرار:

والصوم شعار الأبرار، كما صح عن النبي المختار أنه كان يدعو، ويقول:

((جعل الله عليكم صلاة قوم أبرار، يقومون الليل، ويصومون النهار ليسوا بأثمة، ولا فجار))

[الجامع الصغير عن أنس]

٩ – فرحة الصائم بإفطاره:

((وللصائم فرحتان: فرحة حين يفطر وفرحة حين يلقى ربه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

ولاحظوا إخواننا الصائمين صبيحة العيد حين يأكلون، وقد مضى هذا الشهر في طاعة الله، والذي أفطر رمضان أيضاً أكل، لكن تسمم، ولم يأكل، واحد أكل وشكر الله أن الله أعانه لأنه صام رمضان، وانتهت المشقة.

إخواننا الكرام، الطاعات تنتهي مشقتها، ويبقى ثوابها، والمعاصي والآثام تنتهي لذائذها، وتبقى آثامها فرق كبير جداً.

((ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

٩ – الصوم قطّع لأسباب التعبد لغير الله:

والصوم قطّع لأسباب التعبد لغير الله، فالهوى معبود، والدينار والدرهم معبودان، والقطيفة معبودة، والخميصة والطعام والشراب معبودات، وأنت قطعت أسباب الهوى.

١٠ –الصوم شكرٌ للمنعم وإحسان إلى المخلوق:

والصوم شكر للمنعم، وتحريض على المثوبات، وتكثير للصدقات، وإحسان إلى ذوي الحاجات، والصوم رقة قلب، وصيانة جوارح، وإلى هنا يقف القلب ليذكر الصائمين بأنهم في أعلى الدرجات

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٥-٦٠) : الطريق إلى محبة الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

الطريق إلى محبة الله عز وجل:

١ – الجود والكرم:

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها))

[أخرجه البيهقي، عن طلحة بن عبيد الله، وأبو نعيم عن ابن عباس]

طريق محبة الله سالك وواضح، والله عز وجل في كل آية في القرآن الكريم حينما يقول:

(يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

فهذه الآيات تبين أن هناك طرائق لاكتساب محبة الله عز وجل، الله عزوجل ذات كاملة، لكن جعل إليه طرائق، وقد قالوا: الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

إذاً:

((إن الله تعالى جواد يحب الجود))

فإن أردت أن يحبك الله عز وجل فكن جواداً

٢ – الاشتغال بهدف نبيل:

((ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها))

أحياناً تجلس مع أناس شردوا عن الله عز وجل تجد حديثهم سخيفاً، وكلامهم بذيئًا، تعليقاتهم قاسية، اهتماماتهم منحطة.

((إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها))

فإن أردت أن يحبك الله عز ول فاشتغل بهدف نبيل، اشتغل بعمل يصلح الأمة.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله كريم يحب الكرماء جواد، يحب الجودة ـ جمع جواد ـ يحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها))

[رواه ابن عساكر والضياء، عن سعد بن أبي وقاص]

إذاً: لو تتبعت في كتاب الله الآيات التي تبدأ بإن الله يحب، تجد أن هناك عددا من الآيات ليس بقليل، كأن هذه الآيات طرق إلى اكتساب محبة الله.

أحياناً عظماء الدنيا ليس إليهم سبيل، ولا أمل في أن تقابلهم، ولا أن تتصل بهم، ولا أن يسمحوا لك أن تزورهم، لكن ملِك الملوك، خالق السماوات والأرض، قيوم السماوات والأرض جعل إلى ذاته العلية طرائق، إن فعلت هذا أحبك، إن فعلت هذا أحبك، إن فعلت هذا أحبك، فاليوم:

((إن الله تعالى جواد يحب الجود))

((إن الله كريم يحب الكرماء جواد يحب الجودة يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها ـ ودنيها ـ))

أحاديث نبوية عظيمة في الإنفاق:

الحديث الأول:

أيها الإخوة، روى الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى ـ الحديث قدسي ـ:

((أَنْفَقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))

الحديث الثاني:

أليس هذا النص الصحيح الذي في البخاري يطمئن كل منفق ؟ ويقسم النبي عليه الصلاة والسلام أنه:

((ما نقص مال قط من صدقة))

[أخرجه ابن أبي الدنيا، عن عبد الرحمن بن عوف]

هذه معاملة الله فانظر بماذا تعامله !!!

أقول لكم مرة ثانية: الذي يشدّ المؤمن إلى الله ليس التصور الإسلامي الصحيح والعميق، والدقيق، والمتناسق فقط، الذي يشد المؤمن إلى الله أنك إذا عاملت الله دُهشت، إن عاملته بالطاعة عاملك بالتكريم، إن عاملته بالإنفاق عاملك بالإغناء، إن عاملته بالتواضع رفع لك ذكرك، لمجرد أن تتعامل مع الله مباشرة، لمجرد أن تجعل إرضاء الله الهدف الأكبر أن تقول دائماً: إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، تجد المعاملة الإلهية تأخذ بالألباب.

((أنفق، أنفق عليك))

الحديث الثالث:

قال عليه الصلاة والسلام بناءً على هذا الحديث القدسي:

((أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا))

[أخرجه البزار عن بلال وعن أبي هريرة، الطبراني عن ابن مسعود]

والله الوقت لا يتسع للآلاف القصص.

أخ كريم عنده معمل، جاءه من يعقد معه طلبية، هذه الطلبية اكتشف لاحقاً أنها من أجل علب الخمر، مسكات بلاستيك، فاعتذر، والمبلغ كبير، واعتذر بشدة، والقصة طويلة، وأصر على أن لا يصنعها، بعد حين جاءه عقد بعد ٢٢ يوماً بعشرة أضعاف.

((أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا))

الحديث الرابع:

((يا عبادي ! كُلُّكُمْ جائعٌ إلاَّ مَنْ أطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ؛ يا عبادي ! كُلُّكُمْ عارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أكْسِكُمْ))

[مسلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

لمجرد أن تفتح على نفسك باب مسألة يفتح الله عليك باب فقر، ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم.

الحديث الخامس:

شيء آخر: يقول عليه الصلاة والسلام:

((صنائع المعروف تقي مصارع السوء))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس]

قبل أعوام مديدة مرة كنت ذاهباً إلى مركز عملي، وجدت أمام قصر العدل جثة صباحاً، وعليها غطاء، يبدو أنه حادث سير، ذهبت إلى عملي، وعدت بعد الساعة الرابعة، وجدت الجثة كما هي في الطريق مغطاة، لم يأتِ الطبيب الشرعي، هذه حالة.

مرة كنت في تعزية، جلس إلى جانبي أحد علماء دمشق العاملين، وحدثته وحدثني، ما إن خرج من بيت التعزية حتى لقيه شاب لا يعرف اسمه، دعاه إلى أن يوصله بمركبته إلى البيت، أوصله إلى البيت صعد الدرج إلى الطابق الرابع، فتح باب البيت بمفتاحه، دخل إلى غرفة نومه، خلع جبته ولفته، واستلقى على الفراش، وسلم روحه إلى الله، هذا لو مات في الطريق مشكلة كبيرة، ذكرت لكم القصتين، لكرامته عند الله هيأ له شاب يأخذه إلى البيت، ما إن وصل إلى البيت، واستلقى على سريره حتى فارق الحياة في بيته بين أهله، معززاً مكرماً، لذلك:

((صنائع المعروف تقي مصارع السوء))

كل إنسان يتمنى أن يموت بين أهله، في بيته، أن تراعى كرامته في كل مراسيم التشييع والدفن، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((صنائع المعروف تقي مصارع السوء))

الحديث السادس:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((ما تَصدقَ أحَدٌ بصَدَقَةٍ مِن طيّبٍ ولا يَقْبَلُ الله إلاّ الطيّبَ إلاّ أخَذَهَا الرّحْمَنُ بيَمِينِهِ وإنْ كانَتْ تَمْرَةً تَرْبُو في كَفّ الرحمن حتّى تكُونَ أعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

يعني من مال حلال.

الطعام الحلال من اسباب استجابة الدعاء:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[رواه الطبراني عن ابن عباس]

هذا كلام بليغ، يعني اعمل عملاً مشروعاً، وكن في عملك صادقاً، وكن في عملك متقناً، وبعه بسعر معتدل، ولتكن معاملتك للناس طيبة، هذا الربح الذي تجنيه من هذه التجارة المشروعة التي تنفع المسلمين هذا المال يعد طيباً، لذلك:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

يعني الطعام الذي تأكله، وتدفع ثمنه من مال حلال، حلال مئة بالمئة، عندئذٍ يكافئك الله عز وجل بأن يجعلك مستجاب الدعوة.

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

يقول العبد

((يَا رَبّ يَا رَبّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامُ، وَمَشْرَبَهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأنّى يُسْتَجَابُ لَهُ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

((ما تَصدقَ أحَدٌ بصدَقةٍ مِن طيّبٍ ولا يَقْبَلُ الله إلاّ الطّيّبَ إلاّ أخَذَهَا الرّحْمَنُ بيَمِينِهِ وإنْ كانَتْ تَمْرَةً تَرْبُو في كَفّ الرحمن حتّى تكُونَ أعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

والله أيها الإخوة، قد مر النبي عليه الصلاة والسلام بقبر، قال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[أخرجه ابن المبارك عن أبي هريرة]

لو يعلم الإنسان، وهو حي يرزق أن هذه الصدقة يراها يوم القيامة كجبل أحد وروي في بعض الأحاديث:

((أن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة، وقد تراها يوم القيامة كجبل أحد))

[رواه الترمذي والنسائي]

((ما تَصدقَ أحَدٌ بصدَقةٍ مِن طيّبٍ ولا يَقْبَلُ الله إلاّ الطّيّبَ إلاّ أخَذَهَا الرّحْمَنُ بيَمِينِهِ وإنْ كانَتْ تَمْرَةً تَرْبُو في كَفّ الرحمن حتّى تكُونَ أعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ))

الحديث السابع:

الآن:

((من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن أبي اليسر]

هناك إنسان يقول لك: معي سند، أضعه في السجن، تمهل، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من أنظر معسرا، أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله))

الحديث الثامن:

ويقول عليه الصلاة والسلام :

((تجاوزوا عن ذنب السخي، فإن الله تعالى آخذ بيده كلما عثر))

[أخرجه الدارقطني عن ابن مسعود]

الإنسان الذي له عمل طيب، هذا العمل الطيب يقتضي أن نتغافل عن بعض هفواته، في شخص لا يسامح، قناص، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليعمل عثمان ما شاء أن يعمل فإنه مغفور له))

الحديث التاسع:

((أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم))

[أخرجه ابن أبي الدنيا عن ابن عمر]

دقق: سرور تدخله على مسلم.

والله مرة أحد إخوتنا الكرام أصيب بأزمة قلبية حادة، يحتاج إلى عملية، وهو عامل في معمل نسيج، لا يكفي دخله طعامه وشرابه، والعملية تكلف بضع مئات من الألوف، يقول لي هذا الأخ الكريم: امرأة محسنة في هذه البلدة الطيبة اتصلت بطبيب قلب جراح من مشاهير الأطباء، وقالت له: اتصل بفلان، وأجر له العملية، وأنا أغطي الثمن، هذا الإنسان الأخ الفقير، طبيب قلب مشهور اتصل به، أعطاه وعدا لإجراء العملية، أنا زرت هذا الأخ قبل أن يتصل به الطبيب، والله رأيت بيته بالميدان، رأيت في البيت كآبة لا يعلمها إلا الله، الأولاد جامدون، حزانى، الأب مريض، وترك عمله، بعد أن أجريت العملية ونجحت، زرته مهنئاً، والله رأيت أولاده يكادوا يرقصون من الفرح، انظر لهذا الحديث:

((أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا))

مرة ابن عباس كان معتكف في مسجد رسول الله، نظر إلى إنسان رأى في وجهه كآبة، قال له: مالك تبدو كئيباً، قال له: ديون لزمتني لا أطيق سدادها، قال له: لمن ؟ قال له: لفلان، قال ابن عباس: أتحب أن أكلمه لك ؟ قال: إذا شئت، فقام ابن عباس وخرج من معتكفه، والاعتكاف في رمضان من أرقى العبادات، قال له أحدهم: يا ابن عباس أنسيت أنك معتكف ؟ قال: لا والله ما نسيت، ولكني سمعت صاحب هذا القبر وأشار إلى قبر النبي، والعهد به قريب، ودمعت عيناه، قال:

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا))

[الجامع الصغير]

((أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظا، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل))

[أخرجه ابن أبي الدنيا عن ابن عمر]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

الحديث العاشر:

((لا خير فيمن لا يضيف))

[أخرجه أحمد في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن عامر]

وصف شاعر قوماً فقال:

بيض المطابخ لا تشكو إماءهم طبخ القدور ولا غسل المناديل

****

يعني تمر سنوات تلو سنوات لا يدعو الناس إلى طعامه إطلاقاً، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((لا خير فيمن لا يضيف))

تجد أخا جاء من بلدة أخرى إلى بلدتك ليتابع قضية، أو ليحضر مجلس علم، فإذا أخذته إلى بيتك وأكرمته، والله هذا عمل طيب، هذا يمتن العلاقة بين المؤمنين، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَارِ))

[متفق عليه]

الحديث الحادي عشر:

سأل رجل النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أيُّ الإسلام خَيْرٌ ؟ قال: تُطْعِمُ الطَّعامَ، وَتَقْرأُ السَّلام على مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِف))

[لبخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما]

إن إطعام الطعام من أعظم الأعمال، لكن أنا أقول: شر الطعام طعام الولائم، لأنه يدعى إليها الأغنياء، ويحرم منها الفقراء، أما حينما تدعو الناس إلى طعام لتؤلّف قلوبهم، أو ليكون هذا الطعام مناسبة لكلمة حق تلقى على هؤلاء فهذا لا بأس به.

أنا أحدثت مصطلحا اسمه الطعام الدعوي أحياناً، من أجل أن تجمع الناس.

مرة أخ من إخواننا نُقل إلى بلد بعيد يعمل في فندق خمس نجوم بحرفة نادرة، نُقل من دمشق إلى بلد في الخليج، ماذا يفعل ؟ أخذ معه أشرطة، ودعا زملاءه في العمل إلى طعام أسبوعي، أكلة دمشقية مشهورة محببة جداً إلى هؤلاء، أتوا ليأكلوا، بعد أن أكلوا اسمعهم شريطاً، كل خميس، طريقة في الدعوة لطيفة، هم جاؤوا ليأكلوا، بعد أن أكلوا استمعوا إلى الدرس.

أحياناً يمكن أن يكون إطعام الطعام سبيلاً إلى الدعوة إلى الله، لذلك قال:

((قال: تُطعِمُ الطَّعامَ، وتَقْرأُ السَّلام))

الحديث الثاني عشر:

وفي حديث آخر:

((أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام))

[رواه الترمذي عن عبد اللّه بن سلام رَضِيَ اللّهُ]

الحديث الثالث عشر:

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((يَا ابنَ آدَمَ، إنّكَ إنْ تَبْذُلِ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإنْ تُمْسِكْهُ شَرّ لَكَ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأ بِمَنْ تَعُولُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السّفْلَى))

[رواه الترمذي عن أبي أمامة]

اتعظ أنه حينما تنفق شيئاً من مالك ترقى عند الله، أما حينما تدعه، وتغادر الدنيا قد يأتي من بعد هذا الإنسان من يستخدم هذا المال في معصية.

سألوا شابا متفلتا توفي أبوه قبل أيام، وكان متجهاً إلى ملهى، سأله صديق والده: إلى أن يا فلان ؟ ـ سامحوني بهذه الكلمة ـ قال له: أذهب لأسكر على روح أبي.

إذا ما ربى الإنسان أولاده فالمال الذي جمعه، والذي جهد في جمعه سوف ينفق في معصية الله، لذلك درهم تنفقه في حياته خير من مئة ألف درهم ينفق بعد مماتك، وقد لا ينفق.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٦-٦٠) : علو الهمة في الإنفاق - حجمك عند الله بحجم عملك الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة ، واليوم علوّ الهمة في الإنفاق، قبل أن نتابع تفاصيل هذا الموضوع لا بد من مقدمة:

مقدسة نفيسة: صحة العقيدة وصحة العمل:

لو أن الإنسان صحت عقيدته، ولم يفعل شيئاً، لا ينتفع إطلاقاً من صحت عقيدته كيف ؟ أضرب مثل لمرات عديدة:

١ – صحة الحركة بعد صحة العقيدة:

أن إنساناً مصاباً بمرض جلدي، وعلاجه الوحيد التعرض لأشعة الشمس، وبقي في غرفة رطبة قميئة مظلمة، وتحدث عن الشمس كثيراً، وقال كلاماً صحيحاً، ووضع يده على ميزات الشمس، ماذا ينفعه نطقه واعتقاده بنفع أشعة الشمس لمن يعاني مثل مرضه، لا ينتفع أبداً، طبعاً لو أنه أنكر أن تكون الشمس نافعة هو جاهل، لو أنه تكلم عكس ذلك يحتاج إلى معالجة نفسية، لكن لو أنه أصاب الحقيقة ولم يتحرك وفقها ما انتفع بهذه الحقيقة إطلاقاً.

٢ – حجمك عند الله بحجمك عملك الصالح:



لذلك التعبير الدقيق: حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، بعد أن تصح عقيدتك ، وبعد أن تعرف الحقيقة، وبعد أن تؤمن، الآن التمايز بالعمل، الدليل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُو ا)

(سورة الأنعام الآية: ١٣٢)

لا مما اعتقدوا، ولا مما قالوا، لو لم تعتقد اعتقاداً صحيحاً هذه مصيبة كبيرة وطامة كبيرة، وانحراف شديد، لكن لو كان اعتقادك صحيحاً، ولم تنطلق في حركتك اليومية وفق هذا الاعتقاد فلا قيمة لهذا الاعتقاد.

إذاً: نصل إلى التمايز بالعمل الصالح، إلى أن التفاوت بالعمل الصالح، إلى أن الترجيح بالعمل الصالح نصل إلى أن حجمك عند الله بحجمك عملك الصالح.

٢ – الجانب السلبي والإيجابي في العمل الصالح:

كلمة العمل الصالح تعني شيئاً سلبياً، وتعني شيئاً إيجابياً، الشيء السلبي الاستقامة، والاستقامة أساسها أن تبتعد عن كل ما نهى الله عنه، يغلب عليها كلمة ما أو لا، أنا لا أكذب، أنا لا آكل المال الحرام، فكل المنهيات أن تنتهي عنها هذا جانب من العمل الصالح، وكل الأوامر جانب آخر.

٣ – جانب الأمر والنهي:

الآن كل التضحيات، والبطولات، والبذل، والعطاء جانب ثالث، تنتهي وتأتمر وتبادر.

إخواننا الكرام، مرة ثالثة: حجمك عند الله بعد صحة عقيدتك عملك الصالح والأعمال متفاوتة، فيما نعتقد جميعاً أن سيد من عمل الصالحات هو سيد الخلق وحبيب الحق، حتى إن الله سبحانه وتعالى أقسم بعمره:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

التفاوت في العمل بين الناس:

ما ضيع من حياته ثانية واحدة، وكل حياته خير، الآن الناس يتفاوتون، أحياناً نصف وقته في سفاسف الأمور، ونصفها في بعض الأعمال الصالحة، لكن كلما ازدادت مساحة العمل الصالح، وضاقت مساحة التسيب والإهمال كنت أعلى، فقد نقول مثلاً: عندنا يوم فيه ٢٤ ساعة، دع منها ٨ ساعات للنوم، والشؤون الخاصة بقيت ١٦، هناك إنسان عنده ١٥ ساعة من العمل الصالح، وعنده ضياع ساعة، وإنسان عنده ساعة عمل، والـ١٥ ساعة ضياع في سفاسف الأمور، وفي اللغو، وفي كلام لا يقدم ولا يؤخر، في كلام فارغ، انظر إلى الناس إذا التقوا مع بعضهم، قيّم حديثهم، إنه كلام فارغ لا يقدم ولا يؤخر، ولا يبنى عليه شيء.

فلذلك يجب أن تعتقد بالتفاوت بالعمل.

التمنيات بضائع الحمقى:



عندنا فكرة دقيقة جداً، أنت ضعيف وأنت فقير، وأنت لا تعلم، لكن الله يعلم، والله قدير، والله غني، العمل الصالح هبة من الله ثمنه الطلب، والله عز وجل لا يتعامل بالتمنيات إطلاقاً، والتمنيات بضائع الحمقى، يتعامل بالصدق، والصدق الإصرار على تحقيق الأهداف، لمجرد أن تصر على تحقيق أهدافك وهبك الله هذا العمل ونسبه إليك، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل، ونسبه إليك.

لذلك دققوا: ما وصلت إليه هو صدقك، وما لم تصل إليه تمنياتك، كل واحد منا يطمح لأشياء لا تعد ولا تحصى، لم تحقق، لأنه تمناها، أما الذي أنت فيه الذي سعيت له.

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى)

(سورة النجم)

أما التمنيات:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء الآية: ١٢٣)

أعمال تنتهي بالموت وأعمال تستمر بعد الموت:

هناك أعمال للتمنيات، هناك أعمال تنتهي عند الموت، هناك أعمال تستمر بعد الموت.

من أوضح الأمثلة أنك قد تشاهد درساً لعالم جليل توفاه الله، وربما نشرت دروسه لعشرات، بل لمئات السنين القادمة، الخير مستمر، وقد تجد إنسانا يعمل في الفن الساقط، وقد توفي، وأعماله مستمرة في أكثر المحطات، هناك عمل ينتهي عند الموت ، وهناك عمل يستمر عند الموت.

من خصائص العمل الصالح: قوة واتساع وامتداد تأثيره:

الآن العمل قيمته في قوة تأثيره، وفي اتساع رقعة تأثيره، وفي امتداد قوة تأثيره.

مثلاً: دعوة بدأت من مكة، الآن آثارها في معظم بقاع الأرض، حينما تصل إلى بلاد بعيدة جداً، وتستمع إلى القرآن، وإلى السنة، وإلى دروس العلم يخشع قلبك حينما تقرأ حديث رسول الله:

((ليبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[رواه أحمد عن تميم الداري]

أحياناً كأنك في الشام، تستمع إلى الدروس، وإلى القرآن، وإلى المسابقات، فكلما اتسعت رقعة العمل الصالح ازدادت قيمته عند الله، وكلما امتد أثر العمل الصالح ازدادت قيمته عند الله، وكلما كان تأثير العمل عميقاً جداً كان أعظم عند الله.

أحياناً تقنع إنسانا أن يعتني بصحته، لكن أحيانا تبلغ الدعوة، وتتغلغل في كيان الإنسان حتى أعماقه، صباحاً ومساء، في جلوته في خلوته، في سفره وفي حضره، في إقبال الدنيا وفي إدبارها ، متأثر أشد التأثر.

إذاً قوة التأثير، ونوع التأثير، وامتداد أمد التأثير، واتساع رقعة التأثير هذه من خصائص العمل الصالح.

العقيدة حدية والتفاوت بالعمل الصالح:

مرة ثانية: بعد أن تصح عقيدتك لا شيء يرفعك على من حولك إلا العمل، لأن العقيدة حدية لا تفاوت فيها. مثلاً: الموت حدي، مات، ليس عندنا اسم تفضل من مات، والله فلان مات ميتة أموت من فلان، الموت حدي، لذلك لا يصاغ من فعل مات اسم تفضل.

التفاوت يكون بالعمل الصالح

فالعقيدة حدية، أنت مؤمن أن الله على كل شيء قدير، حدية، لكن التفاوت بالعمل، بحجم العمل، بقوة تأثير العمل، بامتداد أمد العمل، باتساع رقعة العمل.

لذلك أنت حينما تعلم حقيقة أن الآخرة توزن بالأعمال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

ادخلوها برحمتي، واقتسموها بأعمالكم، هذا الفهم للعمل الصالح، بل أنت حينما تعتقد أن العمل الصالح علة وجودك في الدنيا، الدليل: أن الإنسان حينما يغادر الدنيا لا يندم إلا على عمل صالح.

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

هناك آلاف النشاطات، آلاف الأهداف، والإنسان على فراش الموت لا يتمنى إلا أن يعود إلى الدنيا ليعمل الأعمال الصالحة.

لذلك مر عليه الصلاة والسلام بقبر فقال لصاحب هذا القبر:



((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[أخرجه ابن المبارك عن أبي هريرة]

هذا كلام الخبير، هناك إنسان الآن يملك تسعين مليار دولار " بيل غيت ".

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

هذه الحقائق إذا عرفتها وأنت حي، إذا عرفتها وقلبك ينبض، إذا عرفتها وفي العمر بقية انتفعت بها، لذلك قال الله عز وجل:

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

(سورة الأنعام الآية: ١٥٨)

إذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة يتحرك حركة صحيحة.

الجزئيات مرتبطة بالهدف:

إخواننا الكرام، أريد أن أبين لكم بعض الأمثلة: حينما يكون الهدف واضحا جداً مليون جزئية من عملك مرتبطة بالهدف، ذهبت إلى بلد لسبب واحد، لعلة واحدة، لهدف واحد، أن تنال دكتوراه، طموحاتك في بلدك، طموحاتك بين أهلك، لكنك ذهبت إلى هذه المدينة، إلى هذه العاصمة كي تعود

بدكتوراه، مليون حركة في هذه المدينة مربوطة بالهدف، هناك سلوك لا علاقة له بالدراسة، أريد أن استأجر بيتا، تبحث عن بيت قريب من الجامعة لتوفر الوقت، والمال، والجهد، أريد أن أصاحب صديقا، تبحث عن صديق يتقن اللغة التي تريد أن تتعلمها، تريد أن تقتني مجلة، تشتري مجلة متعلقة باختصاصك، تريد أن تأكل، تأكل طعاماً يعينك على الدراسة، إذا اتضح الهدف الآن تختار حرفة تحقق الهدف.

هناك حِرف قريبة جداً من الدين، بل ممارسة هذه الحرفة عمل صالح، التعليم مثلاً، التعليم متعب جداً، جداً متعب، ودخله أقل الدخول، لكن المؤمن يرى أنه يتاح له أن يجالس خمسين طالباً في سن غرس القيم والمبادئ، يكون مثلاً أعلى لهم، ويلقنهم الحقائق الصحيحة، يختار عملا متعبا شاقا، دخله قليل على عمل رائع دخله كبير، لكن لا يرضي الله عز وجل.

حينما تعلم سر وجودك تأتي الحركة صحيحة، لذلك إن لم تنعكس مقاييسك بعد إيمانك بالله، وبعد إيمانك بالجنة، أو بالدار الآخرة، إن لم تنعكس مقاييسك لا يعد عملك صحيحاً.

بماذا تفرح ؟!

معظم الناس يفرحون بالأخذ، أما أنت حينما تؤمن بالآخرة تفرح بالعطاء لا بالأخذ، ١٨٠ درجة، تفرح بالعطاء، وحينما تؤمن بالدنيا تستهلك جهد الآخرين، وترى هذا ذكاءاً، وقوةً، وهيمنة، أما حينما تؤمن بالآخرة تبذل جهدك للآخرين، وأعود وأقول: إن لم تنعكس مقاييسك ١٨٠ درجة فإيمانك باليوم الآخر ليس صحيحاً، المؤمن يعطي ولا يأخذ، كما يفعل الأنبياء أعطوا ولو يأخذوا، عاشوا للناس، ولم يعش الناس بهم ملكوا القلوب، ولم يملكوا الرقاب.

الفرح الحقيقي بالعطاء لا بالأخذ

احذر أن يكون عملك هباء منثوراً !!!

لذلك موضوع العمل الصالح أكبر موضوع يأتي بعد العقيدة، عقيدة، عمل صالح.



(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البروج الآية: ١١)

قد يعيش الإنسان عمراً مديداً تافهاً.

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

(سورة الكهف)

(صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام الآية: ١٢٤)

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

(سورة الفرقان)

هناك بلاد غنية جداً يتطاولون في البنيان، وكل إنسان يكاد يتيه على الآخرين أن بناءه أعلى بناء، وفي النهاية يوم القيامة تدمر هذه كل الأبنية.

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس الآية: ٢٤)

أحياناً تجد متاحف ببعض البلاد تماثيل، فن رفيع، لوحات خالدة الإنسان لوحة لبيكاسو ثمنها خمسون مليون دولار، تجد اهتمامات، ونشاطات، هذه الأعمال:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

((لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي رافع]

((لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه]

((لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيه))

[أخرجه أحمد من حديث معاذ وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد]

فلذلك العمل الصالح فلسفة، أنت حينما تفهم علة وجودك، وغاية وجودك وأن العمل الصالح يأتي في المقدمة على الإيمان بالله، لذلك تجعل العمل الصالح كل همك وتجعل العمل الصالح أحد اهتمامات الكبرى في الحياة.

عليك بعمل صالح يصلح للعرض على الله:

أيها الإخوة، الموضوع دقيق وطويل، موضوع العمل الصالح، له جانب سلبي، وجانب إيجابي، في أوامر تأتمر بها، ونواهٍ تنتهي عنها، الائتمار، والانتهاء، والتقرب بمجمل هذه البنود يعد هذا العمل عملاً صالحاً يصلح للعرض على الله، ويصلح أن تقدمه بين يديك يوم القيامة.

مثلاً: بشكل مختصر لا يستطيع جندي غر التحق لتوه في الخدمة الإلزامية، هو بفرقة على رأسها لواء، في الأنظمة العسكرية بكل دول العالم لا يستطيع هذا الجندي أن يقابل هذا اللواء، لأن أمامه عشرات، بل بضع عشرات الرتب، سبع نجوم أمامه، وثماني ، ونجمة، ونجمتان، وثلاث، وتاج ونجمة، وتاج ونجمتان، هذا لواء، إلا بحالة واحدة، أن يرى ابن هذا اللواء يسبح، وكاد يغرق، فألق بنفسه في الماء وأنقذه، هذا العمل أنقذ ابن قائد هذه الفرقة، يدخل عليه من دون إذن، ولا يستبعد أن يجلس إلى جانبه، يدع طاولته، ويجلس إلى جانبه، ولا يستبعد أن يقدم له ضيافة، يقول: أنت فعلت معي عملاً لا أنساه، هذا في أعلى مرتبة عسكرية، والثاني في أدنى مرتبة، لذلك:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر)

يرفعك عند الله عملك الصالح، لذلك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف الآية: ١١٠)

صاحب العمل الصالح لا يخاف الموت:

لذلك مرة ثالثة، الذي له عمل صالح لا يخاف من الموت كما يخاف من لا عمل له، لأنه مؤمن أن له عند الله شيئًا.

مَن قدم أعمالا صالحة كثيرة يسره اللحاق بها، أما كل إمكاناته في الدنيا، كل جهوده ٧٠ سنة في عمل بيت فخم جداً، وتجارة عريضة، وبيت بالمصيف، ومركبات، كلمة موت ينخلع لها قلبه، كلمة احتشاء ينهار، لأن كل البيض وضعه في سلة واحدة، الذي يضع كل إمكاناته في الدنيا هذا مقامر ومغامر، أما الذي يقدم ماله أمامه يسره اللحاق به.

الموت عرس المؤمن:

" وا كربتاه عليك يا أبتِ، لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه ".

العمل الصالح ينقل الموت من أكبر مصيبة إلى عرس، العمل الصالح ينقل الموت من أكبر مصيبة إلى سعادة، قال عليه الصلاة والسلام:

((تحفة المؤمن الموت))

[أخرجه الطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي، عن ابن عمر]

الموت عرس المؤمن.

أيها الإخوة، قرأت تاريخ سبعين صحابياً، ودرستها بفضل الله عز وجل، فوجدت القاسم المشترك الوحيد بين كل هؤلاء الصحابة أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند موتهم.

سيدنا سعد بن الربيع قال وهو على فراش الموت، أو هو في ساحة المعركة قريبا من الموت: <<أبلغ رسول الله مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبي عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لك إذا خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف >>.

الفائدة المسلكية العملية من الدرس:

لذلك أيها الإخوة، هذا الدرس له ما بُعده، أنت حينما تستيقظ، وتقول: اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك، الآن وأنت في عملك من قال لك أن الحرفة ما لها علاقة بالآخرة ؟ يمكن أن تجعل حرفتك عملاً صالحاً، نويت خدمة المسلمين، نويت التخفيف عنهم نويت حل مشكلاتهم، نويت تقديم سلعة رخيصة لهم يسعدون بها.

دققوا إخواننا، كل واحد منا يقدر بحرفته يجعلها عمل صالح، إن كنت صادقاً مخلصاً فلا تبتز أموال الناس، لا تكذب عليكم، تنصحهم، تنفعهم، فرفتك عبادة، وحرفتك عمل صالح، وتلقى الله بحرفتك. الطبيب مثلا ما دعا إلى الله إطلاقاً، لكن عالج المسلمين بإتقان وتواضع، وقدّم لهم خبرته بأعلى مستوى، وأخذ أجرا معتدلا جداً، لو لم يكن له عمل إلا الطب لوصل إلى الجنة، المحامي، المهندس، البائع، الموظف، الفلاح، أي إنسان إذا أراد الله، وجعل من حرفته عملاً صالحاً بإتقانها، والنصح للمسلمين، وسعر معتدل جعل حرفته عملاً صالحاً.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٧-٦٠) : الذكر وسيلة من وسائل القرب إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة، والموضوع اليوم الذكر.

أمر القرآن بالذكر الكثير:

يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

هذا الأمر الإلهي، وكل أمر في القرآن يقتضي الوجوب، والإسلام ليس أداء العبادات الشعائرية فحسب، بل كل أمر في الكتاب، وكل أمر صح من السنة يجب أن تطبقه، والله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

من صفات المنافقين: ذكرُ الله القليل:

لأن المنافقين يذكرون الله، لكن قليلاً، قال تعالى:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء]

فالأمر في هذه الآية لا ينصب على الذكر، بل على كثرة الذكر، ولقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه:

((برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف]

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[الجامع الصغير عن خالد بن زيد بن حارثة بسند ضعيف]

((برئ مِن الكبر من حمل حاجته بيده))

الذكر أفضل العبادات وخير من لقاء العدو:

أيها الإخوة، كل عبادة لها خصائص فالصلاة يجب أن تتوضأ وأن تتوجه إلى القبلة وأن تصلي، تفتتح الصلاة بتكبيرة الإحرام، وتنتهي الصلاة بالتسليم، أما الصيام فهو ترك الطعام والشراب، وسائر المفطرات من الفجر الصادق وحتى غروب الشمس، أما الحج فيؤدى في أمكنة مخصوصة، وفي أزمنة مخصوصة، إلا أن الذكر فإنه أعظم العبادات، وما من عبادة تدور معك في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل حال، وفي كل شأن كالذكر، لذلك الحديث الشريف الصحيح الذي رواه الترمذي:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى))

[الترمذي]

الذكر عبادة في شكلها واسعة جداً، إلى درجة أنه يعبر عنها بآلاف النشاطات، إن قرأت القرآن فأنت ذاكر، وإن تفكرت في ملكوت الله فأنت ذاكر، وإن صليت فأنت ذاكر، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

وأيّ عبادة تقوم بها متقرباً إلى الله فأنت ذاكر، وإذا قرأت كتاب علم فأنت ذاكر، وإذا أمرت بالمعروف فأنت ذاكر، وإذا نهيت عن المنكر فأنت ذاكر، وإذا أردت أن تلفت النظر إلى بعض آيات الله فأنت ذاكر، فما من عبادة تغطي الزمان والمكان، والأحوال والأشخاص والأشكال كالذكر، فلهذه العبادة مليون

شكل، وهناك جهة الذات الكاملة، أيُّ تقرب منها فهو ذكر، لو جلست تقرأ كتاب فقه من أجل أن تعرف حكماً شرعياً معيناً فأنت ذاكر، ما من عبادة تتنوع أمكنتها، وتتنوع أزمنتها وأشكالها وأحوالها كعبادة الذكر، وهي من أرقى العبادات، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

عبادة.

الآية الكريمة:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة: ١٥٢]

بل إن الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: ٤٥]

معنى إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر:

المعنى الأول:

قال بعض المفسرين: ذكر الله أكبر ما في العبادة، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه]

المعنى الثاني:

وقال بعضهم: ذكر الله لك حينما تذكره أكبر من ذكرك له، إنك أن ذكرته أديت واجب العبودية.

ماذا يمنح الله قارئ القرآن:

نعمة الأمن:

أما إذا ذكرك منحك نعمة الأمن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

الحياة الطيبة:

إنك إن ذكرته منحك السكينة التي تسعد بها، ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، يمنحك حياة طيبة، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: ٩٧]

لا يخاف ولا يحزن:



تلاوة القرآن أعلى أنواع الذكر.

يمنحك حالين، أنك لا تخاف ولا تحزن، لا تخاف مما سيأتي، ولا تحزن على ما مضى، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة فصلت]

لذلك قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[سورة العنكبوت]

إذاً: تلاوة القرآن تعد أعلى أنواع الذكر، وقد قال بعض الأئمة العارفون: أعلى أنواع الذكر أن تقرأ القرآن في صلاة وأنت في المسجد، طبعاً الاستماع إلى القرآن كقراءته تماماً، لأن صلاة المؤتم اقتداء بصلاة الإمام، لذلك أعلى أنواع الذكر أن تقرأ القرآن في الصلاة وفي المسجد، قال تعالى:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة يونس: ٥٨]

لا مما يسترزقون مما يجمعون، الأغنياء يتجاوزون مرحلة كسب الرزق إلى مرحلة الجمع، يقول له: أنت كم عامودا تجمع في السنة ؟ كم مليونا ؟ يتنافسون بالملايين، الموضوع تجاوز كسب الرزق، ورحمة ربك خير مما يجمعون.

آيات تحض على الذكر في جميع المواطن:

الآية الأولى:

قال تعالى:

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي)

[سورة طه]

الآية الثانية:

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

[سورة الإنسان]

الآية الثالثة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الأنفال]

إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاقٍ قرنه، يعني خصمه، لذلك المجاهدون في ساعات الجهاد وساعات الالتحام يقولون: الله أكبر.

الآية الرابعة:

قال تعالى:

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الجمعة]

الذكر الكثير يقترب من قوله تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج]

أي بين الصلاتين، بين دعاء، واستغفار.

لذلك أيها الإخوة الكرام، مرة ثانية: إن قرأت القرآن، فأنت ذاكر، وإن دعوته فأنت ذاكر، وإن استغفرته فأنت ذاكر، وإن حمدته فأنت ذاكر، وإن هللت، أي قلت: لا إله إلا اله، وإن حوقلت، قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، فأنت ذاكر، وإن سبحت فأنت ذاكر، وإن قرأت كتاب علم فأنت ذاكر، وإن دعوت إليه فأنت ذاكر، وإن نصحت إنسانا لتقربه إلى الله فأنت ذاكر، وإن تفكرت في خلق السماوات والأرض فأنت ذاكر.

ما من عبادة تدور معك في كل أحوالك، وفي كل شؤونك، وفي كل أماكنك، وفي كل أطوارك كعبادة الذكر.

الآية الخامسة:

قال تعالى:

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: ٣٥]

الآية السادسة:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

[سورة آل عمران: ١٩١]

في كل أحوالهم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ولكن الذين استنبطوا من هذه الآية أن بعض الحركات العنيفة هي من الذكر وقعوا في خطأ كبير، لو أن الحركات العنيفة من الذكر لكانت قياماً قعوداً بحسب اللغة، أما هنا فيذكرون الله قياماً أو قعوداً أو على جنوبهم، الواو بمعنى أو هنا، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران: ١٩١]

الآية السابعة:

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ)

[سورة فاطر]

الآية الثامنة:

قال تعالى:

(فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)

[سورة البقرة: ٢٠٠]

الحديث الأول:

لذلك بعض الأحاديث التي رويت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم:

((ما من ساعة تمر بابن آدم لا يذكر الله تعالى فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة))

[الطبراني في الأوسط، البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة]

الحديث الثاني:

عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه: أن رجلا قال يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به، قال:

((لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله))

[الترمذي، أحمد]

الحديث الثالث:

وقال عليه الصلاة والسلام:

((ألا أدلك على باب من أبواب الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله))

[الترمذي عن قيس بن سعد بن عبادة]

الحديث الرابع:

وقال عليه الصلاة والسلام:

((ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله))

[متفق عليه عن أبي موسى]

الحديث الخامس:

((وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها من كنوز الجنة))

[سنن البيهقي الكبرى عن أبي ذر]

ومن أدق المعاني لا حول ولا قوة إلا بالله أي لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوة على طاعته إلا به.

أدب نبوي رفيع:

الأدب النبوي الذي نطق به سيدنا يوسف:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف: ٣٣]

وقد تزل المرأة والرجل، لذلك حتى استقامتك ليست من قوتك على طاعة الله، بل من توفيق الله لك، وإذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل، ونسبه إليك، فلا يعتد الإنسان باستقامته، ويقول: أنا قوي الإرادة، أنا لا أتأثر بكل الفتن، هذا نوع من الشرك، يقول: يا رب، أعني على طاعتك، هذا فيه أدب، لأنه حينما يعتد الإنسان بإرادته وبقوته الذاتية في طاعة الله يعالج هذا الإنسان معالجة سريعة جداً، فيضعف الله مقاومته، فتصبح هشة، فينهار لأقلّ فتنة، هذا معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوة على طاعته إلا به.

الحديث السادس:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((اقرءوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول: الم حرف، ولكن ألف عشر، ولا م عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون))

[الترمذي قريبا منه عن ابن مسعود]

كل حرف بعشرة.

الحديث السابع:

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنْ النَّاس، فقِيلَ: مَنْ أَهْلُ اللَّهِ مِنْهُمْ ؟ قالَ: أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ))

[أحمد، ابن ماجه، الدارمي]

الحديث الثامن:

وقال عليه الصلاة والسلام:

((أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ))

[أحمد]

الحديث التاسع:

وقال عليه الصلاة والسلام:

((خياركم من تعلم القرآن وعلمه))

[البخاري عن عثمان]

الحديث العاشر:

وفي حديث آخر:

((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين))

[مسلم عن عمر]

أحد كبار قراء القرآن الكريم في دمشق قبل عشرين عاماً فيما أذكر توفي، مشى في جنازته مليون إنسان، وأحياناً تجد جنازة ما فيها أحد إلا موظفو دفن الموتى.

((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين))

[مسلم عن عمر]

الحديث الحادي عشر :

((ويقال لصاحب القرآن ـ إذا دخل الجنة ـ اقرأ وارق واقرأ واصعد فيقرأ ويصعد لكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء))

[الترمذي وأحمد عن ابن عمرو]

((ويقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارق، ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأها))

[الترمذي وأحمد عن ابن عمرو]

الحديث الثاني عشر:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ))

[متفق عليه]

الحديث الثالث عشر:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا))

[الترمذي]

الحديث الرابع عشر:

وقال عليه الصلاة والسلام:

((من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ في المصحف، ومن علم آية من كتاب الله فله ثوابها ما تليت))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

علمت إنسانا آية في القرآن، فكلما قرأها كان ثوابها في صحيفة من علمه إياها.

الحديث الخامس عشر:

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[متفق عليه]

من معاني حق التلاوة:

أيها الإخوة، لكن لا بد من تعقيب، حينما قال الله عز وجل يصف المؤمنين بأنهم يتلون كتاب الله:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

[سورة البقرة: ١٢١]

١ – القراءة وفق اللغة العربية:

من معاني حق تلاوته أنك تقرأ القرآن الكريم وفق قواعد اللغة العربية، من هنا يقول سيدنا عمر: << تعلموا العربية فإنها من الدين >>.



أحياناً حركة واحدة تنقلك من الجنة إلى النار.

أراد رجلٌ أن يتفاصح فقال:

ولست أبالي حين أقتلُ مسلماً على جنب ألقى في الله مصرعي

***

قال أقتلُ، أما البيت:

ولست أبالي حين أُقتلُ مسلماً على جنب ألقى في الله مصرعي

***

حركة واحدة تنقل القائل من الجنة إلى النار، فلذلك: << تعلموا العربية، فإنها من الدين >>.

٢ ــ القراءة وفق قواعد التجويد:



لون القرآن حسب قواعد التجويد لتسهيله.

وأن تقرأه وفق قواعد التجويد أيضاً هو من تمام قراءة القرآن .

الآن هناك مصاحف إن كنت ضعيفاً في التجويد كيف أن النص غير المشكَّل إن قرأته مشكّلاً، وإن كنت ضعيفاً في باللغة لا تعرف إعراب الكلمة، الكلمة مضمومة، أعرفت أنها فاعل، أم لم تعرف، تقرأها مضمومة، هناك ضمة، فالتشكيل يمنع اللحن في القراءة، والآن معظم المصاحف الإدغام موجود، والمد موجود، والإقلاب موجود، وما إلى ذلك من أحكام.

إذاً: ينبغي أن تقرأه وفق قواعد اللغة، ووفق قواعد التجويد.

٣ ــ الفهم وقراءة التفسير:

وأن تفهمه، وأن تقرأ تفسيره، أن تفهم مدلولات آياته، لأنك إذا توهمت أن الله عز وجل حينما قال:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: ٨]

إذا توهمت أن الله خلق في النفس الفجور فقد وقعت في سوء ظن بالله، معنى ألهمها فجورها أي ألهمها حينما تفجر تعرف ذاتياً أنها فجرت، هذه الفطرة.

٤ ــ التدبُّر:

وينبغي بعد أن تقرأه وفق قواعد اللغة، وقواعد التجويد، وأن تفهمه أن تتدبره، التدبر غير الفهم، التدبر تطبيق الآيات عليك، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً)

[سورة الفرقان: ٦٣]

هل تمشي أنت على الأرض هوناً ؟

كلما قرأت آية فيها وصف للمؤمنين، أو للمنافقين، أو للكافرين تضع نفسك تحت المحك، هذا هو التدبر، وفوق الفهم.

٥ ـ التطبيق:

ولابد من أن تطبق، لأنه:

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[الترمذي عن صهيب]

فقراءة وفق قواعد اللغة، وقراءة وفق قواعد التجويد، وفهم لكتاب الله، وتدبر له وتطبيق هذه المراحل الخمس بمجمعها هي معنى:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ)

من ميزات تلاوة القرآن والذكر:

أيها الإخوة الكرام:

ـ تلاوة القرآن جلاء للقلوب، ودواء لها.

ـ كلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً.

ـ والذكر يزين الله به ألسنة الذاكرين، كما يزين بالنور أبصار الناظرين.

ـ والذكر من أعظم أبواب العبادة وأسهلها، وتنوع أشكالها وأوقاتها وأزمنتها، هي عبادة معك دائماً، وأنت تمشي في الطريق تقول: يا رب، لك الحمد، أردت أن تقابل إنساناً لأمر عصيب تقول: يا رب، وفقني، يا رب أعني دعاء، وهو استغفار، وتوبة، وتهليل، وتحميد، وتكبير، وذكر، ونصيحة، وأمر بالمعروف، ونهي عن منكر، وتفكر في الكون، لو انك قرأت كتاباً علمياً عن الفلك بنية أن تتعرف على الله فأنت من الذاكرين، عبادة بين يديك في كل أحوالك وحركاتك وسكناتك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٨-٦٠) : الذكر من أعظم العبادات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

الذكر عبادة شاملة عامة نوعا وكيفا وزمانا ومكانا:

ولكنني أردد دائماً أن الحقيقة المرة هي أفضل ألف مرة من الوهم المريح، تحدثت عن الذكر، وكيف أن الذكر من أرقى العبادات، وله خصيصة، وهي أنه يدور مع الإنسان أينما سار، وفي أي مكان حل، وفي أي شأن، و في كل أطواره و مراحل حياته، و هو من أعظم العبادات، إنك إن صليت فأنت ذاكر، إن قرأت القرآن فأنت ذاكر، إن تفكرت في خلق السماوات و الأرض فأنت ذاكر، إن دعوت إلى الله فأنت ذاكر، إن قرأت بحثاً علمياً كي تزداد معرفة بالله فأنت ذاكر، إن قرأت بحثاً فقهياً كي تتعرف على أمر الله فأنت ذاكر، إن سبحت فأنت ذاكر، إن هللت فأنت ذاكر، إن حوقلت فأنت ذاكر، و في كل أطوارك و مراحل حياتك وشؤونك، في سرك وجهرك، في إقامتك و ي ظعنك، وفي خلوتك وجلوتك فأنت ذاكر، لكن الذكر من أجل ماذا ؟

كل العبادات من أجل الصلة بالله:

من أجل أن تتصل بالله، و قد بينت لكم في دروس سابقة أن الصلاة من أجل الصلة، والصيام من أجل الصلة، والحج من أجل الصلة، والزكاة من أجل الصلة، و جميع العبادات التعاملية من أجل الصلة، تكون أميناً من أجل أن يسمح لك أن تتصل بالله، تكون صادقاً من أجل أن تتصل بالله، كل العبادات الشعائرية و التعاملية من أجل الاتصال بالله، و لكن ينبغي ألا يغيب عنكم أنك حينما تأكل مالاً حراماً، وتعلم أنك تأكل هذا المال الحرام يجب أن تكون جريئاً في مواجهة نفسك أنك بعد هذا العمل لن تستطيع أن تتصل بالله، وأن الطريق إلى الله مسدود، وأنك مجمد، و إن كنت هاتفاً، هاتف بلا خط وبلا حرارة، و بلا رنة، هذه الحقيقة المرة، الدليل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: ٢٤]

معاني: تربصوا:

المعنى الأول:

معنى تربصوا تجمدوا.

المعنى الثاني:

معنى تربصوا أن الطريق إلى الله ليس سالكاً.

المعنى الثالث:

معنى تربصوا أن هذه العبادات التي أتيتم بها جوفاء.

المعنى الرابع:

معنى تربصوا لن يسمح لكم.

آية عظيمة جليلة خطيرة:

أخطر آية في سورة التوبة هذه الآية.

التفصيل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

يضاف إلى هذا:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

[سورة التوبة: ٢٤]

ويضاف إلى هذا:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

[سورة التوبة: ٢٤]

معنى الأية:

بيان المعنى بأمثلة من واقع الحياة اليومية:

سأقرر المعنى تدريجياً:

هذا ما يفعله المستأجر !!!

أنت تسكن بيتا مستأجرا، والقانون معك، والبيت جميل جداً، وواسع، و له إطلالة، وأنت تسكنه بقانون الإيجار القديم، تعطي أجرة هذا البيت مبلغاً لا يساوي شيئاً، وهناك بيوت قبل القانون الجديد بمئة ليرة في الشهر، يقابلها عشرون ألفاً، بيت مثله بالإيجار الجديد عشرون ألفاً، هذا المسكن أحب إليك من أداء الحقوق، لا تكن جاهلاً، الطريق إلى الله مسدود، لأن هذا العمل حجاب لك عن الله، شئت أم أبيت، بإمكانك أن تفعل كل شيء مادي إلا أن تُقبل على الله، إن الله طيب، ولا يقبل إلا طيباً.

هذا ما يفعله الصيدلي !!!

عند صيدلي دواء غال جداً، انتهت مدة صلاحيته، جاء طفل معه وصفة فيها هذا الدواء، والطفل لا يفهم، الصيدلي حك بشفرة مكان الصلاحية، وقدم الدواء للطفل، والصيدلي يصلي في المسجد، وفي الصف الأول، أما حينما أعطى دواء انتهت صلاحيته أنا كنت أظن أن الدواء الذي تنتهي صلاحيته لا يفيد، لكنني فوجئت من إخوة كرام خبراء في هذا الموضوع أنه يؤذي، لأن مواده تتفكك، فإذا تفككت وقد كان دواء فأصبح سُمًّا، فحينما تضحي بإنسان، بمريض لست مهتديا.

والله أيها الإخوة الكرام، ما لم نستقم بهذا المستوى فالطريق إلى الله مسدود، مساجد، جامعات، مؤتمرات إسلامية، كتب، مطبوعات، ندوات، مجلات، هذا كله عند الله ليس بشيء، ما دام الإنسان آثر معصية الله على طاعته، أي هذا البيت أحب إلى المستأجر من أداء الحقوق فالطريق مسدود إلى الله.

قيمة هذا الدواء أغلى عنده من طاعة الله فباعه.

هذا ما يفعله المحامي !!!

يأتي مواطن له قضية في القضاء، والمحامي يعلم علم اليقين أن هذه القضية خاسرة، لأن هناك اجتهاد في محكمة النقض لا يمكن أن يتجاوزه القانون، لكن الموكل لا يعلم، والخبر السيئ سوف يصل إليه بعد عشر سنوات، هناك صلح، واستثناء، و نقض، وكل كلمة تستغرق شهراً، وطلب التأخير شهر وعشرة أيام، وطلب الإمهال شهر وعشرة أيام، وطلب شاهد، المحاكمة كلها لو جمعنا الأقوال كلها تتحمل نصف صفحة، كل كلمة شهر، يمكن للمحامي أن يؤجل الدعوى عشر سنوات، بعد ذلك يبلغ الخبر السيئ.

هذا ما يفعله المعلّم !!!

أنا أضع يدي على الجرح، يمكن ـ ولا أستثني حرفة ـ يمكن لمدرس أن يرفع مستوى الأسئلة إلى درجة أن معظم الطلاب نالوا أصفاراً، إذاً يحتاجون إلى دروس خاصة، هو جاهز، المذاكرة غير صحيحة، فيها تيئيس.

هذا ما يفعله الطبيب والمحلل المخبري !!!

يمكن لمحلل يتفق مع طبيب أن اطلب عشرة تحليلات، والمطلوب حقيقة الأول، والباقي بيننا مناصفة، ألوان الغش، ألوان الخداع، ألوان الغش والتدليس، والاحتيال تفوق حد الخيال، ومن مسلمين، ومن رواد المساجد، لا ينصح، فلذلك الآية مخيفة، وخطيرة، والله هي قاصمة الظهر:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

قل إن كان آباؤكم:

إيثار سلامة العلاقة مع الأب على طاعة الله:

أي إرضاء لوالده عصى الله، هو عند والده في معمل، المعمل فيه غش، معمل مواد غذائية، يمكن أن يشتري مواد غذائية انتهت صلاحيتها بثلثي قيمتها، فإذا جاءت إلى المعمل، واندمجت بالصناعة لا أحد يكشف ذلك، فتتضاعف أرباحه، الابن لم يحب أن يزعج والده، لم يحب أن ينصحه، مصلحته مع أبيه جيدة، اشترى له سيارة وبيتا، وأخذ له زوجة، فهو ساكت:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

أي آثرت علاقة مع الأب سليمة على طاعة الله، والله آلاف الشكاوى من أب يغش المسلمين، والابن ساكت، لأن مصلحته مع أبيه:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

إيثار سلامة العلاقة مع المسؤول عن العمل على طاعة الله:

صدقوني، كنت مرة في أداء عمرة، وأخ من لبنان كان يستمع إلى دروسي في إذاعة دار الفتوى، ومعه اختصاص عال جداً في كومبيوتر بعض السيارات الغالية جداً، ودخله في جدة يقترب من عشرين ألف ريال بالشهر، لكن الذي حصل أنه يأتي صاحب سيارة يعطى كشفا بالأعطال أكثره خلبي غير صحيح، والمبلغ فلكي عن طريق هذا الموظف، قبل حين اتصل بي، وقال لي: تركت العمل، وليس لي دخل آخر، لم يتحمل، هو صار شريفاً، سألني، فقلت له: والله حرام، فأنبأني أنني تركت العمل بلا بديل، أي علاقته مع المدير العام أغلى من علاقته مع الله بعض الموظفين، لا تغشوا أنفسكم، لا تحابوا أنفسكم:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

أو المدير العام أرضيته، أو إنسان يظلم الناس، وأنت معه لم تنصحه أبداً، قال لك: وقع فوقعت، استشهد بقولك، معه حق أمام المدير العام الأعلى، أنت آثرت سلامة علاقتك معه على طاعة الله:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

وأبناؤكم:

إيثار سلامة العلاقة مع الابن على طاعة الله:

ما عبأ بدين ابنه، بل عبأ بدنياه، بل من أجل ابنه عصى الله:

(وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

الذي يغش المسلمين أي كم إنسان يضع نصف الزيت نباتي و نصفه بلدي ؟ كم إنسان يستورد سمن صناعي منكّه بنكهات تقترب من السمن الصحيح، وأطنان، بل مئات الأطنان تذهب إلى منطقة مشهورة بصناعة السمن البلدي، وتعود هذه البضاعة المستوردة، وهي سمن صناعي إلينا كسمن بلدي، لما الغش انتشر، والكذب، والتدليس، والاحتيال تخلى الله عنا:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

وعشيرتكم

إيثار العصبية للعشيرة على طاعة الله:

التعصب للعشيرة، مع العشيرة و لو أنها ظالمة، بربكم العالم الغربي بأكمله، هؤلاء المواطنون الذين ينعمون بحياة تفوق حد الخيال ألم ينتخبوا حكوماتهم ؟ ألا يرون أن حكوماتهم تتفنن في قتل المسلمين ؟ و في نهب ثرواتهم ؟ هم ساكتون معهم، لذلك أنت حينما تنتخب في العالم الغربي حكومة ظالمة لك نصيب من هذا الظلم، هذا الذي لم يمت بعد هدم سبعين ألف بيت أليس النظام ديمقراطيا عندهم ؟ لمَ لمْ يسحب الشعب منه الثقة ؟ لأنه منتفع، لذلك قال الله عز وجل:

(فَعَقَرُوهَا)

[سورة هود: ٦٥]

أي قوم عقروا الناقة ؟ قوم صالح، كم شخصا عقرها ؟ شخص، قال الله:

(فَعَقَرُوهَا)

[سورة هود: ٦٥]

وأموال اقترفتموها:

لأن كل القوم راضون عن عمله، نسب العمل إليهم جميعاً، أي تحملوا الحقيقة المرة مادام كسب أموالنا حرام، مادام نغش، نكذب، نكبر المشكلة، نوهم المريض من أجل أن نبتز ماله، نوهم صاحب الحجة.

مثلاً بآخر: أزمة لبنان، الراكب أجرته خمسة وعشرين ألفًا، أليس هذا استغلال ؟ إنسان فقير يكاد يموت من الجوع نبيعه كل شيء حتى نوصله إلى الشام، هذا وضع المسلمين، لذلك:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

[سورة التوبة: ٢٤]

هناك بضائع محرمة، هناك لحوم فاسدة، هناك معلبات انتهى مفعولها.

أريد أن أذكركم أن شركة الآن تشتري جميع المواد الغذائية التي انتهى مفعولها، وبأعلى تقنية تكتب على هذه البضاعة بأرقى مستوى: " صلاحية جديدة "، أحياناً بالبخّ، أحياناً بلصاقة كالأصل تماماً، وتأتي إلى بعض البلاد تهريباً، أنت تفرح بثلثي قيمته، هذا منتهٍ مفعوله أما اللصاقة فصحيحة، هذا الذي يفعل هذا هل يعقل أن يكون مسلماً أو مؤمناً ؟ في بعض البلاد العربية يستوردون لحماً للكلاب، تنزع اللصاقة وتوضع لصاقة أخرى مكانها، ثم كشف أمره في مصر، إذا كان المسلمون بهذا المستوى فقد نقضوا عهد الله عز وجل، وهان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

أيها الإخوة الكرام: هذه الآية قاصمة الظهر:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

[سورة التوبة: ٢٤]

تجارة تخشون كسادها:

هناك بضاعة كاسدة يمكن أن نجدد صلاحيتها، وقد انتهت صلاحيتها، فنجدد الصلاحية بلصاقة، كم من تاجر يشتري أرخص أنواع الأقمشة يأتي بشريط made in England، يطبعونه بالمكواة، فتأتي المرأة وتشتري الجوخ الإنكليزي بعشرة أضعاف سعره، وهو صاحب دين، ويصلي في أول صف، هناك دجل وتزوير لا يعلمه إلا الله.

حدثني أخ قال لي، والقصة من خمس وعشرين سنة، معصرة زيت فيها مستودع زيت نباتي موصول إلى قعر حول تجميع الزيت المعصور، فيأتي إنسان يجلب الزيتون بنفسه، يقف أمامك ويعصر صاحب المصلحة نصف عصرة، يفتح الزيت النباتي بكمية ما بقى منها يقول لك: أعوذ بالله، بنفسي رايته يعصر، وأنا واقف، واقف بنفسه، أحضر الزيتون، وعصروا أمامه، وجمعه وأخذه، ونصفهم نباتي.

هناك قصص أنتم لا تصدقوها، بائعو العصير معهم يملؤون البرتقالة ماء، هؤلاء هم المسلمون، هذا وضع المسلمين، مرّ المسلمون بذلٍّ ما بعده من ذل، بقهر ما بعده من قهر، يتفنن أعداؤنا بإذلالنا، وبقهرنا و نهب ثرواتنا:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

[سورة التوبة: ٢٤]

ومساكن ترضونها:

إذا كان القانون معك فهذا البيت له أصحاب، صاحب البيت له أولاد يتمنى تزويج أولاده بهذا البيت، المستأجر لا يعطيه البيت.

والله حدثني قريب أن بيتا مستأجرا لموظف بالمهاجرين، بيته بالمالكي، تركه مغلقاً خمس وعشرين سنة لا يعطيه إياه، القانون معه، ولا يستخدمه أبداً، هذا ظلم، لذلك هذا الظلم الذي بين الناس هذا الذي يمنع الانتصار، ويمنع الفرَج:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

[سورة التوبة: ٢٤]

النتيجة الحتمية: فتربصوا

الطريق مسدود، لا أمل، و لا حل، و لا رائحة نصر إذا كنا كذلك، يجب أن تحرر دخلك، يجب أن تكون صادقاً، يجب ألا تغش مسلماً، يجب أن تكون أميناً، يجب أن تكون عفيفاً، و الأخطاء نعرفها بالفطرة:

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: ٢٤]

الطابع المحترم للموصوفين بتلك الصفات: والله لا يهدي القوم الفاسقين:

الفسوق من أسباب الحجاب عن الله:

معنى الفاسق، أي إذا حملك حبك لهذا البيت على أن تغتصبه فأنت فاسق، ومادمت فاسقاً الطريق إلى الله ليس مفتوحاً، فتربصوا، أي إذا حملك فسقك على أن تؤثر اغتصاب بيت على طاعة الله، أو تزوير تقرير على طاعة الله فأنت محجوب عن الله.

يقول: لا أستطيع أن أبيع، يأتي إنسان يطلب منك مبلغاً من المال كبيرا حتى يسمح لك بهذه المناقصة، هذا واقع، هذا واقع الدوائر، واقع الأسواق، واقع التجارة.

لا يخلو الناس من مؤمنين صادقين والحمد لله !!!

أنا والله أريد أن تسامحوني، أنا أستثني المؤمنين، والله هناك في كل المصالح، في كل المهن مؤمنون متألقون، والله عندهم نقاء وصفاء كالثلج، أنا لا أعمم، التعميم من العمى، يوجد أصحاب حرف من المؤمنين في أعلى درجات النزاهة والصدق والأمانة، وهؤلاء حجة على من حولهم، في حقل الطب، التعليم، بالمحاماة، يوجد محامين ورعين يصلح أي يكون وكيلاً للطرفين معاً، بكل حرفة يوجد أناس مستقيمين أنا لا أعمم لكن الأعم الأغلب هكذا.

قالت إحدى زوجات النبي الكريم:

((أنهلك و فينا الصالحون، قال نعم إذا كثر الخبث))

[متفق عليه عن أم سلمة]

لا طمع في النصر بمثل هذه الصفات الذميمة !!!

سيارة يطلب من شركة أن تعطي جهازا لإرجاع العداد إلى الصفر، وهي سارت ثلاثة عشر كيلو مترا، شيء قليل، وهي مشت حقيقة ألفا وثلاثة عشر كيلو متراً، نرجع العداد إلى الوراء.

هذه حياة المسلمين أنا أضع يدي على السلبيات، وهذه السلبيات تحول بيننا وبين نصر الله لنا، أما المسلم فصادق أمين عفيف:

((حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته و صدقه و عفافه و نسبه))

[أحمد عن أم سلمة]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (١٩-٦٠) : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مبدأ الأثنينية:



أيها الإخوة الكرام، من الثابت أن في الحياة الدنيا ما يسمى بالاثنينية، أي ؛ حق وباطل، خير وشر، صواب وخطأ، رحمة وقسمة، إنصاف وظلم، كل القيم لها شكل إيجابي وشكل سلبي، السبب أن البشر على اختلاف شكلهم ونحلهم نموذجان:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)
(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

شاءت حكمة الله أن يكون الناس بحسب اختيارهم، وبحسب أن البشر حملوا الأمانة، وقد عرض الله عليهم الأمانة في عالم الأزل.

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: ٧٢)

الحق والباطل:

١ – الإنسان قبضة من تراب ونفخة من روح:

صنف البشر صنف متميز فيه قبضة من تراب الأرض، وفيه نفخة من روح الله، فيه عقل وفيه شهوة.

٢ – اجتماع الصنفين المتناقضين في الأرض في زمن واحد:

وبينهما صراع أزلي أبدي، وبين البشر صراع أزلي أبدي، هكذا أراد الله، والمؤمن بالتعبير المعاصر يحترم قرار الله، ذلك أنه كان من الممكن أن يكون المؤمنون في كوكب، والكفار في كوكب، وليس هناك أيّ مشكلة، وكان من الممكن أن يكون الكفار في قارة، والمؤمنون في قارة، وكان من الممكن أن يكون المؤمنون في حقبة والكفار في حقبة، ولكن الله أراد أن نعيش معاً على أرض واحدة وفي زمن واحد.

٣ – الصراع بين الحق والباطل من لوازم الاجتماع البشري:

إذاً من لوازم هذا الاجتماع الصراع، فمن آدم إلى يوم القيامة هناك صراع بين الحق والباطل، هناك معركة بين الحق والباطل، هذه حقيقة مسلّم بها، نحن أمام هذا الواقع ماذا ينبغي أن نعمل ؟.

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من أركان الإسلام:

الحقيقة أن الإنسان مخلوق للجنة، والجنة تحتاج إلى عمل، ومن أعظم الأعمال أن تدعّم الحق، وأن تضعف الباطل، أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، لذلك يكاد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يكون الركن السادس في الإسلام، بل إن علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: ١١٠)

لقد أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(سورة آل عمران الآية: ١١٠)

من نتائج إلغاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١ – وجود خلل كبير في الإيمان:

أقول لكم وبلا تردد: الذي يلغي منحياته كلياً الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في إيمانه خلل كبير جداً.

٢ – انتشار دوائر الباطل وتناميها:

أضرب مثلاً:

تأتيك ابنة أخيك زائرة، وهي ترتدي ثياباً فاضحة، أنت لا يعنيك هذا الوضع غير معقول، يعنيك أن تسلم في علاقتك مع أخيك، فترحب بها، وتثني عليها، وعلى جمالها، وعلى دراستها، ولا يعنيك أبداً أن تلفت نظرها إلى ثيابها، هذا الوضع السائد في المجتمع، هذا الوضع يجعل دوائر الباطل تتنامى، ودوائر الحق تضيق .

لا بد لهذا الحق من أن يستمر، ولا بد من أجل استمراره من أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، والذي لا يفكر أبداً في إزجاء نصيحة، أو لفت نظر، أو تعليق هو إنسان في إيمانه خلل كبير.

٣ – سبب لهلاك الأمم:

أساساً أحد أسباب هلاك الأمم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة الآية: ٧٩)

أحد أسباب هلاك الأمم، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنّمَا أَهْلَكَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدّ، وايْمُ الله، لَوْ أَنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه]

لذلك قد يغفل المسلمون عن فريضة سادسة، أو عن ركن سادس من أركان الإيمان، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسلمون حينما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو

لدرجة أسوأ، حينما أمروا بالمنكر، ونهوا عن المعروف، أو بدرجة أسوأ وأسوأ حينما أصبح المعروف عندهم منكراً، والمنكر معروفاً فقد تودع منهم.

من علامات قيام الساعة: تكذيب الصادق الكاذب:

أيها الإخوة، من علامات قيام الساعة: أن الصادق يُكذب، والكاذب يُصدق لماذا ؟ من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الناس يتملقون القوي والغني، فكل أخطاء القوي تبرر، وكل أخطاء الغني تبرر.

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر، قالوا: أوكائن ذلك ـ كاد الصحابة يصعقون ـ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيت عن المعروف، قالوا: أوكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

[علل ابن أبي حاتم]

شعار جاهلي قديم لمسلمي العصر الحديث:

"واقعد" أصبح شعار المسلمين

وأنا أضع بين أيديكم بيت شعر، دخل قائله السجن في عهد عمر، وعد من أهجى الشعر في الأدب العربي، ماذا قال الشاعر ؟ قال لرجل:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

هذا البيت الذي دخل صاحبه السجن شعار كل مسلم، دعك من هذا انجُ بنفسك لا تدخل فيما لا يعنيك، فلما قوي الباطل، والقوي الغير مؤمن فعل كل المنكرات، والناس يتنافسون في الثناء عليه، والغني غير مؤمن فعل كل المعاصي والآثام، والناس يتنافسون في الثناء عليه.

في هذه البلدة إنسان عنده مسبح مختلط، يسبح الرجال مع النساء، والنساء بثياب السباحة الفاضحة، أقام مولدا في المسبح، ودعا الناس، وكثير منهم الذين أثنوا عليه.

يمكن أن يعقد عقد قران، ويؤتى بالمغنيات، يقول رجل في هذه البلدة: بذكاء وبحنكة استطاع أن يقنع مطربة أجرتها مئة ألف دولار في السفرة، ٦٠ ألف دبرها لعرس ابنه، مطربة تغني بعرس، وتأخذ ستين ألف دولار، ومئات الشباب يتمنون غرفة يتزوجون فيها ! هذا شيء واقع.

لذلك:

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً))

ما لم نأمر بالمعروف، وما لم ننهَ عن المنكر فقد تودع منا

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة الآية: ٧٩)

٤ – سبب تأخر المسلمين:

لذلك: الأمة الإسلامية حينما تركت الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أصبحت كما ترون، بل أصبحت أمة كأية أمة خلقها الله عز وجل، ليس لها أدنى ميزة والدليل:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: ١٨)

أنتم من هذه الأمم الشاردة عن الله عز وجل.

ايات قرآنية تحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إخواننا الكرام، قد تفاجئون ببضع عشرات الآيات التي تحض على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

(وَلْتَكُنْ)

الآية الأولى:

فعل أمر، وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة آل عمران)

الآية الثانية:

أيها الإخوة.

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آَيَاتِ اللَّهِ آَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(سورة آل عمران)

ثمة قصة أرويها كثيراً: سائق سيارة على خط دمشق بيروت، في أيام ليس هناك إقبال على السفر، ينتظر الركاب، جاءه شاب وشابة ليركبا معه إلى الشام، لكنهما طلبا منه أن ينتظر قليلاً، لأنهم ينتظرون محفظة يأتي بها إنسان خلال ربع ساعة، فانتظر، تأخر الذي يأتي بالمحفظة قليلاً، فلما وصل، وعلى رأسه المحفظة، هذا الشاب ما كان منه إلا أن وكز هذا الإنسان الشيخ صاحب السبعين سنة، وعنفه على تأخره، السائق ما انتبه، أخذ المحفظة، وانطلق بالسيارة، وصلوا إلى رأس الجبل سمع السائق المرأة تقول للشاب : معقول أن تضرب أباك ؟ هذا السائق غير متعلم، وقف، وقال له: تفضل، وانزل، هذه الأجرة، الآن نصاب بحادث، تضرب أباك ؟ هذا السائق على جهله، وعلى ضعف ثقافته لما فعل هذا الموقف ما طمع بالأجرة، أعطاه الأجرة، وقال له: انزل. لو أن الإنسان أخذ موقفا فقط، أنا لا أقول: أن تكون عنيفاً، فقط أخذ موقفا الوضع يختلف. لما زارت البنت عمها فأعرض عنها، وظهر انزعاجه الشديد من ثيابها صار هناك مشكلة. أما الآن فالإنسان يفعل ما يشاء، ولا مشكلة أبداً، يفعل ما يشاء، يخترق كل الحدود، يتجاوز كل التعليمات، يفعل كل المعاصي، وع ذلك هو محترم، معزز، مكرم، مبجل، مثل هذه الأمة لا تستحق أن تنال نصر الله عز وجل:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

إخواننا الكرام، بالضبط حينما نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر تضيق دوائر الباطل، وتتسع دوائر الحق، وحينما نسكت تتسع دوائر الباطل وتضيق دوائر الحق.

الآية الثالثة:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

(سورة التوبة الآية: ٧١)

الآية الرابعة:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

في نهاية الآيات:

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبة)

الآية الخامسة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

(سورة الأعراف)

الآية السادسة:



(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

(سورة المائدة)

أقيم عرس من نوع الخمس نجوم، جيء بالراقصات، والعرس مختلط ، والنساء شبه عرايا، ووزع الخمر، ونقل هذا الاحتفال في عدة صحف، صوّر هؤلاء المحتفون ونساءهم كاسيات عاريات في صفحات كبيرة، هذا عرس النساء، لكن قبل أيام كان هناك عقد قران، وقد أثني على الأسرتين المتصاهرتين العريقتين، والحديث عنهما كان غير معقول إطلاقاً، هذا الذي ينطق

بالمديح من دون دليل، من دون دراسة، من دون تريث يضع مكانته في الوحل دون أن يشعر، وعلى البطاقة: الطيبون للطيبات، والخمر تدار، والراقصات والاختلاط، وعلى البطاقة الطيبون للطيبات.

صار الدين فلكلورا.

مرة صعقت عندما قرأت خبراً أن القرآن الكريم قرأ في باريس على أنه فلكلور شرقي، مثل هذه الأمة لا تستحق أن تنال نصر الله عز وجل.

الآية السابعة:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة المائدة)

ما الذي يحصل أحياناً ؟ الذي يعمل في الحق الديني، يريد سلامته فقط، فلا يتدخل أبداً في شؤون من حوله، لذلك الذي يقع أن الشرع هنا، وأن الناس هنا، مهمة الداعية أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع، هذه مهمة شاقة، لكن في طريقة أيسر الشرع هنا والناس هنا، عن طريق الفتاوى يتجه الشرع إلى الناس.

لذلك أنا أقول دائماً: أي إنسان يسأل عن فتوى أطمئنه، لا تقلق هناك فتوى لكل معصية، تريد الفتوى أم التقوى ؟ الفتوى موجود فتوى لكل معصية، حتى أكبر معصية على الإطلاق وهي الاستثمار الربوي، الذي توعد الله مرتكبه بالحرب.

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٧٩)

بين الفتوى والتقوى:

أكبر معصية على الإطلاق هناك فتوى من أعلى مرجعية إسلامية من بلد إسلامي بأن إيداع المال بالبنك، وقبض الفوائد باسم عوائد ما فيها شيء، وعلى إثر هذه الفتوى أودع بالبنوك في اليوم التالي ٨٣ مليارا، فإذا أكبر معصية على الإطلاق مغطاة بالفتوى.

فأنا أقول: أي إنسان يبحث عن فتوى أطمئنه، هناك فتوى لأكبر معصية ، البطولة أن يكون معك التقوى، وسوف أذكركم بأنك أنك لو استطعت أن تنتزع من فم سيد الخلق، وحبيب الحق فتوى لصالحك، من فم من ؟ سيد الخلق، وحبيب الحق فتوى من فمه الشريف لصالحك، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله، والدليل:

((لَعَلّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقّ أَخِيهِ شَيْئا فَلاَ يَأْخُذْهُ فَإِنّمَا أَقْطَعُهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النّار))

[متفق عليه]

الآية الثامنة:

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

(سورة هود)

الآية التاسعة:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

(سورة الحج)

هذا بعض ما في القرآن من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

احاديث نبوية تحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الحديث الأول:

أما النبي العدنان فيقول عليه الصلاة والسلام :

((إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

الحديث الثاني:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))

[الجامع الصغير عن رجل من خثعم]

الحديث الثالث:

((إن الدال على الخير كفاعله))

[أخرجه الترمذي عن أنس]

الحديث الرابع:

((إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها))

[أخرجه أبو داود عن العرس بن عميرة]

أنت في الشام سمعت بقصة في كندا، أن إنسانا احتال، وجمع ثروة جيدة، أنت قلت: والله هذا ذكي، هل تصدق أنك بهذا التعليق كأنك عند الله شهدت هذا المنكر، ولم تنكره.

((إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها))

الحديث الخامس:

((من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقي الله يوم القيامة مكتوب في جبهته: آيس من رحمة الله))

[رواه ابن أبي عاصم في الديات عن أبي هريرة]

الحديث السادس:

((من أعان ظالما سلطه الله عليه))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود]

الحديث السابع:

((إنَّ النَّاسَ إذَا رأوا الظَّالِمَ فلَمْ يأخُذُوا على يَدَيْهِ أوْشَكَ أنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بعِقابٍ مِنْهُ"))

[رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه]

الحديث الثامن:

((ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب))

[أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجة وابن حبان، عن جرير]

الحديث الثامن:

((مَنْ رأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَم يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِه، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذلكَ أضْعَفُ الإِيمَانِ))

[رواه مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه]

الحديث العاشر:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ تَعالى أن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقاباً مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابَ لَكُ))

[رواه الترمذي عن حذيفة]

الآن في الحروب التي عانى منها المسلمون لم يخلُ جامع ومسجد في الخمس قارات ما ابتهل إلى الله بالدعاء ! الله ما استجاب، مهما دعوت، إن لم تأمر بالمعروف وتنه عن المنكر فلن يستجاب لك.

لا للعنف، نعم للرفق والكلمة الطيبة:

أيها الإخوة الكرام، أنا لا أدعوكم إلى العنف أبداً، لكن كلمة ليكن لك موقف الحد الأدنى لا ترحب ترحيباً غير معقول بمن يفعل المنكرات.

أحيانا يزور البيت إنسان منحرف، المعاصي كلها في بيته، ويلقى الترحيب، أهلاً وسهلاً، ابنك يعلم ماذا يفعل هذا الزائر، تقول له هذا الكلام ؟ أنت أوقعت الابن في إشكال كبير، لذلك لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحكمة، إلا أنك إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر فنتج عن هذه فتنة أشد من المنكر الذي أنكرته فالأولى أن تنكره بقلبك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٠-٦٠) : التدبر في قراءة القرآن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة .

مع ترهل الإيمان انفصال النصوص عن الواقع عند الناس:


الأمة الإسلامية انفصلت عن واقعها.

استوقفني موضوع، وهو أنه مع ترهل الإيمان في أمة ما تنفصل عندها النصوص عن الواقع

القرآن فيه آيات، فيه أمر، فيه نهي، وحياة الناس في وادٍ آخر.

مثلاً: كثيراً من يقول لي: أعاني من كآبة، الله عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: ٩٧)

لا يحزن قارئ القرآن:

ورد في الأثر: " أنه لا يحزن قارئ القرآن "، لأن القرآن شفاء للنفوس، وعدك الله بحياة طيبة، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، كيف يحزن قارئ القرآن، وهو يتلو قوله تعالى:


لا يحزن قارئ القرآن.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

لا تخشى مما هو آت، ولا تندم على ما فات، كيف يحزن قارئ القرآن حينما يتلو قوله تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

كيف يحزن قارئ القرآن وهو يتلو قوله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة الآية: ٥١)

كيف يحزن قارئ القرآن وهو يتلو قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج الآية: ٣٨)

كيف يحزن قارئ القرآن وهو يتلو قوله تعالى حينما يبين:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

عدم تدبر القرآن سبب الكآبة والحزن:



هذا الذي يقرأ القرآن في رمضان ومعه كآبة، ومعه حزن، ومعه إحباط ومعه أمراض نفسية، معنى ذلك أن القرآن في وادٍ وهو في وادٍ آخر، لذلك ما هو التدبر ؟ التدبر أن تسأل نفسك سؤالاً جريئاً: أين أنا من هذه الآية ؟

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

(سورة الأنفال الآية: ٢)

هل تضطرب إذا تلوت كلام الله ؟ هل يوجل قلبك ؟ هل تدمع عينك ؟ هناك كلام مقلق، وكلام محرج، لا تحابِ نفسك، كلما قرأت القرآن، أو استمعت إليه، أو استمعت إليه وأنت في الصلاة، اسأل نفسك بجرأة: هل أنا مطبق لهذا الآية، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية: ١٢)

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء الآية: ٢٩)

الناس يتفننون في أكل أموال بعضهم بالباطل، لذلك هذه القراءات التي تقرأ في رمضان إذا ما رافقها استقامة فلن نقطف ثمارها إطلاقاً، الله عز وجل قدم للإنسان تفسيرا دقيقا.

قد يذهب إنسان إلى بلاد بعيدة، يرى تقدما، وحضارة، ورقيا، وأبنية شاهقة وحدائق، ونظاما، وغنى، وترفا، يرجع ضعيف النفس متطامنا، ألم تقرأ قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

كيف تتطامن، وتصغر أمام هؤلاء الأقوياء الذين شردوا عن الله عز وجل، و أنت تقرأ القرآن الكريم ؟

(لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران: ١٩٦ – ١٩٧)

بالتعبير الآخر، حينما تقرأ القرآن ألا تصدق الله عز وجل ؟ إن صدقته حقاً فيجب أن ينعكس تصديقك راحة نفسية ثقة بنفسك.

سؤالا عظيم عند القرآن أو سماعه: أين أنا من آيات الأمر والنهي:

أنا أخشى ما أخشاه أن يهزم الإنسان من الداخل، لك أن تقرأ القرآن قراءة تعبدية، ولكنني أعوّل لا على القراءة التعبدية، بل على قراءة التدبر، لو قرأت في رمضان جزءاً واحداً بالتدبر فقد أفلحت. أيّ آية تقرأها فيها أمر هل أنا مطبق لهذا الأمر ؟ فيها نهي، هل أنا منتهٍ عن هذا الأمر ؟ فيها مشهد من مشاهد الجنة، هل تاقت نفسك للجنة ؟ هل سعيت إليها ؟ فيها مشهد من مشاهد، أهل النار هل اتقيت النار لو بشق تمرة ؟ اجعل نفسك في حوار مع ذاتك، أن تقرأ القرآن

أحياناً يصبح من عادتنا سماع القرآن، لكن البطولة أن تحاسب نفسك حساباً عسيرا.

حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها لا بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي]

هل أنت حريص على ضبط لسانك ؟ أنت حينما تقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة الحجرات الآية: ١)

هل ترى أن هناك أشياء ينبغي تكون في السنة على خلاف ما هي عليه، معنى ذلك أنك قدمت بين يدي الله ورسوله.

أنا أريد في هذا الدرس أنّ أيّ آية تقرأها أن تسأل نفسك السؤال الصعب: أين أنا منها ؟ حينما قال الله عز وجل:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء الآية: ١٩)

هل أنت تعامل الزوجة كما جاء في هذه الآية ؟

والله أيها الإخوة، يتصل بي أناس أو زوجات يشكون من ظلم الأزواج الشيء الذي لا يحتمل، وهم من رواد المساجد، أين قوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

أنا أريد أنك كلما قرأت آية تتدبرها، التدبر أن تحاسبك نفسك، أين أنا من هذه الآية ؟ مطبق ؟ ضعيف التطبيق ؟ تطبيق جزئي ؟ لا أطبق، إذاً: افتح القرآن الكريم، وأمسك القلم.

بعض الإخوة الكرام جعل على المصحف تعليقات بقلم رصاص، هذا أمر، هذا نهي، هذه حقيقة، هذا قانون.

مثلاً: هناك قانون للعداوة والبغضاء:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية: ١٤)

هذا قانون.

قانون الكبرياء والعزة، حينما يؤمن الإنسان، ويستقيم يشعر بعزة، أما الذي يعصي فإنه يصغر بذنب اقترفه.

قراءة التعبد وقراءة التدبر:

أتمنى أن نقرأ القرآن في رمضان قراءتين قراءة تعبد، وقراءة تدبر، التدبر أن يجول فكرك فيما تقرأ، أن تجمع الأوامر، أن تجمع النواهي، ويجب أن تعتقد أن كل أمر في القرآن يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك.

أنت تفاجئ أنك أمام آلاف الأوامر في القرآن، وآلاف الأوامر في الحديث، فحينما تتعامل مع القرآن بجدية تفلح.

تدبر آيات القران بتطبيقها كإقامة العدل

كيف أحياناً يغيِّر قرار الأسعار كلها، أحياناً بتصريح تنخفض الأسعار تنخفض، إذا قال مسؤول: إن دراسة جدية لتخفيض رسوم السيارات، تجد أن الناس أخذوا موقفًا، إنسان يبيع سيارته، إنسان ينتظر، لا يشتري، بناء على هذا التصريح.
خالق السماوات والأرض يقول لك: ليل نهار، افعل ولا تفعل، الذي أتماه أن تستقل بختمة أساسها التدبر، لا أساسها إنهاء القرآن، نقرأ، نقرأ، لا ينبغي أن تتفكر أين أنا من هذه الآية ؟ أحياناً يكون الوصف للمؤمنين، قارئ القرآن يتوهم، وقد يكون صادقاً أنه بعيد عنه بُعد الأرض عن السماء.

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)

(سورة آل عمران الآية: ١٣٤)

هو عصبي، إذا انفجر يخرب ما شيده في شهر، أين الآية ؟

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أحياناً قسوة بمعاملة الأب والأم، أين قوله تعالى ؟:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)

(سورة الإسراء)

وسام الشرف لا في قراءة القرآن فقط، بل في تدبره والسعي لتطبيقه.

الإنسان بين التصديق القولي والتكذيب العملي للقرآن:

لعلي قلت لكم: إن إنسانا مرة سألني عن شاب خطب ابنته، الشاب وسيم، وغني، وعنده معمل خصه به أبوه، وعنده مركبة فخمة، وعنده بيت، وقد خطب ابنته فسألني، إلا أنه دينه رقيق جداً، لا يصلي، سألني، قلت له بالضبط: أنت تقرأ القرآن ؟ قال: نعم، قلت: بعد أن تنتهي من قراءته ماذا تقول ؟ قال لي: أقول: صدق الله العظيم، تمام، أنت حينما تقرأ قوله تعالى:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة الآية: ٢٢١)

حينما تزوج ابنتك لشاب وسيم، وغني، ويملك معملا، وبيتا، ومركبة، ولا تعبأ بدينه الرقيق فأنت لم تصدق الله، فإذا قلت بعد نهاية القراءة: صدق الله العظيم فإنك تكذب، أنت ما صدقت الله عز وجل، صدقت هذا الإغراء الذي تقدم به الشاب، فكن صريحا مع نفسك.

حينما تخالف القرآن فإنه:

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[أخرجه الترمذي عن صهيب]

((ورب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ذكره الغزالي في الإحياء من قول أنس بن مالك]

من قوانين القرآن الكريم:

هناك قوانين:

١ – قانون التوفيق:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

هذا قانون التيسير

٢ – قانون التعسير:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

٣ – قانون البغضاء والمحبة:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية: ٦٣)

تأليف القلوب أساسه اجتماعهم على تأليف الله، أما مهما بذلت من جهد كي تقرب القلوب فلا تستطيع:

(لَوْ أنفقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

حينما تقرأ القرآن، وعندك إحساس كبير أنه من عند خالق الأكوان، من عند الخبير، من عند الخالق، من عند الرب الرحيم، المسير، تتعامل معه تعاملا آخر، فأنا أتمنى أن تكون قراءة رمضان قراءة تدبر، ولا تهتم كثيراً بالكم، اهتم بالكيف.

كان أصحاب النبي يقرؤون عشر آيات، لكن مع التدبر، ومع التطبيق.

لا مانع أبداً مع قراءة القرآن أن يكون معك دفتر صغير، تكتب فيه أول أمر، ثاني أمر، ثالث أمر، أول نهي، ثاني نهي، ثالث نهي، أول قانون، ثاني قانون، ثالث قانون.

٤ – قانون السعادة:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية: ٢٨)

٥ – قانون الكآبة:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية: ١٢٤)

هناك قانون السعادة، وقانون الكآبة، وقانون العداوة والبغضاء، وقانون التوفيق وقانون العزة، وقانون الذل، كل أحوال النفس في القرآن الكريم.

إذاً: يمكن أن نقرأ القرآن مع التدبر، والتدبر أن تكون صريحاً وجريئاً في محاسبة نفسك، وكلما حاسبت نفسك في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابها يوم القيامة يسيراً، وكلما حاسبت نفسك في الدنيا حساباً يسيراً كان حسابها يوم القيامة عسيراً.

احذر حجاب القلب: أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها

فلذلك اقرأ القرآن بتدبر، وقد قال الله عز وجل:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)

(سورة محمد)

القلوب مقفلة، لذلك في عندنا مؤشر إذا قرأت القرآن فلم تشعر بشيء، إذا صليت فلم تشعر بشيء، إذا ذكرت الله فلم تشعر بشيء لا تخجل من أن تعلم أنك محجوب عن الله

إخواننا الكرام، أكبر عقاب من الله أن يحجبك عنه.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

أكبر عقاب، قد يعطيك المال الوفير، والصحة، والزوجة، والأولاد، ودخل فلكي، ومركبات، لكنك محجوب عنه، هذا أكبر عقاب.

الشدائد دليل خير في المسلم:


الشدائد دليل خير في المسلم.

لذلك أنا أقول: حينما يسوق الله للإنسان بعض الشدائد كي يقبل عليه هذا جبر له، هذا تكريم له.

حينما يكون الإنسان في عناية الله المشددة يحاسبه على كل عمل، إذا أحب الله عبده ابتلاه، إذا أحب الله عبده عجل له بالعقوبة، فلا تقلق من شدة الله عز وجل، اقلق من الرخاء، وأنت غافل، هذا الذي يقلق، إذا أحب الله عبده ابتلاه، إذا أحب الله عبده عجل له بالعقوبة، إذا أحب الله عبده استعمله، والمثل الذي أقول كثيراً:

الذي معه التهاب معدة حاد يعطى تعليمات مشددة جداً من الطبيب، يمنعه عن معظم الأكلات، ويتابعه، فإذا شعر الطبيب أنه خالف التعليمات قد ينفجر في وجهه، أما الذي معه مرض خبيث فلا يدقق الطبيب أبداً في طعامه وشرابه، يقول له: كل ما تشتهي، لأنه ميئوس منه، ولا أمل له.

حينما ترى أن الله يتابعك، ويحاسبك، ويشدد عليك، ويضيق عليك فهذا من المعالجة الإلهية.

ورد في بعض الآثار:

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي، وتضيقي، وتكدري على أوليائي، حتى يحبوا لقاءي ".

ورُبّ ضارة نافعة، وكثيراً ما أروي هذا الحديث:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مُهين. ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

[أخرجه ابن سعد البيهقي في شعب الإيمان عن أبي البجير]

إن ربك لا يضيع من ترك شيئا لوجه الكريم !!!

قصص من الواقع لا من نسج الخيال:

القصة الأولى: مع بائع الدخان

أيها الإخوة الكرام، محل صغير يبيع الدخان، أرباحه في الشهر من الدخان ٢٥ ألفا، إنسان أعطاه شريطا عن درس في هذا المسجد عن مضار الدخان، وعن الأحكام الشرعية في موضوع التدخين، هذا صاحب المحل له شريك،

بيع الدخان نشر للضرر بين الناس

اقتنع بهذا الشريط، وأخذ قرارا بإيقاف بيع الدخان، اعترض شريكه، قال له: أنا لا أوافق، عندنا دخل ٢٥ ألفًا من الدخان، فقال له شريكه: أنا لا أوافق على متابعة بيع الدخان، ولكنني أضمن لك بعد أن نمتنع عن بيع الدخان إذا انخفض الدخل ٢٥ ألف لك مني نصفها، لأنه شريك بالنصف، وإذا بقي الدخل على ما هو عليه بعد ترك بيع الدخان ليس عندك لي شيء، فتوافقا، يقول في اليوم الثاني: جاء الموزع الذي معه الدخان، قال له: كم تحتاج ؟ قال له: أحتاج أن تأخذ الذي عندي، أرجعهم له، لمَ ؟ قال له: والله أنا سمعت شريطا، وتبت إلى الله، وألغيت هذه البضاعة، وفي الشريط يقول الشيخ:

((مَا تَرَكَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَمْرَاً لا يَتْرُكُهُ إِلاَّ لِلَّهِ إِلاَّ عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْهُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاه))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر]

هذا موزع الدخان دفع خمسة ملايين ليرة لمصادر الدخان كتأمين، ويأخذ ويبيع ويحاسب، يوزع على ٢٥٠ محلا، عنده سيارتان، فسمع الشريط، قال له: وأنا أتوب مثلك، توقف عن بيع الدخان، واستبدل بيع الدخان ببيع المواد الغذائية.

إنها كلمة، أو شريط سمعه الإنسان فأخذ قرارا، لذلك:

((الكلمة الطيبة صدقة))

[أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة]

القصة الثانية: مع عامل في إنتاج الأفلام الإباحية:

والله اتصل بي مرة إنسان من لوس أنجلوس، قال لي: أنا أعمل في عمل حقير جداً، قلت له: ما العمل ؟ قال لي: أنا أجري (المونتاج) على الأفلام الإباحية، أعطاني أخي شريطا لك، أقسم بالله أنه سمعه خمسين مرة، وتاب، وأنا التقيت به في واشنطن في سنة قادمة.

((الكلمة الطيبة صدقة))

وكل واحد منكم بإمكانه أن يتكلم كلمة طيبة، بإمكانه أن يهتم بمن حوله، يهتم بموظفيه، يهتم بجيرانه، يهتم بأخواته البنات.

((الكلمة الطيبة صدقة))

[أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة]

((مَا تَرَكَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَمْرَاً لا يَتْرُكُهُ إِلاَّ لِلَّهِ إِلاَّ عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْهُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاه))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر]

وكل إنسان حجمه عند الله بحجم عملك الصالح، حجمك عند الله بعد إيمانك بالله بحجم عملك الصالح.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢١-٦٠) : المفاهيم الأساسية للجهاد وأنواعه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة، والحديث اليوم عن الجهاد.

مقدمات مهمات ممهدات:

١ – خطورة الاتجاه الانتقائي:

بادئ ذي بدء، أخطر اتجاه في الإسلام أن ننتقي منه ما يعجبنا، وأن ندع منه ما لا يعجبنا، هذا الاتجاه الانتقائي خطير جداً، لأن هذا الدين كل لا يتجزأ، وهو من عند الخبير، من عند العليم، من عند الذي يعلم وحده أسباب سلامتنا وسعادتنا، فإذا أخذنا منهجه، واخترنا منه ما يعجبنا، وتركنا ما لا يعجبنا لن نستطيع أن نقطف من هذا الدين شيئًا.

٢ – الإضافة على الدين سبيل التفرقة، والحذف منه سبيل الضعف:

حينما أضفنا على الدين ما ليس منه أصبحنا فرقاً وشيعاً وأحزاباً، وكان بأسنا بيننا، وحينما حذفنا من الدين ما ينبغي ألا يحذف ضعفنا، لذلك الآن ظهر خطر التدخل، إضافة أو حذفاً على منهج الله، الطرف الآخر يريدنا ضعفاء، يريدنا أن نتحدث عن خيار السلم فقط، أما هو فيقيم حرباً استباقية ليبقى قوياً، وليملي إرادته علينا من أجل الإذلال، ونهب الثروات، هذا كلام أصبح واضحاً كالشمس.

٣ – خيارات الجهاد حتمية:

حينما نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الجهاد، هذه الخيارات لا بد من أن نكون في مستواها دائماً، وإلا بالغ العدو في إفقارنا، ثم في إضلالنا، ثم في إفسادنا، ثم في إذلالنا، ثم في إبادتنا، والوقائع تؤكد هذه الحقائق.

آيات تحض على الجهاد:

الآية الأولى:

يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة التوبة]

لأن الإنسان مخلوق للآخرة له في الدنيا منهج، أما إذا ألغيت الآخرة لا أقول لفظاً، لكن واقعاً، معظم الناس لا يدخلون في حساباتهم الآخرة، حساب الدنيا فقط، حساب الدنيا يقتضي ألا تجاهد، وألا تقاتل، وأن تعيش حياة وديعة مريحة، هذا يتناقض مع الجهاد، لكنك كمؤمن، آمنت أنك مخلوق للجنة، وأن للجنة ثمناً، من أهم أثمانها الجهاد، فلذلك:

((من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق))

[أبو داود عن أبي هريرة]

الآية الثانية:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ)

[سورة الصف: ١٠-١١]

معنى ذلك في جهاد مالي، أول معنى في جهاد نفسي بأموالكم وأنفسكم، في جهاد مالي قال تعالى:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الصف]

(يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[سورة الصف]

الآية الثالثة:

لازلنا في الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ)

[سورة التوبة: ٣٨]

أنت ترضى لو أن الملِك قال لك: اطلب، وتمنَّ، تقول له: قلم رصاص، هذا عطاء ملِك ؟

(أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ)

أقبلت أن يكون نصيبك من الله الحياة الدنيا ؟ وما دام الموت ينهي الحياة الدنيا، فالدنيا كلها بكل أموالها، وبكل مباهجها هي أحقر من أن تكون عطاءً أو عقاباً.

((لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ)

[سورة التوبة: ٣٨]

الآن الله عز وجل يبين لنا، قال تعالى:

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: ٣٨]

وأنتم لا شك أنكم ذهبتم إلى البحر، وركبتم قاربا، أمسك بإبرة، واغمسها في مياه البحر، واسحبها، انظرْ بمَ رجعت ؟ كم هي كمية الماء التي حملتها الإبرة إذا غمستها في مياه البحر ؟ وما نسبة هذا الماء الذي حملته الإبرة إلى مياه البحر بأكمله ؟ أرأيت إلى هذا التشبيه، " ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر "

لذلك:

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ـ نحن جميعاً لنا أسفار، ومشاهدات، لكن الأماكن التي

سافرنا إليها محدودة ـ ولا أذن سمعت ـ المسموعات مليون ضعف عن المشاهدات، ففي الأخبار تستمتع إلى مدينة إلى، قرية، إلى مدينة بالي بإندونيسيا، زرتها ؟ ما زرتها، آلاف، بل عشرات ألوف الأسماء ترد إليك في الأخبار، لكن لم تذهب إليها.

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

لذلك قال تعالى:

أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: ٣٨]

الآية الرابعة:

ولأن الله عز وجل رب العالمين يعالجنا قبل أن نموت، قال تعالى:

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التوبة: ٣٩]

الآية الخامسة:

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ)

[سورة البقرة: ١٥٤]

إله يقول لك: هذا الذي استشهد حي بكل معاني الكلمة، الحي يدرك، والحي يستمتع، والحي يسعد، والحي يقيم علاقات، قال تعالى:

(بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

[سورة البقرة: ١٥٤]

الآية السادسة:

وفي آية أخرى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران: ١٦٩]

الجهاد التعليمي:

أيها الإخوة، لكن الحياة فيها ظروف متنوعة، فقد يكون الظرف لا يسمح، ولو أردت بجهاد قتالي، لكن الله سبحانه وتعالى وضعك أمام أنواع كثيرة من الجهاد، لا تقلّ أهميةً عن الجهاد القتالي أبداً، بالعكس لقد وصفت في القرآن الكريم بأنها الجهاد الكبير، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: ٥٢]

الجهاد في الأساس من أجل ماذا ؟ من أجل نشر هذا الدين، فإذا أتيح لك أن تنشره فأنت في الجهاد الكبير، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: ٥٢]

هذا هو الجهاد الكبير:

لذلك أن تتعلم الحقيقة والحق، أن تتعلم القرآن الكريم، وأن تعلمه، أن تدعو إلى الله أن تصلح الناس، أن تصلح إذا فسد الناس، هذا جهاد كبير بنص القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: ٢]

وهذا الجهاد متاح لكل مسلم، ولا تساءل عليه إطلاقاً، إذا قدمت نصيحة إلى من يلوذ بك من يحاسبك ؟ إذا بينت للناس عظمة هذا الدين، ودقة هذا المنهج، وكمال هذا النبي، وأن هذا الدين طريقنا إلى الجنة، وأن هذا الدين طريقنا إلى القوة، وهو طريقنا إلى العزة، وطريقنا إلى الحرية، أنت حينما تكون مع الله تكون قوياً، بدل من أن تخضع، ومن أن تنبطح، وأن تستسلم تملي شروطك على الطرف الآخر، وليس بعيداً عنكم أن ثلة قليلة قلبت موازين المنطقة بشكل عجيب، فحينما تستسلم لمعادلاتهم، وتقبل إملاءاتهم فأنت لا تعرف الله، واللهُ موجود، قال تعالى

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه]

الإيمان الدقيق أن ترى أن الله موجود، والأمر بيده، والمعادلات بيده، وموازين القوى بيده، وفي أية لحظة يقوي أولئك، ويضعف أولئك.

بالتعبير الذي أقدمه للتوضيح: الله عنده خيارات لا تعد ولا تحصى، قد تكون ضعيفاً ولك عدو جبار، يكفي أن يلقي في قلبه الرعب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((نصرت بالرعب مسيرة شهر))

[متفق علي عن جابر]

بعضهم علّق وقال: " وأمته من بعده حينما تركت سنته هزمت بالرعب مسيرة عام ".

إنّ أيّ إملاء يملى على المسلمين انبطاح استسلام خوف، عندك خيار الجهاد، لماذا ألغيته ؟ لماذا أردت أن تكون ضعيفاً ؟ لماذا أردت أن تكون متلقياً للأوامر ؟ لماذا لمْ تملِ على الآخرين أوامرك ؟ أين عزتك ؟

اجعل لربك كل عزك يـــستقر ويثبت

فإذا اعتززت بـمن يموت فإن عزك ميت

***

أقول لكم كلاماً دقيقاً: إنّ أيّ أمة تلغي من حياتها خيار الجهاد تكون ذليلة، وتكون في حال لا تحسد عليه أبداً.

الجهاد الدعوي:

أيها الإخوة الكرام، هناك خيار آخر، الجهاد القتالي قد تكون في مكان، أو في زمان لا تستطيع، ولا يسمح لك، أمامك الجهاد الدعوي، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: ٥٢]

إذا كنت صادقاً في طلب الجهاد فبإمكانك أن تجاهد جهاداً دعوياً.

أنا أقول لكم، والحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح: أيّ رجلٍ منا يلغي من حياته الجهاد فهو قريب من النفاق، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق))

[أبو داود عن أبي هريرة]

إذاً: الجهاد الدعوي متاح لك .

جهاد النفس والهوى:

الآن جهاد النفس والهوى متاح لك، فمن يمنعك أن تكون عفيفاً ؟ أن تكون صادقاً ؟ أن تصلي الليل؟ أن تستقيم على أمر الله ؟ أن تربي أولادك ؟ أن تأمرهم بالصلاة ؟ من يمنعك أن تكون داعية من النوع فرض العين، في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، من يمنعك ؟ من يمنعك إذا دخلت بيتك

أن تحدث أولادك بما سمعت في الخطبة ؟ مثلاً، من يمنعك إذا جلست في مكان عملك ساعة راحة أن تحدثهم بشرح آية، أو حديث، أو موقف ؟ من يمنعك ؟ هذا الجهاد الدعوي، وهناك جهاد النفس والهوى، غُضّ بصرك، واضبط لسانك، واضبط جوارحك، واضبط دخلك، واضبط إنفاقك.

الجهاد البنائي:

ثم هناك الجهاد البنائي، نحن أمة إذا أتقنا أعمالنا طورنا اختصاصاتنا، واستخرجنا ثرواتنا، وفجرنا طاقاتنا، و استصلحنا أراضينا، و أقمنا السدود، و هيئنا فرص عمل.

زرت بلدا إسلاميا في شرق آسيا، حدَّثنا السفير كلاماً، وكأنه خيال، قال: هذا البلد كان أهله في الغابات قبل ربع قرن، هم يعدون ثلاثة وعشرين مليونا، الآن صادراتهم إلى العالم تفوق صادرات العالم العربي مجتمعاً، بما فيها النفط، عندهم فائض بستين مليار دولار، الربا عندهم ممنوع، بطاقات الائتمان إسلامية، التأمين إسلامي، بلد طبق تعاليم الإسلام، وحقق نتائج كبيرة جداً، فالأمر بيدنا، النجاح بيدنا، والكرة في ملعبنا، والحل بيدنا، هذا الكلام القرآني:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: ١١]

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

[سورة الأنفال: ١٩]

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: ١٦٠]

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: ١٧٣]

يكفي أن تكون جندياً لله، فأنت الغالب قولاً واحداً، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق ذلك، قال تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: ١٧٣]

أدلة أنواع الجهاد من القرآن

١ – الدليل القرآني على الجهاد البنائي:

أيها الإخوة الكرام، الجهاد البنائي أين غطي بالقرآن ؟

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: ٦٠]

ترهبونه من أجل ألا يكون إرهاب.

أيها الإخوة الكرام، الإرهاب الغربي الدولي المنظم المخطط له المدروس من أجل أن يستمر يحتاج إلى إرهاب إسلامي مستمر، هم يصنعونه لنا، وينسبونه إلينا من أجل تشويه سمعتنا، لذلك إن أعددت لهم العدة من أجل ألا تتهم بالإرهاب تحترم، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: ٦٠]

هذا الجهاد البنائي.

٢ – الدليل القرآني على الجهاد الدعوي:

الجهاد الدعوي:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان: ٥٢]

١ – الدليل القرآني على جهاد النفس:

الجهاد النفسي، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت: ٦٩]

آيات قرآنية كلها كلام الله، لا يحذف منه شيء، أنت بين جهاد النفس والهوى، وهو أصل الجهاد، وهو الجهاد بالمصطلح الحديث الأساسي، عندنا تعليم أساسي من الأول إلى التاسع، وتعليم ثانوي، وتعليم جامعي، ودراسات عليا، الجهاد النفسي جهاد النفس والهوى هو الجهاد الأساسي، وهناك جهاد بنائي، أن تتقن عملك، أن تطور خبراتك، أن تكون قوة لأمتك، لا أن تكون عبئاً عليها.

أقول لكم بكل بساطة: هذا الذي يسافر إلى بلاد الغرب تروق له الحياة هناك، الغرب مستقر من مئتي عام، مستقر البناء، ومستمر، الحاجات ميسرة، الإنسان هناك له حقوق كبيرة، فتروق له الحياة، ينسى أمته، يقدم خبرته لأعداء أمته، طاقاته لأعداء أمته، فأنت عملت عملاً يناقض الجهاد البنائي، والله عز وجل قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

الجهاد النفسي متاح لك، بل أنت مشكور عليه، والجهاد البنائي كل البلاد الإسلامية تقدسه، يقول لك: عمل، بناء، إتقان، استغناء عن الاستيراد، تفجير الطاقات، إنشاء السدود، تأسيس معامل، العالم الإسلامي كله يبارك لك هذا الجهاد، وتوفير فرص عمل، وحل مشكلة الناس، وتأمين بيوت للشباب، مليون عمل يمكن أن تقوى به أمتك، هذا الجهاد البنائي، والجهاد الدعوي هو الدعوة إلى الله كفرض عين، في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، والجهاد النفسي جهاد النفس والهوى، فإذا أتقنت الجهاد النفسي، وأتقنت الجهاد البنائي، وأتقنت الجهاد الدعوي ففي الأعم الأغلب أصبح الطريق سالكاً إلى النجاح في الجهاد القتالي.

لكن شخصا تاركا للصلاة، تاركا للفرائض، مقترفا لكل الآثام والمحرمات، أول شيء صلى قيام الليل، طوّل بالك، هذا قيام الليل بعد أداء الصلوات، بعد الاستقامة على أمر الله، هو تارك لكل الفرائض، ومقترف لكل الكبائر، ويريد أن يبدأ بقيام الليل، هذا شيء مستحيل.

الكرة في ملعبنا كما يقال:

لذلك أيها الإخوة الكرام، اطمئنوا الكرة في ملعبنا:

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

اللهُ عز وجل ينتظرنا، ولما يئس المسلمون، ونحّوا الدين جانباً، وكان حالهم حال الإحباط، أعلمهم اللهُ عز وجل في الأحداث الأخيرة أنني موجود، وأن كل موازين القوى التي توهمتموها غير صحيحة، مهما يكن العدو شرساً، وقوياً، هو فأكبر جيش في المنطقة، أكبر سلاح طيران في المنطقة، مع ذلك قلة قليلة أرغمت أنفه، وأذلته، هذا التعبير أخذته من صحافتهم المقاومة، أذلت الجيش الإسرائيلي، الخيارات معنا، لكن هات الإيمان، وخذ النصر، هات الإعداد، وخذ النصر، هات الحب بيننا، وخذ النصر، هات الوحدة بيننا، وخذ النصر، هات الإعداد، وخذ النصر.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

لا لليأس !!!

أخطر شيء يؤلمني أن ييئس المسلمون، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

إياك أن تيئس، إياك أن تشعر بالإحباط، الله موجود، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

الحديث عن الجهاد طويل، لكن من فضل الله صار من الممكن أن تقول عن الجهاد شيئاً، لأن الدروس القاسية علمتنا أنه الطريق الوحيد إلى أن نستعيد كرامتنا، وأن نستعيد دورنا القيادي بين الأمم

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٢-٦٠) : علو الهمة في صحبة المؤمنين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

من أسباب علو الهمة مصاحبة المؤمنين:

يبدو أن أحد أكبر أسباب علو الهمة أن تكون مع المؤمنين، أن تحيط نفسك بجو إيماني، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: ١١٩]

كن معهم، آثر اللقاء بهم عن أي لقاء آخر، آثر صحبتهم عن صحبة أهل الدنيا، آثر أن تعمل معهم عن أن تعمل مع فئة أخرى، لأن الجماعة قوة، والفرقة عذاب، الآية الكريمة منهج:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: ١١٩]

كأن الآية تقول: لن تستطيعوا أن تتقوا الله إلا إذا كنتم مع الصادقين، من هنا تأتي الآية الكريمة:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: ٢٨]

قاعدة قرآنية مهمة: الأجتماع في كل الأعمال والمباحات:

أيها الإخوة، السالكون إلى الله من قديم الزمان معهم هذه النصائح، أن يكونوا مع المؤمنين

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أبو داود، الترمذي عن أبي سعيد]

نحن في هذا الزمان الفتن كما ترونها مستعرة، والطرقات ممتلئة بالمعاصي والآثام، واللقاءات مفعمة بالاختلاط، فأينما ذهبت، وحيثما نظرت تجد المعاصي تنتهك على قارعة الطرقات، لذلك يجب أن نحصن أنفسنا في هذا الزمن الصعب، أن نكون مع بعضنا بعضاً، أن تؤوي إلى إخوانك،

حتى لو أردت التنزه فليكن هذا التنزه مع إخوانك، حيث الانضباط، وعدم المزاح الرخيص، ولا المغامرات التي لا ترضي الله، أحياناً الإنسان يتأثر أشد التأثر بمن يحيط به، لذلك الآية الكريمة:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: ١١٢]

و الآية الثانية:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة النور: ٣١]

ل تقطف ثمار الإسلام بتطبيقه من قبل المجموع:

إذا تبتم جميعاً يتشكل مجتمع مؤمن منضبط.

كمثل بسيط: لو ذهبت إلى العمرة، وأقمت أياماً عديدة، أو أسبوعين، أو أكثر في مكة والمدينة، لأن الحجاب هناك إلزامي، ولأن المرأة قلّما يبدو منها شيء تعيش جواً رائعاً وصافياً لأسبوعين، إذاً ما معنى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً)

[سورة النور: ٣١]

رأي هذا المنهج العظيم لا تقطف ثماره إلا إذا طُبّق من قبل المجموع، الذي يحصل أن معظم الناس لا يطبقونه، لذلك يكون المؤمن غريباً:

((بدأ الدين غريباً و سيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

[مسلم عن أبي هريرة]

الأستقامة حدية والبذل نسبي:

النقطة الدقيقة الثانية أن الله عز وجل حينما يقول:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: ١١٢]

رالاستقامة حدية لا تفاوت فيها بين استقامة الأنبياء واستقامة المؤمنين، لأن الأعمال الصالحة نسبية، البذل نسبي، هناك من يبذل مبلغاً، هناك من يبذل مبلغاً أكبر، هناك من يبذل وقتاً، البذل نسبي متفاوت، أما الاستقامة فهي حدية.

أوضح مثلٍ أن المستودع يوصف بأنه محكم، والإحكام حدي، معنى محكم أن المواد التي فيه لا يتسرب منها شيء إطلاقاً، هذا هو المحكم، الإحكام حدي، أما إملاء هذا المستودع، فقد تملأ نصفه، ربعه، ثلثيه، هذا نسبي، والاستقامة يستوي فيها الأنبياء والمؤمنون، وقد قال عليه الصلاة و السلام:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة]

وكلما تفلت الناس، وكلما شاعت الفتن، وكلما عمت الضلالات، وكلما تكلم بأمر الدين مَن ليس أهلاً له اشتدت الحاجة إلى أن تكون مع إخوانك المؤمنين.

بالإيمان استقامة، وصدق، وعفة، وأمانة، هذا الحد الأدنى من المؤمن، فلذلك:

(فَاسْتَقِمْ)

[سورة هود: ١١٢]

الكلام يخاطب به النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يغيب عنكم أنك إذا قلت للمجتهد: اجتهد، معنى ذلك أي تابع اجتهادك:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: ١١٢]

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[مسلم عن أبي هريرة]

طبعاً إعطاء حقنة من قِبل ممرض لابد من تعقيمها، ثم لابد من تعقيم مكان إعطائها، ثم لابد من وضع قطعة القطن إلى حين حتى ينقطع خروج الدم، هذا العمل يفعله أقلّ ممرض، وأكبر طبيب جراح حدية، الاستقامة حدية لا تفاوت فيها، أما العمل الصالح فنسبي.

النقطة التي ذكرتها كثيراً ؛ أن الإنسان أي عمل صالح يرقى به، لكن أي خطأ في استقامته يحجبه عن الله عز وجل، من هنا جاءت الآية:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

[سورة هود]

من نتائج صحبة الشارد الغافل:

الإنسان الشارد عن الله، البعيد، الغافل، منقطع، في بقلبه ظلمة، وفي نفسه شهوات مستعرة، وطموحات دنيوية، قد أخرج الآخرة من حساباته، لكن ما نتائج صحبة هذا الإنسان ؟

ـ يحببك بالدنيا، ويبغضك بالآخرة.

ـ يزين لك المعصية.

ـ يزين لك الغفلة.

ـ يزين لك اقتناص الشهوات.

والإنسان ضعيف:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء: ٢٨]

لذلك أن تكون في مسجد، أن يكون لك إخوان مؤمنون، هذه من نعم الله الكبرى:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

[سورة هود: ١١٣]

رأحياناً كما يقول بعض العلماء: أولياء أمتي إذا رؤوا ذُكِر الله بهم.

لقاء المؤمنين راحة وسكينة:

حينما تلتقي بأخيك المؤمن، وأخوك المؤمن مستقيم، أخوك المؤمن متصل بالله، في قلبه سكينة، وفي قلبه راحة، وفي قلبه توازن.

حينما تحبه أو تصاحبه يتسرب إليك من أحواله بعض الشيء، لذلك دون أن تشعر تقول أحياناً: واللهِ جلسنا جلسة كأننا في الجنة، أية جنة ؟! هذه بيت عادي، أثاث أقلّ من عادي، لا ضيافة فيه إطلاقاً، ولا كأس من الشاي، أين هي الجنة ؟ الجنة أخوك الذي تجلس إليه الموصول بالله، وصلته بالله استدعت السكينة من الله، فإذا أحببته أخذت منه شيئاً، لذلك:

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أبو داود، الترمذي عن أبي سعيد]

ولا تصاحب إلا من ينهض بك إلى الله حاله، ولا تصاحب إلا من يدلك على الله مقاله.

وأقول لكم مرة ثانية: كلما انتشرت الفتن والتفلت والإباحية شعرنا بحاجة كبيرة إلى أن نكون مع بعضنا بعضاً.

يقول لي بعض الإخوة الكرام: فاته درس من الدروس، ويستطيع أن يصل، ولكن بعد صلاة العشاء، مثلاً، يقسم لي بالله لمجرد أن يرى إخوانه، ويلتقي بهم، ولو لقاء عابراً ترتاح نفسه، إن صحّ التعبير هناك إشعاع يصدر من نفس المؤمن، فأي إنسان صاحبه يشتق من هذا الإشعاع،

الراحة النفسية التي نجدها عند المؤمنين سببها أن هؤلاء اتصلوا بالله، نفوسهم صافية، لا يضمرون غلاً لأحد، ولا حقداً، ولا يكذبون، ولا يخونون، ولا ينحرفون.

أيها الإخوة الكرام، العمل الذي ترتزق منه إذا كان مع المؤمنين فأنت الرابح الأول، ولو كان ضئيل الدخل، والذي يحصل دائماً أن إنساناً وجد في بيئة غير منضبطة أول الأيام يستنكر، لكن بعد حين يألف الانحراف، ثم يحب الانحراف، ثم ينحرف، بالتدريج، لذلك صاحب المؤمنين، الآية الدقيقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة: ١١٩]

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ)

[سورة هود: ١١٣]

حدثني أخ تسافر فتاة، ولو أن سفرها مع زوجها إلى بلاد بعيدة، أول شهر هناك ورع، وتمسك شديد، وخوف من الله، وأداء للصلوات متقن، بعد شهر تستمرئ الحياة الغربية، لا يمضي عام إلا وهي متفلتة نوعاً من التفلت، البيئة لها أثر كبير، لذلك أنا أتمنى عليكم أن تنتبهوا إلى أولادكم، أكبر سؤال مقلق للأب: ابنك من يصاحب ؟

تحذير رباني: وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

والله أستمع إلى بعض القصص ينخلع القلب لها، شاب مؤمن مستقيم يحفظ كتاب الله صاحب شاباً فاسداً منحرفاً، شككه في أصل الدين، وترك الصلاة، وترك الصيام، البيئة خطيرة جداً، وهذه آية البيئة:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

[سورة هود: ١١٣]

أحياناً بيوتهم فخمة، اللقاء في فندق ذي خمس نجوم، نساء كاسيات عاريات، هذا الجو يبعدك عن الله عز وجل، لذلك احرص أن تكون مع المؤمنين، احرص أن تعمل معهم، احرص أن تلتقي بهم، احرص أن يكون اللقاء بهم شحنة روحية لك، و الأصح أن تصاحب من تفوق عليك في الدين، صاحب من ينهض بك إلى الله حالك، وصاحب من يدلُّك على الله مقاله:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ)

[سورة هود: ١١٣]

نارُ البُعد:

نار البعد، في الدنيا جنة هي جنة القرب، وفي الدنيا نار هي دار البعد، وأكبر عقاب من الله عز وجل أن يحجبك عنه:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين: ١٥]

القرآن يحث على اجتماع المؤمنين:

إذا قرأت القرآن الكريم تجد أن هناك آيات كثيرة على أن تكون مع المؤمنين:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)

[سورة الكهف: ١٦]

الآن كهفك بيتك، وكهفك جامعك ومسجدك:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقاً)

[سورة الكهف: ١٦]

وجوب إصلاح ذات البين:

أيها الإخوة الكرام، الآن هذا الأخ المؤمن يجب أن تحرص عليه، يجب أن تحرص على سلامة العلاقة معه، قف عند حدودك له، حاول أن تلتمس له عذراً، حاول أن تقدم له خدمة، حاول أن تتفقده، حاول أن تسأل عنه، هذا كله يمتن العلاقة.

أحياناً أجد أن هناك علاقة متينة جداً بين الإخوة المؤمنين، وهذا شيء مفرح، وأحياناً تجد العلاقة ضعيفة، أو فيها شيء من التباعد، أو شيء من النقد، لذلك قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال: ١]

مراتب إصلاح ذات البين ثلاثة:

وهذه الآية تفهم على مستويات ثلاثة، أصلحوا ذات بينكم، أصلحوا علاقتكم مع الله، و أصلحوا ذات بينكم أصلحوا علاقتكم مع الخلق، وأصلحوا ذات بينكم، أصلحوا أية علاقة بين اثنين، فهذا الذي أتمنى أن ينهض بنا جميعاً، أن نأوي إلى بيوت الله، أن نأوي إلى إخواننا، والفرق كبير جداً

بين صاحب مؤمن وصاحب غير مؤمن، وحينما تمر بتجربة أنك سافرت مع غير المؤمن تجد الأثرة عنده، تجد أنه يبتغي الراحة دون أن يعمل شيئاً، تجد أنه قد يمزح مزاحاً سيئاً، لكنك إن صاحبت المؤمن تجد منه العفة والاستقامة والأمانة.

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

[سورة هود: ١١٣]

الظالم بعيد عن الله عز وجل، محجوب، مظلم، ولاحظ أنك أحياناً تدخل بيتا فخما جداً، لكن صاحبه مظلم، تحس بانقباض، وقد تدخل بيتا متواضعا جداً، لكن صاحبه متصل بالله، فتشعر براحة، ابحث عن من ينهض بك حاله ومقاله، وهذه الآيات تؤكد هذا، ودائماً وأبداً ضعف الإيمان علاجه أن تحيط نفسك ببيئة إيمانية، بجو إيماني، بجو القرآن، بجو الأدب، بجو العلوم، و يوجد مجتمعات أخرى متفلتة، و الحقيقة أن الطريق الذي يوصلك إلى أن تتصل بالله، وأن تملك هذه السعادة:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)

[سورة هود: ١١٤]

من أسباب وحدة المسلمين:

١ ــ الصلاة:

مرة ثانية الصلاة عماد الدين، كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، الصلاة أحد أسباب وحدة المسلمين أنت موصول، وأخوك موصول، والقواسم المشتركة كبيرة جداً، وتحتل أكبر مساحة، إذاً المودة قائمة، والذي يؤكد هذا المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول

((ما تواد اثنان ففرق بينهما الا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

٢ ــ الاستقامة:

أنت باستقامتك تحب أخاك، وباستقامة أخيك يحبك، فالاستقامة هنا:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا)

[سورة هود: ١١٢]

الطغيان مجاوزة الحد:

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

[سورة هود]

أي اجعل لقاءاتك مع المؤمنين، لا تركن إليهم، طبعاً:

(وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ)

[سورة المنافقون: ٤]

قد تعجب ببيتهم، بأناقتهم، بأذواقهم، لكنهم متفلتون، منقطعون عن الله عز وجل.

علو الهمة يحتاج على حمية اجتماعية:

إن علو الهمة يحتاج إلى حمية اجتماعية، فكلما جلست مع المؤمن تجلى الله عليك وعليه، لذلك:

((الجماعة رحمة، والفرقة عذاب))

[مسند أحمد عن النعمان بن بشير]

((عليكم الجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد))

[الترمذي، أحمد عن ابن عمر]

((وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[الحاكم عن أبي الدرداء]

جرِّب السفر مع مؤمن، هو حصن لك، وأنت حصن له، السفر مع مؤمن مسعد يؤثرك وتؤثره، يعاونك وتعاونه.

إنّ الهمّ الأول أن تعيش في جو، إيماني إذا تمكنت أن يكون عملك مع المؤمنين فهذا شيء رائع جداً، تمكنت أن يكون وقت راحتك مع المؤمنين شيء رائع جداً.

منهج إلهي:

هذه الآية منهج:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود: ١١٢]

أي كن مع المؤمنين:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)

[سورة هود: ١١٣]

أيّ نار ؟ نار البعد، لذلك في الدنيا جنة هي جنة القرب، وفي الدنيا نار هي دار البعد.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٣-٦٠) : الشرك الخفي والشرك الجلي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إشارة القرآن إلى الشرك الخفي:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة، في هذه الليلة قُرأت آيتان تتصل أشد الاتصال بعلو الهمة، قال الله عز وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

١ – ليس في العالَم الإسلامي شركٌ جليٌّ:

لذلك هذه الآية فيها إشارة إلى الشرك الخفي، ليس في العالم الإسلامي مكان للشرك الجلي، الشرك الجلي أن تعبد بوذا، مثلاً، هذا شرك جلي، أما أن تتعامل مع الناس الأقوياء، فتطيعهم وتعصي الله، وتتوهم أن بيدهم نفعك وضرك، وأن بيدهم رفعتك ورزقك، هذا الشيء الخطير في الدين.

٢ – التوحيد ألاّ ترى مع الله أحدًا:

المتدين الحقيقي هو الموحد الذي لا يرى مع الله أحدا الذي يرى أن أمره كله بيد الله، الذي يرى أن كل من في الكون ناصيته بيد الله، وأن علاقته مع الله وحده، وأنه إذا عمل لوجه واحد كفاه الله الوجوه كلها.

وأنه من مسلمات الإيمان أن ما يعلم أنه ما أصابه لم يكن لينصرف عنه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذه الحقائق تسبغ على النفس الهدوء والسكينة والراحة، لذلك ينبغي أن نقلق حينما نقرأ قوله تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

لأن فيها إشارة إلى الشرك الخفي.

٣ – ما هو الشرك الخفي ؟

الشرك الخفي: أن تطيع مخلوقاً، وأن تعصي خالقاً، الشرك الخفي: أن تتوهم أن مصلحتك بالمعصية، لا في الطاعة، الشرك الخفي: أن ترى أن في الأرض أقوياء مصير البشر بيدهم.

الأمراض النفسية سببها ضعف التوحيد :

ونحن أيها الإخوة في امتحان صعب جداً، من امتحانات الله الصعبة أنه يقوي الكافر، وهذا الكافر يبدو للناس أنه يفعل ما يقول، وأن معظم مقدرات الأرض بيده، هذا مما يكون فتنة للمؤمنين.

فكلما قوي إيمانك رأيت أن يد الله وحدها تعمل، وكلما قوي إيمانك ابتعد عنك اليأس ابتعد عنك الإحباط، ابتعد عنك الخنوع.

لذلك ما من مرض يصيب نفس المؤمن إلا بسبب ضعف توحيده.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

فيا أيها الإخوة، حينما تتحرك لإرضاء جهة أرضية، أو تتحرك خوفاً من جهة أرضية، ولا تدخل في حساباتك أن الله بيده كل شيء، دون أن تشعر وقعت في الشرك الخفي، والشرك الخفي خطير جداً، لأنكم تعلمون أن كل ذنب يغفر إلا الشرك.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

(سورة النساء الآية: ٤٨)

حينما أرى أن الأمر بيد غير يد الله فقد أصابني الإحباط، والكآبة.

لا لليأس والقنوط والخنوع:

بالمناسبة، إذا صدّق الإنسانُ الأخبارَ فقد لا يحتمل قلبه سماعها، عدو قوي جداً ، ذكي جداً، بيده الثروات، والإعلام، والاقتصاد، ويملك فرضَ حصارٍ، ويبيد الشعوب ، ويحدث فوضى بناءة على حد زعمهم، هذا التصور وحده يسبّب كآبة لا تنتهي، نحن دواءنا الآن التوحيد، وهناك إله موجود. كنت أقول دائماً حينما تطرح تحليلات سوداوية مظلمة للمستقبل أقول: اقرأ الأخبار، أو استمع إليها، أو اقرأ التحليلات، واقبل بعضها، وارفض بعضها الآخر، ولكن لا تنسَ ثانيةً واحدة أن الله موجود، وأن الله بيده الموازين، وقد يقلب كل الموازين في وقت قصير.

لذلك لا تقنط من رحمة الله، لا تيأس من رحمة الله، تحتاج إلى توحيد.

أين تجد التوحيد:

قد يقول أحدهم: أين أجد التوحيد ؟ التوحيد تجده في التفكر، تجده في التدبر، تجده في الطاعات، تجده في القربات، إذا بلغت حداً أدنى من التوحيد فهذا الحد الأدنى يجعلك بعيداً عن أمراض الناس، عن يأسهم، عن كآبتهم، عن الإحساس بالإحباط.

هذه الآية دعوها في أذهانكم:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

لمجرد أن تطيع مخلوقاً، وأن تعصي خالقاً، ففي هذه الحالة شرك خفي كيف ؟ لمجرد أن تغش المسلمين، من أين انطلقت ؟ أن هذا المبلغ الكبير الذي سوف ينضم إلى أرباحك عن طريق الغش هو أكبر عندك من طاعة الله، وأنه لا سبيل إلى أن ترتزق إلا بهذه الطريقة، هذا أكبر شرك، لكن والله إن لم نَقْسُ على أنفسنا في هذا الموضوع فلن ننجو من عذاب الله.

لا تــعلق مـن سواه أملا   إنما يسقيك مـن قد زرعك

كن مع الله تــر الله معك   واترك الكل و حاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنـــعه   ثم من يعطي إذا ما منـعك

***

إذاً: نحن في صدد أن نتجنب الشرك الخفي:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

قد نتجنبه بآية ثانية:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة إبراهيم الآية: ٢٧)

إخواننا الكرام، قال الله عز وجل:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام الآية: ١)

القرآن كتاب ناطق، والكون كتاب صامت:

السماوات والأرض مصطلح قرآني، والكون ما سوى الله.

آية ثانية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف الآية: ١)

الكون كله في كفة والكتاب في كفة ثانية، الكتاب يقول لك: الأمر بيد الله، الكتاب يقول لك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال الآية: ٣٦)

الكتاب يقول لك:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

الكتاب يقول لك:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: ١٧)

الكتاب يقول لك:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية:٨٤)

الكتاب ينبئك بأن الله مع المؤمنين، وأن الله مع التائبين، ومع الصادقين، وأن الذي آمن، وعمل صالحاً فإن له حياة طيبة، وأن الأمر كله بيد الله، هذه الآيات في القرآن حينما تقرأها هي التي تثبتك.

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة إبراهيم الآية: ٢٧)

علاج الشرك التثبت والتشبث بكلام الله:

فلذلك أيها الإخوة، الخطر الأول الشرك الخفي، والعلاج الأول أن تتثبت بقول الله عز وجل، قال بعض العلماء: " فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خَلْقه ".

كيف يشهد الله القرآن كلامه ؟!

أيها الإخوة، أحياناً يشهد الله لك أن هذا القرآن كلامه، كيف ذلك ؟

بالحسابات الدقيقة القرض الربوي أكثر ربحاً، أقرضت ألفا رُدت إليك ١٢٠٠، لكن حينما ترى أن الله سبحانه وتعالى يدمر مال المرابي، فتدمير مال المرابي هو شهادة الله للعباد أن هذا القرآن كلامه، بتعبير آخر وقوع الوعد والوعيد يُعدّ شهادة الله لك أن هذا القرآن كلامه.

والله أعرف إنسانا عنده بيت يقترب من ٣٠٠ متر، في أرقى الأحياء في عاصمة عربية، وعنده محل تجاري، من أوسع المحلات، ومستودع، ومكتب، وبيت لابنه، وبعد قرض ربوي باع البيت، وبيت ابنه، والمحل، والمكتب، والمستودع، ولم تفِ أثمان هذه الممتلكات لسداد القرض الربوي بعد الفوائد المركبة.

الله عز وجل يوقع وعده ووعيده، ووقوعُ الوعد والوعيد شهادة الله لك أيها المؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل هذا القرآن، نريد أن نشفى من الشرك الخفي، ونريد أن نتثب، وأن نوقن بهذا الكتاب الذي أخبرنا عن كل شيء.

متى تتوازن في زمن الاختلالات ؟!

لذلك إخواننا الكرام، كلما قرأت القرآن توازنت، أنا أشعر أن هناك خللاً كبيراً في نفس الذي لا يقرأ القرآن، لأن ثمة ضخًّا إعلاميا مستمرا، الضخ أساسه الشرك، الضخ لصالح الأقوياء، الضخ لصالح الفساد، الضخ لصالح الانبطاح، الضخ لصالح الاستسلام ، هذا الضخ الإعلامي المستمر يشكل رأيا عامًّا، يشكل قناعات، هذه القناعات تتناقض مع الإسلام، لذلك متى تتوازن ؟ حينما تعود إلى كلام الله، وحينما تثق أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، وحينما تتعامل مع الله مباشرة، أنت مع كون يشهد بعظمة الله، ومع كتاب معجز يشهد أنه كلام الله، هذه تعليمات الصانع، أنت حينما تقرأ القرآن، وتصدقه تتصرف بطريقة نابعة من قناعاتك به، وهناك دائماً قوانين مستنبطة من حركة الحياة، وهناك قوانين اسمها قوانين العناية الإلهية، هذه لا تعرفها أنت، ولا تراها .

قوانين العناية الإلهية:

مثلاً: ينما تغش تربح أكثر، طبعاً، حينما تنافق يقوى مركزك أكثر، وهناك مجموعة قوانين خطيرة جداً مستنبطة من حركة الحياة، المؤمن أمام امتحان صعب، حينما لا يعبأ بهذه القوانين الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وحينما يتمسك بأمر الله وأمر نبيه، المتوقع أن يخسر، لكن الذي يحصل أن الله سبحانه وتعالى يخضعه لقوانين العناية الإلهية، وعلى هذا آلاف القصص:

صفقة رابحة جداً، والبيع نقداً، والربح كبير، والبضاعة محرمة، أو فيها شبهة، فلو أنك امتنعت التعامل مع هذه البضاعة فاتك ربح كثير، هذه القوانين المستنبطة من حركة الحياة، عندئذٍ الله عز وجل حينما تمتنع، وتقول: معاذ الله، الله الغني، لا أفعل هذا ، حينما تمتنع يخضعك الله لقوانين العناية الإلهية، بطريقة أو بأخرى يضاعف الذي فقدته أضعافاً كثيرة، عندئذٍ تتيقن أن الله شهد لك أن هذا القرآن كلامه.

(كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

(سورة الرعد)

الله عز وجل تأتي أفعاله مطابقة لكلامه، تأتي أفعاله لتؤكّد كلامه، تأتي أفعاله لتكون شهادة للإنسان على أن كلام الله حق.

مرة طبيب في الجامعة، هو يعتقد اعتقاداً جازماً أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام حق صِرّف، فمن توجيهات النبي أن الإنسان إذا أكل ثلثا لطعامه، وثلثا لشرابه وثلثا لنفسه، والحديث صحيح، الأطباء في كلية الطب من ثلاثين سنة ماضية يؤكدون لطلابهم أن شرب الماء مع الطعام ضار، لأنه يمدد العصارة الهاضمة، فينصحون أن يمتنع الإنسان عن الشرب في أثناء الطعام، بعد ثلاث ساعات يشرب، هذا الطبيب لا يزال حي يرزق، هو على خصومة مع زملائه في هذا الموضوع، هو لا يعتمد إلا على حديث رسول الله ، وهو يعتقد أن هذا الحديث ليس من اجتهاده، وليس من ثقافته، وليس من تأملاته، وليس من معطيات البيئة، هذا وحي، لقول الله عز وجل:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

والأيام مضت، هو متمسك بموقفه، والأطباء يوجهون الطلاب توجيهاً آخر ، إلى أن اكتشف أنه مهما شربت الماء مع الطعام فهو أولى، لأنه اكتشفوا أن الماء إذا كان كثيراً تخلخلت بالعصارة الهاضمة في كل ذرات الطعام، بدل أن تكون قطع الطعام متماسكة فالماء يحلها، ويسهل وصول حمض الكلور، لذلك:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

نحن نريد أن تتثبت أن كل حرف، وكل حركة في هذا الكتاب هي نابعة من الحق الصِرّف، القضية أن تؤمن أن هذا الكتاب حق لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

قراءة القرآن بالتدبر:

أيها الإخوة، قال تعالى، الآن درجة ثالثة:

(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الأعراف الآية: ١٧٠)

المؤمن الصادق له مهمة دعوية، هو يتقي الشرك الخفي، أول نقطة، ثم يثبت قناعاته ونفسه بالقول الثابت وهو القرآن، ثم يسعى إلى تمسيك الناس بالقرآن،

(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ)

وقد أثنى الله عليهم.

قراءة القرآن بالتدبر:

فلذلك أيها الإخوة، نحن في رمضان وهو شهر القرآن، مرة ثانية: حبذا لو تقرؤون القرآن قراءة تدبر، ولا يعنيك الكم إطلاقاً، آية، وأن تقيس نفسك بها، أين أنت منها ؟ هذا الذي يرفع الهمة، وبه صلاح الأمة إن شاء الله، أن تخشى الشرك الخفي، وأن تعالجه بالقول الثابت، ثم أن تنطلق إلى تمسيك الناس بالكتاب لتكون داعية إلى الصواب، وليكون كل عمل الذين دعوته إلى الحق في صحيفتك.

أيها الإخوة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن تنقلب هذه الحقائق إلى قناعات، وإلى راحة نفسية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٤-٦٠) : كيف يستفيد الإنسان من الوقت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة ، والموضوع اليوم: إدارة الوقت.

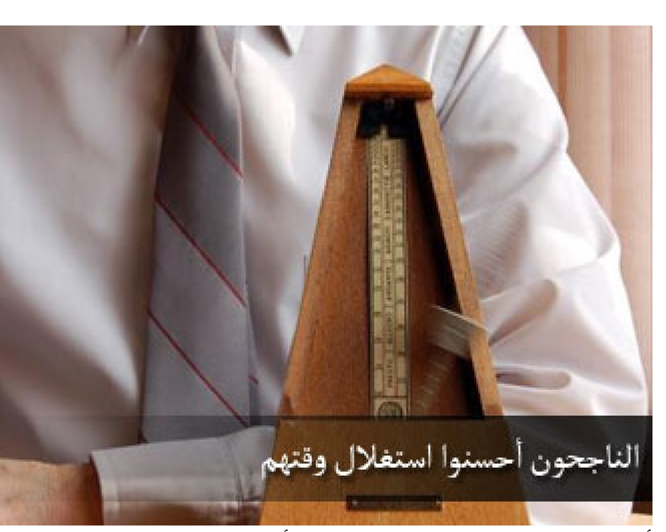
حقائق متعلقة بالوقت:

هناك حقائق متعلقة بالوقت خطيرة جداً:

الحقيقة الأولى: الإنسان وقت:

أنك أيها الإنسان وقت، أنك أيها الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، أنك أيها الإنسان لا تملك أثمن من الوقت، بل إن رأس مالك الوحيد هو الوقت، بل إن الله سبحانه وتعالى أكد في سورة العصر أنك خاسر مهما كنت، وفي أي حجم وجدت، وبأي ثروة تملكها، وبأي مكان تسمو إليه فأنت خاسر، لأن مضي الوقت يستهلكك، والإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن، آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

الحقيقة الثانية: الناجحون أحسنوا استغلال وقتهم:



أيها الإخوة، العلماء الكبار الناجحون في الحياة، العلماء العاملون، أعلام الأمة الذين عرفوا الله، وعرفوا منهجه أحسنوا استغلال الوقت.

وسأبين لكم أن الإنسان أحياناً دون أن يشعر مركب في أعماق أعماقه أن

الوقت أثمن من المال، بدليل أنه ـ لا سمح الله ولا قدر ـ حينما يصاب بمرض عضال، وتقتضي العملية التي يرجو منها فيما يتوهم أن يعيش بضعة سنوات زيادة على وضعه الحالي يبيع أثمن شيء يملكه، يبيع بيته، ويجرب العملية، لعله يعيش سنوات عديدة.

ففي أعماق الإنسان مركب أن الوقت أثمن من المال، الآن بناءً على هذه الحقيقة:

الحقيقة الثالثة: لا يضيِّع الوقت إلا سفيه:

لو أن واحد منا أمسك مئة ألف ليرة وأحرقها أمامنا، ما الحكم القطعي على عقله ؟ سفيه، حكم قطعي، مئة ألف تحل بها بعض المكلات، تحرقها ؟ فإذا كان إحراق مئة ألف ليرة يصف الإنسان بالسفه، فكيف إذا أتلف وقته ؟ وهو أثمن من المال.

لذلك المؤمن يحرص على وقته لأنه رأس ماله الوحيد، ولا يندم المرء يوم القيامة إلا على ساعة مضت لم يحسن استغلالها، وما من إنسان على وجه الأرض عرف كيف يستغل وقته كرسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك أقسم الله بعمره الثمين.

الحقيقة الرابعة: العمر مدة سفر الإنسان في الدنيا:

يقول بعض العلماء: " العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له "، العمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره.

الحقيقة الخامسة: اغتنم يومك الجديد:



النبي الكريم علمنا أنه إذا استيقظت فقل:

((الحمد الله الذي عافاني في جسدي ورد علي روحي وأذن لي بذكره))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لقد سمح لي أن أعيش يوماً جديداً، هذه النقطة الدقيقة، حينما تستيقظ معنى ذلك أن الله سمح لك أن تعيش يوماً جديداً.

فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، لذلك ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

الحقيقة السادسة: الوقت من النعيم المسؤولِ عنه:

أيها الإخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس]

لذلك:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

بعض العلماء فسر النعيم بوقت الفراغ، لأن هذا الوقت يمكن أن تستغله في طاعة الله، ويمكن أن تنفقه هدراً، ويمكن أن يكون ممتلئاً بالمعاصي والآثام، الحالة الأولى هي التوفيق، والثانية غباء، والثالثة خطأ كبير.

الحقيقة السابعة: من علامات تخلف الأمة عدم القيمة الوقت عندها:

إنّ قلة من الناس قليلة جداً تحسن إدارة الوقت، ومن علامات التخلف في أمة أن الوقت لا قيمة له إطلاقاً، يمضي الإنسان ساعات طويلة في أعمال تافهة، في أعمال لا تقدم ولا تؤخر.

من علامات تخلف الأمة هدر الوقت

وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ: فما هو النذير ؟!

لذلك يعاتب الله عز وجل هؤلاء الذين استحبوا العذاب، يقول لهم:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر الآية: ٣٧)

القول الأول: القرآن:

قال الإمام القرطبي: النذير هو القرآن الكريم، لأن فيه مشاهد من يوم القيامة.

القول الثاني: النبي عليه الصلاة والسلام:

وقال بعض العلماء: النذير هو النبي عليه الصلاة والسلام بأحاديثه:

((أكثروا ذكر هادم اللذات))

[ورواه الديلمي عن أنس]

مفرق الأحباب، مشتت الجماعات.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي، و الحاكم، والبيهقي، عن سهل بن سعد البيهقي، عن جابر أبو نعيم]

القول الثالث: سن الأربعين:

وقال بعض العلماء: النذير هو سن الأربعين، فمن دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، وفي بعض الآثار: أنه من بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، وسن الأربعين سن النضج، فماذا يليق بك أن تفعل في هذا العمر ؟ ودائماً لو سافر الإنسان ففي آخر قسم من السفر تنعكس خطته، يشتري بطاقات العودة، يشتري الهدايا، يهيئ نفسه لمتابعة عمله في بلده، إذاً: لا بد بعد حين من الزمن من أن تغير الخطة، من دخل في الأربعين فقد دخل في أسواق الآخرة، فالنذير هو سن الأربعين.

القول الرابع: سن الستين:

وبعضهم قال: سن الستين .

القول الخامس: الشيب:

وبعضهم قال: الشيب.

" عبدي كبرت سنك، واضعف بصرك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، فاستحي مني، فإنا استحي منك ".

القول السادس: المصائب:

بعضهم قال: النذير المصائب.

الآية الدقيقة جداً:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا)

(سورة القصص الآية: ٤٧)

يوم القيامة:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

وفي آية أخرى:

(فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة القصص)

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يجعل من المصيبة رسالة إلى الإنسان، فهي نذير.

القول السابع: موت الأقارب:

وموت الأقارب نذير

إنّ كل إنسان له عمر، أحياناً بضعة أشخاص في عمره تماماً يموتون، معنى ذلك أنه اقترب الأجل، أدق موعظة إنسان عمره ٣٠ ـ ٤٠ ـ ٥٠ ـ ٥٥ ـ ٦٠، يفاجَأ أن صديقه توفي، والثاني توفي، فموت الأقارب والأنداد أيضاً رسالة.

القول الثامن: تنبيهات نهاية العمر:

وبعضهم قال: النذير كل شيء في الحياة الدنيا يدعوك إلى أن نتنبه إلى نهاية العمر .

ولك الساعة التي نت فيها !!!

أيها الإخوة، ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، والحقيقة أننا لا نملك إلا الساعة التي نحن فيها، الماضي مضى ولم يعود، والمستقبل لا تملكه.

كنت أذكر قصة مرات عديدة، هذا الذي حدثني عن خططه لعشرين عاماً قادمة، ثم فوجئت أن نعوته قرأتها في اليوم نفسه، إنك لا تملك المستقبل، وما مِن إنسان ليس في ذهنه مئات الخطط للمستقبل، فيأتي ملك الموت ويلغي كل هذه الخطط، وإذا زرت مقبرة فاعلم علم اليقين أن كل هؤلاء الموتى ماتوا، ولم ينجزوا أعمالهم، كل واحد كان عنده أحلام وخطط، وطموحات، وجاء الموت فأنهاها.

الموت لحظة فراق أسرع من لمح البصر:

إنّ الإنسان بكل ما يملك من قوة، وهيمنة، وجبروت، وغنى، ومكانة، ومنصب منوطٌ بدقات القلب، وقف القلب انتهى كل شيء، كل أملاكه صارت لغيره، أموال منقولة، وغير منقولة، وعملات أجنبية، وأسهم، وشركات، وقف القلب فانتهى كل شيء، كل ما يملك انصرف إلى غيره. فلذلك إذا وضع الإنسان البيض كله في سلة واحدة فهو أكبر مُقامر، وأكبر مغامر، لا بد من أن تعمل عملاً يسبقك إلى الآخرة، فإذا جاء الموت رأيت العمل أمامك.

(نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة التحريم الآية: ٨)

الأيام خمسة: مفقود ومشهود ومورود وموعود وممدود :

فلذلك هناك يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موعود، ويوم ممدود، المفقود الماضي، والمشهود الحاضر، لا تملك إلا اليوم المشهود، فأمامك يوم مورود: الموت، واليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم الممدود: الأبد، الأبد، يوم القيامة الموت، لا ينجو أحد من هذه الأيام الثلاثة، وأخطرها يوم المشهود، لذلك ورد في بعض الآثار: " هلك المسوِّفون ".

قالوا: الفوت ـ وهو ضياع الوقت ـ أشدُّ من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، ولما علِم الصالحون قصر العمر، حدثهم الحادي، وسارعوا، وطووا مراحل الليل والنهار انتباهًا للأوقات.

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)

(سورة آل عمران الآية: ١٣٣)

بركة الوقت:



من لا يؤدي طاعة الله يتلف له وقتة

وقال بعض العلماء: إذا أراد الله بالعبد خيراً أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعداً له، والمؤمن يجعل الله له بركة في وقته، ففي وقت قليل ينجز العمل الكثير، بعض العلماء أحصوا مؤلفاتهم بعد موتهم، وقسموها على أيام عمرهم، فكان نصيب كل يوم تأليف تسعين صفحة، تسعين صفحة كل يوم، قسموا المؤلفات على عمره.

وأحياناً يمكن أن تنجز في الوقت القليل أعمالاً جبارة، هذا من توفيق الله عز وجل.

لذلك، أخشى ما نخشاه أن يذهِب اللهُ البركة من أعمارنا، فقد يشتغل الإنسان بسفاسف الأمور، فبخطأ آلةٍ يهدر له من وقته أسبوعاً، بخطأ في تركيب آلة، أو ينكسر شيء ما، فيحتاج إلى مراسلة،

وإلى سفر، وتوقف المعمل، وحينما لا يؤدي الإنسان طاعة الله ، ولا يؤدي العبادة فإن الله عز وجل قادر أن يتلف له وقته، وهناك أمثلة كثيرة جداً:

يمكن أن تضيع ساعات وساعات، وأشهر وسنوات في موضوع لو لم يكن لكنت في غنى عن كل هذا الوقت، فلا تضنّ بوقت تصلي فيه، أو تؤدي فيه العبادة، أو تحضر مجلس علم، لأنك إن ضننت يؤدب الله عز وجل هذا الإنسان بإتلاف وقته.

كل منا له أسرة، ترتفع الحرارة عند ابنك، يقول لك الطبيب: لعله التهاب سحايا، فيأمره بإجراء تحليل، وتصوير، حركة كاملة مدة أسبوعين أو ثلاثة، مع عشرة آلاف ليرة، بعدها ظهر التشخيص خطأ، تدفع المال، وتبذل الوقت، وتتحطم أعصابك، والموضوع كان من الممكن أن لا يكون له وجود إطلاقاً.

إنّ كلّ إنسان يضن على ربه بأداء العبادات، أو بحضور مجلس علم، أو بعمل صالح، الله عز وجل قادر يتلف له وقته.

أحياناً يركب إنسان محركا، وهناك قطعة يجب أن تكون في أول مرحلة، ينساها، بعد سبع ساعات يجد هذه القطعة، يضطر أن يعيد تركيب المحرك مرة ثانية، الله قادر أن يتلف لك عشرات الساعات.

لا تشتغل بالندم الوقت الفائت !!!

إن الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر، تجلس مع إنسان، فإذا به يتحسر في كل الجلسة، أن أرضًا عرضوها عليه وما اشتراها، ارتفعت مئة ضعف، يبقى عشرين سنة محروق القلب، ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها.

هناك شخص نمطه نمط تحسر، يعيش أخطاء الماضي، ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك السعة التي أنت فيها.

من غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرجعة، فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلب تناول الفائت، وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد، وأن لهم التناوش من مكان بعيد.

من عامات المقت إضاعة الوقت:

ومن علامة المقت: إضاعة الوقت، إن أردت أن تعلم ما إذا كان الله يحبك أو يمقتك من وقتك، إذا ضاع الوقت، الوقت يضيع في القيل والقال، والجدال، والمشكلات، وقد تجد وقتًا ثمين يستهلك في الخصومات، بيت كله خصومات، الشيطان داخل فيه، كل يوم في مشكلة تافهة، وأعصاب متوترة، ونفوس نافرة، ووضع معقد.

من السعادة التوفيق في إدارة الوقت:



حينما يوفق الإنسان إلى إدارة وقته، واستغلال وقته فهو من السعداء، أؤكد لكم مرة ثانية أنه ما من ٣ % من الناس يحسنون إدارة الوقت.

قد يكون عند الرجل مجموعة أعمال لا يضع لها خطة، يذهب إلى أقصى مكان في المدينة، ثم يعود إلى هنا، ثم يذكر أن له قضية ثانية في المكان نفسه، فتضيع ساعات.

فلذلك أيها الإخوة، أكبر إنجاز لك أن تحسن إدارة الوقت، لذلك سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: " الليل والنهار يعملان فيك ".

أوضحُ مثلٍ: انظر إلى صورة لك قبل خمسين عاماً، أو قبل عشرين، هناك فرق كبير جداً، هذا من فعل الليل والنهار.

" الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما ".

الوقت بين الإنفاق الإستهلاكي والإنفاق الإستثماري:

الوقت إما أن تنفقه استهلاكاً، وإما أن تنفقه استثماراً، ينفق الوقت استهلاكاً كما يفعل معظم الناس، يأكلون، ويشربون، ويتمتعون، ثم يفاجؤون بالموت، وأيدهم صفر، ليس لهم عمل صالح، أما المؤمن فينفق الوقت استثماراً، يفعل في الوقت الذي سينقضي عملاً ينفعه بعد انقضاء الوقت.

أربعة أشياء من فعلها في يومه لم يخسر:

لذلك الذي ينفعه أربعة أشياء:

١ ـ جلسة إيمان:

(وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

٢ ـ عملٌ صالح:

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

٣ ـالتواصي بالحق:

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

٤ ـ الدعوة التواصي بالصبر:

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

إن فعلت هذه الأشياء أو بعضها في اليوم فأنت لست بخاسر، أما إذا غفلت عن هذه الأربع، وحصلت أكبر ثروة، فأنت خاسر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((سبع يجري للعبد أجرهن، وهو في قبره بعد موته: من علّم علما، أو أجرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته))

[أخرجه البزار عن أنس]

احرص على عمل يستمر بعد الوفاة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٥-٦٠) : الآيات الكونية في خلق الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة، الحديث اليوم عن حالَي الخوف والرجاء.

بين الإسلام والإيمان:

أولاً: الإسلام أن تنصاع جوارحك لأمر الله، لكن الإيمان أن تتجه إلى الله، أن تتجه إلى الله بقلبك، طابع الإسلام مادي، أقمت أمر الله فيما أمر، وانتهيت عما عنه نهى وزجر، أنت مسلم، الآن اتجهت إلى الله، أقبلت عليه، أحببته، رجوت ما عنده، خفت من عذابه، أحوال القلب متعلقة بالإيمان، فلذلك سيدنا عمر يقول: << تعاهد قلبك >>، المؤمن عليه أن يتفحص قلبه، هل في القلب خوف ؟ هل في القلب رجاء ؟ هل في القلب إنكار لشيء معين ؟ لذلك ورد في الأثر القدسي أن أحد أنبياء الله قال: (يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي) يتضح من هذا الأثر القدسي أنه لابد من أن يكون في قلب المؤمن تعظيم لله ومحبة له وخوف منه، لذلك هؤلاء الذين استحقوا النار بوصف واحد منهم قال تعالى:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

لعله آمن بالله، لكن ما آمن به عظيماً، كيف أن قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

الأمر هنا ينصب على الذكر الكثير، فقط لا على الذكر، لأن المنافق يذكر الله، قال تعالى:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء]

فالآية هنا:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء]

يقاس على هذه الآية:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

من علو الهمة تعظيم الله:

كيف تؤمن بالله العظيم ؟

إذاً: العبرة لا أن تقر بوجود إله، لا أن تقر بوجود خالق، لا أن تقر بوجود رب العزة، أن تؤمن بأن الإله عظيم، من أين تأتي هذه الحالة ؟ أن يكون الله عظيماً أن ترى معصيته كبيرة، أن ترى الذنب الذي اقترفته وكأنه جبل جاثم على صدرك، كيف تأتي هذه الحالة ؟

١ ــ التفكر في خلق السماوات والأرض:

هذه الحالة تأتي من التفكر في خلق السماوات والأرض، الدليل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

[سورة الزمر: ٦٧]

حينما تتأمل في عظمة الكون، وفي عظمة خلقه تعرف من هو الله، لذلك حينما تعلم أن في برج العقرب نجماً صغيراً يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، بينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وهذا النجم الصغير يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

أيها الإخوة الكرام، لمجرد أن تتفكر في خلق السماوات والأرض يمتلئ قلبك تعظيماً لله، قال تعالى:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة]

النقطة الدقيقة أن هذا القلب يجب أن ينطوي على تعظيم لله، وطريق التعظيم لله التفكر في آياته، لذلك التفكر من أرقى العبادات، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الأعراف]

لذلك الآية الكريمة:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[سورة القدر]

أن تعبد الله من دون تعظيم ثمانين عاماً لا تساوي ليلة واحدة فيها تعظيم لله، لذلك:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج]

حينما تعظم أمره، وتعظم نهيه، وتعظم مقامه، وحينما تخشى مقام الله عز وجل فتكف نفسك عن الهوى، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات]

أيها الإخوة، ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي.

النقطة الأولى في علو الهمة أن تشعر بتعظيم الله، والشعور بتعظيم الله يتأتى من خلال التفكر بآياته الكونية، بل إنك إذا تفكرت بالله وبآياته تقف أمام عظمة الله عز وجل.

أحياناً تزور منشأة كبيرة جداً، مرة زرنا السد في الفرات، ونزلنا إلى سبعين متراً تحت الأرض، ورأينا العنفات، لا تملك إلا أن تعظم الذين خططوا، والذين نفذوا هذه المنشأة، أنت أمام كون، أمام نجم يبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، أنت أمام حقيقة، أن نجماً يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، هذا الرقم كبير، وإن أردنا ـ افتراضاً ـ أن نصل إليه بمركبة أرضية نحتاج إلى أن نصل إلى هذا الكوكب الذي هو أقرب نجم ملتهب إلى الأرض خمسين مليون عام، تقود سيارة خمسين مليون عام كي تصل بها إلى أقرب نجم ملتهب، هذا النجم الذي بعده عنا عشرين مليار سنة ضوئية، كيف ؟ حينما تفكر بالكون تقف أمام عظمة الله عز وجل، فلذلك احرص أن يمتلئ القلب تعظيماً لله، هذه حالة.

١ – التفكر في المخلوقات:

البـعـوضـة:

لو تركنا هذه الآيات العظيمة الدالة على عظمة الله، وانتقلنا إلى أصغر مخلوق، هل يعقل أن يكون في رأس البعوضة مئة عين، وفي فمها ثمانية وأربعون سناً، وفي صدرها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وتملك جهاز رادار حساسية هذا الجهاز واحد على ألف من الدرجة المئوية، وتملك جهاز تحليل، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، وتملك في أرجلها محاجم ومخالب، معقول ؟ انتقلنا من مجرات إلى بعوضة، هذا الكون كتاب الله مفتوح أمام أيديكم، هذا الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، قال: ذكّرهم بآلائي، إذاً: بقدر تفكرك في خلق السماوات والأرض بقدر خشيتك من الله الدليل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: ٢٨]

إنما أي العلماء وحدهم، ولا أحد سواهم، هذا معنى إنما، وابحثوا عن أداة إنما ماذا تعني ؟ تعني القصر والحصر، العلماء وحدهم، ولا أحد سواهم يخشى الله، قال تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: ٢٨]

ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، النعم من دون أن تشعر مع مخلوق أسدى لك معروفاً تذوب منه خجلاً، الذي منحك نعمة الإيجاد، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان]

الإنـسان:

منحك نعمة الإيجاد، وأتقن صنعتك، رأس فيه ثلاثمئة ألف شعرة، كل شعرة لها وريد وشريان، وعصب وعضلة وغدة دهنية وغدة صبغية، في شبكية العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، العصب البصري تسعمئة ألف عصب الذي يدرس، ويتعلم، ويقرأ ما في خلق الإنسان من دقة يجد شيئا يكاد يفوق حد الخيال، العصب الشمي عشرون مليون عصب، وكل عصب ينتهي بسبعة أهداب، والهدب مغمس بمادة تتفاعل مع الرائحة، تشكل زر كرة صغيرة موشور، أسطوانة،

مكعب، رمز كل رائحة شكل، تشحن للدماغ، في الدماغ ذاكرة شمية، أكثر من عشرة آلاف رائحة، هذا الرمز يجب أن يمشي على عشرة آلاف رمز، أينما توافقا تقول: وضعتم في الأكل كمون، عملية معقدة جداً.

يا أيها الإخوة الكرام، لا بد من أن ترى نعمة الله عليك، العين في المحجر، والدماغ في الجمجمة، والقلب في القفص الصدري، والرحم في عظم الحوض، ومعامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، ما هذا الإحكام ؟ لو دخلنا في موضع خلق الإنسان لا ننتهي، أنت يمكن أن تجلس ساعات طويلة، خمس ساعات، سبع ساعات، وأنت بكامل نشاطك، وبكامل أناقتك، وبكامل نظافتك، لأن في المثانة كل عشرين ثانية تنزل نقطة من إحدى الكليتين، تتجمع، لو ما لم يكن لديك مثانة تحتاج إلى فوط دائماً، تصور قيمة الإنسان لو لم تكن له مثانة، أنت تفكر في خلق الإنسان، تفكر لو أن في الشعر أعصاب حس، تحتاج إلى عملية جراحية حينما تحلق شعرك، وعملية تخدير كامل، لو كان في كل شعرة عصب حس ففي الإمكان أن يغدو الإنسان كالوحش، أو يحتاج إلى عملية اسمها عملية الحلاقة بتخدير كامل، الشيء الذي ينبغي أن تقصه باستمرار لا عصب حس فيه، الحديث لا ينتهي، لكن لا بد أن يكون في قلبك تعظيم أولاً، ومحبة ثانياً، المحبة، قال تعالى:

(خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

[سورة الروم: ٢١]

منحك الذرية، أولاد يملؤون البيت فرحة، منحك الهواء الماء، ماء عذب تشربه، من جعله عذباً فراتاً بعد أن كان ملحاً أجاجاً ؟ من خزن الماء في الجبال ؟ كيفما تحركت، أنت تمشي على قدمين لطيفتين بفضل وجود جهاز التوازن، لولا هذا الجهاز تحتاج إلى قاعدة استناد بسبعين سنتمترا، وانظر إلى المجسمات للأشخاص في محلات بيع الأقمشة هذا، المجسم للإنسان أو للمرأة قاعدته سبعون سنتمتراً حتى يقف، لكن الله عز وجل لطفاً بك جعل لك قدماً لطيفة تستقر بها واقفاً بفضل جهاز التوازن.

والله أيها الإخوة الكرام، لو تفكرنا في كل أحوالنا، بدقائق خلق أجسامنا لأحببت الله عز وجل، قال تعالى:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل: ٨٨]

الطعام، الشراب، الأزهار، مرة أهدي إلي كتاب عن الأزهار في ثمانية عشر جزءاً، وكل جزء تقريباً حجمه كبير جداً، كل صفحة زهرة، وخصائصها، وصفاتها، وطباعها، هذا لماذا ؟ هذا ليس للطعام، هذا لإمتاع العين والأنف فقط، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

محبة الله وتعظيمه:

لا بد من أن تعظمه من خلال التفكر في آياته الكونية، ولا بد من أن تحبه، أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه.

الإسلام من دون حب جسد بلا روح:

صدقوا أيها الإخوة الكرام، الإسلام من دون حب جسد من دون روح، الأب يكون مصدر سعادة الأسرة، يدخل إلى البيت، فإذا في البيت عيد، الصغار يقدمون عليه، يتعلقون به يحملهم، يقبلهم، لمجرد أن يموت يخاف أقرب الناس إليه الدخول إلى غرفته، يخافون، وبعد دفنه بأشهر تصبح الغرفة مخيفة، ما الذي حدث ؟ كيف أن هذه الروح تعطي الأنس، تعطي المحبة، الإسلام من دون حب جسد من دون روح، فارغ متصحر ممل، الحب محرك، شخص ركب القطار من الدرجة الأولى، يدهش بأناقة المقاعد، ولطاولة التي تكون أمام الركاب، ببعض المناظر، لكن بعد حين يمل، استهلكه، النافذة مغلقة، أما لو فتح النافذة، ورأى المناظر المتجددة لا يمل، فإذا تعلق الإنسان بالدنيا فلدنيا مملة، انظر إلى كبار الأغنياء، أو إلى كبار الأقوياء، ملوا حياتهم، سئموا هذا البيت الكبير، سئموا هذه المركبات الفارهة، سئموا أنفس أنواع الطعام، الحياة من دون اتصال بالله مملة.

أيها الإخوة الكرام، يحضرني هذا المثل، بيت فيه عدد من الأجهزة الكهربائية، مكيفات، ثريات، مراوح، ثلاجة، غسالة، أي جهاز كهربائي من أعلى مستوى تصوره في البيت، لكن من غير كهرباء، أعباء، كتل حديد لا معنى لها إطلاقاً، لكن إذا سرت الكهرباء في البيت كان لكل جهاز معنى، الثلاجة تبرد، والمكيف يبرد، و الميكروويف يسخن، والمروحة تدور، والمسجلة تصدح بالقرآن الكريم، كل شيء صار فيه حياة، والاتصال بالله يشبه سريان الكهرباء في كل هذه الأجهزة، المؤمن زواجه له معنى، زواجه مسعد، وأولاده مسعدون، وحرفته يسعد بها، كل حركاته وسكناته مسعدة، لأن فيها اتصالا بالله، لذلك ذكرهم بآلائي من أجل أن يعظموني، وذكرهم بنعمائي من أجل أن يحبوني، وذكرهم ببلائي.

احذرو انتقام الله:

مرة التقيت مع إنسان له عمل بإمكانه أن يوقع الأذى بأعداد لا تنتهي من الناس، قلت له: الله عز وجل عنده ورم خبيث بالدماغ، بالجهاز الهضمي، بالكليتين، بالعظام، بالعقد الليمفاوية، وعنده تشمع كبد، وعنده فشل كلوي، وما من مرض عضال ينهد له الإنسان إلا ذكرته له، وهؤلاء العباد جميعاً عباده، وإذا كنت بطلاً فيجب أن تهيئ لله جواباً عن كل عمل تعمله، يجب أن تخاف تجاوز إنسان حده مع إنسان صالح يوم في اليوم الثاني ارتكب حادثا قطع عاموده الفقري، عمره اثنتان وثلاثون سنة، وهو طريح الفراش إلى أن يموت، الله عز وجل كبير، الله عز وجل، عنده مصائب تجعل الحليم حيران.

مرة خطيب مسجد في بلد عربي، هكذا سمعت، يقول في خطبته: اللهم من أراد بهذا المسجد سوءاً، من أراد إطفاء النور في هذا المسجد أصبه بسرطان في دمه، وعمىً في عينيه، وشلل في يديه، حتى يتمنى الموت فلا يجده، الله عز وجل عنده مصائب تنهد لها الجبال نراها بالعين.

قد يكون الموت رحمة للإنسان :

والله أيها الإخوة الكرام، بعض المصائب يصبح الموت أكبر نعمة على الإطلاق.

قال لي أخ: لي والدة نقيدها من رجليها ويديها إلى مكان نومها، قلت له: لماذا ؟ قال: لأنها إذا كانت يداها طليقتين تأكل غائطها، وتخلع كل ثيابها، ولها على الحالة اثنتي عشرة سنة، أليس الموت رحمة ؟ الله عز وجل عنده مصائب تهد لها الجبال.

ذكرهم بآلائي، و نعمائي، و بلائي، لذلك من تمام علو الهمة أن تذكر دائماً عظمة الله، وأن تذكر نعمه، وأن تذكر ما عنده من مصائب، ذكرهم بآلائي من أجل أن يعظموني، وذكرهم بنعمائي من أجل أن يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني.

أيها الإخوة الكرام، أنا لا أرى أغبى ممن لا يخاف الله، هذا الذي لم يمت بعد، والذي هدم سبعين ألف بيت، والذي تجبر في الأرض إلى الآن لم يمت، أنت في قبضة الله، أقل مرض ينهي حياة الإنسان، وليت الحياة تنتهي، أحياناً يعذب سنوات طويلة، لذلك رأس الحكمة مخافة الله، ولن نجد أغبى ممن لا يخاف الله، أو ممن لا يدخل الله في حساباته.

أيها الإخوة الكرام، ذكرهم بآلائي من أجل أن يعظموني، وذكرهم بنعمائي من أجل أن يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، وهذا حال القلب، هذا هو الإيمان، أن تحب الله، أن تخشاه، أن تعظمه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٦-٦٠) : التفكر في خلق السموات والأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

من علو الهمة التفكر في خلق السماوات والأرض:

مرت آيات في هذه السورة ترفع همة الإنسان، للتأكد أن هذا الدين هو الحق، ولا حق في الأرض سواه، حينما يكتشف الإنسان قبل عقدين من الزمن أن الذي وصل إلى الفضاء، و تجاوز طبقة الهواء دخل في ظلام دامس، الأمر الذي حمله على أن يصيح بقوله: لقد أصبحنا عمياً، أما أن تجد آية في كتاب الله نزلت قبل ألف وأربعمئة عام تقول:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

القرآن معجزة إلى قيام الساعة:

المعجزة شهادة الله بأحقية القرآن ورسالة النبي:

المعجزة شهادة الله بأحقية القرآن ورسالة النبي:

معنى ذلك أن كل نبي جاء بمعجزة، والمعجزة شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، و أنه رسوله، لابد من أن يشهد الله للناس أن هذا الإنسان الذي يقول: أنا رسول الله، هو رسول الله حقاً عن طريق المعجزات، لكن كل نبي له قول، وزمن محدد، فمعجزاتهم كانت حسية، أما نبينا عليه الصلاة والسلام هو لكل العالم، لكل العالمين، هو رحمة للعالمين، ولآخر الزمان، ولقيام الساعة، وكتابه خاتم الكتب، إذاً: لابد من معجزة تستمر إلى نهاية الدوران، ولن تكون المعجزة الحسية قابلة للاستمرار، لأن المعجزة الحسية كتألق عود ثقاب تتألق، ثم تنطفئ، تصبح خبراً يصدقه من يصدقه، و يكذبه من يكذبه.

إذاً: لابد من معجزة مستمرة هي شهادة الله للخلق، ولاسيما المشككين أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

هذه آية من آيات شهادة الله للناس في آخر الزمان أن هذا القرآن كلام الله:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

[سورة الحجر]

أيها الإخوة الكرام، كما تعلمنا أن آية الأمر يقتضي أن نأتمر بها، وأن آية النهي يقتضي أن ننتهي عنها، وأن آية وصف الجنة يقتضي أن نعمل لها، وأن آية وصف النار يقتضي أن نفر منها، وأن قصص الأقوام السابقة يقتضي أن نتعظ، وأن الآيات الكونية تقتضي أن نفكر، إن فكرنا عرفنا الله عز وجل.

من الآيات الكونية: خلق الله:

لذلك سورة النحل طافحة بالآيات الكونية:

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[سورة النحل]

١ ـ الإنسان خُلِق من عدم:

بالمناسبة الله عز وجل خلق كل شيء من لا شيء، الإنسان يصنع شيئاً من كل شيء، لذلك الله عز وجل دعانا إلى الموازنة.

٢ ـ الإنسان بين الكلية الطبيعة والكلية الصناعية:

أحياناً تجد كلية صناعية حجمها بحجم الطاولة يقتضي أن تجلس إلى جانبها في الأسبوع ثلاث مرات، وفي كل مرة ست ساعات، تدفع ثلاثة آلاف ليرة، أما هذه الكلية الطبيعية المودعةفي أسفل الظهر فتعمل بصمت، ودون أن تتعطل، وأنت في العمل، وأنت في النوم، وأنت في البيت، تعمل بلا ضجيج، وبلا كلفة، وبأعلى درجات الغسيل.

غسيل الكليتين في الكلية الصناعية ليس تاماً، تبقى نسب من حمض البول في الكلية، هذه النسب تسبب بعض الكآبة، تسبب بعض الردود القاسية في التعامل مع الآخرين، لذلك:

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

[سورة النحل: ١٧]

٣ ـ العين:

وازن بين هذه العين وآلة التصوير، العين أيها الإخوة في الميليمتر المربع في الشبكية مئة مليون مستقبل ضوئي، بينما أرقى آلة، آلة تصوير رقمية احترافية في الميليمتر المربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي بالضبط، وفي العين مئة مليون:

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ)

[سورة النحل: ١٧]

بين خلق الله وصناعة الإنسان:

أيها الإخوة الكرام، لو نهجنا هذا النهج، أن نوازن بين صنعة الإنسان، وصنعة الواحد الديان، ائت بوردة طبيعية وردة صناعية، أعتقد الفرق كبير جداً الوردة الصناعية بعد حين تمل منها تلقيها في المهملات، أما الطبيعية ففيها حياة.

وازن بين مجسم امرأة في محلات بيع الألبسة والمرأة الحقيقية، مجسم طفل، وبين الطفل الحقيقي:

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[سورة النحل]

كأن الله بهذه الآية أعطانا منهجاً للتفكير.

أنت عبد الله في كل الأحوال:

أيها الإخوة الكرام، أما قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

[سورة النحل]

الإنسان بين أن يكون عبْدَ شكرٍ و عبْدَ قهرٍ:

لا تنسوا أنك عبد لله، إما أن تكون عبد قهر، أو أن تكون عبد شكر، عبد القهر جمعه عبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة فصلت]

كل إنسان تحت رحمة الله، في ثانية تصيبه آفة كبيرة تجعل حياته جحيماً، إلا أنك إذا كنت عبْدَ شكرٍ تعرفت إلى الله، وطبقت منهجه، وأقبلت عليه، هذا العبد جمعه عباد، وعباد الرحمن، بين أن تقول:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة فصلت]

وبين أن تقول:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ)

[سورة الفرقان: ٦٣]

إذاً: نحن عبيد لله، فالبطولة أن نكون عبيد شكر لا عبيد قهر.

طاعة في زمن الشباب تساوي خريف عمر رائع:

إخواننا الكرام، الإنسان في شبابه يتمتع بنشاط كبير، لكن التفاوت الكبير بين الناس في شيخوختهم، لذلك من كان في شبابه طائعاً لله متعه الله بخريف عمر رائع، أي ملكاته كاملة، صحته كاملة، حوله من يحبه، له مكانة مصدر توجيه، حياة الإنسان إذا نشأ في طاعة الله له شيخوخة رائعة، بينما حياة الإنسان إذا كان في شبابه مضيعاً لأوامر الله تكون شيخوخته مذلة ومهانة.

والله أيها الإخوة الكرام، هناك قصص لما يطرأ على بعض المتقدمين في السن عجيبة جداً، أنا أعرف إنساناً في العهد التركي له شأن كبير جداً، أحد أكبر الوزراء، في خريف عمره فقَد ذاكرته، يخرج من البيت، ولا يعود، يبحثون عنه في كل المدينة فيعثرون عليه في أحد أحيائها:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا)

[سورة النحل: ٧٠]

أيها الإخوة، مرة ثانية: بطولتك بخريف عمرك، وخريف عمرك مرتبط بشبابك.

كان هناك طبيب في البلدة، كان طبيبا نسائيا وحيدا قبل ستين سنة تقريباً، لا يوجد غيره، ولا يقبل أن ينتقل من عيادته إلى بيت المرأة التي على وشك الولادة إلا سيارة وليرة ذهب إنكليز، يستغل الناس استغلالاً، كم من امرأة باعت فراشها، وأثاث بيتها ليكون أجرة معالجتها، وجمع ثروة طائلة، وعمّر بناء بأحد أحياء دمشق الراقية، له واجهة مزخرفة من الحجر، أصابه شلل أسابيع عدة، فضاقت زوجته به ذرعاً، فوضعته في قبو البناء، وترسل له الطعام مع الخادمة، يسأل عنها فلا ترد عليه، فلما فاحت رائحته الكريهة نقلته إلى مكان بعيد، ثم مات، هذا خريف العمر، لكن أحياناً تجد إنساناً طيبا في شيخوخته.

والله مرة زرت والد صديقي في العيد قال لي: أنا عمري ستة وتسعون عاما أجرينا البارحة تحليلات كاملة، كلها طبيعي، قال لي: والله لا أعرف الحرام، لا حرام المال، ولا حرام النساء.

وكان شيخ من شيوخ الشام الكبار قد بلغ السادسة والتسعين منتصب القامة، بصره حاد، سمعه مرهف، أسنانه في فمه، حين يسأل: يا سيدي، ما هذه الصحة التي حباك الله بها ؟ يقول: يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر.

هذا ليس له وحده، لكم جميعاً، كل إنسان في شبابه يحفظ الله عز وجل، يمتعه بشيخوخة رائعة، ونسأل الله عز وجل أن يمتعنا بخريف عمر فيه قوتنا، ومكانتنا، ومعنا ما يغطي حاجاتنا.

إذاً:

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً)

[سورة النحل: ٧٠]

إنها أخطر المراحل: ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ

هناك إنسان ذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية قال: هذا أصعب مهجع، فيه حالات مستعصية، والله وصف لي وصفا لأسبوعين أو ثلاثة لم تبرح الصورة التي قدمها مخيلتي، نساء ورجال عرايا والدماء، يأكلون غائطهم، الوصف يفوق حد الخيال، " حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر ".

أنا أخاطب الشباب، أخاطب من في مقتبل العمر، شيخوختك منوطة بشبابك، إن كنت في شبابك طائعاً لله عفيفاً مستقيماً متعك الله بخريف عمر رائعاً، صحة ومكانة وقوة والنبي الكريم يقول: ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، فيه شيء دقيق.

آلية المص عند الطفل الرضيع:

أيها الإخوة الكرام، أنتم لو علمتم أن آلية معقدة جداً خلقت مع الإنسان، ولم يُخلق معه شيء آخر، والدليل:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)

[سورة النحل: ٧٨]

جميع القدرات والمهارات، والأعمال تتكون بعد الولادة إلا أن آلية معقدة جداً تُخلق مع الإنسان لولاها لما كان هذا الدرس، ولما كانت دمشق، ولما كان أحد على وجه الأرض، آلية المص، الطفل حينما يولد رزقه الوحيد من ثدي أمه، وهو لا يعقل ولا يفهم، مَن علّمه أن يضع شفتيه على حلمة ثدي أمه، ويحكم الإغلاق، ويسحب الهواء ؟ هذه الآلية يسميها علماء النفس منعكس المص، لولا هذا المنعكس لما رأيت إنساناً على وجه الأرض، لذلك قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل]

المغفرة لمن تاب وأصلح:

هناك لفتة نظر دقيقة: دائماً هناك وهم عند معظم الناس أن الله غفور رحيم، من قال لك ذلك، الأمر ليس كذلك، هو غفور رحيم، ولكن بشرط، هذا الشرط تكرر في القرآن ثماني مرات:

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة النحل]

هذه الصيغة بأشكال متعددة وردت ثماني مرات في القرآن الكريم، أي لا تطمع بالمغفرة قبل أن تتوب، لا تطمع بالمغفرة قبل أن تصلح ما كان منك، لا تطمع بالمغفرة قبل أن تقلع عن الذنب

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة النحل]

لو أردت أن تبحث في معجم القرآن الكريم عن كلمة (من بعدها) لوجدت عدة آيات بهذه الصيغة تؤكد أن المغفرة لا تكون إلا بعد التوبة.

إخواننا الكرام، يقول الله عز وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)

[سورة النحل: ١١٢]

يقابل هذه الآية:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

[سورة قريش]

نعمتان عظيمتان: الإطعام من الجوع والأمن من الخوف:

أي أعظم نعمتين على الإطلاق أن تجد ما تأكل، وأن تنام مطمئناً، وأكبر عقاب عقابُ الجوع والخوف معاً.

١ ـ بين تفسيرات الواقع وتفسيرا القرآن:

فلذلك يمكن أن تفسر المصائب التي تنزل بالمسلمين تفسيراً توحيدياً، تفسيراً قرآنياً، وهناك آلاف التفسيرات الأرضية، يقول لك: عدوان غاشم، يقول لك: هجمة شرسة، يقول لك: مؤامرة صهيونية، يقول لك: من عمل الموساد، استعمار حديث، الغزو الغربي، الغزو من أجل الحرية والديمقراطية، اجتياح، عدوان، استعمار استيطاني، مصطلحات كثيرة:

(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢))

[سورة النحل]

٢ ـ الكرة في ملعبنا:

الله موجود، حاول أن تفسر ما تسمع تفسيراً قرآنياً، التفسير القرآني مريح، لكن لماذا هو مريح ؟ لأن الكرة في ملعبنا:

(وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ)

[سورة الأنفال: ١٩]

النجاة بيدنا، والخلاص بيدنا، والقوة بيدنا، والعزة بيدنا، والحرية بيدنا، فنحن ما لم ننتهج منهج الله عز وجل فنكون رقماً لا معنى له في خطط أعدائنا.

يقال: العلم حرف، والتكرار ألف:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل]

١ – بين الحسن والأحسن:

آخر نقطة أيها الإخوة الكرام، نحن عندنا كلمة حسن، وعندنا كلمة أحسن، حسن صفة، أحسن اسم تفضيل، الله عز وجل قال:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل: ١٢٥]

٢ – الجدال بالتي هي أحسن:

يجب أن تختار الألفاظ الحسنة:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً)

[سورة البقرة: ٨٣]

هذا في الدعوة، أما في الحوار، في الجدال فشأن آخر، في الجدال نفوس، كل شخص ربط كرامته بأفكاره، أو كرامته بمذهبه، أما في الجدال:

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة النحل: ١٢٥]

إذا كان هناك مئة عبارة حسنة في الجدال فيجب أن تختار العبارة الأحسن، لأن الجدال فيه مشادة الأفكار ارتبطت بالكرامة، فإن أردت أن تهينه، أو أن تذله فأنت لست بداعية، أما إن أردت أن تأخذ بيده فإنك تختار العبارة الأحسن، في الدعوة العبارة الحسنة، في الجدال العبارة الأحسن.
أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذه النقاط التي يمكن أن ترفع همتنا إلى الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٧-٦٠) : الزهد في الدنيا وعلاقته مع علة وجودنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

مقدمة لموضوع الزهد:

الموضوع اليوم الزهد، وهذا الموضوع يحتاج إلى مقدمات كثيرة، ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيف))

[رواه في صحيح مسلم عن أبي هُريرة رضي الله عنه]

لماذا ؟ لأن القوي أمامه فرص للعمل الصالح لا تعد ولا تحصى، ولأن علة وجودك في الدنيا بعد الإيمان بالله العمل الصالح، وقد قال الله عز وجل يصف أهل الدنيا حينما يأتيهم ملك الموت:

(قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

هذا ما يمكن أن يفعله القوي:

فالقوي بعلمه، والقوي بماله، والقوي بمنصبه متاح له أن يفعل من الأعمال الصالحة ما لم يتح لغيره، أي أن الممكنين في الأرض بالمال، أو بالعلم، أو بالقوة بجرة قلم القوي يحق حقاً، ويبطل باطلاً، ويقر معروفاً، ويزيل منكراً، بتوقيع واحد.

والغني بإمكانه أن يحل مشكلات الألوف من الناس، بتزويج الشباب، بتهيئ فرص عمل، برعاية الأيتام، بإطعام الفقراء، بمعالجة المرضى، بإنشاء المستشفيات ، الغني متاح أمامه من الأعمال الصالحة ما لا سبيل إلى وصفه، والقوي متاح أمامه بجرة قلم أن يحقق مصالح الأمم.

والعالم بتنوير العقول، وتوضيح معالم الدين، وترسيخ القيم، والرد على الشبهات، يعود هذا العلم على الأمة ثقة بدينها، وطاعة لربها، واعتزازاً بماضيها.

إذاً:

((الْمُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيف))

حب الدنيا رأس كل خطيئة:

أين موضوع الزهد في هذه المقدمة ؟ الدنيا بحظوظها، المال حظ، الجمال حظ الذكاء حظ، القوة حظ، الدنيا بحظوظها إذا صرفتك عن عمل صالح، عن طاعة، عن أداء فرض، عن أداء سنة، عن أداء واجب، عن دعوة، عن انشغال بما فيه خير الأمة، حينما تشغلك الدنيا عن علة وجودك وغاية وجودك، حينما تشغلك الدنيا عن الهدف الذي خلقك له ، حينما تشغلك الدنيا عن أن تفلح فيها بمقياس القرآن، لا بمقياس أهل الدنيا، حينما تشغلك الدنيا عن علة وجودك وغاية وجودك، عندئذٍ نقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة، عندئذ نقول: الدنيا تضر، وتغر، وتمر، عندئذٍ نقول:

((الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له))

[أخرجه أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

عندئذٍ نقول: الدنيا جيفة طلابها كلابها، متى ؟ حينما تحول الدنيا بينك وبين طاعة الله، حينما تحملك على معصية الله، حينما تحملك على إهمال الحقوق، حينما تحملك على أن تنصرف عن العلة التي من أجلها خُلقت.

دور الدنيا :

إذاً: الدنيا لها دور إيجابي، ولها دور حيادي، ولها دور سلبي، الدور السلبي أن يحملك حب الدنيا على معصية الله، هذه الدنيا، وهذه رأس كل خطيئة، وهذه الطامة الكبرى، وهذه الجيفة، وهذه التي حالت بينك وبين الجنة، هذه التي حالت بينك وبين الأبد.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية: ١٥)

وتكون الدنيا حيادية، والدليل:

وكلمة رجال في القرآن لا تعني أنهم ذكور، تعني أنهم أبطال، كلمة رجل في القرآن تعني أنه بطل.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)

(سورة الأحزاب الآية: ٢٣)

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)

(سورة النور الآية: ٣٧)

إذاً: هم يتاجرون، ويبيعون ويشترون، ولكن هذه التجارة لا تلهيهم عن أهدافهم ، إذاً: ليست من الدنيا، نقول ساعتئذٍ:

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيف))

الإيمان والعمل الصالح علة وجود الإنسان:

أيها الإخوة، لأن علة وجودنا في الدنيا العمل الصالح بعد الإيمان بالله، إذاً: يجب أن نسلك سبيل القوة، علماً، ومالاً، ومنصباً.

أطباء كثيرون درسوا في جامعات في بلاد غربية بعيدة، ووازنوا بين أن يكونوا مدرسين في الجامعات الغربية، أو أصحاب عيادات، دخل العيادة فيما أتصور، وقد علمت هذا عشرة أضعاف راتب أستاذ الجامعة، فأكثر المسلمين الذين درسوا الطب في بلاد بعيدة آثروا فتح العيادات، من تسلم درجات البورد ؟ اليهود، وتحكموا، وصار شبه مستحيل أن يصل طالب مسلم إلى هذه الدرجة، هم أغرتهم المادة، فتركوا رسالتهم في الحياة، وانصرفوا إلى جمع المال، هذه دنيا، بينما الطرف الآخر آثر المنصب الجامعي الذي يخدمون به أمتهم عن دخل كبير في عياداتهم، القضية دقيقة جداً.

العلم سلاح للنهوض والتقدم الصالح:

نحن الآن أيها الإخوة في وضع صعب جداً، لا بد من أن ننهض بهذه الأمة ، وسلاح الأمم الآن العلم، فإذا أتيح لك دخل كبير ولكن على حساب مصالح أمتك هذا من الدنيا.

أيها الإخوة، لذلك الدنيا لا أقول: ذات التأثير السلبي، هذه فكرة مرفوضة أشد الرفض، وكل الأحاديث الشريفة التي تشيد بالزهد من هذا القبيل، أنا أزهد بدنيا تكون عائقاً بيني وبين الله، أزهد بدنيا تكون حجاباً لي عن الله، هذا الزهد السلبي للدنيا، جميع أحاديث الزهد والآيات التي تتعلق بالآخرة.

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

(سورة الضحى)

من هذا القبيل.

الآن عندنا دنيا حيادية، ليست إيجابية، وليست سلبية، بمعنى قوله تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة النور الآية: ٣٧)

لكن هناك في دنيا إيجابية، حينما يكون المال حلاً لملايين المشاكل، والمال بيدك، أحياناً تنشئ ميتما فيه آلاف الصغار، تربيهم تربية إيمانية، وتربية أخلاقية، وتربية علمية، وتجعل منهم دعاةً كباراً، هذا الكلام يحتاج إلى ملايين، لكن ما قولك أن تأتي يوم القيامة وقد هيأت للأمة ألف داعية بمالك، أحياناً تنشئ مستشفى، وهناك عدد من الفقراء كبير جداً لا يستطيع أن يعالج نفسه، أنت نفّست عن آلاف المؤمنين الكرب.

متى تزهد في الدنيا ؟ ومتى يكون الزهد صحيحا ؟!!!!

لذلك ما دام علة وجودك العمل الصالح فينبغي أن تسعى لأن تكون عالماً، أو غنياً أو قوياً، ما دام طريق العلم، وطريق القوة، وطريق الغنى سالكاً وفق منهج الله يجب، أن تكون غنياً، أو قوياً، أو عالماً، من أجل أن تحقق علة وجودك في الدنيا، من أجل أن تحقق رسالتك، أما إذا كان طريق القوة سالكاً، ولكن لا وفق منهج الله، بل وفق منهج أهل الكفر، إذا كان سلوك طريق القوة على حساب دينك، وعلى حساب مبادئك، وقيمك عندئذٍ نقول لك: ازهد في الدنيا، عندئذٍ أقول لك: الفقر وسام شرف له، إن كان طريق الغنى أن تبيع دينك وأمانتك، وإسلامك، وأن تبيع مبادئك، وأن تبيع قيمك، نقول لك: الفقر وسام شرف لك وإذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، لأنك إن كنت قوياً بجرة قلم تحق حقاً وتبطل باطلاً، تقر معروفاً وتزيل منكراً، أما إذا كان طريق القوة سالكاً ولكن على حساب دينك، مبادئك، قيمك، ضعفك في الدنيا وسام شرف لك نقول لك عندئذٍ ازهد بالقوة وابقَ ضعيفاً.

مفهوم الزهد الساذج السلبي مرفوض:

لذلك أيها الإخوة، الموضوع دقيق جداً، قد نأخذ الأحاديث من دون تحليل، المسلمون اليوم بحاجة ماسة إلى أقوياء ينهضون بالأمة، إلى أقوياء يعيدون لها ماضيها المجيد، يعيدون لها دورها القيادي في العالم، أما الانسحاب من الحياة، والانزواء، والتقوقع فهذا ليس زهدا.

أنا زاهد في الدنيا، عندئذٍ يتفنن أعداءك في إذلالك، وفي قهرك، وفي نهب ثرواتك، وفي بث الفوضى في بلادك، وفي بث الإباحية والانحراف، وكل أنواع الشذوذ، لأنك ضعيف، ومستخذ، ومستسلم، ولا يعنيني، وكله ترتيب سيدك، هذا كلام العوام، يجب أن تكون قوياً، من أجل أن تنهض بأمتك، يجب أن تكون عالماً من أجل أن تنور العقول، يجب أن تكون غنياً من أجل أن تحل المشكلات.

والله هناك مشكلات في العالم الإسلامي متاح أمام الأغنياء من الأعمال الصالحة ما لا يوصف، عندك مشروع مثلاً، تأمين سكن للشباب، الشباب طاقة كبيرة، الشباب قنبلة موقوتة، يحتاجون إلى أعمال، إلى مشاريع، إلى مساكن، إلى زواج، أقول لكم، ولا أبالغ: بالإحصاء الرسمي الدقيق نصف بنات سورية من دون زواج، والفتاة هدفها الأول في الحياة أن تكون أماً، لذلك دافع الأمومة أقوى دافع في الجنس البشري، فإذا حيل بينها وبين أن تكون أماً فهناك احتمال كبير أن تنحرف، احتمال كبير أن تمرض نفسياً، احتمال كبير أن تصاب بالإحباط.

والله أيها الإخوة، لو تعلمون المآسي التي يعاني منها المجتمع لنهضتم من أجل تخفيف هذه الآلام. مفهوم الزهد الساذج، السلبي، الانسحاب من الحياة، الاستلام لمصير أسود، لمصير مظلم مفهوم مرفوض، تقول: أنا لا علاقة لي، أنا أنجو بنفسي، إن لم تحمل هم المسلمين فلست مسلماً، إن لم تحمل همهم، إن لم تخفف عنهم، إن لم تسهم في حل مشكلاتهم فلست مسلماً.

والله مرة أخ عنده معمل، عنده ثمانون عاملا، قال لي: أنا لا أربح أبداً سنوات طويلة، قال لي: الربح يساوي المصروف، وأنا في غنى عن هذا المعمل، وجاء يستشيرني في إنهاء المعمل، وتسريح العمال، وبيع الآلات، وجعل البناء للإيجار، قلت له: وجود ثمانين أسرة لها دخل من معملك، هذا أكبر ربح بميزان الآخرة، أكبر ربح أنك فتحت ثمانين بيتا، وهيأتَ ثمانين فرصة عمل، بميزان الآخرة هذا أكبر ربح، ولو لم تربح شيئاً، وجزاه الله خيراً، لأنه استمر بالعمل لما تنسحب من الحياة فقد انتهيت، أنت صغير، وحينما تنسحب فأنت صغير جداً، ولم تحمل همّ المسلمين، أنت لم تهتم بشؤونهم.

أنا متى أقول زهد ؟ أقول: الزهد لدنيا تحول بيني وبين طاعتي، لدنيا تصرفني عن هدفي الكبير، لدنيا تدفعني إلى معصية، أحياناً الغنى يطغي، أحياناً القوة تدعو إلى السيطرة، والظلم، الدنيا التي تحول بينك وبين طاعة الله، وبينك وبين العمل الصالح هذه المذمومة، وهذه المعنية بكل الآيات والأحاديث، أما الدنيا فهي الحيادية.

يستشيرني أخ، أقول له: اذهب إلى بلاد بعيدة، وائتِ بشهادة بورد، واخدم بها أمة المسلمين، حينما يأتي طبيب معه أعلى شهادة من بلاد الغرب تكون أمريكا فقد انتقلت إلى بلادنا.

أن تقول: أنا لا علاقة لي، أو أن تجعل الدنيا حجاباً بينك وبين الله، فهذا هو الموضوع الذي ينبغي أن نفهمه من الزهد، أما أن تكون إنسانا كبيرا، تحمل همّ الأمة، تحل بعض مشكلاتها فهذا هو الزهد الصحيح.
بعض الإخوة عندهم معامل، ما حاولت أن أهيئ عملا لأخ إلا قبلوه، حل مئات المشاكل، هيأ فرص عمل كبيرة جداً، وهو منضبط، ويدفع زكاة ماله بالتمام والكمال، وهو في خدمة الأمة.

فلذلك أيها الإخوة، أنا أخاطب الشباب، أنا أريد شابا طموحا لبناء أمته، طموحًا لرفعة أمته، طموحا لتستعيد الأمة دورها القيادي.

أما الحديث عن الزهد بمعنى:

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة الأعلى)

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ)

(سورة النحل الآية: ٩٦)

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

لذلك:

((طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشه كفافا، وقنع به))

[أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك عن فضالة بن عبيد]

حقيقة الفقر وأقسامه:

١ ـ فقر القدَر:

إخواننا الكرام، أما الفقر فهناك فقر القدر، إنسان عنده عاهة، تحول بينه وبين العمل هذا فقير، هذا فقر القدر صاحبه معذور، وهناك فقر الإنفاق، وصاحبه محمود.

((يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ قال: الله ورسوله))

[أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عمر]

٢ ـ فقر الكسَل:

أما الفقر الذي هو وصمة عار فقر الكسل، كسول، لا يتقن عمله، إرجائي مسوّف، يهمل مواعيده، يهمل حساباته، يهمل إنجازاته، حتى صار فقيرا، فانصرف الناس عنه، وفقرُ الكسل صاحبه مذموم.

حقيقة الغنى وأقسامه:

١ ـ الغنى المطغي:

الآن يقابل الفقر الغني المطغي، والغنى الذي يكفي، الكفاية يقابل الغني المطغي.

هناك قصة قبل أشهر لإنسان دخله متوسط، له زوجة مؤمنة محجبة، صالحة، دينة، ذهب إلى بلد غني، وحقق ثروة كبيرة جداً، استشارتني على الهاتف، قال لها: تعالي إلي بالبنطال، والبطن المكشوف، وإلا لا أقبلك، صار غنيا، يريد امرأة عصرية متفلتة.

هناك غنى مطغ، نعوذ بالله من الغنى المطغي.

١ ـ غنى الكفاف:

وهناك غنى يكفي، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم من أحبني اجعل رزقه كفافا))

أيْ عنده ما يكفيه، وليس عنده ما يطغيه

لذلك أيها الإخوة، أنا أخاطب الشباب، أنا أريد شابا طموحا، طموحًا لرفعة أمته، طموحا ليقدم لها شيئاً، إما من علمه، أو من ماله، أو من مركزه القوي.

مرة ثانية: المركز القوي بجرة قلم تحق حقاً، وتبطل باطلاً، تقر معروفاً، وتزيل منكراً، تقرب ناصحاً مخلصاً، وتبعد فاجراً منافقاً، بتوقيع، فاسعَ لعلم، أو لمال تحل به مشكلات الأمة نحن نرى أحياناً معهدا شرعيا تقدَّم الأرض هبة من إنسان محسن، ثمنها بالملايين، هذا قدم الأرض، وهذا قدم البناء، وهذا قد الأثاث، وهذا قدم الغذاء، في الملمات، وفي الأزمات، الأغنياء المؤمنون عليهم المعول، الذين بإمكانهم أن يحلوا مشكلات الأمة.

الدنيا الحيادية مقبولة :

فلذلك أيها الإخوة، الدنيا الحيادية مقبولة:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

والدنيا الإيجابية هي التي تعينك على العمل الصالح مطلوبة، وينبغي أن تسلك طريقها، أما الدنيا التي تحجبك عن العمل الصالح، وعن الطاعة، وعن أداء الواجبات فهذه هي المذمومة، وهذه المعنية بكل أحاديث الزهد.

صلاح الأمة بالزهد واليقين:

لذلك صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل.

((مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدّنْيَا هَمّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدّنْيَا إلاّ مَا قُدّرَ لَهُ))

[رواه وكيع عن الربيع بن صبيح عن يزيد بن أبان، عن أنس]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٨-٦٠) : علو الهمة مع الجماعة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة .

ثلاثة موضوعات في ثلاث أيات:

موضوعات ثلاث ترتكز على آيات ثلاث:

الموضوع الأول: جهود الكفار في تغيير القرآن:

الموضوع الأول: يريد الله عز وجل أن يبين لنا أن الطرف الآخر الكفار، الذين لم يؤمنوا بالله آمنوا بالدنيا، آمنوا بالمصالح لا بالقيم، ما ملخّص خططهم من آدم إلى يوم القيامة ؟ آية واحدة جامعة مانعة فيها وصف لكل ما يخطط له أعداء الدين من قديم الزمان، إلى نهاية الدوران.

دليل الموضوع الأول:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

(سورة الإسراء الآية: ٧٣)

كل الجهود التي يبذلها أعداء الإسلام لتغيير هذا الإسلام، تغيير هذا القرآن ، يريدون إسلاماً كإطار، كتقاليد، كعادات، كأحكام فقهية، أما كمنهج كامل يقوم على أسس معينة فهذا مرفوض، لذلك:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَه)

يأس الكفار من إلغاء الإسلام:

لا شك أن أعداء الإسلام يئسوا من إلغاء الدين، الدين أقوى من أي شيء في الأرض، بل إن الدين كلما حاولت أن تطفئ نوره ازداد اشتعالاً، كلما حاولت أن تقضي عليه كمن يحاول أن يطفئ النار بالزيت.

إذاً: وصل هؤلاء إلى قناعة أنه لا سبيل إلى إلغاء الدين، الخطة أخذت شكلاً آخر.

طرق الكفار لتغيير الإسلام:

١ ـ محاولة إلغاء السُّنة:

يمكن أن نلغي السنة، وهناك ما يسمى بالقرآنيين، إلغاء السنة، مع أن السنة مكملة للكتاب، مع أن القرآن الكريم يأمرنا أن نأخذ ما آتانا النبي الكريم:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: ٧)

إذاً: أول محاولة:

(لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

إلغاء السنة.

٢ ـ محاولة تأويل القرآن وتحريفه:

المحاولة الثانية: تأويل القرآن تأويلاً ما أنزل الله به من سلطان، تأويلاً يخالف مفهم السلف الصالح، تأويلاً يخالف ما فهمه الأصحاب الكرام، والتابعون، وتابعو التابعين في القرون الثلاثة الأولى.

٣ ـ فتاوى لتحليل الحرام:

الاتجاه الثالث: إصدار فتاوى تحل الحرام مهما يكن كبيراً، ولو كان الحرام أكل الربا، عن طريق إلغاء السنة، ثم التأويل، ثم الفتاوى.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

النتيجة المرتقبة لتغيير الإسلام: الصلح وتطبيع العلاقات والصداقة:

وإذا فعلت هذا:

(وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

عندئذٍ يكون الصلح ، وتطبيع العلاقات، لمجرد أن توافق

(لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

جهد الطرف الآخر إلى يوم القيامة تغيير أحكام الدين، من أحكام، واضحة، قطعية من الكتاب والسنة إلى أحكام ضبابية، مرنة، ليست ذات معالم واضحة، تغطي كل انحراف.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)
(وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)
(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

فلذلك ينبغي ألا نثني إلا على إنسان كلامه مؤصَّل، مؤيَّد بالكتاب والسنة، أما إذا جاء بكلام جديد، مخالف للكتاب والسنة فسيكون هذا الإنسان أحد أطراف المؤامرة على هذا الدين.

لذلك كل يوم يطلع علينا إنسان يقول: هذا حلال، وليس حراماً، مع أن حرمته واضحة، مع أن الأمة أجمعت على تحريمه.

لذلك هذا الذي يثير حوله شغباً، وثورة، وانتقاداً، وجدلاً هو واعٍ لما يفعل، فهي صفقة قُبض ثمنها، لذلك يحاول أن يدلي برأي بتحليل الحرام:

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)
(إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً)

(سورة الإسراء)

إذاً محاولات أعداء الدين منذ نشأت الخليقة إلى الآن حول شيء واحد، هو تغيير منهج الله، يقبلون الإطار، يقبلون التقاليد الإسلامية، والعادات الإسلامية، ولكن لا يقبلون المنهج الإسلامي.

الموضوع الثاني: وجوب اكتشاف الثابتة من القرآن والسنة:

الموضوع الثاني أيها الإخوة، هو: أنه ينبغي أن تكتشف في القرآن السنن الثابتة القوانين، التي لا تتبدل ولا تتغير.

دليل الموضوع الثاني:

دليلها:

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

(سورة الكهف الآية: ٢٧)

كلمات الله في هذه الآية تعني السنن، القوانين التي جاءت في هذا القرآن، إذاً: ينبغي لكل واحد منا وهو يتلو كتاب الله أن يكتشف هذه القوانين.

أمثلة عن القوانين القرآنية الثابتة:

١ ـ قانون التيسير:

مثلاً قانون التيسير:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

٢ ـ قانون العداوة والبغضاء:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية: ١٤)

٣ ـ قانون العزة والكرامة:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ)

(سورة يونس الآية: ٢٦)

حينما تطبق منهج الله ترفع رأسك، هذا قانون، يجب أن نبحث عن هذه القوانين، عن كلمات الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

التقيد بالقوانين الإلهية من علو الهمة:

مِن أين علو همتك تأتي ؟ من تقيدك بهذه القوانين، الله عز وجل لن يغيّر، ولن يبدّل، فإما أن تبدّل أنت، وإما أن تغيّر، وإما أن تخضع لهذه القوانين، وإلا فأنت هالك.

أنت مظلي، وفي الطائرة قانون اسمه قانون السقوط، تتلافى الهلاك باستخدام المظلة، لو أنك رفضت هذا القانون، ولم تعبأ به، وقلت: هذا تخريف، ما الذي يحصل ؟ هل تستطيع بإنكارك لهذا القانون أن تعطله ؟ لا، هو نافذ فيك، بدليل أنك إذا غامرت، ونزلت من الطائرة، لأنك لا تعتقد بصحة هذا القانون، نزلت من دون مظلة، نزلت ميتاً.

إنّ إنكارك للقوانين والسنن لا يلغي فعلها فيك، إذاً هذه الآية:

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

الموضوع الثالث: من أين يأتي علو الهمة:

لكن أيها الإخوة، أقرب آية إلى درسنا، أو إلى سلسلة هذه الدروس من أين تأتي بعلو الهمة ؟ من أين ؟

دليل الموضوع الثالث:

قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

علو الهمة منبعة المجتمع الإيماني:

ما لم يكن هناك بيئة إيمانية، ما لم يكن هناك مجتمع إيماني، ما لم تكن هناك علاقات إيمانية، ما لم يكن لك أصدقاء مؤمنون، ما لم يكن لك مسجد تأوي إليه فلن تستطيع أن تصمد أمام الفتن، لذلك:

((الجماعة رحمة، والفرقة عذاب))

[أخرجه القضاعي عن النعمان بن بشير]

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد))

[أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن عمر]

((فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[رواه أبو داوود عن أبي الدرداء]

لذلك أنت مع أخيك تقوى على طاعة الله، ومن دون أخيك تضعف أمام إغراءات الشهوات، الدنيا خضرة نضرة، والشهوات فيها مستعرة، والفتن يقظة، والنساء كاسيات عاريات، وكل شيء في هذا العصر يدعوك إلى المعصية، إذاً: لا تستطيع أن تطيع الله إلا بجو إيماني، من هنا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

علو الهمة منبعة المجتمع الإيماني:

حاجة المسلم اليوم إلى جماعة المؤمنين ضرورة شرعية:

إذاً: أنت في أمسّ الحاجة إلى أن يكون لك جماعة تنضم إليها، تفرح بوجودك فيها، ترتاح لها، تؤنسك من وحشتك، تجعلك ناسياً لغربتك في هذا العصر.

إذا كان الناس بحاجة إلى جماعة قبل خمسين عاما، فهم الآن بحاجة إلى جماعة أكثر من مئة ضعف، لكثرة الفتن، ولكثرة الصوارف، ولكثرة العقبات.

إذاً: انضم إلى جماعة تعتقد نظافتها، وتعتقد صواب أفكارها، تعاون، كن عنصراً في فريق عمل.

((الجماعة رحمة))

مرة دعاني أخ كريم إلى رياضة يومية، لكن مع مجموعة، فألفتها، وداومت عليها أشهراً طويلة، فلما أردت أن أقوم بهذا العمل وحدي لم أتابع إلا يومين فقط، هناك حكمة بالغة للعمل الجماعي، أنت مع المجموع قوي، مع المجموع متماسك، مع المجموع همتك عالية، دروسنا علو الهمة، تأتي علو الهمة من الجماعة، في تنافس.

مرة كان هناك تبرع لميتم من مياتم دمشق، طبعاً من عادة إدارة الميتم أن تدعو أهل اليسار في هذه البلدة، الأغنياء المحسنين، ففي سنوات طويلة التبرعات كانت تجبى عن طريق الإعلان، فلان دفع مئة ألف، له شريك، قال: وأنا مئة، فلان دفع خمسين، قريب له قال: أنا مئة أدفع، كان هناك تنافس شريف، وتنافس طيب، و تنافس محمود، كان يُجمع رقم كبير جداً، هو مصروف الميتم طوال السنة.

مرة جاء توجيه من مسؤول عن التبرعات، قال: اجعلوا التبرع سريًّا، وزعوا أوراقًا، وليكتب كل واحد كم يتبرع، جمعت الأوراق، أحصيت المبالغ، عُشر المبالغ السابقة بالضبط، لماذا ؟ لأنه ألغي العمل الجماعي، والحماس، فإذا كنت مع إخوانك كان هناك حماس، وتنافس، والله عز وجل قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

إذاً: تأتي علو همتك في الدين في أنك محاط بجو إيماني، شاب معه شاب آخر يحافظ على صلاته، شاب معه شاب آخر يغض بصره، شاب معه شاب آخر يتحرى الحلال، أما إذا عشت مع الشاردين، مع التائهين، أول أيام اللقاء لا تحتمل معاصيهم، بعد حين تألفها، بعد حين تستمتع بها،

بعد حين تصر عليها، بعد حين تصبح من عاداتك دون أن تشعر، فالمعاصي تتسلل إليك تسللاً إذا كنت مع غير المؤمنين.

لذلك اجعل شعارك:

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أبو داود، الترمذي عن أبي سعيد]

الآية الأولى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

والآية الثانية:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ)

اصبر، معنى ذلك يمكن أنه تكون مع الشاردين في مكان مريح، أنت هنا في المسجد تجلس على ركبتيك، وعلى الأرض، من غير مقعد مريح، قال له:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

الآن:

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)

لماذا ؟

(تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أماكن جميلة، نساء، اختلاط، طعام طيب، مزاح، ضحك.

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الآن:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(سورة الكهف الآية: ٢٨)

معنى أغفلنا قلبه ؛ وجدناه غافلاً،

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

وجدنا قلبه غافلاً، هو له توجيهات، إياك أن تطيعه، إياك أن تستهدي بتوجيهات الشاردين ، إياك أن تستهدي بتوجيهات من انغمسوا في الشهوات، إياك أن تستهدي بتوجيهات من أظلمت قلوبهم.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

أمره مضطرب.

هذه الآية إخواننا الكرام أصل في علو الهمة، من أجل أن تعلو همتك طبق هذه الآية مع أنها للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن يؤخذ منها أن تكون للمؤمنين :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

دعوة إلهية إلى الصبر مع مجموع المؤمنين:

بالمناسبة أيها الإخوة، من أجل أن تصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي لا بد من أن تأتي إلى المسجد، ماذا في المسجد ؟ قال:

((إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمّارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

بشكل مادي، لا يمكن أن تدخل بيتًا إلا أن يقدم لك ضيافة، مهما تكن متواضعاً، خالق السماوات والأرض أنت في بيته أين ضيافته ؟ إنها سكينة يلقيها على قلبك، وحكمة يمنحك إياها، ورضا تنعم به، وعلاقات أسرية ناجحة، لك هيبة في البيت، أنت قد لا تحصي الخيرات التي قد تأتيك من إكرام الله لك، زوجة صالحة هي نصف الدنيا:

انظري أين أنت منه فإنما هو جنتك ونار

****

هناك زوجات عبء على الأزواج، حينما تكرم من قِبل الله تكرم بزوجة صالحة، تكرم بأولاد أبرار، تكرم بحكمة، تكرم بأمن، تكرم بسكينة، تكرم برضا فأنت من أسعدِ الناس.

((إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره))

إذاً: هذه الآية أصل في علو الهمة، حينما تحاط بجو إيماني تنطلق إلى الله عز وجل، تماماً كما لو جلست مع تجار كبار، هذا ربح صفقة بثلاثة ملايين، هذا خمسة ملايين، وأنت تشتهي أن تكون واحدا منهم.

لو جلست مع أناس غارقين في الشهوات، وحدثوك عن مغامراتهم، بعد أمد تشتهي أن تكون منهم، لذلك الصاحب ساحب.

إن أردت علو الهمة فعليك بمجموع المؤمنين:

فهذا الدرس يؤكد أنك إذا أدت أن تكون عالي الهمة عليك بأن تكون مع المؤمنين وأن ترتاد بيوت الله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى يرحمنا، وقد قال عليه الصلاة والسلام كان إذا دخل المسجد قال:

((اللهم افتح لي أبواب رحمتك))

[أخرجه أبو داود عن أبي حميد، أو أبي أسيد ابن ماجة عن أبي حميد]

أنت في بيت الله تُرحم، أما إذا خرجت من المسجد كان النبي الكريم يقول:

((اللهم افتح لي أبواب فضلك))

[أخرجه أحمد وابن ماجة والطبراني عن فاطمة الزهراء]

يعني فضله في عملك، وفي بيتك، ورحمته في المسجد.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٢٩-٦٠) : الحديث الذي دار بين سيدنا موسى وبين رب العزة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

وقفات وحقائق من كلام الله لسيدنا موسى:

نقف وقفة متأنية عند هذا الكلام الذي جرى بين سيدنا موسى ورب العزة.

الحقيقة الأولى: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو:

أيها الإخوة، الحقيقة الأولى: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو كيف ؟

سيدنا موسى قال:

(إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

(سورة طه)

هو ذهب إلى النار ليأتي منها بقبس، فكان تكليم الله له، فكن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو. ما منا واحد، ولا أستثني أحداً إلا وله قصة في معرفته لله، أو توبته، أو صلحه مع الله، أو إقباله على الله، و قد يكون لقاء عابراً مع إنسان، وقد تكون حادثة، وقد يكون دعاء، ولا يوجد إنسان إلا بسبب عابر أو طارئ أو استثنائي كان هذا الحادث سبب هدايته لله عز وجل.

الحقيقة الثانية: ما هي حقيقة (اخْلَعْ نَعْلَيْكَ) ؟

الشيء الثاني أن هذا النبي الكريم حينما كلمه الله قال:

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

[سورة طه]

بعض العلماء أشار إلى النعلين إلى حظوظ الإنسان في الدنيا، فمن أراد الآخرة يجب أن يتخلى عن حظوظه من الدنيا، الدنيا تأتي، وهي راغمة، ولكن لا ينبغي أن تكون الدنيا هدفاً، الهدف هو الله، إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، وقد تأتي الدنيا، أما أن تكون هي الهدف وعليها المعول، وإليها تنتهي الآمال، هي محط الرحال، فالطريق عندئذ إلى الله ليس سالكاً:

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)

[سورة طه]

ما من اسم من أسماء الله الحسنى أقرب إلى الإنسان من كلمة رب، إني أنا ربك خلقتك، أمددتك بكل حاجاتك، ربيت نفسك:

(فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

[سورة طه]

الحقيقة الثالثة: ما هي حقيقة (إِنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ) ؟

بصراحة قد يكون الإنسان في واد غير مقدس، في وادي الشهوات، في وادي النساء، في وادي المال، في وادي العلو في الأرض، في وادي الخصومات.

والله أيها الإخوة الكرام، واللهِ لا أبالغ إن قلت: معظم الناس غارقون في خصومات، ومناحرات، وهمز ولمز، وبالمحاكم، كثيرون هم الذين في بيوتهم شرسون، يرفعون أصواتهم، يكيلون الصاع صاعين لزوجاتهم، يتراشقون السباب، حياتهم قطعة من الجحيم:

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ)

[سورة طه: ١٢]

في أي وادٍ أنت ؟ هل أنت في وادي معرفة الله ؟ هل أنت في وادي العمل الصالح ؟ هل أنت في وادي أنك تحمل هم المسلمين ؟ إن كنت في واد مقدس كفاك الله حاجاتك، هم في مساجدهم، واللهُ في حوائجهم، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تشغل بذكره وينساك، بل مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين، تنشغل بذكر الله، تحمل همّ الناس، تحب أن تخفف عنهم، تحب أن تعرفهم بربهم، تجهد في تبسيط الأمور، توضيح الحقائق، تأخذ بيدهم، تتفقد أحوالهم، تسعى لهدايتهم، يؤلمك ما يؤلمهم، وينساك الله من فضله ؟ كن في الوادي المقدس، قل لي ماذا يهمك أقل لك من أنت ؟ قبل أن تنام بماذا تفكر ؟ بعد أن تستيقظ مباشرة ما الخواطر التي تأتي إليك ؟ أي هم تحمل ؟ هناك من يحمل همّ طعامه وشرابه، هناك من يحمل همّه الشخصي، هناك من يحمل همّ المسلمين، هل تعيش للناس ؟ في أي وادٍ أنت ؟

(إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ)

[سورة طه]

الحقيقة الرابعة: كونك مع أهل الحق عطاء كبير:

إذا سمح الله لشخص أن يلتقي مع أهل الحق، سمح له أن يكون من رواد مسجد، سمح له أن يكون طليق اللسان في ذكر الله، سمح له أن يعمل عملاً صالحاً، سمح له أن يكون محسوباً على الله، هذا عطاء كبير:

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ)

[سورة طه: ١٣]

الحقيقة الخامسة: تكفل الله بطالب العلم:

وأنا أقول لكم أيها الإخوة الكرام: والله ما من واحد يطلب العلم إلا ويوظفه الله عنده بشكل أو بآخر، مستحيل أن تطلب العلم، ثم لا يستعملك الله عز وجل، عبدي لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)

[سورة طه]

دققوا:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

[سورة طه: ١٤]

الحقيقة السادسة: لا إله إلا الله الحق المبين:

صدقوا، وآمنوا، وتيقنوا أنه ليس هناك إلا الله، كل ما تقع أعينكم عليه من قوى البغي والعدوان هي بيد الله، كن فيكون، زل فيزول، ليس إلا الله، البطولة أن تتعامل مع الله، البطولة أن تكون مع الله، البطولة أن تجمع الهموم كلها بهم واحد، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)

[سورة طه: ١٤]

لا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، لا رازق ولا معطي إلا الله، أيقن أن يد الله وحدها تعمل، أيقن أن الله في الأرض وفي السماء، لا إله إلا أنا طمأنك:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: ١٤]

لأنه (لا إله إلا أنا) فينبغي أن تعبدني، ينبغي أن تنقطع آمالك من غيري، ينبغي ألا تعلق أملاً على غيري، ينبغي ألا تخاف إلا مني، ينبغي ألا تخاف من غيري:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي)

[سورة طه: ١٤]

الحقيقة السابعة: الصلاة أعظم العبادات:

أعظم شيء في العبادة:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: ١٤]

فاعبدني في الأمر والنهي، أما العبادة الأولى التي لا تسقط بحال ففيها معنى الصيام، وفيها معنى الحج، وفيها معنى الزكاة، وفيها النطق بالشهادة هي الصلاة:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه: ١٤]

الآن:

(إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

[سورة طه: ١٥]

الحقيقة الثامنة: الساعة وعد صادق:

على الشبكية ماذا ترون ؟ ترون بيوتاً جميلة جداً، في بعض الأحياء الراقية بيوت جميلة، مركبات فارهة، نساء جميلات، دخل كبير، مطاعم فخمة، الدنيا محسوسة، والآخرة خبر، خبر في المصحف، البطولة أن تصدق هذا الخبر، لذلك أولى صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، الدنيا بين أيدي الناس، الدنيا محسوسة، تحت سمعهم وبصرهم، الدنيا قريبة منهم، تأكل فتتلذذ بالطعام، لكن الآخرة وعد صادق، فالذي آتاه الله عقلاً راجحاً، والذي وفق بسلامته وسعادته لا يتعلق بالمحسوسات، يتعلق بالذي أخبر الله عنه:

(إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ)

[سورة طه: ١٥]

لذلك قال تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: ١]

أي لم يأت بعدُ، لكن معنى أتى أي مجيئه محقق:

(إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)

[سورة طه: ١٥]

هي خبر.

الحقيقة التاسعة: الجزاء حقٌّ:

أما الدنيا فمحسوسة:

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: ١٥]

أي لو أن الإنسان أطاع الله عز وجل فكافأه الله من فوره، ولو أن الإنسان عصى الله فعاقبه الله من فوره لانتهى التكليف، وألغي حمل الأمانة، و ألغي الاختيار، وألغي الثواب، وألغي العقاب، لأن الناس سيقبلون على الطاعة من أجل ثمرتها العاجلة، ويبتعدون عن المعصية من أجل عقابها العاجل، ولكن شاءت حكمة الله أن الثواب والعقاب يتأخران كي تتحقق من اختيارك:

(إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: ١٥]

الآن الذين يصدون عن سبيل الله هم الأكثرون، العالم كله يصد عن سبيل الله، العالم كله يحارب المسلمين، العالم كله يطرح الفتن بين أيدي الناس، العالم كله يصرف الناس عن الإيمان بالله:

(إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى* فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

[سورة طه]

الحقيقة العاشرة: التلازم الحتمي بين الكفر بالآخرة واتباع الهوى:

لمجرد أنك لا تؤمن بالآخرة تتبع الهوى، تلازم حتمي بين اتباع الهوى و بين عدم الإيمان باليوم الآخر:

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا)

[سورة طه]

الباطل مزخرف، الباطل محبب إلى النفس، الباطل يعتمد على الشهوات، قال لي أحدهم: مئة محاضرة يلغيها مسلسل، هذه تصد عن سبيل الله، هذه تحبب بالدنيا، هذه تجعل الشهوة إلهاً يعبد من دون الله:

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

[سورة طه]

الآن دقق إلى هذا الكلام بين مخلوق هو سيدنا موسى وخالق السماوات والأرض:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

[سورة طه]

تلطف اللهفي كلامه مع موسى:

هل يصدق على الذات الإلهية أن يسأل ؟ سيدنا موسى أراد أن يطيل الحوار قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا)

[سورة طه: ١٨]

يخاطب من ؟ يخاطب رب العزة:

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

[سورة طه: ١٨]

استحيا من هذه التفصيلات فقال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

[سورة طه: ١٨]

إذا كان الله يسمح لي أن أحدثه عن هذه المآرب يقول: يا موسى، ما هذه المآرب ؟ انظر الأدب والسعادة في خطاب السماوات والأرض:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

[سورة طه]

معجزات موسى:

١ – انقلاب العصا إلى حية تسعى:

الله عز وجل أراد من هذا السؤال أن يا موسى تأكد هذا الذي بيدك ما هو ؟ هي عصاه، لأنها بعد قليل سوف تصبح حية تسعى، أراد الله أن يؤكد له تثبيت أن هذه عصاه، وبعد حين تكون حية تسعى:

(فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ)

[سورة طه]

الإنسان يخاف:

١ – خروج اليد بيضاء بعد إدخالها في الجيب:

(سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ)

[سورة طه]

ضعها تحت إبطك:

(تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)

[سورة طه: ٢٢]

يده كالمصباح:

(لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه]

فوائد دعوية مستنبطة من قصة موسى مع فرعون:

الفائدة الأولى: تلطّف الداعي مع المدعو ولو كان فرعون:

هذا الطاغية الجبار الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات]

الذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: ٣٨]

إذا كان فرعون الطاغية الجبار المتأله الذي قتل أبناء بني إسرائيل يقول الله لنبي كريم:

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي)

[سورة طه]

الفائدة الثانية: العبرة بالعلم والإخلاص لا بالفصاحة والإعراب:

من هو الأفصح ؟ هارون أم موسى، هارون أفصح، سيدنا موسى معه حبسة، من هو النبي ؟ سيدنا موسى، هذا ملمح خطير العبرة لا بالفصاحة ولا بالخطابة، العبرة بالعقل والوعي والإدراك والإخلاص، إذاً: الفصيح هو سيدنا هارون، لكن الرسول سيدنا موسى:

(وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً* وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً* إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً)

[سورة طه]

لذلك برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله:

الفائدة الثالثة: إياكم ومعاندة أمر الله فإن فرعون ربى موسى في قصره !!!

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى *وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى *إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ)

[سورة طه]

تروي بعض الروايات أن فرعون رأى رؤيا، أن طفلاً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه، بدل أن يتوب قال: سأقتل جميع أبناء بني إسرائيل، عظمة الله أن الطفل الذي سيقضي عليه رباه في قصره، إياك أن تعاند الله، إياك أن تتألى على الله، إياك أن تتجبر، لحكمة بالغة هو أراد أن يقضي على كل أبناء بني إسرائيل، لكن الطفل الذي سيقضي عليه رباه في قصره:

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه: ٣٩]

الفائدة الرابعة: إلقاء الله محبة الداعي في قلوب الناس:

الآن لو أنك محبوب، لو أن هناك أناس يحبونك، يجلونك، تأكد أنها محبة الله ألقاها في قلوب العباد:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

[سورة طه]

الآن هناك كلمتان أتمنى أن تحسوا معي عظمتهما:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه]

الفائدة الخامسة: خدمة الناس شرفٌ كبير:

شرف كبير أن تكون في خدمة عباد الله ؟ أي شرف تناله إذا اختارك الله لنفسه:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[سورة طه]

الآن كل شاب يمكن أن يبذل طاقاته في سبيل الله، أن يمشي في هذا الطريق، أن تجمع طاقاتك، إمكاناتك، أن تبذلها في سبيل الله هذا مقام كبير:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

[سورة طه]

دققوا الآن:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه]

الفائدة السادسة: هذه رحمة الله بالعاصي فكيف رحمته بالمطيع ؟!!!

إنسان ناجى ربه فقال: يا رب، إذا كانت رحمتك بمن قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى ؟ إذا كانت رحمتك بمن قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله:

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

[سورة طه]

الآن المسلمون يخافون أن يفرط عليهم وحيد القرن، أو أن يطغى:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه]

آيات دقيقة جداً، إنني معكما، الله موجود، الله معنا، أقم علاقة طيبة معه، أقم صلة معه، ولا تخف أحداً:

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

[سورة طه]

الفائدة السابعة: من صفات الصالحين: مناجاة رب العالمين:

أيها الإخوة الكرام، هذه القصص لنا، إذا أتيح لك أن تتصل بالله، أتيح لك لا أقول: أن تكلمه، هذه لسيده موسى، أتيح لك أن تناجيه، أن تدعوه، إن أردت أن يكلمك الله عز وجل فاقرأ القرآن، وإن أردت أن تكلم الله عز وجل فادعه، إنك إن دعوته تكلمه، وإنك إن تلوت كلامه يكلمك.

لذلك أيها الإخوة الكرام، أن تناجي ربك، أن تبتهل إليه، أن تعتذر إليه، أن تسأله المغفرة، أن تسأله أن يقيل عثرتك أن يغفر زلتك، أن يعطيك من خير الدنيا الآخرة، هذا جوهر هذا الدين.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٠-٦٠) : خير دينكم الورع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة:

الورع:

١ – بين الورع والمخلِّط:

والموضوع اليوم الورع.

((وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال]

٢ – مَن هو المخلِّط:

والمخلط هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهذا حال معظم المسلمين، المسلمون بمجموعهم قلما يرتكبون جريمة قتل أو جريمة الزنا، أو جريمة شرب الخمر، أو ما شاكل ذلك، لكن معظم المسلمين وقعوا في الشبهات خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

٢ – حجاب الشبهات وحجاب المعصية:

إن الشبهات تحجب عن الله، والحجاب عن الله بفعل الشبهة يساوي الحجاب عن الله بفعل الكبيرة، لأن المؤدى انقطاع عن الله عز وجل، لكن الذي ينقطع عن الله لأسباب صغيرة يندم أشد الندم، إنه لم يرتكب جريمة حتى يحجب عن الله، ارتكب شبهات هي صغائر في ظنه، فلما أصر عليها انقلبت إلى كبائر، بمعنى أنك إذا كنت على طريق عريض، وعن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، لو حرفت المقود سنتمترا واحدا، وثبت هذا الانحراف كان المصير في الوادي، إنما الكبيرة أن تحرفه تسعين درجة فجأة، الصغيرة أن تحرفه سنتمتراً، وأن تثبت هذا الانحراف، فمصير الصغيرة التي أصررت عليها كمصير الكبيرة.

لذلك أيها الإخوة، الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

هناك صغائر، ومخالفات، و تقصير، وحجاب، السبب أن التقصير والمخالفات والصغائر أدت إلى حجاب، و والكبائر تؤدي إلى حجاب، المحصلة أن العبد محجوب عن الله عز وجل.

أحاديث نبوية عن الورع:

الحديث الأول:

أيها الإخوة الكرام، الحديث عن الورع حديث طويل، من أقوال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كن ورعاً تكن أعبد الناس))

[ابن ماجة بسند صحيح عن أنس]

وفي حديث آخر يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع))

[الطبراني في الأوسط عن حذيفة بإسناد صحيح]

الدين مستويات، أعلى هذه المستويات الورع، وقد جمع النبي عليه الصلاة والسلام الورع كله في كلمة واحدة فقال:

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[ابن ماجه عن أبي هريرة بسند صحيح]

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

((إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة))

[ذكر مثله المنذري في الترغيب والترهيب مرفوعا عن ابن عمر بلفظ: ((أفضل الدين الورع))]

والورع أفضل العبادة.

أقوال اللعلماء في الورع:

١ ـ قول إبراهيم بن أدهم:

وقال إبراهيم بن أدهم: " ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل في جوفه ".

أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، كيف يكون الطعام طيباً ؟ إذا اشتريته بمال حلال، وكيف يكون المال حلالاً ؟ إذا كسبته بطريقة مشروعة.

والله التقيت بإنسان توفي ـ رحمه الله ـ والد صديقي، زرته في العيد، قال لي بالحرف الواحد: والله أنا عمري ستة وتسعون عاماً، وقد أجريت تحليلات كاملة قبل أيام، الجواب كل النسب طبيعية، ثم قال: والله لا أعرف الحرام، لا حرام المال، ولا حرام النساء في حياتي.

٢ ـ قول التستري:

يقول بعض العلماء التستري: " ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام ".

٣ ـ قول الحسن البصري:

والإمام الحسن يقول: " يؤتي الحكمة من يشاء "، أي الورع.

رأس الحكمة أن تكون ورعاً.

٤ ـ قول آخر لبعض العلماء:

وسئل أحد العلماء: " ما تقول في الورع ؟ قال: رأس الأمر كله ".

نقل عن السيد المسيح ما معناه: " لو صليتم حتى تصيروا مثل الحنايا، وصمتم حتى تكونوا أمثال الأوتاد " وجرى من أعينكم الدموع أمثال الأنهار، ما أدركتم ما عند الله إلا بالورع ".

٥ – قول آخر :

وقال بعض العلماء، وقد سأله أحدهم، قال له: " عظني، فأخذ حصاة من الأرض، فقال: زنة هذه من الورع يدخل قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض، قال: زدني، قال: كما تحب أن يكون الله لك غداً كن له اليوم ".

مستويا الورع:

أيها الإخوة الكرام، حديث الورع حديث طويل، ولكن الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ صنف الورع في أربعة مستويات.

المستوى الأول: ورع العدول:

تعرفون أيها الإخوة أن الإنسان المؤمن يتصف بصفتين، الضبط والعدالة، الضبط أن يكون واعياً، قدراته العقلية جيدة، لذلك لا يقبل حديث شريف من إنسان لا يتمتع بالضبط، قد يزيد كلمة، أو قد ينقص كلمة، أما العدالة فهي الاستقامة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

[مسند الشهاب عن علي بسند فيه مقال]

قالوا: فإن عاملهم فظلمهم، أو حدثهم فكذبهم، أو ائتمنوه فخانهم سقطت عدالته، سقطت ـ بالتعبير المعاصر ـ حقوقه المدنية، لا تقبل له شهادة.

العدالة بين السقوط والجرح:

لكن العلماء أدرجوا حالات كثيرة لا تسقِط العدالة، لكنها تجرحها، تماماً كما لو عندك آنية زجاجية، إما أن تحطمها بمطرقة، أو أن تشعر.

ما يسقِط العدالة:

عندنا سقوط عدالة بالكذب، والظلم، والخيانة .

ما يجرح العدالة:

وعندنا جرح عدالة.

ـ مما يجرح العدالة أكل لقمة من حرام، أنت لا تنوي أن تشتري هذه الفاكهة، لكنك أكلت قطعة منها موهماً البائع أنك تتذوقها، وفي نيتك ألا تشتري، بل أكلت لقمة واحدة، لقمة واحدة من حرام تجرح العدالة.

ـ تطفيف بتمرة، ألقيت الحاجة في الكفة بقوة، فرجحت، فأمسكتها، وقدمتها للشاري، الميزان لم يستقر، رجحت الكفة بفعل قوة الاندفاع، طففت بتمرة تجرح عدالتك.

ـ من أكل في الطريق.

ـ من بال في الطريق.؟

ـ من مشى حافياً.

ـ من علا صوته في البيت.

ـ من تنزه في الطرقات، لأن في الطرقات كاسيات عاريات.

ـ من كان حديثه عن النساء وعن أشكال النساء وعن خصائص النساء.

ـ من أطلق لفرسه العنان، أسرع في مركبته السرعة الزائدة تجرح العدالة.

ـ من قاد برذوناً، أي ربى حيواناً مخيفاً يمشي في الطريق مع هذا الحيوان يخيف الأولاد، أو اقتنى كلباً كبيراً، وبيته أرضي على مدخل البناء وفيه أطفال، مثل هذا الإنسان تجرح عدالته، لذلك عدّ العلماء أكثر من ثلاثة وثلاثين صنفاً تسبب جرح العدالة.

فورع العدول يعني أن كل مؤمن يجب أن يتصف بالعدالة والضبط، الضبط إدراك والعدالة نزاهة، وكل مؤمن ينبغي أن يكون عدلاً وضابطاً، ومن أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه. ورع العدول هو الورع الذي يجب الفسق باقتحامه، هناك فتوى لو لم تعبأ بها لكنت فاسقاً، هذه أدنى مستوياتها، دفعت ثمن البضاعة، وردّ لك البائع التتمة، فإذا هي تزيد على ما تستحق، لكنك تابعت المسير، طبعاً حرام أن تبقي هذا المبلغ في جيبك، هذا ورع أدنى أنواع الورع، لأنك لو لم تفعل ذلك لاقتحمت باب الفسق، وهذا الذي صعد المركبة في بريطانيا، وأعطى السائق ورقة نقدية كبيرة، ورد له التتمة عدها، فإذا هي تزيد عشرين بنساً على ما يستحق، وهو إمام مسجد، قال: سأرد التتمة إليه، وجلس على أحد المقاعد، فجاءه خاطر، إنها شركة عملاقة، وإن دخلها فلكي، والمبلغ يسير، وأنا بحاجة إليه، فلا علي أن آخذه، لكن لما أراد أن ينزل دون أن يشعر مد يده، ونقد الشائق هذه الزيادة العشرين بنساً، ابتسم السائق، وقال له: ألست إمام هذا المسجد ؟ قال: بلى، قال: والله حدثت نفسي قبل يومين أن أزورك في المسجد لأتعبد الله عندك، ولكنني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي

إليك، وقع هذا الإمام مغشياً عليه، لأنه تصور عظم الجريمة التي كاد يرتكبها لو أبقى المبلغ في جيبه، الحد الأدنى الأدْنى من الورع أنك إن لم تكن بهذا المستوى من الورع فأنت فاسق، هذا اسمه ورع العدول، تسقط به العدالة، ويثبت اسم العصيان، ويتعرض للنار، وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء، هذا الحد الأدنى الذي ينبغي أن تتمتع به من الورع، يقابله الحرام، يعني تركت الحرام فقط، الواضح الجلي، كإنسان دخل إلى مطعم، وأكل، ولم يدفع الثمن، لو قال: نسيت فلا مانع، عُد وادفع الثمن، لم يعبأ دخل بأكل المال الحرام، هذا الورع الأول.

المستوى الثاني: ورع الصالحين:

الورع الثاني هو ورع الصالحين، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي يرخص في التناول بناء على الظاهر.

الإشارة حمراء، وتابع السير في الليل، فإذا بشرطي يكمن للمخالفين، ضبطه بمخالفة، أعطاه مبلغاً من المال كرشوة، يقول لك: هذه الرشوة بلوى عامة، لا، كان بإمكانك أن تتقيد، لكنك آثرت أن تتجاوز، فلما ضبطت دفعت رشوة لست مضطراً أن تدفعها، الفتوى عند الضرورة من أجل أن تتلافى ظلامة يمكن أن تدفع المال، لكن هذه ليست ظلامة، أنت بإمكانك أن تتلافى هذه المخالفة، هذا الورع ورع الصالحين، كان من الممكن أن تتلافى، وما تلافيت، وقعت في ظلامة، وقد تكون حجز مركبة، وقبيل العيد، وأنت بحاجة إليها، ولكنك خالفت، طبعاً هناك أمثلة كثيرة.

هناك حالات نادرة جداً، أن إنساناً أمين صندوق جمعية تعاونية معه مئة مليون، أين يضعها ؟ هناك فتوى بوضعها في البنك، لكن حينما تدفع المبلغ، وفي مكان آمن مئة بالمئة، فأنت معك فتوى، لكنك كان من الممكن ألا تحتاج إلى هذا الوضع، هذا ورع الصالحين.

المستوى الثالث: ورع المتقين:

أما ورع المتقين فما لا تحرمه الفتوى، ولا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أداءه إلى محرم. هناك جهاز مفيد جداً، وفيه ضرر كبير، وأنت واثق من نفسك أنك لا تستخدمه إلا في الوجهة الصحيحة، لكن يمكن أن يأتي ضيف أو أن يستخدم في غيبتك هذا الجهاز في جهة أخرى، مادام تحت السيطرة، وأنت تمسك به فما مِن مشكلة، لكن يمكن أن يتطرق احتمال أن يستخدم هذا الجهاز في وجهة لا ترضي الله، هذا الورع الثالث ورع المتقين، وهو ما لا تحرمه الفتوى، ولا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أداءه إلى محرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس، وهذا ورع المتقين.

التورع عن الطعام المشبوه:

أخذ الحسن رضي الله عنه تمرة من الصدقة، وكان صغيراً، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: كَخ كخ، ألقها، طفل غير مكلف، واشتهى تمرة، لكن النبي أدّبه بأدب الإسلام، هذا من مال الصدقة، ويروى أن النبي عليه الصلاة والسلام وجد تمرة على سريره، فقال: يا عائشة، لولا أني أخاف أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها.

قد يأتيه طبق من تمر الصدقة، وقعت منه هذه التمرة، فقال:

((لولا أني أخاف أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فهذا ورع المتقين.

التورع عن الزينة:

من ذلك: التورع عن الزينة، لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها، وإن كانت الزينة مباحة في نفسها.

هناك أشياء حلال مئة بالمئة، لكن فيها احتمال أن يتطرق إليها الحرام، فتركها ورع المتقين. من هذا الورع امتنع الإمام أبو حنيفة عن أن يستظل بظل بيت مرهون عنده.

بالمناسبة، الرهن ينبغي ألا ينتفع به، فإذا انتفع به اقترب من الربا، فأبو حنيفة النعمان ورعه دعاه إلى ألا يستظل بظل بيت مرتهن عنده.

ومرة ثانية أيها الإخوة،

((وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال]

ومرة ثالثة: من لم يكن له ورع يصدّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله.

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

والنص الآخر: ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام.

لأنك إذا كنت ورعاً كان الطريق إلى الله سالكا، والخط بينك وبينه سالكا، وهاتفك فيه رنة إذا كنت ورعا، وإذا لم يكن لك ورع فهو مقطوع الخط، مهما كان هاتفك غاليا، وله قيمة، مادمت بورع فالخط ساخن، وهناك اتصال مع الله عز وجل.

قليل من الورع خير من كثير من العبادة، لأن الورع موصول، والدين كله اتصال بالله عز وجل، وغير الورع محجوب، ولو أدى عبادات ظاهرة.

خلاصة الورع:

أهم شيء ورع المال، الورع كله يلخص بكلمة واحدة: يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، وأشد أنواع الورع في الدخل، حرر دخلك من الحرام، والمعاصي كلها تنصب في حقلين، معاصي كسب المال، ومعاصي النساء، فكل الورع في هاتين الحقلين، فكن عفيفاً، ولا تنظر إلى الحرام نظرة ريبة، وكن ورعاً في كسب المال، والله عز وجل يكافئ الورع مكافآت كبيرة جداً، وهو أساس الدين الورع.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣١-٦٠) : الصبر يحقق لك أهدافك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة ، والموضوع اليوم الصبر .

الصبر:

١ – طبيعة الحياة وضرورة الصبر:

لأن الإنسان في الدنيا، في دار مجاهدة، في دار ابتلاء، في دار عمل، في دار سعي، لا بد من أن يوطن نفسه على تحقيق مراده للصبر.

٢ – هذا هو محلّ الصبر وموقعه:

فالصبر من لوازم الطموحين، لذلك قيل: إن الله سبحانه وتعالى جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً لا يهزم، وحصناً لا يهدم، فهو والنصر أخوان شقيقان، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظفر محل الرأس من الجسد.

٣ – مَن لا صبر له لا نجاح له:

أنا أستعين على تحقيق أهدافي الكبيرة بالصبر، أية أمة لا تصبر لا تحقق شيئاً، وأي فرد لا يصبر لا يحقق شيئاً، أقرب مثل:

أن الذي يريد أن ينال مرتبة عالية في الدنيا لا بد من أن يدرس، والدراسة تحتاج إلى تفرغ، وإلى مكابدة، وإلى معاكسة الأهواء، والميول، وإلى لزوم الكتاب لساعات طويلة، لولا الصبر لما ارتقى إنسان إلى مرتبة في مجتمعه عالية.

٤ ـ معية الله الخاصة بالصابرين:

حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(سورة البقرة الآية: ١٥٣)

هذه معية خاصة، تعني أن الله مع الصابرين بالتوفيق، والتأييد، والمعونة والحفظ.

٥ ـ الصبر طريق من طرق الإمامة في الدين:

بل إن الإمامة أن تكون إماماً، يعني أن تكون بمرتبة عالية، لا بد من أن تصبر.

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

لا يمكن أن تصل إلى هدف في الدنيا أو في الآخرة من دون صبر، لكن هذا الصبر لا يستمر، الصبر مرحلة، أنت خلقت للجنة، ولكن ثمن الجنة تدفعه في الدنيا، وهو الصبر.

٦ ـ الصبر إيقاع الحركات والأعمال وفق منهج الله:

بأدق التعاريف: أنت حينما توقع حركتك في الدنيا وفق منهج الله تصبر، المرأة ؛ مسموح لك بالزواج، لكن مئات الأساليب في إقامة علاقة مع المرأة محرمة في الدين، إذاً: أنت تصبر، مسموح لك بالكسب المشروع، لكن هناك مئات وسائل للكسب غير المشروع، إذاً: أنت تصبر، دون أن تمتحن، أو قبل أن تمتحن، لأنك أوقعت حركتك في الحياة وفق منهج الله فأنت صابر.

لذلك يقول بعض العلماء: " إنما تنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين ".

ويقول عالم آخر: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً، لا تكون رأساً في أي موضوع إلا بالجد والصبر.

٧ ـ الصبر خيرٌ كلّه:

الله عز وجل يبين لنا أن الصبر خير كله.

(وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)

(سورة النحل)

٨ – حبُّ الله للصابرين:

ثم إن الله عز وجل أخبرنا أنه يحب الصابرين.

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

٩ – وصيةُ الله بالاستعانة بالصبر:

ثم إن الله سبحانه وتعالى أوصانا أن نستعين بالصبر.

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

(سورة البقرة)

١٠ – الصبر طريق من طرق الفوز بالجنة:

بل إن الفوز بالجنة، والجنة هي الهدف الأكبر لا تكون إلا بالصبر:

(إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

(سورة المؤمنون)

١١ – لن تكون من أولي العزم إلا بالصبر:

ولن تكون من أولي العزم إلا إذا صبرت.

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

(سورة الشورى)

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه:

((مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيراً أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ))

[رواه عَبْدُ الله بنُ مَسْلَمَة، عن أبي سَعِيدٍ الخُدْري]

يعني طاقة الصبر، إما أن يكون معك طاقة إيجابية، فإن فقدتها معك طاقة سلبية أتصبر، إما أن أكون إيجابياً، إن لن يتاح لي ذلك أصبر.

أنواع الصبر: إجباري وصبر اختياري:

الصبر الإجباري:

الصبر نوعان: صبر اختياري، وصبر إجباري.

١ ـ الصبر الإجباري:

في المصائب الصبر إجباري، اصبروا أو لا تصبروا.

٢ ـ الصبر الإجباري:

أما في الطاعات فالصبر اختياري، لذلك الصبر الاختياري هو أعلى أنواع الصبر، تصبر باختيارك بإمكانك ألا تصلي التراويح، ينتهي العشاء إلى البيت، إلى السهر إلى السمر، لكنك صليت عشرين ركعة، هذا اختياري، بإمكانك أن تملأ عينيك من محاسن النساء لكنك غضت البصر، صبر اختياري، بإمكانك أن تكون أكبر أغنياء البلد، لكن بدخل غير مشروع، لكنك تعففت وقلت معاذ الله، بإمكانك أن ترتقي أعلى منصب، لكن الثمن باهظ من كرامتك أحياناً، من مبادئك، من قيمك، ركلت هذا المنصب بقدميك، وقلت: معاذ الله، هذا صبر اختياري، يمكن بالصبر الاختياري أن تصل إلى أعلى مراتب الآخرة.

بالمناسبة الشيء الثابت أنه في زمن قوي فيه أعداء الدين المتمسك بدينه يُحرم من مغانم كثيرة، لأنه متمسك فقط، الدنيا بيد الطرف الآخرة لا يعطيها إلا لمن كان على شاكلته.

أحياناً يفقد الإنسان حقه في بعثة، أو في مركز، أو في تجارة، أو في منصب جامعي، لأنه متمسك بدينه، فلذلك هذا هو الصبر الاختياري.

قالوا عن الصبر:

سيدنا علي يقول: << الصبر مطية لا تكبو >>.

سيدنا الحسن يقول: << الصبر كنز من كنوز الجنة >>.

سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: <<ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر".

الله عز وجل إن أراد أن يرفع مقامك، يبتليك.

أنواع المصائب: عقاب أو ابتلاء:

بالمناسبة، المصائب إما أن تأتي عقاباً، وإما أن تأتي ابتلاء.

تأتي عقابا على كسب مال حرام، أو على عدوان على عرض.

أما الابتلاء فمن أجل امتحان الثبات، كيف يمتحن ثبات الإنسان ؟

توضع فوق صخرة صدرك، والسياط تأتي من كل جانب، ويقول: أحدٌ أحدٌ، تريد مالاً نجعلك أغنى الناس، تريد مالاً نجعلك أغنى واحد فينا، تريد فتاتاً نزوجك أجمل فتاة عندنا، تريد منصباً نسودك علينا، قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

الحديث عن الصبر لا ينتهي، الصبر طريق الفوز، طريق الجنة، طريق العزة أنت حينما تخير بين كرامتك، وبين مكاسبك فتختار مكاسبك تُذل، أما إذا خيّرت بين كرامتك وبين مكاسبك فوضعت مكاسبك تحت قدمك تكون عزيزاً.

كل طاعة لها حسالب محدود عند الله إلا الصبر:

لذلك أية طاعة لها عند الله حساب محدود، إلا الصبر:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر)

بالمصطلح المعاصر الصابر يعطى شيكاً مفتوحاً، فقط التوقيع، يكتب مليون يقبضها، يكتب مئة مليون يقبضها، يكتب مليون مليون، يقبضها، يكتب مليون مليار يقبضهم.

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

والله حينما أقرأ هذه الآية يقشعر جلدي:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

(سورة ص الآية: ٤٣)

الصبر مفتاح:

١ – الصبر مفتاح البطولة والرجولة:

أحيانًا الإنسان من أجل الله يصبر، الصبر بطولة، أو تؤثر دخلاً محدوداً تعاني ما تعاني على دخل فلكي على حساب دينك، فأنت بطل، أن تؤثر مكاناً ضئيلاً على منصب رفيع، ولكن على حساب دينك فأنت بطل.

٢ – الصبر مفتاح الفرَج:

((الصَّبْرُ مِفْتَاحُ الْفَرَجِ))

[رواه الديلمي عن الحسين بن علي]

١ – الصبر مفتاح الكرامة:

الصبر مفتاح الكرامة.

١ – الصبر مفتاح الحرية:

الصبر مفتاح الحرية، لن تكون حراً إلا إذا صبرت، أما إذا آثرت المكاسب على كرامتك فلن تكون حراً.

وأقول لكم: هذه الأمة ما لم تصبر لا تنال حريتها، الأمة الإسلامية بشكل عام ما لم تصبر لن تكون عزيزة.

لكن ما الذي حصل ؟ تعلقنا بهذه المنجزات نخاف على زوالها، لما خفنا على أن نُحرم منها ضاعت كرامتنا، أعطونا هذه المنجزات الحضارية، ودائماً يلوحون بحرماننا منها بحصار اقتصادي، ينبطح الناس لئلا يحاصروا، فإذا وطّنوا أنفسهم على العيش الخشن ينالون كرامتهم، لن تنال كرامتك إلا بالصبر.

الصبر اضطراري في اختياري، الاضطراري:

(فاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا)

(سورة الطور الآية: ١٦)

إذا ارتكب إنسان جريمة قتل، وسيق إلى السجن، وحوكم بمحكمة الجنايات، رفع الحكم إلى الاستئناف، الحكم صُدق رفع على محكمة النقض فصُدق، رفع إلى القصر فصُدق، عاد إلى السجن من أجل تنفيذ حكم الإعدام، سيق هذا المجرم ليعدم، يحب أن يصبر، يحب ألا يصبر، لا بد من أن يعدم.

أنا الذي أتمناه ألا تصل مع الله إلى طريق مسدود، هذا الذي حُكم بالإعدام سواء عليه أصبر أم لم يصبر لا بد من أن يقتل، أعجبه أم لم يعجبه، تماسك أو سقط، بكى أو ضحك

(فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا)

هذا الصبر نعوذ بالله منهم، صبر اضطراري، لكنك تكون بطلاً بالصبر الاختياري.

الطاعة تذهب مشقتها وتبقى خيراتها:

هذا الذي يصبر على الجوع في رمضان يأتي العيد يشعر بالفوز، والذي ما صبر على الجوع وأكل يأتي العيد وكأنه خنزير، أليس كذلك ؟.

إخواننا الكرام، الطاعة تذهب مشقتها وتبقى خيراتها، وثوابها، والمعصية تذهب لذتها وتبقى تبعتها.

مواطن الصبر وأقسامه باعتبار المصبور:

١ ـ الصبر باعتبار الشيء المصبور:

أقسام الصبر ثلاثة:

صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على قضاء الله وقدره.

٢ ـ الصبر باعتبار تعلق الصابر بالله:

لكن الصبر من زاوية أخرى أنواع ثلاثة:

صبر بالله ـ وصبر لله ـ وصبر مع الله.

الصبر بالله:

الصبر بالله في قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة النحل الآية: ١٢٧)

لذلك: إن جاءت مصيبة ـ لا سمح الله ـ ولا قدر فقل: يا رب، أعني على أن أصبر، أحياناً يلقي الله في قلبك قوة تعينك على الصبر

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

لو أن إنسانا قال متجاوزاً حده: أنا أتحمل كل المصائب، أنا عندي إرادة قوية، يضعف الله مقاومته، فينهار

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

الصبر لله:

أما الصبر لله فأنت قادر على أن تسحق الخصم، ولكنك آثرت أن ترضي الله فصبرت عليه، أنت قادر أن تنتقم، قادر أن تسحق.

لما فتح النبي الكريم مكة المكرمة ناصبته العداء عشرين عاماً، حاربته ثلاثة حروب، نكلت بأصحابه، تفننت في إيذائه، وبإمكانه بإشارة لا بكلمة أن ينهي وجودهم قال:

((ما تظنون أني فاعل بكم قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

هذا صبر لله، يكون الإنسان ضعيفا، يأتي إنسان قوي يذله، هذا ليس صبراً لله، الصبر لله أن تكون قوياً، وأن تكون قادراً على أن تسحق الخصم، لكنك آثرت أن ترضي الله فصبرت عليه.

أعرابي شده النبيَّ عليه الصلاة والسلام من ثوبه، حتى أثر على رقبته الشريفة، قال: أعطني من هذا المال، فهو ليس مالك، ولا مال أبيك، ابتسم النبيَّ عليه الصلاة والسلام وقال: صدق إنه مال الله، لكن القوي إذا تجاوز الحد يسحقه فوراً، وهذا صبر لله .

الصبر مع الله :

أما الصبر مع الله: يأتي رمضان تصوم وتصبر، تذهب إلى الحج ازدحام شديد، مشقة، حر لا يحتمل، تصبر، يأتي جفاف تصبر، تأتي مصيبة تصبر، أنت مع الله، إن سمح الله لك أن تكون مرتاحاً فله الحمد والشكر، وإن قادتك عبادته إلى متاعب فمرحباً بها في سبيل الله عز وجل، جاء مرض تصبر، جاءت صحة تشكر.

((الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر))

[أخرجه أبو منصور عن يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد]

الصبر مع الله تدور أنت مع الأحكام، ومع العبادات، ومع الأوقات، مشتقات أحياناً، في العبادات مشقات، أحياناً في الإنفاق مشقة، وأنت في أمس الحاجة إلى هذا المبلغ، أنفقته في سبيل الله، حُرمت منه، هذه مشقة، إذاً: هذا الصبر مع الله.

مرتبة الصبر على البلاء:

الصبر على البلاء من صفات الأنبياء:

أما الصبر على البلاء فهذا من صفات المؤمنين:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

سيدنا أيوب سيد الصابرين:

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها فيلبسها، ويبتلى بكل أنواه الشدائد، ويبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء))

[أخرجه ابن ماجة وأبو يعلى في مسنده والحاكم في المستدرك عن أبي سعيد]

لذلك الصبر يرقى بك، والصبر يكشف صدقك، والصبر يؤدبك، في مصائب تأديب، في مصائب امتحان، في مصائب ترقية، والمؤمن يرضى بقضاء الله وقدره.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٢-٦٠) : العمل الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

مالذي يدفعك على التفوق ؟!

ما الذي يدفعك إلى أن تكون متفوقاً ؟ أن هذا الجهد محفوظ عند الله، لو أردنا أن نتحدث عن وضع الناس ما الذي يضبطهم ويدفعهم إلى المعالي ؟ أن المحسن إحسانه محفوظ، والمسيء معاقب، ولا شيء يثبط عزيمة الأمة كأن يكافئ المسيء، ويعاقب المحسن، أما إذا عوقب المسيء، وكوفئ المحسن تقدمت الأمة خطوات سريعة إلى العلياء.

على مستوى أسرة، على مستوى صف، على مستوى معمل، على مستوى مستشفى، على أي تجمع إذا عوقب المسيء، وكوفئ المحسن تنافس الناس إلى التفوق، أما إذا عوقب المحسن وكوفئ المسيء.

لذلك لما كان سيدنا عمر يمشي في المدينة رأى أطفالاً، فلما رأوه تفرقوا لهيبته، وبقي واحد منهم لم يتحرك، لكن بأدب، لفت نظره، لما اقترب منه قال: << أيها الغلام، لمَ لم تهرب مع من هرب ؟ قال: أيها الأمير لست ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك>>.

هذا الغلام رسم منهج أمة.

إذا خاف المستقيم، واطمأن المسيء انتهت الأمة، إذا عوقب المحسن، وكوفئ المسيء انتهت الأمة، فربنا عز وجل يطمئننا، ويقول بعد أن حدثنا عن قصص الأنبياء وَاحداً واحداً قال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

(سورة الأنبياء)

١ ـ العمل الصالح بدافع الإيمان بالله: وَهُوَ مُؤْمِنٌ

لكن في الآية ملمح دقيق:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ)

قد نجد إنسان كافر يعمل الصالحات، لأنه ذكي، لأنه اكتشف أنه إذا استقام على مقامه، أقبل الناس عليه زادت أرباحه، أصبح في نعيم مقيم، لذلك العمل الذكي يلتقي مع العمل العبادي في النتائج ، ويختلف في البواعث، البواعث مختلفة بين أن ترجو الله والدار الآخرة، وبين أن ترجو المكاسب في الدنيا، أما السلوك فواحد.

لذلك هذه الآية مطمئنة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ)

لا من باب الذكاء، لا من باب المصلحة، لا من باب أن الأمور مضبوطة جداً، فخاف من العقاب، فاستقام، لا،

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

أن الله موجود، وأنه سيكافئه في الدنيا والآخرة، وانقلب عمله إلى عمل عبادي.

٢ ـ العادات تنقلب عبادات بفعل النية:

ولا تنسوا أيها الإخوة، أن المؤمن يستطيع أن يجعل حرفته عبادة، إن كانت في الأصل مشروعة، وسلك بها الطرق المشروعة، وابتغى بها كافية نفسه، وأهله وخدمة المسلمين، ولم تشغله عن فريضة، ولا عن واجب، ولا عن عمل صالح، ولا عن طلب علم، انقلبت هذه الحرفة إلى عبادة، إذاً:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ:

١ – لا يضيع سعي المؤمن:

هذه طمأنينة تلقى في قلب المؤمن، أنت فاتتك فرص كثيرة، لأنك مؤمن، المطلوب إنسان غير مؤمن، المطلوب إنسان متساهل، مطلوب إنسان يقبل أن يأكل المال الحرام، المطلوب إنسان لا يدقق، المطلوب إنسان بلا مبادئ، المطلوب إنسان يمكن أن يسهل لمن فوقه أعمالهم، لأنه مسلم، متمسك فاتته فرص كثيرة، لأنه مسلم متمسك فاتته بعثات كثيرة، لأنه مسلم متمسك فاتته وظائف كثيرة، لأنه مسلم متمسك دخله محدود، لأن الدخول الكبيرة جداً على حساب مبادئه، وقيمه، ودينه، لأنه مسلم متمسك فاتته هذا التعهد، لم يدفع الذي دفع دفعنا له، الذي لم يدفع فاتته

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ)

لكن لو جاء الجزاء سريعاً ألغي الاختيار، وطن نفسك أن تعمل صالحاً لأمد طويل، وأنت تبتغي وجه الله، ثم تأتي المكافئة بعد حين.

على كلٍ هذه آية من دقائق الآيات.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

٢ – الله يعوِّض ما فات المؤمنَ:

أحيانا تقول فتاة: لأنني أخاف الله فقدت وظيفتي، لأنني كنت عفيفة جداً لم أنل بغيتي، لأنني أصر على شاب مؤمن يصلي كاد قطار الزواج يفتني، لأنني، لأنني، هكذا الناس الآن.

فالمؤمن يدفع ثمن إيمانه باهظاً، لكن هذه التضحية محفوظة، محفوظة في أعلى مستوى، الشاهد الله عز وجل خاطب المؤمنين فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة الآية: ٢٨)

٢ –قد يدفع المؤمن ثمنا باهظا لقرار بطولي:

ألغيت السياحة، ألغيت حجوزات الفنادق، ألغيت المطاعم، أقرب لكم الفكرة، ألغي الرواج، انخفض سعر العملة، لعدم الطلب على العملة المحلية، وعدم وجود السياح، قال الله:

(وَإِنْ خِفْتُمْ)

(سورة التوبة الآية: ٢٨)

سوف تعانون من انخفاض الدخل.

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة الآية: ٢٨)

لا بد من أن تدفعوا ثمن قراركم البطولي إلى حين، لكن بعد حين،

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

وطن نفسك أنك حينما تتخذ قراراً بطولياً، لا تنتظر فرجاً سريعاً، أن تدفع ثمن هذا القرار وسام شرف لك يوم القيامة، لكن بعد حين يأتي الفرج:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

أخ كريم كان قبل أن يتعرف إلى الله عنده مطعم يبيع فيه الخمور، أقسم بالله أن أرباحه بلغت رقماً فلكياً، ١٨ شركة أجنبية متعاقدة معه لموظفيها ولضيوفهم، والأسعار من دون قيد أو شرط، عشرة أضعاف، عشرون ضعفا، دخل فلكي، فلما أوقف بيع الخمر أقسم لي أن الدخل هبط إلى العشر، إلى أقل من العشر، وصبر إلى أن فرج الله عنه.

وطن نفسك، التضحية محفوظة، فوات الفرص محفوظ، لا تقلق، هناك معركة أزلية بين الحق والباطل، هذه الآية مطمئنة، والآمر ضامن:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)

ملمح آخر دقيق في الآية: قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

(سورة الأنبياء)

بشرى عظيمة: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ

١ ـ معنى إرث الأرض:

يا ترى المؤمنون ؟ لا، الصالحون، قد يكون المؤمن مقصرا، لا يحسن إدارة الدنيا، لا يهتم بالآخرين، أما الصالح لإدارة الدنيا فهو الذي يرثها في الدنيا.

٢ ـ الدنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم:

قالوا: الدنيا تصلح بالكفر والعدل، ولا تصلح بالإيمان والظلم، الذي يحسن إدارة الدنيا يتسلم زمامها، الذي يؤدي كل الخدمات ويعدل بين الناس يستحق أن تكون الدنيا له، هذه حقيقة شئنا أم أبينا، حقيقة صارخة:

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

٣ ـ حل مشكلات الناس من الصلاح في الأرض:

حينما تهيئ فرص عمل، حينما تحل مشكلات كبيرة، مشكلات السكن، مشكلات البطالة، حينما تستخرج الثروات، وتنشئ السدود، وترفع مستوى الدخل، وتهيئ للناس كل حاجاتهم، حينما يعنيك زواج الشباب، أعمال الشباب، أنت حينما تكون صالحاً لإدارة الدنيا تتسلمها، فإن لم تكن صالحاً تعطى للصالح ولو كان كافراً، هذا كلام دقيق أقوله لكم، نحن مسلمين، خير إن شاء الله، ماذا فعلتم؟ ماذا حللتم من مشكلات أمتكم ؟

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

أنا والله أتكلم بهذا الكلام، وأنا متألم، إن الله ينصر الأمة العادلة الكافرة، على الأمة المسلمة الظالمة، عند الله كلنا عباده، من الذي عمل صالحاً ينتصر، هذه الدنيا.

الآخرة فللمؤمنين.

أمّا غير المؤمنين:

(وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

(سورة البقرة)

الآخرة وعد صادق، أما الدنيا لمن يصلح لإدارتها، لمن يصلح لحل مشكلات الناس فيها، لمن يصلح لإعطاء الناس حقوقهم.

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

(سورة الحج الآية: ٤٥)

وهم خاطئ: نسبة الهزيمة إلى الأسباب الأرضية:

نحن ألفنا أسباب الهلاك الأرضية، الزلزال، الاجتياح، الحرب الأهلية العدوان، العدوان الغادر، متى كان العدوان ليس بغادر؟! الصهيونية العالمية، الاستعمار، الموساد، مرتاح، نلقي العتب على غيرنا، نلقي المسؤولية على غيرنا.

كل مصيبة وخسارة بسبب الظلم والمعصية:

لكن الحقيقة:

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

قال:

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ)

ما مظهر ظلمها ؟ قال:

(فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

(سورة الحج)

ماذا نفهم من هاتين الكلمتين ؟ المرفق الحيوي الأساسي لكل الناس معطل، والقصر مشيد، هناك تفاوت خطير جداً، حاجات أكبر شريحة من المجتمع معطلة، وحاجات القلة القليلة ميسرة، هذا أيضاً أحد أسباب هلاك الأمم.

(وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

قراءة التدبر:

أيها الإخوة، كما تعلمنا أن قراءة التدبر ليس المقصود منها المضي سريعاً في القراءة، قف عند آية واحدة، قف عند عدة آيات، تأمل، تدبر، اسأل نفسك السؤال المحرج: أين أنت من هذه الآية ؟ لأنه

ألفنا قراءة القرآن في رمضان، والحقيقة المرة أننا في واد ، والقرآن في واد آخر، وما لم يصبح القرآن سلوكاً يوماً لنا، ما لم نقم حدوده، ما لم نقم هذا القرآن في بيوتنا، وفي أعمالنا فتلاوتنا ليست مقبولة عند الله.

((ما آمن بالقرآن من استحل محارمه))

[لأخرجه الترمذي عن صيب]

ورب تالٍ للقرآن، والقرآن يلعنه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٣-٦٠) : التوكل والأخذ بالأسباب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

التوكل:

الموضوع اليوم هو التوكل.

١ – الفهمُ السقيم للتوكل سبب تخلف المسلمين:

ولا أكتمكم أن أحد أسباب تخلف أمة المسلمين فهمٌ سقيم لموضوع التوكل، الفهم السقيم لموضوع التوكل شلّ هذه الأمة وجعلها أمة مستسلمة لفعل أعدائها، ولا تملك إلا ردود فعل، لذلك لا يمكن أن يحترم دين هذه الأمة إن لم تكن قوية، من حين لآخر جاءوا بامرأة في كنيسة، وألقت خطبة الجمعة، وأمّت المصلين، ثم دنسوا المصحف، ثم رسموا النبي الكريم برسوم شائنة، ثم طلع علينا البابا بتصريحات لا يعقل أن تصدر عن شخصية دينية مسيحية، ثم عادوا قبل يومين إلى عرض الصور مرة ثانية، لأننا ضعاف، ولو كنا أقوياء لما جرءوا على ذلك.

٢ – الفهم السقيم للتوكل ألغى الأخذ بالأسباب، وسلط علينا العدو:

أيها الإخوة الكرام، فهمنا للتوكل ألغى الأخذ بالأسباب، وأخذُ الغرب بالأسباب ألغى إيمانهم، والحقيقة الدقيقة أنه ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، كان الأعداء إن أرادوا مهاجمتنا لا يعدون ولا واحدا، كأنهم في نزهة، الآن يعدون للعشرة، وينبغي أن يعدون للمليون في المستقبل، لكن ضعفنا سبب هذا التطاول من معظم الأمم والشعوب على قرآننا، وعلى نبينا، وعلى إسلامنا، لأن التوكل محله القلب، ونحن جعلنا التوكل محله الجوارح، دائماً: يا رب، اللهم دمرهم، اللهم اجعل تدبيرهم في تدميرهم، الله لا يستجيب لنا، لأننا اكتفينا بالدعاء، يا أخا العرب، ما تفعل بهذا الجمل الأجرب ؟ قال: أدعو الله أن يشفيه، قال: هلا جعلت مع الدعاء قطراناً.

بعض العلماء قال: " الذي يدعو، ولا يأخذ بالأسباب يستهزئ بالله عز وجل ".

أنت تركب مركبة في سفر طويل، وتوقفت فجأة، خرجت من المركبة، ورفعت يدك إلى السماء، يا رب، الدعاء رائع، لكن افتح غطاء المحرك، وابحث عن السبب، فكر تفكيراً علمياً، ما لم نكن أقوياء لا يحترم ديننا، والتطاول مستمر، والتحدي مستمر، وكلما برد الأمر يظهر من يؤجج هذا التحدي، لأننا فهمنا هذا التوكل استسلاما لقدرنا، والدعاء على أعدائنا، ولم نفهم التوكل أن نأخذ بالأسباب، لذلك قال الله عز وجل:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ)

[سورة الأنفال: ٦٠]

هذا السلاح الذي تقتنيه السلاح الخطير النووي قد لا تحتاج لاستخدامه لمئة عام قادمة لكن هذا السلاح القوي يردع العدو، ترهبون به عدو الله، هذا السلاح القوي من أجل إلغاء الإرهاب، الآية ترهبون، هذا الإرهاب لإلغاء الإرهاب لإلغاء القهر.

٣ – التوكل مع الأخذ بالأسباب:

فيا أيها الإخوة الكرام، ما مِن موقف للمؤمن أعظم من التوكل، لكن أن نتوكل بعد الأخذ بالأسباب، قال:

((يا رسول الله، أعقلها أم أتوكل ؟ قال: اعقل وتوكل))

[الترمذي عن أنس]

إنه كلام جامع مانع موجز، اعقل، أي خذ بالأسباب، وتوكل، أرتج الباب بعد أن تنام وتوكل، ضع المال في صندوق حديد وتوكل، اعقل وتوكل، فإن لم تأخذ بالأسباب تدفع الثمن باهظاً، طبعاً كأن العالم انشطر شطرين، شطراً يأخذ بالأسباب، ويؤلهها، ويعبدها من دون الله، ويستغني بها عن الله الغرب، وشطر آخر لم يأخذ بها، فوقع في المعصية والضعف.

٤ – التطرف سهل والتوسط صعب:

بالمناسبة دائماً التطرف سهل، والصعب التوسط، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

تريد أن تسافر، تراجع المركبة مراجعة تامة، المكابح، المحرك، الزيت، الماء، البطارية، وبعد أن تراجع مراجعة تامة تقول من أعماق أعماقك: يا رب، أنت الحافظ، الحافظ، أنت المسلم، يا رب أنت الموفق، أو أن يأخذ بالأسباب، ويستغني بالأسباب عن الله، فيقع في الشرك، أو لا يأخذ بالأسباب فيقع في المعصية، دائماً التطرف سهل، والتوسط يحتاج إلى جهد كبير، لذلك أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)

[سورة الملك: ٢٩]

٥ ــ التوكل يشفي كثيرا من الأمراض النفسية:

التوكل يشفيك من القلق، من الخوف، من توقع المصيبة، توكل على الله، خذ بالأسباب وتوكل على الله وعلى الله الباقي، التوكل يلغي القلق يلغي الخوف المرضي يلغي الفزع، يلغي التشاؤم، توكل على الله، ولكن هذا التوكل لا يصح إلا إذا أخذت بالأسباب.

٦ ــ مع سيد المتوكِّلين:

أنا لا أعتقد أن على سطح الأرض من آدم إلى يوم القيامة إنسانا يستحق النصر كرسول الله، قمة البشر، سيد الأنبياء والمرسلين، لما هاجر ماذا فعل ؟ ما ترك ثغرة إلا وسدها، ما ترك احتمالا إلا وغطاه، ما ترك سعيا إلا وسلكه، الاتجاه مثلاً نحو الشرق، سار نحو الغرب، ليضيع المطاردين، هيأ من يمحو الآثار، هيأ من يأتيه بالأخبار، هيأ من يأتيه بالزاد، هيأ دليلاً رجح فيه الخبرة على الولاء، في الأمور أنت بحاجة إلى خبير لا لإنسان تحبه ويحبك، لا تسلم مرفقا خطيرا لإنسان ضعيف المعرفة، لكنه يحبك، أو له ولاء لك، هذه مشكلة كبيرة، يكون هناك مرفق اقتصادي خطير نسلمه لإنسان له ولاء، لكن ليس عنده خبرة إطلاقاً، الأمر يتراجع، فالنبي الكريم علمنا أن نرجح الخبرة على الولاء أحياناً.

هناك أمراض معقدة جداً تحتاج إلى أعلى اختصاص، نسلم إنسانا لإنسان اختصاصه محدود، فقد يسبب له أمراضا أخرى، هو في غنى عنها.

٧ ــ درس الهجرة والتوكل:

النبي عليه الصلاة والسلام ما ترك ثغرة، استأجر الراحلة، الدليل، أخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، لكن حكمة الله شاءت أن يصل المطاردون إلى الغار، لماذا ؟ لأن الله يريد أن يرينا أنه أخذ بالأسباب تعبداً، أما اعتماده على الله فلما وصلوا إليه لم يضطرب، قال:

((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[متفق عليه عن أنس]

إن درس الهجرة يجب أن يكون مع كل مؤمن، فالذي عنده معمل بخطأ بسيط احترق المعمل كله، ودمّرت الآلات، يقول لك: الله حافظ، الله حافظ، لكن خذ بالأسباب.

٨ – يجب إعداد العدة الكاملة:

هناك كلمات ظاهرها فيها ورع، لكن لأنها تفتقر إلى العمل فلا قيمة لها، نحن معركتنا معركة بقاء أو موت، والكلام خطير، معركتنا مع أعدائنا معركة نكون أو لا نكون، الأعداء في خططهم إبادتنا، فإن لم نأخذ بالأسباب، إن لم نتمرس بالخبرات، بالعلم، بالتعاون، بالتخطيط، إما أن تخطط أو أن يخطط لك، إما أن تفعل أو تُجعل في كل أعمالك ردود أفعال، هم يبدؤون، ونحن نقيم اجتماعا طارئا، ونبحث الموضوع، ثم نندّد، لا نملك إلا هذا، وهذا ليس من سمات الأمم القوية، الأمم القوية تأخذ مبادرة، تحدث الفعل، وتدع لأعدائها ردود الفعل، أما نحن فننتظر الفعل لنأخذ رد فعل، لأننا ضعاف، لأننا لم نأخذ بالأسباب، لأننا توكلنا على الله بالمفهوم الساذج، لكن: اعقل وتوكل.

بربكم بمَ تفسرون أن النبي عليه الصلاة والسلام في بدر ما زال يدعو الله عز وجل حتى سقط عن كتفه الرداء، فقال له سيدنا الصديق مشفقاً: بعض مناشدتك لربك، لماذا كان النبي قلقاً ؟ هو سيد الخلق نبي الأمة، لأنه قلق ألا يستحق النصر ؟ لأنه لم يأخذ بكل الأسباب، ماذا فعل سيدنا صلاح الدين حتى انتصر على الغرب ؟ انتصاره على الغرب لم يكن معجزة أبداً، انتصر على الغرب وفق السنن الإلهية، أول شيء هيأ جيلاً مسلماً ملتزماً، هذا حي المدارس، هذا من آثار عمل صلاح الدين، هيأ جيلاً مسلماً، والآن هناك جيل راقص، هيأ جيلاً مسلماً ملتزماً، وأزال كل المنكرات، وبين البدءِ بالإعداد حتى النصر خمسون عاماً، الطريق طويل أمامنا، إن أردنا أن تكون كلمتنا هي العليا فيجب أن نعد العدة، لو أردنا أن يكون القرار بيدنا يجب أن نعد العدة، لأنه نحن في مئتي عام كنا نائمين، وقت كانوا يعملون عملاً مخيفاً، إلى أن امتلكوا القوة، فأملوا إرادتهم، وأملوا ثقافتهم، وأملوا إباحيتهم على كل الشعوب، فنحن نريد أن نعلم أبناءنا، أن نعلمهم الخبرات والقدرات، وأن نتعاون.

إنّ وطرح أي موضوع خلافي الآن يعدّ جريمة، طرح موضوع خلافي ليشتت هذه الأمة، ليفرق جمعها، ليشق صفوفها، هذا العمل يقترب من الجريمة، لأن الغرب وضعنا في سلة واحدة، وينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد.

والله الذي لا إله إلا هو، لو أتيح لكم أن تطلعوا على خطط الغرب التي يخططونها لنا لشاب شعركم، الخطط التي توضع من أجلنا لسبب بسيط لأننا ضعاف، الضعف هو الذي جرأ الأمم علينا، كنت في أستراليا، وامرأة من سكانها الأصليين تركها أولادها، وأهملوها، ولم يلتفتوا إليها، ولا بزيارة لها، فاعتنى بها جار مسلم بدافع من دينه وإنسانيته، اعتنى بها عناية فائقة، فأحبت هذا الجار، أحبت دينه، فأسلمت، وتبرعت بمبلغ لجمعية خيرية، ثم توفيت، فلما اكتشفوا وصيتها،

واكتشفوا أنها مسلمة تذكر أبناءها الذين أهملوها لسنوات طويلة، وجميع الصحف هناك قالت: إن هذا الجار أرغمها على الإسلام، وابتز مالها، إنه عداء غير معقول، قال الله عز وجل:

(هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ)

[سورة آل عمران: ١١٩]

نحن ما صدقنا الله عز وجل، نحن أحببناهم، لكنهم يخططون لتدميرنا، لكن أتمنى على كل منا أن يتقن عمله، أن يسهم في بناء أمته، أن يخفف من متاعبها، أن يخفف من أعبائها حتى نستحق أن ننتصر، يجب أن نأخذ بالأسباب، ويجب أن نتوكل على رب الأرباب، يجب أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

التوكل تعلق با لله في كل حال:

الآيات التي تتحدث عن التوكل كثيرة جداً، لكن الله يحب المتوكلين، التوكل التعلق بالله في كل حال، قال تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة المائدة: ٢٣]

ولكن الملاحظ أنك لن تستطيع التوكل على الله إذا كنت عاصياً له، تخجل، والإنسان بقدر معصيته له يبتعد عن التوكل، وبقدر طاعته لله يجرؤ ويتوكل على الله، التوكل اقتراب بلا سكون، فهو حركة، وسعي، وأخذ بالأسباب، وسكون بلا اضطراب راحة نفسية، الأعضاء حركة، وبحث، ودرس، وأخذ بالأسباب، حركة دائمة الأعضاء، والقلب سكون بلا اضطراب، الأعضاء اضطراب بلا سكون، نحن عكسناها، القلب مضطرب، والجوارح ساكنة، لا حركة فيها، لا حظ الناس ماذا يفعل أحدهم ؟ يسمع الأخبار فيبدي برأيه، امش في قرية ترى أناسا جالسين على أبواب بيوتهم، يمر شخص فينظرون إليه، لا يفعلون شيئاً، والله هذا هدر للوقت، الوقت الذي نهدره يكفي لبناء أمة، يلعب طاولة، يلعب النرد، المجلس كله غيبة ونميمة إلى الساعة الواحدة في كلام لا معنى له، ولا طائل منه، هذا مجتمعنا، لا حركة فيه، ولا عمل، لا يقرأ، ولا يتحرك، ولا يهيئ مشروعاً، ولا عملاً.

أحياناً تجد نجاحات محدودة بمجتمعنا، هذا النجاح لإنسان اشتغل، والله هناك نجاحات مذهلة، والله يقارب هذا النجاح أموالا فلكية، هناك تخطيط، وراء المؤسسة عقل وتخطيط وإبداع، أساساً هذه الثلة التي انتصرت على إسرائيل كان هناك كلام رائع، أن نحن أحببنا الله، وتوكلنا عليه، وفوضنا أمرنا إليه، وصلينا، وصممنا، وخططنا، ودرسنا، وتدربنا، وهيئنا لكل احتمال عدته، هذا هو

الإيمان، يجب أن تكون في أعلى درجات المحبة والاستسلام، والتفويض والطاعة، وفي أعلى درجات الإعداد والتخطيط.

لا بد من الاستقامة والطاعة والإخلاص والإعداد والتخطيط:

فلذلك أيها الإخوة الكرام، نحن بحاجة إلى درجة عالية جداً من الطاعة لله، والاستقامة على أمره، والإخلاص له، والمحبة، وبحاجة أيضاً إلى أعلى درجات الإعداد والتخطيط.

يقول لي أخ زارنا في دمشق من الهند، قال: في الهند تسعون مليون مسلم مضطهدون، فلما فجرت الباكستان قنبلة نووية قال: والله إن معاملة الحكومة لهؤلاء المسلمين تخطت الحدود المعقولة، من الاهتمام بهم، والعناية بهم، صار هناك جهة مسلمة تملك قنبلة نووية، فما لم نملك سلاحا رادعا فالتحديات مستمرة، مضى على تصريحات البابا أسابيع، جاءت الدانمارك، وطنوا أنفسكم كل أسبوعين ثلاثة هناك تحدٍّ، واستهزاء، مرة بالقرآن، مرة بالإسلام، مرة بالنبي، لأننا ضعفاء، وضعفنا ناتج من سوء فهمنا لديننا، فهمنا الدين أن نصلي في المسجد، الدين في المعمل، يجب أن تطور صناعتك، الدين في المكتب التجاري، الدين في العيادة، الدين في المكتب الهندسي، الدين في أصحاب الحرف، فنحن نطور أعمالنا، ونبني أمتنا بناء صحيحاً، وبعدئذ نقول: يا رب، أنت الناصر، أنت الموفق، القضية ليست سهلة، أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، هذا الدين، طالب لا يدرس فيرسب، ويقول: سبحان الله ! هكذا ترتيب الله، هذا كلام في منتهى الحمق.

هكذا يجب أن يكون:

كنا مرة في مؤتمر إسلامي في ماليزيا لفت نظرنا بلد إسلامي صغير تعداده ثلاثة وعشرون مليونا، كانوا في الغابات قبل خمس وعشرين سنة، صادراتهم الآن تفوق صادرات العالم العربي مجتمعاً بما فيه النفط، عندهم فائض نقدي بستين مليار دولار، ما مِن معمل عملاق في العالم إلا عندهم فرع له، وعندهم معمل آخر مشابه له، نقلت إليه كل الخبرات، في ماليزيا معمل عملاق من هذه المعامل إلكترونيات سيارات من كل أنواع المعامل، ومعمل ماليزي إلى جانبه وطني، كل خبرات هذه الشركة العملاقة نقلت إلى المعمل الوطني، بنوكهم إسلامية، أنبؤونا أن هناك ثلاثة عشر بنكاً يملكه بوذيون وصينيون إسلاميان، البنك إسلامي يملكه بوذي وصيني، الربا غير موجود، عندهم التأمين تعاوني، البطاقة بلا فائدة، مرة جاء مسؤول غربي كبير ليتدخل في شؤونهم، فكان جواب وزيرة له: أن ضع حذاءك في فمك، ولا تنطق إلا بما يعنيك، ثلاثة وعشرون مليون من خمسة وعشرين سنة كانوا في الغابات، لأنهم أخذوا بالأسباب.

الخطأ من أنفسنا:

وفي المؤتمر قال لنا رئيسهم: إنكم أيها المسلمين في المشرق تعزون أخطاءكم إلى الله، كلامه صحيح، نحن كل أخطائنا نقول: هكذا الله يريد، هذا ترتيبه، هذا كلام الناس كلهم، هكذا شاء لنا الله، من قال لنا كذلك ؟ هناك أخطاء، وعندنا مرض اسمه إلقاء أخطائنا على الآخرين، تسمى في مصر شماعة، عندنا الاستعمار، إن رأينا حفرة في الطريق هذه من الاستعمار، أو الصهيونية أو الموساد أو مؤامرة إمبريالية علينا، كلام ليس له معنى إطلاقاً، نحن المقصرون، إذا أتقن كل واحد منا عمله ساهم في بناء الأمة وقواها، هذا الكلام على مستوى أمة.

التوكل محله القلب:

هذا الكلام نحن في أمسّ الحاجة إليه اليوم، هذا الكلام ينبغي أن يكون منهجاً لنا، التوكل محله القلب من أجل أن تطمئن الله لا يتخلى عنا، والسعي محله الجوارح، نحن نقلنا التوكل للجوارح والسعي نقلناه إلى القلب، ما بيدنا شيء، نحن عبيد إحسان، لا عبيد امتحان، الله يتلطف، الله يسترنا، الله يحمينا، الله لا يحمينا لأن فينا خطأ، وينبغي ألا نحابي أنفسنا، ينبغي أن نكون في أعلى درجات اليقظة، المؤمن كيس فطن حذر.

قرأ أحدهم الحديث: المؤمن كيس قطن، يشرح الحديث في الجامع، قال له: يا سيدي، ما كيس قطن؟ قال: يا بني، قلبه أبيض، بعد هذا ليّن ما عنده شدة، هو قرأها كيس قطن، ويريد أن يشرحها.

خلاصة:

إن قضية التوكل من أخطر قضايا هذا الدين، يجب أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، يجب أن تأخذ الأسباب، ثم تتوكل على رب الأرباب، وإلا هذا الحال الذي نحن فيه بسبب سوء فهم لموضوع التوكل، فهمنا التوكل استسلام، وانتظار، ما يفعل به أعداؤنا، والناس هكذا يا ترى أيحاصروننا ؟ ننتظر ما يُتخذ في حقنا من قرارات، هذا موقف خاطئ، يجب أن نتخذ قراراً، وأن نفعله، وأن ننتظر كيف ردود فعلهم.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٤-٦٠) : ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

المرأة في الإسلام:

نقاط مهمة في موضوع المرأة:

١ ـ موضوع المرأة خطير ومهمٌّ:

أيها الإخوة الكرام، الإسلام كل لا يتجزأ، ولن نستطيع أن نقطف ثماره على مستوى الفرد، وعلى مستوى الجماعة إلا إذا أخذ من جوانبه، وموضوع المرأة موضوع خطير في حياة المسلمين، هذا الموضوع مذكور في آية قرآنية.

٢ ـ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ:

يقول الله عز وجل:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

[سورة النور: ٣٣]

البغاء الزنى:

(إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة النور: ٣٣]

٣ ـ ليس هناك مسلم يجبر ابنته عَلَى الْبِغَاء:

هناك سؤال كبير: هل تصدقون أن في العالم الإسلامي كله مسلم واحد يجبر ابنته التي من صلبه على الزنى من أجل أن يتقاضى أجراً ؟ أقول لكم: هذا مستحيل، إذا كان هذا مستحيلاً فما معنى الآية ؟

٤ ـ معنى الإكراه على البغاء:

أراد الله عز وجل أن يبين لنا أن الأب الذي يضع عقبات، عقبة تلو عقبة أمام تزويج ابنته تكون النتيجة والمآل كأنه يدفعها إلى أن تنحرف.

وقد ثبت في علم النفس أن أقوى دافع في الجنس البشري دافع الأمومة، وما مِن فتاة على وجه الأرض إلا وكيانها كله يتوق إلى أن تكون أماً، وبالتالي زوجة، فأي أب يضع عقبات أحياناً سخيفة، وأحياناً جاهلية، وأحياناً دنيوية أمام تزويج ابنته فهو أب دون أن يشعر، ودون أن يريد يدفع ابنته إلى الانحراف، وهذا الموضوع أعالجه لا من نص أمامي، ولكن من واقع ضاغط إلى درجة لا تحتمل.

٥ ـ هذا هو الواقع المرّ لأولياء البنات في الزواج:

ثمة بنات كثيرات مؤمنات طاهرات تكون الشكوى الأولى لهن أن الأب أو الأم يضعون عراقيل أمام تزويج ابنتهم، لأن الأم تريد أن تتباهى بفتاة جميلة أمام قريباتها، بينما الفتاة الجميلة ربما ليست ملتزمة، وأن هذا الشاب مؤمن يريد امرأة تحفظه إن غاب عنها، تطيعه إن أمرها، تعينه على دينه، لا ترضى الأم.

والله أيها الإخوة الكرام، ما من يوم إلا يأتيني اتصال أو أكثر من فتاة تكاد تموت ألماً من عراقيل يضعها أهلها أمام تزويجها، والأمهات يستخدمن سلاحاً ليس من حقهن استخدامه، تقول: أغضب عليك لو قبلت به، لماذا الغضب ؟ الزوج لك أم لها ؟ لها، هل هناك إشكال على دينه ؟ لا، على أخلاقه ؟ لا، لكن من مستوى أقلّ من مستوانا، أو يتمنى الأب صهراً يغتني به، أو يزهو به، هذه أكبر مشكلة نعاني منها، إلا أنه وصل الأمر إلى إحصاء دقيق سمعته في اجتماع من أعلى مستوى أن نصف فتيات سورية من دون زواج، وشبح العنوسة يلوح لهن، لأن الأب ليس عنده مشكلة، زوجته بجانبه، مشكلته الزوجية محدودة، وعنده أولاد، أما هذه البنت فأيّ إنسان يخطبها، لأتفه سبب، لأقلّ علة مرفوض، ويستخدم سلاح الغضب، إذا ألحت عليه في الزواج، لذلك الرد على هذه المواقف هذه الآية:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

[سورة النور: ٣٣]

والله هناك آباء يحلفن بالطلاق، أنه إذا تزوجت ابنته سوف يطلق أمها، وهي في الثلاثين، أنا لا أعمم، لكن حالات كثيرة جداً، بل بتوتر عالٍ، فأنا أريد أن أهمس في أذن الأب: هذه ابنتك، أتحب أن تقف يوم القيامة أمام رب العزة لتقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، أتحب ؟ أتحب أن تشقيها من أجل تعنتك ؟ لولا أن هناك حالات كثيرة جداً ترفع إلي، والله في الأسبوع قريبا من خمس حالات الأب يرفض تزويج ابنته، طبعاً لأسباب كثيرة، أحد هذه الأسباب يريد صهراً غنياً، أحد هذه الأسباب ينتفع منه، أو يعضلها لتكون إلى جانبه طوال عمره، يريد خادمة ابنته أقرب الناس له، هذه فتاة لها مستقبل يجب أن تكون أماً في المستقبل، أن تجد حولها أولادا يرعونها، يهتمون بها.

يا أيها الإخوة الكرام، ماذا أقول ؟ نحن نتوهم أننا إذا أتينا إلى المسجد، وصلينا أصبحنا مسلمين، والله ما لم تطبق منهج الله بالتفاصيل، ما لم تنته عما نهى الله عنه لم نكن مسلمين حقيقة:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

[سورة النور: ٣٣]

٦ ـ هذا ما يحدث إذا رفض الأب تزويج ابنته:

لا تدفع ابنتك إلى الانحراف، الآن أصبح مطروحاً أن تتزوج الفتاة من دون علم الأب، وفي البلد الآن شيء اسمه زواج عرفي، وهو قريب من الزنى، هي تزوج نفسها من هذا الشاب من دون علم أهلها وأهله، يتم اللقاء في مكان، في فندق، في بيت صديق مسافر، من شدة تعنت الأب والأم ظهرت حالة غير شرعية وخطيرة، وإلى أن تكون زنى أقرب منها إلى أن تكون زواجاً، والآباء من رواد المساجد، وابنته متزوجة زواجاً عرفياً، وهو لا يعلم، لأنها يئست أن يزوجها أول خاطب، والثاني، والثالث، والعاشر، والخامس عشر، لا يزوجها، ولأسباب تافهة، ولا أبالغ كم من مرة ذهبت بنفسي إلى بيوت لأقنع الأب بالتزويج.

مرة أصرَّ أب على عدم تزويج ابنته، وجاءه خاطب طالب علم من أعلى مستوى، ذهبت إلى البيت نفسه، وأقسمت له على كتاب الله لو أن هذا الشاب طلب ابنتي لا أتردد ثانية، ما زوجها، وطلق أمها.

هناك حالات أقسم لكم بالله العظيم مثل هؤلاء الأشخاص يحتاجون إلى مصحّ، وكم أُعجب بأب يجهد للبحث عن شاب مؤمن يزوج ابنته، كم أُعجب من أب يشتري لابنته بيتاً ليكون البيت داعماً لها على التزويج.

كيف تفعل هذا وأنت تقرأ القرآن ؟!!

فيا أيها الإخوة الكرام، هذا قرآن، إننا نقرأ القرآن في رمضان، ولكنني والله أرى أن حياة المسلمين في واد، وقراءته للقرآن في واد آخر، الله عز وجل تولى بنفسه، بذاته العلية توزيع الإرث، هل الفرائض من اجتهاد النبي ؟ لا، بالقرآن الكريم، وكم من أبٍ مسلم يحرم ابنته من الإرث ؟ وإن الرجل ليعبد الله ستين عاماً ثم يضر في الوصية فتجب له النار.

هذا ما يريده من الغرب الحاقد فانتبهو !!!

ما لم يطبق هذا الكتاب في المواريث، في التزويج، في كل حياتنا، في كسب المال، في إنفاق المال، هذا الفصل بين الدين وبين الحياة، الدين في المسجد، كل طموح الغرب أن يجعل الدين شخصيا، الدين صلاة فقط، صلاة في المسجد، أو في الكنيسة، أما الحياة فاختلاط، وكسب الأموال المحرمة، والاستثمار الربوي، هكذا يريدون:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ)

[سورة الإسراء: ٧٣]

لقد جهد البشر أعداء الدين من بداية الحياة البشرية إلى نهاية الدوران أن يأتوا بقرآن غير هذا القرآن، أو بدين غير هذا الدين، هم يوافقون على كل المظاهر الإسلامية، أشد البلاد التي تحارب الدين فيها مساجد، وفيها صلاة جمعة، وفيها خطبة منقولة، وفيها احتفال بالأعياد، وفيها زينة، وفيها فلكلور إسلامي، هذا كله مقبول، الإسلام كفلكلور مقبول، أما كمنهج هو مرفوض.

تزويج الفتيات

١ ـ لا تطلب ما لا يستطاع:

اليوم الموضوع حول تزويج الفتيات، ما لم تسع جاهداً بكل ما أوتيت من قوة لجبر خاطر ابنتك، وتزويجها من شاب مؤمن لا تعقد الأمور، لا تطلب ما لا يستطاع، لا تطلب أن يكون صهرك مثلك الآن، أنت عمرك خمس وستون سنة، جمعت خبرات، جمعت أموالا، وبيتك ضمن المدينة، وعندك كل وسائل الحياة، وتريد من صهر لك أن يكون مثلك ؟ هذا مستحيل، اقبل ببيت خارج دمشق، لا مانع، هي تتمنى غرفة واحدة، والله هناك فتيات يتمنين غرفة في رأس الجبل، وهن من أسر جيدة، تريد أن تكون أماً، وهذا من حقها.

٢ – التزويج أو الهاوية:

ما لم نَسْعَ جميعاً إلى تزويج فتياتنا من شباب مؤمنين فنحن في طريق الهاوية، ظهر الزواج العرفي، هذا ردٌّ على تعنت الآباء، ظهرت بيوت الدعارة برقم فلكي في دمشق، كان هناك حي أو حيان في الشام موصومان بالدعارة، الآن تكاد بيوت الدعارة تكون في كل أحياء دمشق، لأن العلاقة بين الذكر والأنثى إذا وضعت العراقيل أمامها في الطريق المشروع يُختَرع لها طرق غير مشروعة، الدليل هو النبي فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي، ابن ماجه]

تكن فتنة أي زنى، زواج عرفي، زواج فرند، زواج المسيار، هذه أنواع الزواج هي بدائل النكاح، إن لم يكن نكاحاً كان سفاحاً أبداً، هذا قرآن، هذا منهج خالق الأكوان، هذا منهج الخبير:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

[سورة النور: ٣٣]

٣ – لا بد من مساهمة الجميع للتزويج:

أقسم لكم بالله العظيم لما أجد فتاة خطبت من شاب مؤمن كأنني في عيد، أسست خلية إسلامية، هذا بيت سلامي، الفتاة طموحها زوج، والشاب طموحه زوجة وبيت، الآن الذي يهيئ فرص عمل للشباب بطل في أعلى درجات العبادة.

أكرر لكم كلمة أخ كريم عنده معمل، من سنوات عدة الربح صفر، وصعوبات في تأمين المواد الأولية، وكساد في الأسواق، وعقبات، وتأمينات، فهو جمع ثروة طائلة خلال حياته، فجاء يستشيرني بإغلاق المعمل، وتسريح العمال، قال لي: عندي أموال تكفيني أنا وأولادي وأولاد أولادي، أنا لست بحاجة إلى المعمل، هناك معركة دائمة مع تأمين المواد الأولية، قلت له: لو لم تربح قرشاً واحداً إنك تفتح ثمانين بيتاً بسبب معملك، وهذا أكبر ربح يوم القيامة.

عندما التقي بصناعي عنده خمسمئة عامل، ثمانمئة عامل، ألف ومئتا عامل، ثلاثة آلاف عامل، أنا الآن أكبره، هذا فتح ثلاثة آلاف بيت، لأن البطالة أكبر مشكلة الآن، ليس عندنا فقط، بل في العالم كله، تجد شاباً في ريعان الشباب، مكتمل الرجولة، لا بيت له ولا حائط، ولا دخل.

٤ ــ حقائق مذهلة من الواقع ما لها من دافع:

والله أيها الإخوة الكرام، كنت مرة عند وزير الأوقاف، فجاءت فتاة مغربية تُجري بحثاً ميدانياً حول الدعارة في سورية، فلها عنده بعض الأسئلة، وصل إلى سمعي من حديثها أنها زارت كل النساء، وأن خمسة وتسعين بالمئة من الفتيات المومسات لسن فاسدات، ولكنهن فقيرات، فهؤلاء الأغنياء كيف يقفون يوم القيامة أمام ربهم ؟ فتاة تبيع عرضها من أجل أن تأكل.

والله هناك فقر يتقطع القلب له، وقد سمعت أن بيتاً مساحته متران في مترين فيه ستة أشخاص نائمون، ينامون بالتناوب، لأنه لا يتسع لهم جميعا، أين الأغنياء ؟ أين المحسنون ؟ أين أموال الزكاة؟ الأغنياء جميعاً مسؤولون عند الله أمام ظاهرة تفشي الدعارة أو العنوسة.

نصف فتيات سورية من دون زواج، وأنا كل حياتي عندي معلومات دقيقة عن نسب الطلاق، فالطلاق في أمريكا سبع وستون بالمئة، أي كل مئة زواج سبع وستين بالمئة من هذه الزيجات تنتهي إلى الطلاق في أقلّ من سنتين، في أوربا ست وثلاثين.

مرة كنت في هذا الحرم في درس الأحد، وعندنا القاضي الشرعي الأول يحضر الدرس، سألته فقال: نسب الطلاق في سورية خمسة عشر بالألف، بعد حين سألته قال لي: خمسة عشر بالمئة، البارحة التقيت مع محام قال لي: خمسون بالمئة، وهذا من شؤم الفضائيات، أي كل مئة زواج تنتهي خمسون بالمئة من هذه الزيجات إلى الطلاق، هذا الفساد والاختلاط، فلذلك هذه الآية:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة النور: ٣٣]

٥ ــ تيسير الزواج جزء من عبادتك:

فأنت أيها الأب جزء من عبادتك

وأن تخفض العقبات، وأن تيسر الطلبات، وأعظم النساء بركة أقلهن مهراً.

عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَئُونَةً))

[أحمد]

سهلوا، اقبل ببيت في الريف، لا مانع:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة النور: ٣٢]

اقبل هذا الذهب، يريد الماس، هذا فوق طاقة الشاب، سبعمئة أو ثمانمئة ألف ليرة بين أساور وغير ذلك، والحياة صعبة.

هناك بلدة في الغوطة اتفق وجهاؤها على أن المهر خاتم وساعة فقط.

ما لم تحل مشكلة الزواج في بلدنا فإن الفساد يستشري، وتتسع مساحات الدعارة، وتتنوع أساليب الزواج غير الشرعي، العرفي والمسيار والفرند.

٦ – بناتُك جنّتُك أو نارُك، فانظر ماذا تصنع بهنّ !!!

أنا أقول لكم من القلب إلى القلب: الذي عنده بنت يمكن أن تكون البنت الواحدة سبباً لدخول الجنة، دعك من كل أعمالك الصالحة، إذا ربيت ابنة تربية صالحة، و بحثت لها عن شاب، هيأت لها بيتا، وزوجتها فلك الجنة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((استوصوا بالنساء خيراً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

آخر وصية له:

((أوصيكم بالضعيفين المرأة و اليتيم))

[الطبراني]

٧ – جواز عرض الرجل ابنتَه على رجل للزواج:

أسأل الله أيها الإخوة الكرام أن نكون مطبقين لهذا المنهج، بطولتك في رمضان أن تحاسب نفسك عن كل آية تقرؤها، نحن عرفاً مرفوض أن إنساناً يعرض ابنته، أنت أكمل من سيدنا شعيب ؟

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)

[سورة القصص: ٢٧]

هل أنت أكبر منه ؟ وأنت كمؤمن إذا عرفتَ فتاة مؤمنة صالحة حافظة لكتاب الله، وتعرف صديقا لك شابا مؤمنا فكن وسيطاً.

هناك حديث لا يرقى إلى مستوى الصحة، لكن ورد في الأثر:

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها عبادة سنة، قام ليلها، وصام نهارها))

[ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد أثرا قريبا من هذا]

٨ ــ من عبادات المرأة :

فأحد أكبر الأعمال الصالحة أن تكون وسيطاً في تزويج فتاة مؤمنة بشاب مؤمن، وأنا من أنصار الزواج المبكر في عصر الجنس، نحن في عصر الجنس، أينما التفت تجد امرأة لا تخفي من مفاتنها شيئاً، لذلك أقول: المرأة المسلمة يمكن أن تمارس عبادة هي تشبه الجهاد للرجال، هي عبادة إعفاف الشباب، عندما تلبس معطفاً طويلاً وسابغاً وثخيناً، وتختفي كل خطوط جسمها هذه في عبادة، والتي تظهر كل خطوط جسمها هذه تسبب الفساد في الأرض.

أيها الإخوة الكرام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نعيش هذا القرآن:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة النور: ٣٣]

أنا لا أقول هذا الكلام من فراغ، أنا أنطلق من اتصالات لا تعد ولا تحصى، من فتيات يعضلهن آباءهن لأسباب سخيفة، هذه الآية:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

[سورة النور: ٣٣]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٥-٦٠) : القصة في القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

قصة من قصص صور الشعراء:

في سورة الشعراء عدة قصص، سيدنا موسى، سيدنا إبراهيم، سيدنا نوح، وقصة قوم عاد وقوم ثمود، وأصحاب الأيكة.

١ ـ تشابه مقدمة كل قصة وخاتمتها في سورة الشعراء:

هناك مقدمة، وخاتمة لكل قصة متشابهة، لكن المقدمة لهذه القصص:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

٢ ـ القصص تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام:

الله عز وجل يسلي نبيه صلى الله عليه وسلم، ويخفف عنه.

(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

(سورة طه)

هو يخفف عنه، فقال:

(إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آَيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

(سورة الشعراء)

٣ ـ الأصل في الإيمان الاختيار ثم الابتلاء:

كان من الممكن أن يجبر الله جميع البشر على الإيمان به وطاعته، لكن هذا الإجبار، وهذه الطاعة لا قيمة لها إطلاقاً لأنها لا تسعدهم.

كان من الممكن أن يوزع رئيس الجامعة على كل الطلبة في الفحص الأخير أوراق الإجابة مكتوب عليها، أو مطبوع عليها الإجابة التامة، وما على الطالب إلا أن يكتب اسمه، والعلامة التامة بالأحمر ١٠٠ على ١٠٠، لجميع طلاب الجامعة، ما قيمة هذا النجاح ؟ لا قيمة له إطلاقاً، لا عند الناس، وعند الجامعة، ولا عند الناجح، هذا نجاح ساقط.

فالله عز وجل يقول: يا محمد، إنك متألم من عدم إيمانهم، لو أردت لآمنوا جميعاً، لكن هذا الإيمان لا يسعدهم.

٤ ـ مع كل المعجزات لم يؤمن لموسى إلا القليل:

الله عز وجل سيبين للنبي أن قوم موسى رأوا البحر أصبح طريقاً، ورأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيناً، ورأوا المعجزات، ومع ذلك:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

(سورة الأعراف الآية: ١٣٨)

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

(سورة الشعراء

ما لم تسلك السبيل التي رسمها الله للإيمان فلا يمكن أن تؤمن، أي ما لم تتخذ قراراً داخلياً بالإيمان لا تؤمن ولو رأيت الآيات كلها.

إن إنسانا اتخذ قرار أن يؤمن، لو رأى آثار أقدام يستدل بها على المسير، لو رأى ماءاً يدله على الغدير، لو رأى بعرة تدله على البعير، فإن لم تتخذ قراراً بأن تؤمن فلا شيء في الكون يحملك على أن تؤمن.

سيدنا موسى رأى قومه من المعجزات ما يكفي، ومع ذلك:

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

لذلك خاتمة كل قصة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

سيدنا إبراهيم ألقي في النار:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورةالانبياء)

ولم يؤمنوا

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

فإنْ لم تختر أن تكون مؤمناً، إن لم تتخذ قراراً أن تكون مؤمناً، إن لم تبحث ذاتياً عن الحقيقة، إن لم تطلبها ذاتياً لو رأيت كل معجزات الأنبياء مجتمعة فلن تؤمن.

٥ ـ الكون والمخلوقات جميعا معجزة:

الكون بوضعه الراهن أكبر معجزة، الولادة معجزة، أن يأتي ابن كامل الخلق من حوين وبويضة أكبر آية، المطر معجزة، النبات معجزة، الأطيار معجزة، الأسماك معجزة، الكون من دون خرق لعاداته، ولنواميسه أكبر آية دالة على الله عز وجل، بعد سيدنا إبراهيم سيدنا نوح، الآية تبدأ بالنبي الكريم ثم تتابع بذكر المعجزة، ثم يقول الله عز وجل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

هذه مقدمة لازمة لكل قصة، بينما بالمقدمة:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

(إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ* فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

(سورة الشعراء)

هذا وضع طبيعي من دون خرق للعادات، من دون معجزات.

مرة ثانية: الكون بوضعه الراهن السماوات والأرض، الشمس والقمر، الجبال والأنهار، الأمطار البحار، الأسماك، الأطيار، النبات، خلق الإنسان، توالد الإنسان، هذه آيات كافية لكل من أراد الإيمان، أما وقد خُرقت العادات، ومع ذلك لم يؤمنوا، فإن لم ترد أن تكون مؤمناً فليس هناك من سبيل إلى أن تؤمن، وفي نهاية هذه القصص يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

القرآن بلسان عربي مبين:

الآن: هذا القرآن قال:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(سورة الشعراء

إنسان غير عربي وليكن فارسي:

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الشعراء الآية: ١٩٩)

يعني لو أن هذا القرآن نزل بلغة أعجمية

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ)

ما آمنوا به.

واللهِ سافرت مرة إلى بلاد فارس، والله ما فهمت كلمة، ولا حرفا، ولا رقما، لو أن هذا القرآن أنزل على إنسان أعجمي بلغته، وجاء هذا الإنسان إلى مكة، وقرأه عليهم قال:

(مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

من لم يرد الحقيقة بالقرآن لن يؤمن ولو كان عربيا:

هذا القرآن الكريم باللغة العربية المبينة، لو قرأناه على عرب أقحاح متمكنين من اللغة قال:

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الشعراء)

وكأنه بلغة أعجمية.

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة الشعراء)

حتى القرآن إذا ما أراد الإنسان به الحقيقة، وقرأ القرآن، قال تعالى:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت الآية: ٤٤)

قال تعالى:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء)

حتى القرآن، إن لم تتخذ قراراً أن تؤمن فلا تنتفع به، لا تنتفع لا بآيات الله الكونية، ولا بآيات الله القرآنية، ولا بآيات الله التكوينية، الله كيف أهلك عادا وثمود ؟

من لم يؤمن بالكون لن يؤمن بالمعجزات:

في هذه السورة آيات كونية، وتكوينية، وقرآنية، ما لم تطلب الهداية، ما لم ترد أن تهتدي، ما لم تختر الهداية، ما لم تتخذ قراراً بالهداية فلن تؤمن، ولا تسأل عن المعجزات، هؤلاء الذين رأوا البحر أصبح طريقاً، والعصا أصبحت ثعباناً، والنار لم تحرق، والناقة خرجت من الجبل هؤلاء الذين رأوا الآيات لم يؤمنوا.

لذلك من لم يؤمن بالكون في وضعه الراهن لن يؤمن بالله عن طريق خرق نواميس هذا الكون. أنت الآن محاط بمليار آية، سمعك آية، بصرك آية، شعرك آية، أنفك آية لسانك آية، قلبك آية، رئتاك آية، الكليتان آية، المعدة آية، الجلد آية، الردم آية، الأوعية آية، الآن كأس الماء آية، النباتات آية، الأزهار آية، كل شيء حولك آيات، آيات كونية هي خلق الله، وآيات تكوينية هي أفعاله، وآيات قرآنية كلامه.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

لن نؤمن ما لم نسلك طريق الله:

ما لم نسلك الطريق التي رسمها الله للإيمان لن نؤمن.

تقول دولة لك: الطبيب يجب أن ينال إجازة في الطب من الجامعة، يأتي إنسان يقرأ مجلات طبيبة، يقتني مجلات طبيبة، هل بإمكانه أن يكون طبيباً ؟ لا، لو اطلعت على مجلات، وزرت مستشفيات ما لم تنل شهادة ثانوية، وتدخل كلية الطب، وتدرس أول سنة علوما، رياضيات وفيزياء، وكيمياء، وطبيعيات، والسنة الثانية تشريحا، والسنة الثالثة فيزيلوجيا، والرابعة علم الأمراض، والخامسة علم الأدوية، وسنتين تدريبا، لا تأخذ إجازة بالطب، هناك مليون طريق متعلق بالطلب، تعمل في صيدلية، لكن لا تصبح طبيبا، تقرأ مجلات طبيبة، لا تصبح طبيبا، تعاشر أطباء، تسهر معهم، لا تصبح طبيبا، تشتري رداء أبيض، ونظارات وسماعات قلب، لا تصبح طبيبا، ما لم تدخل الطريق التي رسمتها الدولة لتكون طبيباً لن تصبح طبيبا.

الله عز وجل قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

(سورة الرعد الآية: ٤١)

لو أنهم رأوا الآيات التي بين أيديهم لا يحتاجون إلى معجزات، فالذين طلبوا المعجزات، ورأوها بأعينهم لم يؤمنوا، إذاً: الطريق التي ينبغي أن نسلكها أن نتفكر في خلق السماوات والأرض، فهي وحدها الطريق السالك والآمن والموصل.

لا تأس ولا تحزن على من أراد الفسق والفجور:

شيء آخر، لا تأسَ على من أراد الفسق والفجور، هذا اختياره، اسعَ، بيّن وضح، لكن في النهاية إذا أصر على ما هو عليه فهذا اختياره، الإيمان اختيار، لا إكراه في الدين، لأن الله عز وجل الذي خلق السماوات والأرض، وأمره كن فيكون، زل فيزول، وما أجبر عباده على الطاعة.

لا إجبار على الدين ولا إكراه:

لذلك في بعض البلاد حينما يجبرون الناس على الصلاة يصلون بلا وضوء، جاء إنسان من بلد، هذا البلد يجبر الناس على الصلاة، دخل جامعا في بدر، وهناك شيء هز أعمق أعماقه، أنت إذا رأيت المنظر لا تتأثر، هذا ماذا رأى ؟ رأى جامعا مكتظ بالناس، وعلى باب السجد بائع يبيع بعض الفواكه الربيعية، وينادي عليها في أثناء الصلاة، وفي أثناء الخطبة، ولا أحد يحاسبه، فاستنبط أن كل هؤلاء الذين في المسجد دخلوا باختيارهم، لأنه لا إجبار على الصلاة، الدليل أن هذا الذي لا يصلي، ولا يصغي إلى الإمام والخطيب، ولا يصلي مع صلاة الجماعة، ولا أحد يحاسبه، فلا إجبار في الدين، فأنت حاول أن تقنعي لا أن تقمعني.

فالأب الذي يسلك سبيل العنف وإجبار ابنه على عمل ديني هذا العمل غير مجدٍ يجب أن تقنعه بهذا الدين، يجب أن تكون عنده قناعات قوية جداً.

إذاً أيها الإخوة، الطريق الموصل إلى الله التفكر في خلق السماوات والأرض أو التفكر بآياته القرآنية، والكونية، والتكوينية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٦-٦٠) : الرضا ثمرة من ثمار المحبة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة .

مقام الرضا عن الله:

١ – من علوّ الهمة الرضا عن الله:

من علو الهمة حال يعد كالجهاد، ذروة سنام الإسلام، إنه " الرضا "، أن ترضى عن الله.

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة البينة الآية: ٨)

٢ – هذه هي حقيقة الرضا:

لذلك: الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وهو باب الله الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، وأن لا يستبدل بغيره منه، أن ترضى عن الله، لا بلسانك، ولكن بجنانك.

٣ – رضا الله عن العبد أكبر من الجنة:

رضا الله عز وجل عن العبد أكبر من الجنة، لأن الرضا صفة الله عز وجل ، والجنة خلقه، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة)

يعني في جنة، وفي النظر إلى وجه الله الكريم:

(رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أي رضا الله عن العبد أكبر من الجنة، بل أكبر ما في الجنة، بل هو ذروة عطاء الله عز وجل. أحياناً تدخل إلى بستان جميل جداً، تستمتع بما فيه من مناظر، لو افترضنا صاحب البستان من أجمل خلق الله، فنظرت إليه فاستمتعت بالجمال البشري، لكن أبلغ من استمتاعك بالبستان، وبالنظر إلى صاحب البستان، أن يرحب بك صاحب البستان، وأن يثني عليك، ويقربك، فرضا الله عز وجل أثمن.

السخط

١ – كيف يكون سخط العبد على الله ؟

الآن يقابل الرضا السخط، السخط على القضاء والقدر، السخط على الله لوضع معين، لشكل معين، لدخل معين، لبيت معين، لزوجة معينة، لا تعجبه دنياه، ليتها لا تعجبه فقط، نقلته إلى السخط على الله، والسخط باب الهم، والغم، والحزن، وشتات القلب، وسوء الحال، وظن بالله خلاف ما هو أهله.

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٤)

٢ – السخط تلوُّن العبد وتقلُّبه:

والسخط يوجب تلون العبد، فساعة هو راضٍ، وبساعة ساخط، لا استقرار له، بل يدور في التلون، وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائماً بما لا يلائمه، أو بما يلائمه، وكلما جرى عليه منها بما لا يلائمه سخط، فلا تثبت له قدم.

٣ – الرضا يزيل كل الهموم والغموم:

إذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات، استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضا.

لذلك أنت حينما ترضى عن الله فهذا يقين منك، وقد ورد عن سيدنا علي أن << الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين >>

الرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله، بين أن يمتلئ قلبك محبة بالله، وبين أن يفرغ من محبة الله، فإن ما امتلئ قلبه من الرضا ملأ الله صدره غنىً وأمناً وقناعة، وفرغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.

٤ ــ الرضا مِن أعمال القلوب:

الرضا من أعمال القلوب، محله القلب، نظير الجهاد، فهو من أعمال الجوارح فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان، ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر.

أحياناً تقرأ آية:

(فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة القلم الآية: ٤٨)

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية: ٤٨)

لماذا يأمرنا الله بالصبر ؟!!

لِمَ يقول له: فاصبر ؟ لو أن حكمة هذه الشدة ظهرت فلا داعي للصبر.

أحياناً ينبئ الطبيب مريضه أن قلع سنك مؤلم جداً، لأنه لا يحتمل المخدر، الصبر يكون مع الشيء غير الواضح.

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

لذلك هؤلاء الذين رضوا عن الله، قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا))

[أخرجه أحمد ومسلم والترمذي عن العباس بن عبد المطلب]

ذاق، فالإيمان له طعم، تذوقه بالرضا.

((مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبّاً، وَبِمُحَمَّدٍ صلى اللّه عليه وسلم رَسُولاً، وَبِالإِسْلامِ دِيناً، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ))

[رواه مسلم عن سعد بن ابي وقاص]

أقسام الرضا:

عندنا رضا بألوهية الله، ورضا بربوبيته:

١ – الرضا بألوهية الله:

الرضا بألوهية الله عز وجل يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجاءه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة الحب كلها إليه.

٢ – الرضا بربوبية الله:

أما الرضا بربوبيته فيتضمن الرضا بتدبيره لعبده، إفراده للتوكل عليه والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

٣ – الرضا برسول الله:

أما أن ترضى برسوله، أي أن ترضى بسنته، هناك شيء حرّمه النبي عليه الصلاة والسلام، وشيء أباحه، فالذي يعترض على تشريع النبي، وعلى أمر النبي، وعلى نهي النبي فليس من الراضين برسوله.

أسباب الرضا:

من أعظم أسباب الرضا: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه، يرضى عنك إن كنت صادقاً، يرضى عنك إن كنت تواباً، يرضى عنك إن كنت متسامحاً، اقرأ القرآن الصفات التي يحبها الله إن فعلتها قادتك هذه الصفة إلى الرضا.

قيل لبعض العلماء: " متى يبلغ العبد مقام الرضا ؟ قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول، يقول لله عز وجل: يا رب إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدتك، وإن دعوتني أجبتك.

في أي وضع يكون الرضا:

الصحابة الكرام عاهدوا رسول الله على الطاعة في المنشط والمكره، أنا أضيف: في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، بزواج ومن دون زواج، مع بيت تسكنه، أو بلا بيت، بعمل أو بلا عمل، لكن متى يرضى الإنسان ؟ بعمل، ودخل، وبيت، وزوجة، وأولاد، وسيارة، إذا نقصت واحدة يتغير الوضع، هذا الذي يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

أي إنسان بأي مستوى، بأي إيمان، بأي وضع إن جاءته الدنيا كما يتمنى يرضى، بالعكس، أحياناً يدّعي بعض الأغنياء أن الله إذا أحب عبده أطلعه على ملكه، يسافر سفرات لا ترضي الله أبداً، يتوهم أن الله يحبه، سمح له أن يروح، إلى شرق آسيا وإلى مونتيكارلو، يعد نفسه من المحبوبين عند الله.

العلم والرضا:

قال بعض العلماء:: الرضا صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا ".

أنت لا حظ طفلا صغيرا على كرسي طبيب الأسنان، يبكي، أحيانا يمد يده ليمنع الطبيب من متابعة العمل، وإن لم يكن من تربية صالحة قد يسب الطبيب، لماذا ؟ لجهله أن هذا الشيء يؤلمه، أما الراشد فيشكر الطبيب، مع أنه يتألم، لكنه يعلم أن هذا الألم لمنع الألم.

كلما ازداد علمك ازداد رضاك عن الله عز وجل، وعدم الرضا نوع من الجهل، لذلك الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب.

ارض فيما أقامك الله من دنياك:

الرضا سكون القلب إلى اختيار الله، اختارك من أصحاب الدخل المحدود، فهو طول عمره ساخط، يا أخي، الذي نأخذه في شهر يأخذه فلان في ساعة، الذي تحصله في سنة بصفقة واحدة فلان يجمعه، دائماً يوازن نفسه مع أصحاب الدخل غير المحدود، الله عز وجل أقامك من أصحاب الدخل المحدود، ارضَ عن الله.

المجموع ثابت:

هناك تفسير علمي: المجموع ثابت، أوضح شيء موظف في شركة، معاشه يكاد يكفي حاجاته، صاحب الشركة دخله أكبر بكثير، لكن تأتي على صاحب الشركة ساعة ينسى حليب أمه، أما المحاسب فلا علاقة له ببضاعة محجوزة، أو خطأ جمركي، وفي ٨ أمثال البضاعة، ومصادرة، وبضاعة كاسدة، وبضاعة مرفوضة، تجد أعصاب صاحب الشركة تالفة، لكن دخله كبير، أعصاب المحاسب مرتاحة، ودخله محدود، أعطِ الراحة النفسية ثمانين، وأعطِ الدخل عشرين للمحاسب، و أعطِ لصاحب الشركة الدخل ثمانين، والراحة عشرين، يصبحوا مثل بعضهم، المجموع ثابت، ولو

دققت لوجدت أن كل إنسان آخذ من الله عز وجل مئة علامة موزعة توزيعا مختلفا، فالمجموع ثابت.

أقوال العلماء في الرضا:

القول الأول:

قال بعض العلماء: طريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جداً، موصلة إلى أجلّ غاية، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست فيها مشقة أصعب من مشقة المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها همة عالية، ونفس ذكية، وتوطين النفس كل ما يرد عليها.

هناك عبارات عامية رائعة، يقول لك العامي: استفقادات الله رحمة، كمَن جاءه مرض.

والله أحياناً تتكشف حِكم بعض المصائب بشكل عجيب، هذه المصيبة محض رحمة، محض عناية، محض لطف، لكن لا تبدو في حينها، لكن بعد حين، الذي رضي عن الله ارتقى إلى مقام الرضا، ثم كشفت له الحقيقة، فرضي عن واقعه، كان راضياً بإيمانه، فصار راضياً بواقعه.

القول الثاني:

قال الفُضيل: " الرضا أفضل من الزهد في الدنيا "، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته، أحدهم أعطاه الله مالا، بهذا المال عمل أعمالاً صالحة لا تعد ولا تحصى، رضي عن الله أن جعله غنياً، وكان يتمنى أن يكون زاهداً، هذا اختيار الله لك، أعطاك نعمة، وأنت تبذلها، وبذل هذه النعمة عمل عظيم، بل إن الله يقرك على هذه النعمة ما بذلتها، فإذا منعتها أخذها منك، وأعطاها إلى غيرك.

القول الثالث:

وقالوا: " الرضا قبل القضاء عزم على الرضا، والرضا بعد القضاء هو الرضا ".

دخل أحدهم في تجربة، إما أن تنجح أو لا تنجح، إنه شيء حاسم في حياته، المؤمن عنده شعور إذا نجحت فهذا من تقدير الله له، راضٍ، وإن لم تنجح فهو راضٍ عند عدم النجاح، فهو موطّن نفسَه على قبول الحاليين، هذا شيء رائع جداً، موطّن نفسه على أنه رُشح في بعثة يرتقي بها علماً

ودخلاً، المؤمن يقول لك: إذا وافقوا على إرسالي في هذه البعثة فهذه نعمة من الله، وإذا لم يوافقوا فهذه نعمة من الله كذلك، لعل حكمته ينطوي فيها الخير، وأنا لا أعلم.

أقسام الرضا باعتبار الراضي:

الرضا أقسام ثلاثة: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه، رضا الخواص بما قدره وقضاه، العامي يقول لك: الحمد لله، عندي بيت مئة متر مستور فيه، وعندي ولدان وزوجة والحمد لله، العوام يرضون عن الله بما أعطاهم، أما الخواص فرضاهم عن الله بقضائه وقدره.

أحياناً يكون اجتياح لبلد، ودمار، المؤمن عنده إحساس أن هناك حِكما بالغة تنطوي على هذا الاجتياح، خواص الخواص لا يرضون بغير الرضا حالاً، أي وضع فهم راضون عن الله.

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل وإن عدلوا

والله لو إن فتتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راضٍ بما فعلوا

***

هذا حال رائع جداً، والله بعض الصحابة فقد بصره، ولا أقول لكم: هذا هو المنهج، لكن هذا حال، قيل له: ادع الله أن يشفيك، قال له: والله أخجل، هو اختار لي هذا، وأنا أدعوه بخلافه.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

(سورة الفجر)

قال بعض علماء التفسير: " النفس المطمئنة النفس الراضية عن الله ".

كان أحدهم يطوف حول الكعبة وهو يقول: يا رب، هل أنت راضٍ عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي، قال: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ هو تعجب ! فالتفت نحوه، وقال: يا سبحان الله ! من أنت ؟! قال له: أنا محمد بن إدريس، قال له: كيف أرضى عن الله، وأنا أتمنى رضاه ؟ ما هذا الكلام ؟ فقال له الإمام الشافعي: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

عندك إمكان في الضيق المادي، وأنت راض، يا رب، لك الحمد ؟ عندك إمكان في حال المرض أن ترضى ؟

والله أعرف أخا مؤمنا، أصابه سرطان في الأمعاء، وبقي يعاني من آلام لا تحتمل سنتين، ثم توفاه الله، تقول زوجته وهي صادقة: ما سمعت منه إلا كلمة: يا رب، لك الحمد .

القول الرابع في الرضا:

وقالوا: " أرفع الرضا لا أن ترضى عن الله، أن ترضى بالله رباً، أن ترضى بالله لا عن الله. كل إمكاناتك للتقرب من الله.

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية: ١٦٤)

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأنعام الآية: ١٤)

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً)

(سورة الأنعام الآية: ١١٤)

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

ثم يقول الله عز وجل:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

(سورة البينة)

هذه كلمات سهلة، لكن تطبيقها صعب، أن ترضى عن الله بمكروه القضاء.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٧-٦٠) : الفرق بين الرسالة المكتوبة وبين الرسالة العملية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

الفرق بين الرسالة المكتوبة والرسالة الشفهية:

أيها الإخوة، ربنا جل جلاله ينزل الكتب على أنبيائه ورسله، الكتاب نص شفهي أو كتابي، لكن الله عز وجل له رسائل عملية، الآن الفرق بين الرسالة المكتوبة والرسالة العملية.

المكتوبة هذا القرآن، الله عز وجل يبدأ بهداية الإنسان عن طريق ما يسمى بالهدى البياني، أنت مرتاح، بكامل صحتك، ببيتك، بأولادك، عملك جيد، ليس عندك مشكلة، تأتيك نصيحة من الله ، يأتيك توجيه، يأتيك لفت نظر، يأتيك دفع إلى بابه، إلى عبوديته، إلى طاعته، إلى الإقبال عليه، إلى إنفاق مالك، إلى تلاوة القرآن، إلى فهم القرآن، نصائح تأتي في القرآن، هذا الهدى البياني.

موقف الإنسان من الهدى البياني:

أكمل موقف للإنسان مع الهدى البياني، وهو بكامل مكانته، وصحته، وكرامته، وسلامته عليه أن يستجيب، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: ٢٤]

لو أن الإنسان لم يستجب، الله عز وجل رحيم، وهو رب العالمين، الآن يخضعه لمعالجة أصعب، أهون هدى الهدى البياني، كلام، محاضرة، خطبة، كتاب، ندوة، نصيحة من إنسان صديق، وأنت بكامل الصحة والهيبة والمكانة، لو أن هذا الإنسان لم يستجب الآن دخل بمعالجة أصعب، يخضعه الله للتأديب التربوي، التأديب التربوي في الحقيقة رسالة من الله، لكن ليست كتابية أو شفهية، إنها رسالة عملية.

آية قرآنية:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة القصص: ٤٧]

لو أن هذه الشدائد لم تكن، لو أن هذه المصائب لم تكن، لو أن هذا التضييق لم يكن، لو أن هذا الجفاف لم يكن، لم أن هذا الاجتياح لم يكن، لو أن هذه القسوة لم تكن ما الذي يحصل ؟ هذا الإنسان يبقى ساهماً وغافلاً وشارداً وعاصياً، عندئذ يستحق النار، فيوم القيامة لولا أن الله يرسل رسائل عملية، وهي المصائب لقالوا:

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

[سورة القصص: ٤٧]

الرسالة العملية أبلغ من الرسالة الشفهية:

عبروا عن المصيبة بالرسول، معنى ذلك أن المصيبة رسالة، الآن أحدث سياسة أنك لا تخاطب العدو برسالة، بل بعرض عسكري، العرض العسكري رسالة، أو مناورات للجيش، أو عرض الصواريخ، أو عرض الصواريخ التي تحمل رؤوس نووية، أو تفجير قنبلة، كما فعلوا في كوريا الشمالية، هذه رسائل، الرسائل العملية أبلغ من التصريحات الكلامية، التصريح الكلامي يصدق أو لا يصدق، بينما الرسالة العملية حقيقة مع البرهان عليها.

يا أيها العبد افهم على الله خالقك:

الآن دققوا، بطولتك أن تفهم على الله، يتكبر الإنسان، يضعه الله بموقف يذله، هذا الإذلال تأديب للتكبر، لذلك قال العلماء: لا يجوز أن تقول: الله الضار، هو ضار، من أسمائه الحسنى ضار، لكن هذا الاسم لا يذكر إلا مع اسم آخر، الضار النافع، المانع المعطي، الخافض الرافع، المذل المعز، بمعنى أنه يضر لينفع، و يخفض ليرفع، و يذل ليعز، و يمنع ليعطي، ليس في الكون شر مطلق أبداً، هناك شر نسبي موظف للخير المطلق، الآن بطولتك أيها المؤمن يا عالي الهمة، يا من يبتغى بك صلاح الأمة، افهم على ربك.

أحياناً هناك استرسال، وإسراف غير معقول، يؤدب بالضيق المادي، الطرق يسد، هناك طلاق تعسفي يؤدب بزوجة ثانية تكيل له الصاع صاعين انتقاماً من الأولى، فكل مرض نفسي معه تأديب، التأديب رسالة، الآن بطولتك أن تفهم على الله، لماذا تنقبض حيناً، وتبسط حيناً ؟ لماذا يُضيق عليك مادياً حيناً، وتفرج في دخلك حيناً آخر ؟ لماذا يرفعك الناس حيناً، ولماذا يضعونك حيناً آخر ؟ والله

الذي لا إله إلا هو ما من حدث يقع في الكون إلا و له حكمة بالغة، عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها.

العبرة أن تعرف فصول القصة من أولها إلى آخرها:

إخواننا الكرام، نحن جميعاً، وأنا معكم معنا آلاف القصص من آخر فصل لا معنى لها، لكن كل شخص منا عنده بعض القصص قد لا تزيد على أصابع اليد، هذه القصة من أول فصل لآخر فصل، حينما يرى النتيجة متطابقة مع السبب ومع المقدمة يقشعر جلده خشوعاً لله، ولعدالة الله عز وجل.

مثال تطبيقي من الواقع:

أضرب مثلاً للتوضيح، مرة استوقفني إنسان وقال لي: هناك رجل فتح محله بسوق مدحت باشا، ما إن فتحه حتى سمع إطلاق رصاص، مدّ رأسه، فجاءت رصاصة استقرت في عاموده الفقري، فشلّ فوراً، يقول لي السائل: ما ذنب هذا ؟ جاء ليكسب رزق أولاده، أي ذنب اقترف ؟ قلت له: لا أعلم، ونصف العلم لا أدري، أنا أعلم الأحكام الشرعية ما في القرآن من توجيهات، أما فعل الله فلم يكن لي أن أعلمه إلا بحالة مستحيلة ؛ أن يكون لي علم كعلم الله، وهذا مستحيل، إذاً: أنا لا أعلم، وانتهى الأمر، بعد عشرين يوماً بالضبط أحد إخواننا الكرام يروي لي قصة على سبيل الموعظة، قال لي: لنا جار يسكن فوقنا تماماً، له أبناء أخيه الأيتام، لهم عنده بيت، ومضى على موت أبيهم سنوات وسنوات، والبيت متمسك به، ويرفض أن يعطيه لأولاد أخيه، وهو من حقهم، وهم في أمسّ الحاجة إليه، فلما اشتد الجدال بينهما احتكموا إلى الشيخ حسين خطاب ـ رحمه الله تعالى ـ كان شيخ القراء، القصة التي رواها لي أحد إخوتي، قال لي: استدعى الشيخ حسين هذا العم مع أولاد أخيه، ووقف موقفاً ظالماً، رفض أشد الرفض أن يعطيهم بيتهم، فقال الشيخ حسين: يا ابني، هذا عمكم لا يليق بكم أن ترفعوا ضده شكوى إلى المحاكم، هو عمكم اشكوه إلى الله، هذا هو نفسه الذي عنده محل في مدحت باشا، ثاني يوم نزل إلى المحل، سمع إطلاق رصاص، مدّ رأسه، فجاءت رصاصة، فاستقرت في عاموده الفقري، فشل فوراً، القصة بآخر فصلها لا معنى لها، إنسان بريء جاء ليكسب رزق أولاده، فتح المحل سمع إطلاق رصاص، مدّ رأسه لا ذنب له، لكن بعد أن فهمنا الفصل الأول والثاني والثالث، وكيف أنه منع أولاد أخيه حقهم في بيت، وبقي بيده سنوات وسنوات، وشكوه إلى الله، فجاء الرد الإلهي عمليًّا.

أنا أنصحكم أن كل قصة تعرفها من آخر فصل لا ترويها، لأنها لا معنى لها، أما إذا عرفت قصة من أول فصل إلى نهايتها فهذه القصة رسالة من الله.

زوجان يفترقان، المظلوم يوفقه الله، والظالم يدمره الله، شريكان، الله عز وجل له كل دقيقة مع كل إنسان رسالة، بعملك، بعلاقتك، بزوجتك، بأولادك، بكسب مالك، بإنفاقك.

إنسان جاء إلى معمل طلب لاصقات، طلب تقريباً مئتي ألف لاصقة، أرباحها جيدة، وإنجازها في أسبوع، هو خارج هذا الشخص، قال له: أريد هذه اللاصقات لعلب خمر، رفض، لم يترك المشتري طريقا، قال له: الطلب مرفوض، اختصم مع والده، والده أجبره، قال له: لا أفعلها، قال له: أطردك، قال له: اطردني، بعد عشرين يوماً جاء عرض بمئة ضعف الربح، ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه.

أقول لكم: إن ما يشدك إلى الدين ليست أفكار الدين، يشدك إلى الدين الرسائل العملية من الله، كلما اعتمدت عليه أيدك ونصرك، كلما استجرت به كفّ عنك عدوك، كلما تحريت الحلال رزقك، كلما أحسنت إلى زوجتك وفقك، كلما كنت باراً بأبيك رفع شأنك، وهناك رسائل يومية، بطولتك أن تفهم على الله هذه الرسائل، لا أن تظنها أشياء عادية، كل شخص تأتيه من الله رسالة ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

إذاً: الرسائل أبلغ من الرسائل الشفهية والكتابية، هذه رسائل عملية، فيها حقيقة مع البرهان عليها، فأنت كمؤمن ابحث حينما تأتي الأمور على خلاف ما تريد ابحث عن السبب، لا تكن ساذجاً، تقول ليس لي حظ، ما معنى حظ ؟ لا معنى لها:

قانون التيسر:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل]

هذا قانون التيسير:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

لا تقل: حظ، لا تقل: أنا الله لا يحبني، هذا كلام مرفوض، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، إذا قال العبد: يا رب و هو راكع، قال الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال: يا رب و هو ساجد، قال الله له: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب و هو عاص قال الله له: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك، الآية:

إياكم وسوء الظن با لله :

١ ـ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

[سورة الحج: ١٥]

أناس كثيرون سيئو الظن بالله، قال تعالى:

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

[سورة الحج: ١٥]

٢ ـ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ

أي اعمل عملاً صالحاً تبتغي به إرضاء الله عز وجل بينك وبينه:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

[سورة الحج: ١٥]

وقد فسر هذا السبب بعمل صالح تبتغي به مرضاة الله عز وجل، تصدق بمالك، عاون إنسان، أطعم فقيراً، ارع أرملة، أعن شيخاً متقدماً في السن، قال:

(ثُمَّ لِيَقْطَعْ)

[سورة الحج: ١٥]

٣ ـ ثُمَّ لِيَقْطَعْ

كلمة (ثم ليقطع) كي تتناسب مع كلمة (فليمدد) أي ليدع كل المعاصي والآثام، أي يستقيم، ويعمل عملاً صالحاً، وأنا أقول لكل إخوتي: من توهم أن القدر ضده، وأنه يمشي شرقاً فيسد الطريق فهو مخطئ، قال بعض الشعراء:

أغرب خلف الرزق و هو مشرق و أقسم لو شرقت راح يغرب

***

عنده سوء ظن، الدنيا كلها ضده:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

[سورة الحج: ١٥]

ليقدم عملاً خالصاً يبتغي به وجه الله ثم ليقطع كل معصية، ثم:

(فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

[سورة الحج: ١٥]

٤ ـ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظ

هذا الكيد ينتهي، هذا الوهم ينتهي، سوء الظن ينتهي، الله عز وجل يوفقه، أنا أكاد أقول: إذا كانت أمور الإنسان كلها معسرة باستمرار أنا أميل إلى أن أشك فيه، الله موجود، ما قال لكم: ادعونِي إلا ليستجيب لكم، ما قال: توبوا إلا ليتوب عليكم، ما قال: استغفروا إلا ليغفر لكم.

كل يوم لك ـ أيها العبد ـ رسالة فابحث عنها:

إذاً: أيها الإخوة الكرام، دقق في هذا اليوم في الرسائل الإلهية، في كل دقيقة رسالة من الله. الإمام الشعراني كان يقول: " أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي ".

أحياناً يكون في الإنسان فتور، زاغ بصره قليلاً، تنشأ مشكلة مع زوجته، لسبب تافه يتقاطعان أسبوعين أو ثلاثة، أحياناً يكون منضبطاً أشد الانضباط خارج البيت، يأتي إلى البيت يسبغ الله على الزوجة مودة وجمالاً لم يكن يتوقعه، أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، و قد تقول: الزوجة تعرف مقامها عند ربها من أخلاق زوجها، لذلك الأمن الجنائي عنده قاعدة تعجبني: في أي جريمة يقول لك: ابحث عن المرأة في هذه الجريمة، وراء الجريمة مشكلة مع امرأة، أنا أقيس على هذه القاعدة: في كل مشكلة تصيب الإنسان ابحث عن المعصية: ما تواد اثنان في الله ففرق بينهما إلا بذنب أصابه أحدهما.

أما القول الفاصل:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر]

ذلك بأن عطائي كلام، وأخذي كلام، كن فيكون، زل فيزول.

الآن:

((يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

لذلك لا تحاب نفسك إذا سارت الأمور على غير ما تريد، كن جريئاً، وكن واقعياً، واتهم نفسك، قل: أين الخلل ؟

أيها الإخوة الكرام، هذا الدرس حول رسائل ربنا جل جلاله لهذا الإنسان، أنت تتلقى في اليوم مئات الرسائل من الله، قد لا تنتبه، تظنها أفعالاً عادية، هذه رسائل، أحياناً تقول: يا رب، إني تبرأت من حولي و قوتي، و التجأت إلى حولك وقوتك، تجد توفيقاً عجيباً، تيسيراً عجيباً، إذا كان الله معك يخدمك عدوك، وإذا تخلى الله عنك يتطاول عليك أقرب الناس إليك.

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ و إذا كان عليك فمن معك ؟ فلذلك من التوفيق والذكاء والعقل أن تفسر كل ما يجري كرسائل من الله أين الخلل ؟

قصة رمزية:

مرة سأل عصفور سيدنا سليمان ـ القصة رمزية ـ هل الله عز وجل مهول أم عجول ؟ فلما سأل ربه هذا السؤال قال: قل له: إنني لست عجولاً، أنا مهول، أمهل، فهي اطمأنت أن معها وقتاً طويلاً، وجدت لحماً يشوى فخطفت هذا اللحم، وطارت به إلى عشها، بطرف اللحم التصقت جمرة، فلما وضع اللحم في عشها احترق العش كله، واحترق البيض، فعاد إلى سيدنا سليمان وقالت له: أنا سألتك: هل الله عز وجل مهول أم عجول ؟ فقلت: إنه مهول، فإذا هو عجول، قال له: يا رب، ماذا أقول له ؟ قال له: قل لها: هذا حساب قديم.

كل شيء محسوب، دقق، ولا تحابِ نفسك، لا تقل: ظروفي صعبة، القدر ضدي، القدر يسخر مني، لا حظ لي، هذا كله كلام لا معنى له إطلاقاً، ابحث عن الذنب، ابحث عن الخلل، وإذا ليس هناك خلل فأنت في امتحان كي تثبت ثباتك، إذا كنت متلبِّسًا بالمعاصي تكون هذه المصائب عقابا، وإذا كان فيك استقامة تكون هذه المصائب امتحانا وابتلاء كي يتأكد أنك ثابت على الحق، ولستَ تعبد الله على حرف.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٣٨-٦٠) : حاسب نفسك قبل أن تحاسب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

من المسلمات عند المؤمن: علمه بأن الله قائم على كل نفس بما كسبت:

أيها الإخوة الكرام، المؤمن يعلم علم اليقين أن الله قائم على كل نفس بما كسبت، محاسب على النقير والقطمير، والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، وأرباب البصائر عرفوا أن الله عز وجل لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، وسيطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم إلا لزوم المحاسبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمَن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب خفّ حسابه يوم القيامة، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته.

الموت مصيرك فحاسب نفسك قبل الحسلب:

لا بد من أن تحاسب، فحاسب نفسك قبل أن تحاسب، خاف الله في الدنيا من أجل أن تكون آمناً يوم القيامة، الموت مصير كل حي وما في حدث أكثر واقعية من الموت لا ينجو منه أحد لا ملك ولا نبي ولا قوي ولا غني، الموت مصير كل حي، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

البطل الذي حاسب نفسه قبل أن يحاسب، لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ)

[سورة آل عمران: ٢٠٠]

المقامات الستة للمحاسبة:

أولاً: لا بد من المشارطة والمراقبة، والمحاسبة والمعاقبة، والمجاهدة والمعاتبة، هذه ستة مقامات في المحاسبة:

المقام الأول: المشارطة:

المشارطة: أن يكون هناك حوار بينك وبين نفسك، دعيت إلى مكان يجب أن تشارط نفسك: لِمَ أذهب ؟ ما الذي ينتج عن ذهابي ؟ وما الذي ينتج عن عدم ذهابي ؟ راقب نفسك، تعاهد قلبك، هل يمكن أن تزلّ القدم إلى مخالفة ؟ هل تبتغي بهذه الزيارة وجه الله، أم تريد المتعة ؟ أنت حينما تحاسب نفسك يقلّ حسابك يوم القيامة.

المقام الثاني: المراقبة:

أما المراقبة، فقد سئل ذي النون: " بمَ ينال العبد الجنة ؟ قال: بخمس، باستقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة لله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب

المقام الثالث: المحاسبة:

محاسبة النفس، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة الحشر]

قال ابن كثير في تفسيره: " ولتنظر نفس ما قدمت لغد، أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم " قال تعالى:

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)

[سورة الإسراء]

يقول سيدنا عمر: << حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية >>.

والله أيها الإخوة الكرام، الذي يرتكب إثماً، أو يحابي ظالماً، أو ينافق، أو يظلم، أو يتجاوز الحدود، والله يوم القيامة سيذوب ندماً على هذا العمل، فالبطولة ألا تندم والبطولة، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إياك وما يعتذر منه))

[الطبراني في الأوسط عن ابن عمر بسند حسن]

اعمل عملاً لا تحتاج أن تعتذر منه يوم القيامة، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر]

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيءٌ شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

المحاسبة نوعان:

النوع الأول: المحاسبة قبل العمل:

هناك محاسبة في الدنيا قبل الآخرة، يقول ابن القيم: " محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده، أما النوع الذي قبل العمل أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه، فإذا تأكدت أن الفوائد من هذا العمل أكثر من تركه بادر إليه، هذه محاسبة قبل العمل، ورحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر، وقف عند همه، ما النية التي وراء هذا العمل ؟ إن كان لله تقدم، وإن كان لغيره تأخر.

النوع الثاني: المحاسبة بعد العمل:

أما محاسبة النفس بعد العمل فهي ثلاثة أنواع:

النوع الأول:

محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله عز وجل، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة النبي الكريم، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه ،

النوع الثاني:

أن يحاسب نفسه على كل عمله ترْكُه خير من فعله، في عمل فعْلُه خير من تركه، في عمل حفلة ليست كما ينبغي، فيها دنيا، فيها مباهاة، فيها ترف، فيها علو، والمدعوون لهذا الحفل لا يتحملون كلمة حق، كلهم غارقون في ملذاتهم، بل اذهبْ إلى حفل متواضع في الريف، وتكلم كلمة تحيي بها القلوب أفضل من هذا الحفل.

أنا أقول دائماً: تلبية دعوة المترفين من الدنيا، وتلبية دعوة الفقراء من الآخرة، أحياناً يدعوك لدعوة، فتقول لا وقت عندي والله، دعوة ثانية تلبيها بالتمام والكمال دعوات المترفين تلبيتها من الدنيا، ودعوات المؤمنين الفقراء تلبيتها من الآخرة.

النوع الثالث:

أن يحاسب نفسه على أمر، مباح أو معتاد لِم فعله ؟ على فعل فعْله أفضل من تركه، وعلى فعل ترْكه أفضل من فعله، وعلى مباح يستوي فعله وتركه.

أركان المحاسبة:

المحاسبة لها أركان ثلاثة:

الركن الأول:

أن تقايس بين نعمة الله وجنايتك ؛ أنعم عليك بنعمة البصر فهل استخدمت هذا البصر في طاعة أو في معصية ؟ أنعم عليك بنعمة السمع، فهل استخدمت هذا السمع لما لا يرضي الله لسماع الأغاني، أو سماع غيبة، أو نميمة أو فسق ؟ أن تقايس بين النعم التي وهبك الله إياها والجناية التي يرتكبها الإنسان.

الركن الثاني:

أيها الإخوة الكرام، ومن أركان المحاسبة أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، بين ما لك وما عليك، فالذي لك هو المباح الشرعي، فعليك حق، ولك حق، فأدِ ما عليك يؤتك ما لك.

عبدي، لي عليك فريضة، ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسَلِطَنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سَلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

لا بد من معاتبة النفس ومحاسبتها:

أيها الإخوة الكرام، يقول أبو الدرداء: " لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً ".

وجدت عملاً سيئاً يجب أن تنزعج، خيانة، انحرافا، كذبا، نفاقا، إن لم تنزعج فهناك مؤشر خطير، الثوب كلما كان نظيفاً تظهر عليه أية بقعة، بخلاف الثوب الوسخ.

" لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ، العمل فيه خيانة هذا إنسان متزوج، يقيم علاقة حميمة مع امرأة في العمل، وتقول له: لبق، ولطيف، وفهيم، وآدمي، منسوب لآدم فقط، والآن أساساً في الزواج يكون كتلة أخطاء ثم هو آدمي، أنا والله من وقت نشأت إلى الآن ما حضرت عقد قران إلا وكانت الفتاة تحفظ كتاب الله، كله كذب، ومبالغات، بعد العرس ترى أشياء لا تحتمل، المبالغة بالمديح، المبالغة بالثناء، الذم بغير عدل أحياناً، فإذا وازنت عملاً مع الكمال الإلهي مع الكمال النبوي، مع كمال المؤمنين تنزعج، فإن لم تنزعج فهناك مؤشر خطير، لكن لا يعني هذا أن تنزعج، وتحابي نفسك، بل ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً، مثلما تحاسب الآخرين تحاسب نفسك أشد من محاسبة الآخرين، فدائماً المؤمن يتهم نفسه، أحد التابعين يقول: " التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحد إلا وهو يظن نفسه منافقاً "، من شدة محاسبة النفس.

أيها الإخوة الكرام، الإمام الحسن البصري في قوله تعالى:

(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

يقول: " لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردت من كلمتي ؟ ماذا أردت بأكلتي ؟ ماذا أردت بشربتي ؟ والعاجز يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

إن معاتبة النفس مرتبة عالية جداً، لا تحابي نفسك أبداً أينما تجلس الإنسان دون أن يشعر يكيل لنفسه المديح ويكون في أخطاء لا تحتمل وتناقضات لا تحتمل لكن مديح الذات شيء من حظوظ الدنيا.

يقول الإمام الحسن البصري: " المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل وإنما خف حسابه يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة ".

الآن أكثر الناس يقولون: لا تدقق الله، غفور رحيم، لا يجب أن تدقق، لأن الله عز وجل يقول في ثماني آيات:

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة النحل]

أما في قوله تعالى:

(وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف]

هذه الآية فهمها الإمام قتادة فقال: " أضاع أكبر الضيعة، أضاع نفسه، وعسى مع ذلك أن تجده حافظاً لماله مضيعاً لدينه ".

والله قد تجد إنساناً حريصاً على المال حرصاً يفوق التفوق، بذكاء، بإيصالات، بتوقيع مسبق على ورق أبيض، عنده أساليب عجيبة لحفظ ماله، أمّا دينه فمهمل، دينه لا تدقق، أما في حفظ المال يدقق، فلمَ لا يكون هذا التدقيق في موضوع الدين ؟

ويقول بعض العلماء: " لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ". هناك شريك صعب جداً، يجب أن تحاسب نفسك كما يحاسبك شريكٌ صعبُ المعاملة، رحم الله عبداً قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، فكان لها قائداً.

مرة سيدنا عمر وهو على المنبر في نصف الخطبة قال: << كنت عميرا ترعى الإبل على قراريط بمكة >>، هذا الكلام ليس له معنى، فلما انتهت الخطبة سأله بعض الأصحاب: ما حملك على ما قلت ؟ فقال: جاءتني نفسي، وقالت: ليس بينك وبين الله أحد، أنت أعلى إنسان، أردت أن أعرفها قدرها، أنت كنت عميراً ترعى الإبل على قراريط بمكة.

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

فطرتك تنبؤك بخطئك بشكل عفوي، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة]

وقد قال الله عز وجل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

قصة من واقع الناس:

أختم الموضوع بقصة سمعتها من رجل من وجهاء هذه البلدة، كان يعمل تاجر غنم، وتاجر صوف، لما تقدمت به السن سلّم العمل لابنه، ابنه جاهل، فسمع أن هؤلاء البدو هكذا قال لي بالضبط: ينبغي أن تذبحهم يعني بالمعاملة، فقال لي: أول رحلة لي من أجل أن أشتري الصوف ذهب، معه سيارة وميزان عند مورد والده معروف، فاشترى كمية، لكن هذا البدوي يسمع الوزن التفصيلي أول مرة في حياته، فيضع الجزة بالميزان، يقول له: ثلاثة وعشرون كيلو وثمانمئة غرام، هذه أعجبته، فيها دقة بالغة، فقال: والله هذا الوزن جيد، هذه جديدة عليه، هي تكون ثلاثة وثلاثين فيقول له: ثلاثة وعشرون وثمانمئة غرام، أوهمه بالثمانمئة، وأخفى الفرق عشرة كيلو، لكن هذا البدوي عنده شعور حاسة سادسة هذه، الكمية ثمنها ثلاثون ألفاً، ولكن وجد ثمنها عشرين ألفاً، في وقتها تفاجأ، فقال له باللغة البدوية: إن شاء الله تلقاها في صحتك، ما معه جواب، الوزن أمامه، لكن لا يدقق بالأرقام، لأنه لا يفهم، قال لي: ذهبت، هذه القصة رواها لي صاحبها، مشيت ودخلت في صراع مع نفسي، ارجع أعتذر منه، وجدها صعبة، ارجع مرة ثانية، قال لي: من مكان شراء البضاعة حتى بلدة اسمها الضمير، أنا في صراع مع نفسي، أرجع، أعتذر، أرجع المبلغ، اسكت، قال لي: بهذا المكان أخذت قراراً، قال لنفسه: ضع في الخرج، قال لي: والله ما أكملت هذا الخاطر حتى وجدت نفسي وسط بركة من الدماء، السيارة أصابها حادث، وقلبت، وتناثر الصوف، وسال السمن كله، وهو وسط بركة من الدماء.

القصة نموذجية، كان في صراع، فتركه الله حتى أخذ قراراً، وعندما أخذ القرار عاقبه الله.
الآية:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف]

إذا أخطأت، وأنت تحاسب نفسك يتركك الله، فإذا اتخذت قراراً سلبياً يأتي العقاب، قال تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف]

أصلح الأمور مادمت في الحياة:

أيها الإخوة الكرام، الأمر خطير جداً، كل بني آدم خطاء، لكن في الدنيا اعتذار، وتعويض، وهدية، والهدية تذهب بوحر الصدر، والاعتذار مقبول، والخطأ المالي تدفع المبلغ، فما دمت في الدنيا فكل شيء له حل، أما إذا توقف القلب ختم العمل، فكل بني آدم خطاء، لكن بطولتك أن تعتذر، وأن تحاسب نفسك حساباً عسيراً ليكون حسابك يوم القيامة يسيراً.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة .

استنباطان من قوله تعالى: يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

اليوم مع آية في سورة الروم، يصف الله أهل الدنيا أو الكفار بأنهم:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم الآية: ٧)

أثبت الله لهم العلم، ولكن بظاهر الحياة الدنيا.

١ – الدنيا مزرعة الآخرة:

هناك معنى ينطوي في هذه الآية، فما الذي ينطوي في هذه الآية ؟

أنهم لا يعلمون حقيقة الحياة الدنيا، الدنيا مزرعة الآخرة، أهل الجنة وهم في الجنة وهم يتمتعون يقولون:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

(سورة الزمر الآية: ٧٤)

لولا أن جيء بنا إلى الدنيا، أعطينا الشهوات، أعطينا حرية الاختيار، كان الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى، لولا أننا فُطرنا فطرة تتفق مع منهج الله، الكون والعقل والفطرة، والشهوة، والحرية، والوقت، لولا أن الله سبحانه وتعالى جاء بنا إلى الدنيا، وفي الدنيا تعرفا إلى الله، وأطعناه وأقبلنا عليه، وتقربنا إليه لما كنا في الجنة.

للتقريب:

طبيب لامع جداً، دخله فلكي، هذا الدخل الفلكي هيأ له دخل كبير جداً، ومركبة فارهة وبيت في المصيف، وبيت على البحر، ودخل مكنه أن يقتني كل الأجهزة الكهربائية، وأن يرتدي أجمل الثياب، ذات مرة مرّ أمام جامعته، فقال: لولا هذه الجامعة، لولا أنني التحقت في هذه الجامعة، ودرست سنوات طويلة، ولم أنَم الليل، وكان الأساتذة أشداء في النجاح، والأسئلة غير متوقعة، وكلفونا بأطروحات، لولا جهود جبارة بذلتها في هذه الجامعة لما كنت في هذا الحال.

إذاً:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا)

٢ – الدنيا جنة بمعرفة الله وطاعته:

والله أيها الإخوة، الدنيا جنة للمؤمنين، جنة لأن فيها معرفة الله، فيها العمل الصالح، فيها إلقاء العلم، فيها تعلم العلم، فيها تربية الأولاد .

تماماً: كما لو أن بيتاً فيه كل الأجهزة الكهربائية، لكن ما فيه كهرباء، فكل هذه الأجهزة لا قيمة لها إطلاقاً، قطع معدنية، عبء، لكن إذا جاءت الكهرباء برد البراد والمكيف، ودارت المروحة، و سخن الميكرو ويف، و غسلت الغسالة، فكل هذه الأجهزة من دون كهرباء لا معنى لها.

٣ – الدنيا عند الكافر متعة مادية:

الآن الأجانب، والله أنا في سفري أرى إتقانا للحياة لا يصدقه العقل، إتقان، نظام، ضبط المرور، الأبنية، حاجات الإنسان، كل حضارة الغرب بكل ما فيها من أجل هذا الجسم فقط، حتى إن هناك فُرشا فيها تسخين في الشتاء، وهناك فُرش تقلّبك.

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف الآية: ١٩)

هناك ثلاجات كل ما المادة نقصت في حساسات، تبلغ السوبر ماركت، البراد نفسه يعطي رقم البطاقة لصاحب البيت، وتأتي المواد الناقصة، وصاحب البيت لا يعلم، كل شيء نقص بالبراد، من لحوم، من أجبان، من فواكه، الذي رأيته في سفراتي شيء لا يصدق، كله من أجل هذا الجسم فقط.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا)

٣ – شقاء النفس بالبعد عن الله:

أما هذه النفس تشقى ببعدها عن الله، تنحط، تمارس الشذوذ لئيمة، دنيئة، قذرة، تبني مجدها على أنقاض البشر.

مثلاً: يمكن أن يعدم عشرون مليون رأس غنم بإطلاق الرصاص عليهم، ثم دفنهم، وشعوب تموت من الجوع، من أجل الحفاظ على أسعار اللحوم مرتفعة، إنهم وحوش، أما دنياهم فأتقنوها إتقانا يفوق حد الخيال.

الأجهزة الآن حديثة، أحياناً هذا الهاتف كل شيء فيه، كمبيوتر، إنترنت، بريد إلكتروني، كل الأجهزة الحديثة في هاتف صغير، الحسابات، القرآن، الصور، الفيديو، بجهاز صغير، أتقنوا الدنيا إتقانا يفوق حد الخيال .

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(سورة الروم)

وهم عن الأخرة هم غافلون:

كهذا الجهاز أكثر من، يمكن القرآن كله، وكأنك تستمع إلى القرآن من استريو لا وزن له.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

والله الذي يدخل معرض الإلكترونيات يرى شيئًا لا يصدق، لكن عندهم شذوذ، وانحراف، وإجرام، وقهر، ونهب، وكذب وإرهاب، هؤلاء الذين أتقنوا الدنيا، قنابل ذكية، قنابل عنقودية، قنابل انشطارية، قنابل كيماوية، قنابل فسفورية، قنابل نابالم، قنابل حارقة خارقة.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

حقيقة الدنيا:

١ ـ حقيقة الدنيا معرفة الله:

حقيقة الدنيا أن تعرف الله، حقيقة الدنيا أن تطيعه، حقيقة الدنيا أن تتقرب إليه، حقيقة الدنيا أن يكون لك عمل صالح، حقيقة الدنيا أن تتصل بالله عز وجل.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

٢ ـ الكفار يعلمون ظاهر الحياة الدنيا دون الباطن:

آية دقيقة جداً، المعنى الذي تشير إليه الآية أنهم يعلمون الظاهر، وغاب عنهم الباطن، غابت عنهم حقيقة الحياة الدنيا، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

لذلك أيها الإخوة، الآن دقق متى أعرف حقيقية الحياة الدنيا ؟

كيف تعرف حقيقة الحياة الدنيا ؟

التفكر في خلق السماوات والأرض:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

(سورة الروم الآية: ٨)

معنى: بالحق:

ما معنى

(بِالْحَقِّ)

لهدف كبير.

أنت أحياناً تشاهد جناحا في معرض، أحياناً مصنوع من قماش، أحياناً مواد رخيصة جداً، أما حينما تبني جامعة فإنك تبني هذه الجامعة لتبقى، أما هذا المعرض فمدته أسبوع، هذا البناء الخفيف يُبنى ليزال بعد أسبوع، أما جامعة فبنيت لتبقى.

فكلمة

(بِالْحَقِّ)

تعني الديمومة، وكلمة

(بِالْحَقِّ)

تعني الهدف، تعني شيئًا هادفا وثابتا، الحق هادف وثابت، الباطل زائل وعابث، هذا تعريف الحق. الجامعة ما هدفها ؟ تخريج قادة للأمة، علماء، اختصاصيين، أطباء، مهندسين، علماء فلك، علماء فيزياء، كيمياء، رياضيات، علماء تاريخ، جغرافيا، الجامعة لها هدف كبير هو تخريج قادة للأمة، وبناءها ثابت، بنيت لتبقى، هذا الحق.

أحياناً بناء (السيرك)، ما هدفه ؟ السيرك هدفه إمتاع الناس بمتعة حسية طارئة بألعاب بهلوانية، وبعض الحيوانات، وخيمة، فالسيرك أنشئ ليزول، وليس له هدف نبيل، الباطل زائل وعابث، والحق ثابت وهادف، قال تعالى:

(أولَمْ يَتَفكَّرُوا فِي أنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ)

الآن دقق:

(وَأجَلٍ مُسَمًّى)

(سورة الروم الآية: ٨)

الحياة مهما طالت فهي قصيرة:

ألم يخطر في بالك أن الحياة قصيرة، سماوات، وأرض، وجبال، وبحار وأنهار، ومجرات، وليل، ونهار، وشمس، وقمر، من أجل أربعين سنة، نرجو أن تستطيع أن تقف على قدميك بعد أربعين سنة، يقول لك: لي ثلاثون سنة، الحمد لله لي بيت، لكنه قبو وشمالي، وفيه ستون مترا، وأكثر المنايا من الستين إلى السبعين، ٥٦ ـ ٥٥ ـ ٤٩ ـ ٣٨ ـ أليس هذا سؤالا كبير.

لماذا كانت الحياة قصيرة ؟

لماذا الحياة قصيرة ؟ لأن الحياة ليست هدفاً، هي ممر.

عندنا سؤال كبير: معظم الناس عندهم إشكاليات، لماذا العمر قصير ؟ حتى الإنسان يقف على قدميه ويكون له دخل، ويركب مركبة، ويسكن بيتا أقلّ شيء يلزمه أربعون سنة، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين، الحد الأدنى ٦٠، والإعداد ضعف الاستهلاك.

١ – لأنك مخلوق للآخرة:

هنا سؤال كبير: حينما تؤمن بالآخرة فقد توازنت، أنت مخلوق للآخرة، لماذا مدة الدراسة في الجامعة أربع سنوات علم، أما هذا العلم فتنتفع منه لآخر الحياة، وليس معقولا أن تكون مدة الدراسة في الجامعة ثلاثين سنة، غير معقول، الجامعة أربع سنوات، لكن بعدها ٣٠ سنة تنتفع بهذا العلم، دقق في الآية:

(أولَمْ يَتَفكَّرُوا فِي أنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ وَأجَلٍ مُسَمًّى)

هناك قطع، الموت ينهي كل شيء، ينهي غنى الغني، وفقر الفقير، وقوة القوي، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، صحة الصحيح، ومرض المريض، هذا القطع فيه حكمة.

٢ – أنت في الدنيا في دار عمل:

أنت في دار عمل، لا في دار أمل، أنت في دار تكليف لا دار تشريف.

هل يمكن لطالب أن يكون أمامه في الصف موالح، سندويش ساخن، وشاي، وقهوة ومجلات، ومقعد مريح ؟ لا، بل يكون المقعد خشبا بزاوية قائمة، أما الأولى فيفعلها في بيته، لما يأخذ شهادات يشتري بيتا، الآن يتنعم، نحن في دار عمل، فأخطر عمل أن تقلب هذه الدنيا إلى دار متعة، دار راحة.

لذلك:

(وَأَجَلٍ مُسَمًّى)

هناك قطع.

أكثر الناس كافرون بالبعث والحساب:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)

كثير من الناس، ولن تجد إنسانا ينكر الآخرة، لكن قلّمَا تجد إنسانا يعمل للآخرة، يعمل للدنيا فقط، برنامجه اليومي، معطياته، اهتماماته الدنيا فقط، قلّمَا تجد إنسانا يعمل للآخرة ينفق من ماله، من وقته، من علمه، يتقرب إلى الله بالعمل الصالح.

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)

١ – لابد من نقل الاهتمام بالآخرة:

والله عز وجل ما جمع ركنين من أركان العقيدة كما جمع الإيمان بالله واليوم الآخر، وما لم تنتقل اهتماماتنا إلى لدار الآخرة فلن نفلح، أؤكد لكم إذا أدخلتم الآخرة في حساباتكم يجب أن تنعكس كل مقاييسكم، فقد تجد الذكاء بالأخذ، بعد الإيمان باليوم الآخر تجد الذكاء بالعطاء، قبل الإيمان باليوم الآخر الذكاء في استهلاك جهد الآخرين، بعد الإيمان باليوم الآخر الذكاء بتقديم جهدك للآخرين، قبل الإيمان باليوم تريد أن يعيش الناس لك، بعد الإيمان باليوم الآخر تعيش للناس، قبل الإيمان باليوم الآخر أنت تملك رقاب الناس، لكن بعد الإيمان باليوم الآخر تملك قلوبهم.

مرة ثانية: إذا لم تنعكس مقاييسك كلها بعد الإيمان باليوم الآخر ١٨٠ درجة فإيمانك فيه إشكال.

لذلك:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)

هل تصدق أن إنسانا قويا يهدم بيوتا، ويبيد شعوبا، ويتفنن بإذلال شعوب، ويسفك دماء، ويموت ولا شيء بعد الموت ؟! وإنسان قُهر، وقُتل، ودُمر، ولا شيء بعد الموت ؟!

الإيمان بالآخرة ثابت عقلا:

إخواننا الكرام، الإيمان بالآخرة عقلي، فإن لم يكن هناك شيء بعد الموت فهناك شك بوجود الله يصبح.

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

(سورة الروم الآية: ٢٧)

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

(سورة طه)

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ* لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ *خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

(سورة الواقعة

لا تقل: أنا إنسان بسيط، أنا من عامة الناس، من الدرجة العاشرة، أنا في الدرجة الدنيا في السلم الاجتماعي، ابتغوا العزة عند الله، أنت إذا كنت مستقيماً ومؤمناً فقلامة ظفرك تساوي كل نجوم الأرض، قصدت بالنجوم أشخاصا لامعين، لكنهم ليسوا مؤمنين، وهناك أشخاص لامعون، وأشخاص عندهم دخل فلكي.

إذاً: عندك إيمان بآيات الله الكونية، والتكوينية:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

(سورة الروم)

هذه حال الأولين فاعتبرو يا أولي الأبصار !!!

الأهرام قبر، قبر مَلك، هل تصدق أن فيه نوافذ مدروسة دراسة مذهلة، حيث إن الشمس لا تدخل من هذه النافذة إلا في يوم واحد، هو يوم وفاته، وهي نافذة ضيقة جداً، ولها زاوية معينة لا يمكن أن تتوافق زاويتها مع أشعة الشمس إلا في يوم واحد، الشمس تدخل الأهرام في يوم وفاة هذا الملك، فهل عندنا مهندسون يصممون نافذة بيت تدخلها الشمس في يوم واحد في السنة كلها ؟ أنا دخلت إلى الأهرامات، الإنسان كما هو محنط، الخبز، كل حاجاته، عندهم إيمان مضحك، أنه يحتاج للطعام والشراب بعد الموت، فعنده خبز من ٦ آلاف سنة، ومركبات، وذهب، هذا رمسيس كله ذهب، كل أصبعة ملبسة بغلاف ذهبي تقريباً، هكذا يعتقدون.

الله عز وجل يقول:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

القاهرة رمل، من أين جاؤوا بهذه الصخور ؟ وكيف رفعوها ؟ الأهرامات معجزة، أين الوسائل ؟ أين الرافعات ؟ من أسوان جاؤوا بالصخور كيف نقلت، الصخرة قد غرفة، وزنها مئات الأطنان، كيف حُملت ؟ كيف رُفعت ؟

(كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

اهتمام الإسلام بالنفس والجسد:

إخواننا الكرام، الحضارة الغربية بأكملها تتجه إلى جسم الإنسان، تتجه إلى حياته الدنيا، لكن الدين الإلهي، لكن الإسلام يتجه إلى النفس ليسعدها إلى أبد الآبدين، والفرق كبير بين سنوات تقضيها في متعة، وبين أن تكون سعيداً بربك، فيأتيك ملك الموت وأنت أسعد الناس بهذا اللقاء.

لذلك تعرفوا إلى حقيقة الحياة الدنيا، أهل الدنيا:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

وبطولتكم أنتم أن تعرفوا حقيقة الحياة الدنيا، الدنيا معرفة الله، وطاعته، والتقرب إليه بالعمل الصالح، هذه حقيقة الحياة الدنيا.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٠-٦٠) : علو الهمة في تحري الحق والثبات عليه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، مع درس جديد من دروس صلاح الهمة في علو الهمة.

علو الهمة في تحري الحق والثبات عليه:

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً :

موضوع اليوم علو الهمة في تحري الحق والثبات عليه.

كنت أقول دائماً: بعض المفسرين يفسرون قوله تعالى:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

بعضهم قال: الرسول هو العقل، وكنت أقول: إن العقل كافٍ لمعرفة الله، وأن بعثة الأنبياء والرسل عطاء زائد .

كما لو أن طالباً كان في مدرسة في أعلى مستوى، أن يضع له أبوه أستاذاً خاصاً هذا فوق ما ينبغي.

١ ـ عقل الإنسان يصل به إلى الله:

لكن اليوم معي قصة، تؤكد هذه الحقيقة بشكل جلي، عقل الإنسان يمكن أن يصل به إلى الله، وفطرته تكشف له خطأه، والذي لم تصل إليه رسالة يحاسب على أصلين من أصول الهدى، يحاسب على عقله الذي كان كافياً لمعرفة ربه، ويحاسب على فطرته التي كانت كافية لمعرفة خطأه.

زيد بن عمرو بن نفيل لإعمال العقل في البحث عن الحقيقة:

قصة زيد بن عمرو بن نفيل الذي يبعث أمة وحده، نموذج جليل لتحري الحق ، قال الذهبي في أعلامه:

كان زيد بن عمرو ممن فرّ إلى الله من عبادة الأصنام، هذا حياته قبل بعثة النبي، وهو ممن فرّ إلى الله من عبادة الأصنام، وساح في أرض الشام يتطلب الدين القيم، وكان يقول: اللهم إني على دين إبراهيم، ولكن لم يظفر بشريعة إبراهيم عليه السلام كما ينبغي ، ولا رأى مَن يطلعه عليها، وهو من أهل النجاة.

فقد شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بأنه يُبعث أمة وحده، ولم يبلغ بعثة النبي، وهو ابن عم الإمام عمر بن الخطاب، رأى النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعش حتى بُعث، مات قبل بعثته. نقل يونس بن بكير، وهو من أوعية العلم بالسِّيَر عن محمد بن إسحاق قال: كان نفر من قريش، زيد بن عمر، وورقة بن نوفل، وعمان بن الحارث وعبيد الله بن جحش، وأميمة ابنة عبد المطلب حضروا قريشاً عند وثنٍ لهم، أيْ صنم كانوا عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا أولئك النفر بعضهم إلى بعض، وقالوا: تصادقوا وتكاتموا، فقال قائلهم: تعلمون والله ما قومكم على شيء، أدركوا أن قريشا ليست على شيء حينما عبدت أحجاراً لا تنفع ولا تضر، لقد أخطئوا دين إبراهيم، وخالفوه، فما وثنٌ يعبد، ولا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم، قال: فخرج، وسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والمِلل كلها، يتطلبون الحنفية، فأما ورقة فتنصر، واستحكم في النصرانية، وحصن الكتب، وعلم علماً كثيراً، ولم يكن فيهم أعدل شأناً من زيد، اعتزل الأوثان والمِلل إلا دين إبراهيم، يوحد الله تعالى، ولا يأكل من ذبائح قومه، وكان الخَطّاب عمه قد آذاه، والد عمر، قد آذاه، فنزح عنه إلى أعلى مكة، فزل حراء فوكل به الخطاب شباباً سفهاء، لا يدعونه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلا سراً، وكان الخطاب أخاه أيضاً من أمه، فكان يلومه على فراق دينه، فسار زيد إلى الشام والجزيرة والموصل، يسأل عن الدين، دين إبراهيم.

أرأيتم إلى البحث عن الحقيقة.

إن الدين شيء مصيري أيها الإخوة، نحن في حياتنا أشياء طارئة وعارضة، لا تقدم ولا تؤخر. للتقريب: نجاح الطالب من السابع إلى الثامن لا يقدم ولا يؤخر بأي درجة، من السابع إلى الثامن، من الثامن إلى التاسع، أما نجاحه في الشهادة الثانوية فعلاماته تحدد مصيره، فبعلاماته يكون طبيباً، أو صيدلانياً، أو طبيب أسنان، أو في جامعة في دمشق، أو في اللاذقية، أو في حلب، علاماته تحدد مصيره.
عندنا أشياء بحيتنا كثيرة جداً لا تقدم ولا تؤخر، عرضية، أما دينك مصيري الأبد متعلق بدينك، إما في جنة يدوم نعيمها، أو نار لا ينفد عذابها.

قال ابن عمر: إن زيد بن عمرو خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم فقال: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: وما أفر

إلا من غضب الله تعالى، أنا أفر من غضب الله، فيكف آخذ نصيباً من غضب الله ؟ ولا أحمل من غضب الله شيئاً، ولا أستطيعه، فهل تدلني على غيره ؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنفياً، يعني على ملة إبراهيم حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم عليه السلام، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد فلقي عالماً من علماء النصارى، فذكر مثله فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله، فقال زيد: وما أفر إلا من لعنة الله، هل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً، قال: وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم.

قال الليث: كتب إلي هشام بن عروة عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيداً بن عمرو قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة، عكس الوأد، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها، هذا ذكره البخاري.

القصة أهميتها تنبع من أن إنساناً ما عنده رسالة، ولا قرآن، ولا كتاب سماوي، إلا أنه فكر، فرأى أن قريشاً ليسوا على شيء، وأنهم يعبدون أوثاناً لا تضر ولا تنفع، وأنهم يعملون أعمالاً لا ترضي الله.

ألم أقل لكم: إن عقل الإنسان يكفي لمعرفة الله عز وجل ؟ وحينما ذُكر خبره للنبي قال: إن زيداً يُحشر يوم القيامة أمة وحده، ومات قبل بعثة رسول الله.

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة لزيد لما رآه:

((ما لي أرى قومك قد شنفوا لك ؟))

[تاريخ الإسلام للذهبي]

يعني أبغضوك.

معركة الحق والباطل أبدية سرمدية:

ودائماً أهل الحق لهم أعداء، وهذه معركة أزلية أبدية، وأتمنى أن أوضح لكم أن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يجتمع المؤمنون وغير المؤمنين في مكان واحد، في كل أرجاء العالم، ومن اجتماعهم تنشأ معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، وقد شاء الله عز وجل لهذه المعركة أن تكون.

الحكمة من أزلية المعركة بين الحق والباطل:

أولاً: ليمتحن أهل الحق، هل هم ثابتون.

ثانياً: لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي.

ثالثاً: لأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا للبذل والتضحية.

إخوتنا الكرام، هذا قدرنا أن نعاني من معركة الحق والباطل، هي معركة قديمة جداً، فهذا الإنسان واحد، لأنه اعتزل قومه قريشا، ولم يرَ دينهم صحيحاً، ولم يقبل أن يعبد وثنا من دون الله، ولم يقبل أن توأد الفتاة، ولم يقبل أن يأكل من ذبائحهم، غضبوا منه وقاطعوه، والخطّاب والد سيدنا عمر منعه من دخول مكة، فكان يدخلها سراً في الليل الحصار، لأن أهل مكة حاصروا النبي الكريم وأصحابه في شعابها، حتى أكلوا ورق الشجر الحصار، والمؤامرة قديمة، وكراهية الحق قديمة، ونحن في معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل، كل مرة تأخذ شكلا، الآن شكلها أن ثمة محاور الشر، المسلمون في العالم هم محور الشر، طيب، ماذا فعلوا ؟ يُقتلون كل يوم، بالألوف.

وقتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

هجمة شرسة على الإسلام في ظل تناقضات العالم:

عشرة آلاف أسير لا أحد يتكلم كلمة في العالم، وأسْرُ جندي واحد تقوم الدنيا عليه، ولا تقعد، التناقض الذي في العالم الغربي يلفت النظر، هم يدّعون الحرية، وحقوق الإنسان، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، وهذا قدرنا، لأن الجنة لها ثمن، والثمن باهظ.

((ألا إن سلعة الله غالية))

[أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة]

لا تعجب من هذه الهجمة الشرسة على العالم الإسلامي شيء قديم، ومستمر وسنعاني منه في المستقبل، ولكن ليست البطولة ـ ودققوا ـ أن تنجو من مشكلة، ولكن البطولة أن تقف منها الموقف الكامل، البطولة أن تستوعبها، البطولة أن ترى أنها قدرك لا مفر منه، ولا بد من أن تتحرك، فالنبي عليه الصلاة والسلام لما رأى زيداً قال: ما لي أرى قومك قد شنفوا لك ؛ أي أبغضوك، قال: أما والله إن ذلك مني لغيري نائلة كانت مني إليهم يعني ما فعلت معهم شيئاً، ولكني أراهم على ضلالة. بل إن قصة قابيل وهابيل قصة نموذجية، قابيل قوي وليس على حق، هابيل مؤمن، لكنه ضعيف، والبشر الآن قبابلة، أوهبابلة، القبابلة أقوياء وقحون، يكذبون، إرهابيون، يتفننون في إبادة الشعوب،

القبابلة أقوياء، والهبابلة مؤمنون، لكنهم ضعفاء، وكم نتمنى أن يأخذ الهبابلة من القبابلة بعض القوة. لذلك النبي عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة قوى الإيمان حتى بلغ إيمان الصحابة أعلى مستوى، فلما انتقل به إلى المدينة طالب بحق القوة، صار له كيان، وحارب المشركين، وانتصر عليهم، ووجه الجيوش إلى بلاد الروم وبلاد الفرس.

فقال: إن ذلك مني لغير نائلة كانت مني إليهم، ولكني أراهم على ضلالة يا رسول الله، ما كان رسول الله، يا محمد، فخرجت أبتغي الدين، حتى قدمت على أحبار أيلة فوجدتهم يعبدون الله، ويشركون به، فدُللت على شيخ في الجزيرة، فقدمت عليه فأخبرته فقال: إن كل من رأيت في ضلالة، إنك لتسال عن دين الله وملائكته، إن كل من رأيت في ضلالة، يكن أن يكون الضلال في الأعم الأغلب يعم معظم البلاد، إنك لتسأل عن دين هو دين الله وملائكته، وقد خرج في أرضك نبي أو هو خارج، ارجع إليه واتبعه، ورجعت فلم أحس شيئاً، ومات زيد قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما علم النبي بموته، قال: يأتي يوم القيامة أمة وحده.

يمكن أن تصل إلى الله بعقلك، يمكن أن تنكر المنكر بفطرتك، يمكن أن تحق الحق بفطرتك، يمكن أن تهتدي إلى خطأ قومك، الله عز وجل قال:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)

نعيم بن مسعود صورة أخرى لإعمال العقل بحثا عن الحقيقة:

نُعيم بن مسعود زعيم غطفان، جاء ليحارب النبي العدنان، هو في الخيمة قُبيل المعركة، فكّر، قال: يا نعيم ـ هذا حوار ذاتي ـ لمَ جئت إلى هنا ؟ من أجل أن تحارب هذا الرجل الصالح ؟ ماذا فعل حتى تحاربه ؟ هل سفك دماً ؟ هل انتهك عرضاً ؟ هل نهب مالاً ؟ أين عقلك يا نعيم.

الفطرة العقل ميزان للخير والشر :

إخواننا الكرام، لحظة عقل، لحظة تفكر، لحظة تأمل، لحظة محاسبة للنفس، والله الذي لا إله إلا هو ما من خطأ ترتكبه إلا و تخبرك فطرتك أنه خطأ، وما من عمل طيب تعمله إلا وفطرتك تخبرك أنك على صواب تخبرك هذا معنى قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

إذاً عقلك يكفي لمعرفة الله، وفطرتك تكفي لمعرفة خطئك، والذي لم تصله رسالة، لا تظن أنه معفى من الحساب، لكن هو معفى من تفاصيل الشريعة، إذا في أوامر تفصيلية معفى منها، أما

الخطأ في الإيمان والكفر محاسب عليه، والخطأ في السلوك محاسب عليه لأن فطرته تكشف له ذلك.

عن جابر قال: سُئل عليه الصلاة والسلام عن زيد بن عمر أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية، هذه الفطرة، ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم، ويسجد فقال عليه الصلاة والسلام: يحشر ذاك وحده بيني وبين عيسى بن مريم.

وعن عائشة رضي الله عنها قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين))

[رواه ابن عساكر عن عائشة رضي الله عنا]

من شعر زيد بن عمرو:

ما قرأ القرآن أبداً، ولا صلى الصلاة التي نصليها نحن، ولا صام رمضان ، ما قام بالعبادات، لكنه عرف الله، عرف الله، وعبده بطريقة أو بأخرى، وسجد له.

أورد له ابن إسحاق من شعره من خلق السماء والأرض، والشمس والقمر فقال: يقول زيد بن عمرو الذي لم يبلغ بعثة النبي:

إلى اللَهِ أهديَ مِدحَتي وَثَنائِيــا وقولاً رَصيناً لا يَنِي الدَهرَ باقِيا

إلى المَلكِ الأعلى الَّذي لَيسَ فوقهُ إلَهٌ وَلا رَبٌّ يَكونُ مُدانِيـــا

وَأَشهَدُ أنَّ اللَهَ لا شَيءَ فوقــهُ عَلِيّاً وَ أمسى ذِكرُهُ مُتَعاليــا

ألا أيُّها الإنسانُ إياكَ وَ الــرَدى فإنَّكَ لا تُخفي مِنَ اللَهِ خافِيـا

وَ إياكَ لا تَجعَل مَعَ اللَهِ غيــرَهُ فإن سَبيلَ الرُشدِ أصبَحَ بادِيـا

رضيت اللهم بك رباً فلن أرى أدين إلهاً غير الله ثـــانيا

***

هذا نموذج إنسان لم تصله رسالة، ولكنه فكر، وتعرف إلى الله، واستقام على أمره، وصلى له بطريقة أو بأخرى، معنى ذلك في قوله تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١٦٤)

معنى ذلك أن هذا عطاء زائد، عطاؤهم أن الكون يدل على الله، والعقل إذا أعملته في الكون عرفت الله، والفطرة تكشف لك الخطأ.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤١-٦٠) : الاستقامة في الدين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

موقع الاستقامة من الدين كموقع المحرك من السيارة :

موضوع اليوم الاستقامة، تصور سيارة، وقد سمِّيت سيارة من أجل أن تسير، جهزت بكل شيء إلا المحرك، فالمحرك يجعلها تسير، فإذا ألغي المحرك ألغيت السيارة، يجب أن نعلم جميعاً أن موقع الاستقامة من الدين كموقع المحرك من السيارة، فإذا تعطل هذا المحرك ألغيت صفة السيارة.

إنّ كل نشاطات المسلم إن لم تكن الاستقامة مرافقة لها فلا قيمة لها إطلاقاً، بل ينقلب الدين إلى ثقافة، أو إلى تراث، أو إلى فلكلور، أو إلى عادات، أو إلى تقاليد، أما الدين فهو التزام، هذا الراعي الذي سأله ابن عمر : " بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها ؟ قال : ليست لي، قال له : قل لصاحبها : ماتت، وخذ ثمنها ؟ قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها : ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ هذا الراعي ثقافته محدودة جداً، ما عنده مكتبة ضخمة، ولا مؤلفات أبداً، لكنه خاف من الله، فوضع يده على جوهر الدين، والذي يحمل شهادات لا تعد ولا تحصى، وله مؤلفات كبيرة جداً، وله اسم لامع جداً في سماء المعرفة، ولم يكن مستقيماً، فإنّ هذا الراعي أفقه منه، كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه.

الدين كله استقامة :

أيها الإخوة، مرة ثانية، مع أن هذا المثل أردده كثيراً، التجارة لها آلاف النشاطات، لكنها مضغوطة كلها بكلمة واحدة، الربح، فإن لم تربح فلست تاجراً، كذلك هناك آلاف النشاطات في الدين، تقام مؤتمرات، تؤلف كتب، تلقى محاضرات، نراعي التراث الإسلامي، الحضارة الإسلامية، الفن الإسلامي، كل هذه النشاطات وقد تزيد على مئة ألف نشاط تضغط كلها في كلمة واحدة، الاستقامة، فإن لم تكن هذه الاستقامة فكل هذه النشاطات لا قيمة لها.

حقيقة الأستقامة :

أنا أتكلم بهذا الكلام، ولا أبالغ، لكن من أجل أن توفروا أوقاتكم، من أجل أن تضعوا يدكم على جوهر الدين، ما لم تلتزم، ما لم تكن وقافاً عند حدود الله، ما لم تأتمر بما أمر، ما لم تنته عما عنه

نهى وزجر، ما لم يرَك الله حيث أمرك، ما لم يفتقدك حيث نهاك، ما لم تخش الله في كسب مالك، ما لم تخش الله في إنفاق مالك، ما لم تخش الله في توزيع ثروتك، ما لم تخش الله في تطليق زوجتك، ما لم تخش الله في زواجك، ما لم تخش الله في احتفالاتك، في أفراحك، في أتراحك، ما لم تخش الله في سفرك، ما لم تخش الله في إقامتك، ما لم ترعَ منهج الله، فلا قيمة لكل أعمالك، لأن الطريق إلى الله مسدود، والخط الذي ينبغي أن يكون ساخناً بينك وبين الله مقطوع.

هذه حقيقة الاستقامة، لها الموقع الأول في الدين، ما لم تكن مستقيماً فلا قيمة لكل انتماءاتك الإسلامية، الآن هناك كلمات كثيرة، يقال لك : عنده خلفية إسلامية، خير إن شاء الله، عنده أرضية إسلامية، عنده نزعة إسلامية، عنده فكر إسلامي، عنده ثقافة إسلامية، عنده اهتمامات إسلامية، عنده توجهات إسلامية، عنده عاطفة إسلامية، لكنه ليس مسلماً، ما لم تستقم فلا تفكر أن تقطف من ثمار الدين شيئاً، ما لم تقف عند الحلال والحرام، ما لم تتورع أن تأكل درهماً من حرام فلن تفلح، وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام.

والله الألوف بل مئات الألوف من المسلمين يأكلون المال الحرام نهاراً جهاراً، ويأتون إلى المساجد، ويصلون، أنت مغتصب، أنت محتال، تغش المسلمين، أنواع الغش التي في حياة المسلمين لا تعد ولا تحصى، ومن غشّ فليس منا، ولو غششت مجوسياً فلست منا، فكيف فصل المسلمون عبادتهم عن معاملاتهم ؟ أنا لا أدري كيف بإنسان يبيع أقراصا إباحية، ويصلي الصلوات الخمس في المسجد ؟ كيف توازنت ؟ أنت تفسد الشباب، تفسد الأسرة، وتصلي ! ما لم تربط عباداتك باستقامتك فلا قيمة لعباداتك.

هذه حقيقة النفسt :

أنا أؤكد لك بالدليل يوم سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن المفلس :

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ : الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم، الترمذي]

هو يصلي، قال تعالى :

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

[سورة التوبة : ٥٤]

يصلون.

من حج بمال حرام، و ضع رجله في الركاب، وقال : لبيك اللهم لبيك، ينادى : أن لا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك.

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة : ٥٣]

((مَن لم يدع قول الزور، والعملَ به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري]

هذه حقيقة، أنت تطلب من الله الكرامة، وهو يطلب منك الاستقامة، أنت مسلم حينما تستقيم، وإلا فأنت مثقف، عندك ثقافة إسلامية، ما لم نجد إسلامك في عملك.

مفهوم خطير شائع عن العامة :

أيها الإخوة الكرام، أخطر مفهوم شاع بين المسلمين أن الدين في المسجد، لا، الدين ليس في المسجد، أنت في المسجد تتلقى التعليمات، وفي المسجد تقبض الثمن، تتلقى التعليمات في درس العلم، وتقبض الثمن بالصلاة في المسجد، أما الإسلام ففي عيادتك، الإسلام في معملك، الإسلام في مكتبك الهندسي، الإسلام في بيعك وشرائك، الإسلام في تجارتك، فما لم يظهر إيمانك في استقامتك فلست مسلماً.

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

أيها الإخوة الكرام، هذا الكلام لا بد من توضيحه، قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

[سورة فصلت : ٣٠]

كل مسلم يقول ربنا الله لكنه لم يستقم.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت : ٣٠]

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة الأحقاف : ١٣]

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود : ١١٢]

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، الاستقامة حدية، كما يطبقها النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق يجب أن يطبقها المؤمن، وهو أدنى مرتبة في الإيمان، وأقلّ مؤمن يجب أن يستقيم كاستقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها حدية، كما لو أن أعلى طبيب في الأرض إذا أراد أن يعطي حقنة يعقمها، وأقلّ ممرّض في العالم إن أراد أن يعطي حقنة يعقمها تعقيماً حدياً ينطبق على أعلى طبيب، وعلى أدنى ممرض، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ)

[سورة فصلت : ٦]

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

[سورة الجن : ١٦]

جميل جداً أن تعبد الله العبادات الشعائرية، جميل جداً أن تتقن صلاتك، جميل جداً أن تتقن صيامك، أن تتقن حجك، أن تتقن إنفاق الزكاة، والأجمل من هذا كله أن تكون مستقيماً قبل أن تصلي.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْنِي فِي الْإِسْلَامِ بِأَمْرٍ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ : قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ، قَالَ : قُلْتُ : فَمَا أَتَّقِي، فَأَوْمَأَ إِلَى لِسَانِهِ))

[مسلم]

في زيادة في بعض الروايات قال أريد أخف من ذلك، هي صعبة قال :

((إذاً فاستعد للبلاء))

[ورد في الأثر]

هناك إنسان معه التهاب حاد في المعدة، سأل الطبيب : ماذا تنصحنى أن آكل ؟ قال : ممنوع إلا بضعة أكلات بطاطا، ورز، وتفاح فقط، قال له : هذه صعبة، قال : استعد لعملية جراحية، إن لم تقبل هذه الحمية الشديدة فاستعد لعملية جراحية، البشارة للمستقيمين،

((استقيموا ولن تحصوا))

[ابن ماجه عن ثوبان بسند صحيح]

استقامة بظهر عادي خير من المظهر الديني الصارخ من غيلر استقامة :

لن تحصوا خيرات الاستقامة، مِن سمعة طيبة، وصحة، ووفاق زوجي، وأولاد أبرار ، وسكينة، ورضا، وسعادة، لن تحصوا، لن تفيد تأكيد النفي، لن تحصوا خيرات الاستقامة، فلو كان مظهرك

مدنيا ومستقيما أفضل ألف مرة ما يكون مظهرك مشيخيا صارخا ولك دخل حرام، يكون مظهرك عاديا ومستقيما أفضل ألف مرة من أن تكون في أعلى درجات العلم الديني.

للتقريب : إنسان يحمل أربع دكتورات، له مئتا مؤلف، له مكتب فخم، لن أذكر منصبه، لكنه منصب ديني، طبعاً جاءته صحفية كي تدير معه حديثاً صحفياً ملأ عينيه من محاسنها، وعنده مستخدم على الباب، لا يقرأ ولا يكتب، أمي، هذا المستخدم له شيخ، قال له : يا بني، غض بصرك، فغض بصره عنها، بمقاييس الأرض العالم الكبير الجهبذ وحيد عصره، فريد زمانه، وهذا المستخدم أفضل عند الله منه، لأنه أطاع الله.

كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه، أنا أقول لكم كلاماً، هذا ملخص الملخص : إن لم تستقم فلا تنتظر من الله شيئاً إلا التأديب، وإن استقمت بأي وضع، ولو لم يكن لك علاقة بالحقل الديني إطلاقاً، لا أنت خطيب، ولا إمام، ولا قارئ قرآن، ولا لك أي عمل في الدين، لك عمل مهني اعتيادي، ومستقيم، قلامة ظفرك تساوي آلاف الأشخاص ممن لهم مظهر ديني صارخ، العبرة بالاستقامة، ليست بالكلام، استقيموا ولن تحصوا، لن تحصوا ثمار الاستقامة.

الاستقامة في مفهوم الصحابة :

١ – الاستقامة في مفهوم أبي بكر الصديق :

سيدنا الصديق فهم الاستقامة على أنها التوحيد، وهذا فهم سديد، أنت حينما توحد لا تكذب، حينما توحد لا تنافق، حينما توحد لا تتضعضع أمام غني، أنت حينما توحد لا تغش المسلمين، الأمر بيد الله، هو الرزاق، هو الحافظ، علاقة الاستقامة بالتوحيد علاقة يسموها علاقة عضوية، أنت مستقيم بقدر ما أنت موحد، وأنت ضعيف الاستقامة بقدر ضعف توحيدك، الرزاق هو الله، فحينما يكذب الإنسان من أجل الرزق معنى هذا أنه غير موحد، حينما ينافق من أجل الحفاظ على منصبه معنى هذا أنه غير موحد، سيدنا الصديق فهم الاستقامة على أنها التوحيد.

٢ – الاستقامة في مفهوم عمر بن الخطاب :

أما سيدنا الفاروق ففهم الاستقامة على أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، الاستقامة الأمر والنهي، فقال سيدنا عمر : << الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تراوغ روغان الثعالب >>.

حدثني إنسان قال لي : هناك شخص في الصف الأول في المسجد، يسكن في بيت أجرة، تملكه امرأة في تركيا، لا تملك غيره، ومن أجرته تعيش، استطاع بأساليب ذكية جداً وماكرة جداً أن يشتريه منها بسبعمئة ألف، وثمنه سبعة ملايين، عدّ حاله ذكيا، قولوا : إن فلاناً أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه و سلم، يعني أنه عمل شيئاً مخالفاً للمنهج، قولوا له : إنه أبطل جهاده مع رسول الله.

٣ ـ الاستقامة في مفهوم علي بن أبي طالب :

سيدنا علي فهم الاستقامة على أن تؤدي الفرائض، وما تقرب إلي عبدي بأحب إلي مما افترضته عليه، صلى قيام الليل، وفاتته صلاة الفجر، لا، صلاة الفجر أولى، لأنها فرض، ما تقرب إلي عبدي بأحب إلي مما افترضته عليه.

٤ ـ الاستقامة في مفهوم عثمان بن عفان :

سيدنا عثمان رضي الله عنه فهم الاستقامة على أنها الإخلاص، كل صحابي فهمها من زاوية، الإخلاص، الإنسان بذكاء قد يمثل، لكن المخلص هو المستقيم، الاستقامة التي تفعلها، وتجاهد نفسك وهواك من أجلها لا تقبل إلا إذا كنت مخلصاً، صحابي فهمها التوحيد، وصحابي آخر فهمها الأمر والنهي، وصحابي ثالث فهمها الفرائض، والرابع فهمها الإخلاص.

مفهوم الأستقامة عند الصحابة :

وبعض العلماء فهموا الاستقامة على أنها المحبة، الله عز وجل أرادك أن تحبه، إن أحببته أطعت أمره.

تعصي الإله و أنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقـاً لأطعت ه إن المـحب لمن يحب يطيع

***

الاستقامة عامة في الاقوال والافعال والأحوال :

والاستقامة بالأقوال، وهناك أكثر من عشرين معصية كبيرة بالأقوال، إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، والأفعال والأحوال، مؤمن فضح، الحمد لله، ترتاح، لمجرد أن ترتاح لسقوط مؤمن فأنت منافق، قال تعالى :

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة : ٥٠]

لمجرد أن ترتاح لسقوط مؤمن، أو لدمار مؤمن، ولمجرد أن تتألم لتفوق مؤمن فأنت في خندق المنافقين يقيناً، لو أنك مؤمن لفرحت له كما أن هذا الإنجاز لك، لو أنك مؤمن لتألمت لمصابه كما لو أنه نزل بك، فيجب أن تكون نيتك خيراً من عملك.

المطلوب منك الاستقامة لا الكرامة :

وبعض العارفين قال : " كن صاحب استقامة، ولا تكن طالب الكرامة ".

أناس كثيرون يريدون الكرامة من الله، بينما المطلوب منهم الاستقامة، وأعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

بالمناسبة الكرامات موضوع يحتاج إلى بحث طويل، لكن أعظم كرامةٍ كرامةُ العلم، قال تعالى :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء : ١١٣]

وأعظم كرامةٍ كرامةُ الاستقامة.

الاستقامة عز وشرف وكرامة :

بعض العلماء له كلمة أنقلها لكم : الاستقامة شرف وعز، والكرامة حيض الرجال، والولي الصادق يستحي بكرامته كما تستحي المرأة بدم حيضها.

هناك أناس همهم أن يعرضوا عليهم كراماتهم، لا اعرض علي علمك، اعرض علي استقامتك أقتدِ باستقامتك، وأنتفع بعلمك، أما الكرامة فلك رسالة بينك وبين الله لا شأن لي بها.

الاستقامة هي الاعتدال، ورد الجهالات إلى السنة.

أيها الإخوة الكرام، الموضوع طويل نكتفي بهذا القدر.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٢-٦٠) : منهج الدعوة إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

ايتان ترسمان منهج الدعوة إلى الله:

أيها الإخوة، في سورة سبأ آيتان ترسمان منهج الدعوة إلى الله.

إنهم كثيرون أولئك الذين تركوا الدين لسوء دعوتهم إلى الله، أو لخطاب ديني ليس ناجحاً.

الأية الأولى:

يقول الله عز وجل:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ)

[سورة سبأ: ٢٤]

أي نحن وأنتم، أي المؤمنون، ولنسمِّ الآخرين الطرف الآخر، الذين لم يؤمنوا، ولم يقبلوا بهذا الدين، ولم يصدقوا هذا الكتاب:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ: ٢٤]

١ ـ ليس هناك إملاء واحتقار للطرف الآخر:

الحق كرة إما عندنا أو عندكم، إما هي عندنا أو عندكم، ماذا نستنبط من هذا ؟ ليس هناك استعلاء، ليس هناك غطرسة، ليس هناك إملاء على الآخر، ليس هناك احتقار للآخر، ليس هناك إشعار الآخر أننا على حق، وأنت على باطل، كل أساليب الدعاة إلى الله الذين لم يستوعبوا هذه الآية عندهم شعور أنهم على حق، والآخرون على باطل.

يقول الإمام الشافعي: " أنا على حق، وقد أكون مخطئاً، والآخر على باطل، وقد يكون مصيباً ".

٢ ـ عدم احتقار الطرف الآخر فتحٌ لباب دعوته:

حينما تنطلق من التواضع، أو من إشعار الآخر أن الحق قد يكون معه، أو قد يكون معك ينفتح إليك، يصغي إليك، حفظت له كرامته، حفظت له مكانته.

٣ ـ التمييز بني أخلاق الجهاد وأخلاق الدعوة:

يجب أن نميز بين أخلاق الجهاد، وأخلاق الدعوة:

أخلاق الجهاد:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التحريم: ٩]

هذه أخلاق الجهاد، لكن نحن في الحياة المدنية كما هو معروف سلم وحرب، والحرب أخلاقها:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التحريم: ٩]

أما في السلم:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: ٣٤]

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ)

[سورة سبأ: ٢٤]

نحن أو أنتم:

(لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ: ٢٤]

٤ ـ أسلوب الحوار مع الطرف الآخر:

أيّ شخص منا على حق، والآخر على باطل، لا نعلم مبدئياً، لعلكم على صواب، ونحن على خطأ، أو لعلنا على خطأ، وأنتم على صواب، لا نعرف، اجعل الحوار بينك وبينه، ائته بأدلة يقبلها، أدلة علمية، أدلة واقعية، أدلة نصية إذا كانت يؤمن بكتاب بينك وبينه مشتركاً، الحوار يروّج في هذه الأيام، لأنه بديل الصدام، الصدام دمار، قتل، تشريد، نزوح، فقر، العالم الآن يمشي في طريق مسدود، لأنه أحلّ الصدام محل الحوار.

٥ ـ الحوار منـهجٌ قرآني:

الحوار قرآني، الحوار منهج إسلامي، هذه الآيات:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ)

[سورة سبأ: ٢٤]

(تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)

[سورة آل عمران: ٦٤]

تعالوا كي نتحاور، تعالوا كي نأتي بالأدلة، أدلة نصية إن آمنتم بكتابنا، أو أدلة واقعية، أو أدلة علمية، أو أدلة تاريخية، ما لم تكن منفتحاً على الآخرين فلن تفلح في الدعوة.

٦ ـ البطولة في إقناع الطرف الآخر لا في إقناع المسلمين:

بالمناسبة، مرة حضرت احتفال مولد في أحد جوامع دمشق المشهورة، وقام أحد الخطباء، وتكلم كلاماً رائعاً، لكن الخطيب الذي جاء بعده تكلم كلاماً أروع، ماذا قال ؟ قال: نحن جميعاً طرف واحد، فيا أيها الخطيب اللامع، لك الشكر، لكن ماذا فعلت ؟ أتيت بأدلة نعرفها، وبأفكار نؤمن بها، لكن بطولتنا ليست فيما بيننا، ولكن بطولتنا مع الآخرين، فما الذي يمنع في مناسبة المولد أن نجمع الذين شردوا عن الله، الطرف الآخر، الذين لا يصلون، الذين لا يعبؤون بهذا الدين، ما الذي يمنع أن نلتقي بهم، وأن نبين لهم هذا الدين العظيم بأسلوب لطيف، بأدلة علمية، بتواضع جم من قبلنا. بطولتك ليست مع المسلمين، بل مع الآخرين، هؤلاء المسلمون مسلمون مثلك، يؤمنون بما تؤمن، يصدقون ما تصدق، لكن بطولتك مع الآخرين.

مرة حضرت مؤتمراً إسلامياً، لكن المؤتمر ضخم جداً، دعيت سبعون دولة إسلامية لهذا المؤتمر، وفي أفخر الأماكن، وخُصِّصت له نفقات كبيرة جداً، و إعلام، و تصوير، و هو عن إنسانية الحضارة الإسلامية، وفي نهاية المؤتمر قدمت مداخلة قلت فيها: نحن اجتمعنا في هذا المكان، وكل مندوب دولة ألقى كلمة أعدها إعداداً متقناً جداً، وتلقينها بالقبول، و أكبرنا كاتبها، أو الذي ألقاها، ولكن قلت: ولكن ماذا فعلنا ؟ نحن جميعاً سبعون دولة إسلامية طرف واحد، تكلمت فصدّقنا، قلت فآمنا، نؤمن كما تؤمن، نصدق ما تصدق، ماذا فعلنا ؟ المعني بهذا المؤتمر الطرف الآخر الذين يتهمنا أننا إرهابيون، و قتلة، و جهلاء، و متخلفون، وهم غائبون عن هذا المؤتمر غياباً كلياً، فالأولى لا أن نلتقي مع بعضنا البعض، و ندلي بكلمات رائعة، إننا لا نضيف على الآخرين شيئاً، لكن البطولة أن نخاطب الطرف الآخر، أن نلتقي معه، أن نقنعه بهذا الدين، هؤلاء الذين يشوهون صورة النبي عليه الصلاة والسلام لا يعرفونه إطلاقاً، نحن مقصرون في التعريف بنبينا، بل إن الجاليات الإسلامية في العالم الغربي مقصرة تقصيراً فاضحاً بتعريف الآخرين بهذا الدين العظيم و

نبيه الكريم، بل إنني أعتقد لو أن أعضاء الجاليات الإسلامية في العالم الغربي وحدهم طبقوا منهج ربهم، ولم ينطقوا بكلمة لكان موقف الآخرين من الإسلام غير هذا الموقف، هذه أخلاق الدعوة:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ: ٢٤]

أيها الإخوة الكرام، البابا كما تعلمون تكلم بكلمات فيها إساءة إلى النبي الكريم، طولب بالاعتذار، لا، أدلِ بحجتك، لتكن الحجة في مقابلة الحجة، والتصريح في مقابلة التصريح، والحوار في مقابلة الحوار، ينبغي أن نتحرك، ينبغي ألا نصمت، لكن وفق هذا المنهج:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ: ٢٤]

الآن الذي قد يُستغرب:

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا)

[سورة سبأ: ٢٥]

الآية الثانية:

النبي الكريم صاحب الخلق العظيم سيد الخلق و حبيب الحق، قمة البشر:

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة سبأ: ٢٥]

١ – هذا ما قدّمه النبي، وما قدمه الطرف الآخر !!!

أرأيت إلى هذا التواضع ؟ نحن أجرمنا، أما أنتم فتعملون أنه العكس، النبي قدم كل الخير، والطرف الآخر أجرموا بحق النبي، لذلك أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكة قال:

((ما تظنون أنني فاعل بكم ؟ قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

٢ – هذه هي أخلاق النبي:

نبوة النبي عليه الصلاة والسلام في درجة مذهلة من الكمال، هذا الذي كتب كتاباً إلى أهل مكة، حاطب بن أبي بلتعة ماذا فعل معه النبي عليه الصلاة والسلام ؟ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ، قَالَ

((انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَا: الْكِتَابُ، فَقَالَتْ: مَا مَعَنَا كِتَابٌ، فَأَنَخْنَاهَا، فَالْتَمَسْنَا، فَلَمْ نَرَ كِتَابًا، فَقُلْنَا: مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ، أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتْهُ، فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ، قَالَ حَاطِبٌ: وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ، وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ؟ فَقَالَ: لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ، أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ))

[متفق عليه]

النبي سيد الخلق، هذا العمل في أي نظام في العالم جزاؤه القتل، قال:

((صَدَقَ، وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا))

هذه أخلاق النبوة.

٣ ـ هكذا تكون داعية ناجحا:

حينما تحب الناس، وحينما تحترم الناس، و حينما تصغي إلى الناس، و حينما لا تستعلي عليهم، و لا تملي عليهم، و لا تشعرهم أنهم جاهلون، وأنت العالم، عندئذ يصغون إليك، أنت حينما تفتح قلوبهم بإحسانك قبل أن تفتح عقولهم ببيانك تكون داعية ناجحاً، أنت حينما تكون قدوة قبل الدعوة، كن قدوة قبل أن تدعوهم إلى هذا الدين العظيم.

٤ ـ تطوير الخطاب الإسلامي:

إنّ الخطاب الإسلامي يجب أن يطور، والفرق كبير بين أن تقول: يجب أن نطور الدين، ويجب أن نطور الخطاب الإسلامي، الدين توقيفي، لا يطوَّر، و لا يبدل، و لا يغير، و لا يضاف عليه، و لا يحذف منه، لأنه دين الله:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: ٣]

ولكن الخطاب الديني ينبغي أن يطور، ينبغي أن يأخذ لهجة متواضعة، لهجة علمية من دون تعصب، من دون استعلاء، من دون تكفير، من دون تشريك، وهناك أساليب في الدعوة إلى الله ليست مقبولة إطلاقاً، ولا يمكن أن تكون ناجحة بهذه الطريقة.

إذاً:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة سبأ]

ماالحكمة من هذه المعركة الطاحنة بين الحق والباطل:

أيها الإخوة الكرام، مرة ثانية: قد يسأل سائل: ما الحكمة من هذه المعركة الطاحنة بين الحق و الباطل ؟ أقول لكم بكل وضوح: كان من الممكن أن يكون الكفار في كوكب آخر، أو في قارة أخرى، أو في حقبة أخرى، و لكن قرار الله أن نعيش معاً في كل بلد في العالم مؤمنون وغير مؤمنين.

١ ـ نظام الاثنينية في الحياة:

الآن كأن هناك في الحياة اثنينية، كيف ذلك ؟ هناك حق، وهناك باطل، هناك أناس يعيشون للدنيا و هناك أناس يعيشون للآخرة، هناك أناس بنوا حياتهم على العطاء، هناك أناس بنوا حياتهم على الأخذ، هناك أناس خيرون، هناك أناس شريرون، هناك أناس منصفون، و هناك أناس جاحدون، هناك خير وشر، وحق وباطل، موقف جميل، موقف قبيح، إنصاف وجحود، كرم وبخل، صدق وكذب، أمانة وخيانة.

٢ ـ الحق لا يقوى إلا بالتحدي:

لماذا كانت هذه النماذج مجتمعة ؟ لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي.

الآخرون لهم فضل علينا كبير، الآخرون بحربهم، وبمؤامراتهم، و كيدهم يجمعوننا، ويحفزون هممنا، ويخففون الخلافات فيما بيننا، لذلك رُبّ ضارة نافعة، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ

[سورة البقرة: ٢١٦]

هناك تطورات في العالم باتجاه الدخول في هذا الدين قد لا تصدق، العام الماضي دخل في الإسلام من العالم الغربي في أمريكا الشمالية وحدها خمسة وثلاثون ألفاً، والذي يقلق الطرف الآخر الإقبال على الدين لا من الجاليات الإسلامية، بل من السكان الأصليين، وهناك من يعتقد أنه بعد عشرين عاماً سيعم هذا الدين العالم، لا تقلقوا على هذا الدين، إنه دين الله، ولكن اقلقوا على أنفسكم ما إذا سمح الله لنا، أو لم يسمح أن نكون جنوداً لهذا الدين، هذا دين الله.

٣ ـ لن ينطفئ نورُ الله أبدا:

دققوا في هذا المثل: لو أن شخصاً وقف أمامكم في رابعة النهار، وتوجه نحو الشمس، ونفخ نفخة بقصد إطفاءها، أين مكانه الصحيح ؟ في مستشفى المجانين، الكفار ماذا يقول الله عنهم ؟

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

[سورة التوبة: ٣٢]

نور الشمس لا يطفأ:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

[سورة التوبة: ٣٢]

٤ ـ تستطيع جهة في الأرض مهما تكن قوية أن تفسد على الله هدايته لخلقه:

لذلك ما ضر السحاب نبح الكلاب، ما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر، لو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا الدين ما أثاروه إلا على أنفسهم، فلذلك لا تقلقوا على هذا الدين أبداً. ينبغي أن أقول كلمة: تصور أبا قويا جداً وعالما وغنيا، وعنده أولاد يسيطر سيطرة تامة عليهم، هم خمسة أولاد، واحد منهم يكره الدراسة كراهية شديدة، والأربعة الباقون متفوقون، طموح الأب الأول أن يكون أولاده الأربعة علماء كبارا، هم في المدارس، هذا الأخ الخامس الذي يكره الدراسة لو أمسك بسلاح معين، ومنعهم من التوجه إلى المدرسة، والأب يراه، وهو متمكن، وقوي، ومسيطر، هل يسمح له أن يفسد على الأب خطته في تعليم أولاده ؟ مستحيل، اسمعوا هذه الكلمة: لا يمكن، ولا يقبل، ولا يعقل أن تستطيع جهة في الأرض مهما تكن قوية أن تفسد على الله هدايته لخلقه، مستحيل لجهة في الأرض تؤخر نمو الدين، لكن نية الكافر شر من عمله.

إنهم يخططون:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

[سورة الأنفال: ٣٦]

وفي النهاية يُغلبون:

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران:١٢]

اطمئنوا:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: ١٢٨]

٥ – لابد من الابتلاء والامتحان:

و لكن لابد من امتحان:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب]

ونحن نعاني زلزالاً، الطرف الآخر قوي ومتمكن، ويريد إفقارنا، وإضلالنا، وإفسادنا، وإذلالنا، وإبادتنا، وبيده السلاح، والمال، والإعلام، والتحالفات، ونحن لا نملك شيئاً، ومع ذلك سوف ننتصر. أخطر شيء في الحياة أن تنهزم من الداخل.

أيها الإخوة الكرام، أخلاق الدعوة شيء، وأخلاق الجهاد شيء آخر:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة سبأ]

بمثل هذا تكون أخلاق الدعوة:

رويت قصة طالبين سوريين في بريطانيا لهم صديق بريطاني، كلما اقترب منهم في الجامعة يتكلمون الإنكليزية، أما إذا كانا معاً يتكلمان العربية، لفت نظره كل مرة يقترب منهم يتوقفون عن اللغة العربية، ويتكلمون اللغة الإنكليزية، فسألهم ؟ فقالوا له: لأن نبينا علمنا أننا إذا كنا ثلاثة لا ينبغي أن يتناجى اثنان دون ثالث، فإن هذا يحزنه، فإذا تكلمنا العربية أمامك تناجينا مع بعضنا، وهذا يحزنك، فإذا اقتربت منا نتكلم الإنكليزية، وكان هذا سبب إسلامه، كلما كنت لطيفاً ومحترماً للطرف الآخر، معك حجة قوية، حجة علمية، حجة عقلية وواقعية، وكنت متلطفاً من دون استعلاء،

من دون كبر، من دون تكفير، من دون اتهام بالجهل، كلما كنت كذلك كنت أقرب إلى الله عز وجل، وهذا فحوى هاتين الآيتين في تعليم أصول الدعوة إلى الله:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة سبأ]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٣-٦٠) : الصدق - صدق الأقوال وصدق الأعمال

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة .

الصِّدق:

الموضوع اليوم: الصدق.

١ – صدق الأقوال:

والحقيقة أنك إذا تكلمت كلمة، وكانت مطابقة للواقع فهذا صدق الأقوال، لا يعنينا في هذا الدرس.

٢ – صِدق الأعمال:

الذي يعنينا في هذا لدرس صدق الأعمال، أن يأتي العمل مطابقاً لما تقول، هذا المعول عليه، لذلك صدق الأقوال أن تكون صادقاً في إخبارك عن شيء ما، بينما الشيء الخطير جداً أن تكون صادقاً في أفعالك، أن تأتي أفعالك مطابقة لأقوالك.

٣ – منزلة صدق الأعمال:

فلصدق صدق الأفعال منزلة القوم العظمى، منه تنشأ جميع المنازل، وهو الطريق الأقوم الذي من لم يسِر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه، الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، ومن صال به لم تُرَد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود القسطاس اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبيين، بعد مرتبة النبوة تأتي مرتبة الصديقية التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات، تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كمن كان من قلوبهم إلى قلوبهم، في هذه الدار مدد متصل ومعين.

منزلة الصدق في القرآن الكريم:

مقدمة تبين قيمة هذه المنزلة.

الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

بطولتك أن تعيش مع الصادقين، لأنهم ينهضوا بك، لا تصاحب مَن لا ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله.

الآية الثانية:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)

(سورة النساء)

الآية الثالثة:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا)

(سورة البقرة الآية: ١٧٧)

هذه صفاتهم:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

الآية الرابعة:

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: ٢٤)

الآية الخامسة:

(قالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة المائدة)

معنى إضافي للصدق:

الدخول في العمل صادقا والخروج منه صادقا:

أيها الإخوة، مرة ثانية: المقصود بالصدق بهذا الدرس صدق الأفعال، أن تأتي أفعالك مطابقة لأقوالك.

الآن هناك معنى إضافي: يمكن أن تقدم على عمل، وأنت صادق ، لكنك قد تخرج منه، وأنت ليس بصادق، لذلك قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء الآية: ٨٠)

الدخول شيء، والخروج شيء آخر، فيمكن أن تكون صادقاً ١٠٠ % حينما تَقبل أن تستلم منصباً معيناً، وفي نيتك خدمة المسلمين، والتخفيف عنهم، ونصحهم، وأنت في المنصب، مع أن " الدنيا تغر وتضر وتمر "، فانحرفت عن نيتك، وأصبحت تحقق المكاسب الشخصية، وتنسى النية التي كانت وراء قبول هذا العمل، يمكن أن تدخل صادقاً، ومن الممكن أن تخرج غير صادق، لذلك الدعاء:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

(سورة الشعراء)

أيْ أن أكون في الجنة عندك من الصادقين.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

الإنسان يتكلم، والكلام سهل، لو فرضنا قبل أن يتزوج يقول لأمه: والله يا أمي حينما أتزوج سأكون أنا وزوجتي في خدمتك، يسمعها كلاماً من أحلى ما يكون، فإذا تزوج دون أن يشعر شيئاً فشيئاً

انحاز إلى زوجته، ورأى أمه عبئاً عليه، بدأ يسمعها كلاماً قاسياً، إذاً: هذا في أقواله السابقة لم يكن صادقاً فيها، جاءت أفعاله بخلاف أقواله، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((إن تصدق الله يصدقك))

[أخرجه النسائي والحاكم عن شداد بن الهاد]

تعاملْ مع الله بالصدق ترَ العجب العجاب، والذي يشدك إلى الدين ليست أفكار الدين فحسب، بل معاملة الله لك بعد أن تكون صادقاً.

لذلك قيل: لله رجال إذا أرادوا أراد، بمعنى أنهم كانوا مستجابين الدعوة، ومن أعلى درجات الإيمان أن تكون عند الله مستجاب الدعوة.

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ :

في الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

[متفق عليه]

كلمة صادق عند الله تعني أن الإنسان يكون في مستوى الذي وعد الله عليه.

مثلاً: أنت عند الحجر الأسود ماذا تقول ؟ عهداً لله على طاعتك، بسم الله، الله أكبر، عهداً لك يا رب على طاعتك، يعود إلى بلده دون أن يشعر إلى ما كان عليه قبل أن يحج، أو قبل أن يعتمر عاد إلى عاداته، وتقصيراته، ومخالفاته، فإذا قال الله عز وجل:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

(سورة الأعراف)

البطولة أنك إذا عاهدت الله أن تكون عند عهدك، سيدنا الصديق يقول:

<< عليكم بالصدق فإنه مع البر >>

الصدق ينقلك إلى مرتبة البر، وهو ما في الجنة، الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه، فرض أو فضل، يعني إما يؤدي فرضاً أو يقدم معروفاً

هذا ما قاله العلماء في الصدق:

القول الأول:

قيل: ثلاث لا تخطئ الصادق، الحلاوة، والملاحة، والهيبة، الصادق له هيبة، ولكلامه حلاوة، وله ملاحة، في نور بوجهه.

القول الثاني:

يقول بعض العلماء: " لأن أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إلي من أن أضرب بسيفي في سبيل الله ".

القول الثالث:

قال بعض العلماء: " الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه "، فهو يعبأ بصلاح قلبه، ولا يعبأ كثيراً في أقوال الناس، بل لا يحب أن يطلع الناس على عمله.

هناك إنسان يلهث وراء أن يخبر الناس بأعماله، يلهث كلما كنت حريصاً على أن يعرف الناس من أنت، وما حجمك، وكيف كانت عبادتك، وكيف كان إلقاء درسك، كلما كنت حريصاً على أن يشهد الناس عملك هذا ضعف في صدقك، وكلما كنت زاهداً في أن يعرف الناس من أنت، وما حجم عملك كنت أقرب إلى الصدق من الحالة الأولى.

القول الرابع:

وقال بعضهم: " من لم يؤدِ الفرض الدائم لن يقبل منه الفرض الموقت ".

الفرض الدائم هو الصدق، فأنت عليك أن تؤدي فرضاً بشكل مستمر، وأن تكون صادقاً، ومع الفرض الدائم يقبل الفرض المؤقت، أن تصلي، أن تصوم، أن تزكي.

القول الخامس:

وقال بعضهم: " من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر بها الحق والباطل ".

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: ٢٨)

يقذف الله في قلبك النور.

القول السادس:

وقال بعضهم: " إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت عمله ".

إذاً: إن كنت صادقاً تجد حلاوة في قلبك قبل أن تعمل، وفي أثناء عملك.

القول السابع:

وقال بعضهم: " إنما يكذب الكاذب من مهانة نفسه عليه ".

إن الإنسان أحياناً يتمتع بعزة وكرامة عاليتين، فالذي عنده عزة وكرامة لا يكذب، الكذب يضع من قيمته.

القول الثامن:

قال بعضهم: " الصادق يتقلب في اليوم الواحد أربعين حالاً، والمنافق يثبت على حالٍ واحدة أربعين عاماً "، من شدة قلقه، من شدة خوفه من الله، من شدة حرصه على طاعة الله يتقلب باليوم الواحد في أربعين حالاً، مرةً يطمئن، مرة يقلق، مرة يشك في عمله، مرة يخاف من ربه، بينما المنافق يظل في حال واحدة أربعين عاماً.

الصدق مفتاح مرتبة الصديقية:

أيها الإخوة، الصدق مفتاح الصديقية، كلكم يعلم أن مرتبة الصديقية تأتي بعد مرتبة النبوة، سيدنا الصديق صديق، وأم عيسى عليه السلام صِدّيقة، فالصدّيقية مرتبة عالية جداً تلي مرتبة النبوة تماماً، فكلما كنت صادقاً كنت أقرب إلى هذه المرتبة، بأن يأتي عملك مطابقاً لقولك.

بين الصدق والإخلاص:

١ – لا ينبغي أن يختلف العمل بين الخلوة والجلوة:

بالمناسبة أيها الإخوة، نقترب من موضوع الإخلاص، إذا لم يختلف عملك أو عبادتك بين أن تكون في خلوة وأن تكون في جلوة فأنت صادق إن شاء الله، إذا لم يختلف عملك وأنت في خلوتك وحدك بين أربعة جدران، وبين أن تكون بين الناس، أو بين إخوانك لم يختلف العمل والعبادة فأنت صادق.

٢ – لا ينبغي أن يختلف العمل بين المدح والذم:

وإن لم تختلف العبادة بين أن تُمدح على عملك أو تُذم، إن لم يتأثر عملك بمديح الناس أو بذمهم فأنت صادق، وإن وجدت حلاوة الإيمان في قلبك قبل أداء العمل وبعد أداء العمل فأنت صادق، هذه مقاييس دقيقة جداً، إنك إذا رفعت إلى الله عملاً وأنت فيه صادق ألقى الله في قلبك السكينة، والسكينة مكافئة على صدقك.

لكن أحياناً يعمل الإنسان أعمالاً صالحة كثيرة لا يشعر بشيء، يقول لك: لم تتغير الأحوال، بل هناك تصحر، هذه علامة خطيرة على أن الصدق ضعيف، هو يبتغي في هذا العمل أن يثني عليه الناس، وهناك مرض يصيب أهل الإيمان، بأن يلهث وراء استجداء المديح.

إن أردت أن تقنع إنسانا بمنهجك يمكن أن تتمنى أن يعرف الناس قيمة هذه الدعوة، هذا وضع طبيعي، أما حينما تلهث كل يوم وراء استجداء المديح من الناس فهذا يضعف الصدق الذي ينبغي أن تكون عليه.

٣ – إياك وإقناع الناس بما ليس حقيقة فيك !!!

كلكم يعلم أن سيدنا كعب تخلف عن رسول الله، وقد أوتي جدلاً، أوتي طلاقة لسان، ويسميها علماء النفس الآن القدرة على الإقناع، القدرة على الإقناع ملكة عند الإنسان، الآن هناك إنسان له قدرات خاصة وقدرات عامة، من القدرات الخاصة أن تبدو بحجم أكبر من حجمك، وهناك أشخاص كثيرون يتكلمون دون أن تشعر فيحتلون عندك حجماً كبيراً هم أقلّ بكثير مما تتصور، هذه قدرة بالإنسان.

كمثل أو كطرفة، سكن أحدهم في حي متواضع جداً، حي الحجر الأسود، سئل: أين تسكن، قال لهم: بلاك ستون ستي، طبعاً هذه كلمة براقة، فكل إنسان يستطيع أن يبدو بحجم أكبر من حجمه، وكل إنسان أيضاً يستطيع أن يوهم الناس أنه في حال، وهو ليس كذلك.

٣ – ظن الناس فيك لا يغيِّر من حقيقتك شيئا:

النقطة الدقيقة في هذا الموضوع أوضحها بالمثل التالي: لو أنك تملك كيلوغراما من الذهب الخالص، سبيكة، ويظنها الناس معدناً خسيساً، وهي ذهب خالص فأنت الرابح الأول، ولو كنت تملك كيلوغراما من المعدن الخفيف، وبطلاقة لسان عجيبة أوهمت الناس أنه ذهب فأنت الخاسر الأول، علاقتك مع نفسك، لا تعلق أهمية كبيرة على رأي الناس فيك، إن كان معك كيلو ذهب، وظنه الناس معدناً خسيساً فأنت الرابح الأول، وإن كان معك كيلو معدن خسيس، وأوهمت الناس بقدرة عالية جداً أنها معدن ثمين ذهب فأنت الخاسر الأول.

صورة من صور الصحابة في الصدق:

كعب بن مالك واعتذاره عن الخروج إلى تبوك:

سيدنا كعب أوتي قوة إقناع، أوتي جدل، وبإمكانه أن يخرج من سخط رسول الله بكلام معسول، لكن كان موحداً، قال: ليوشكن الله إن كذبت عليك أن يسخطه عليّ، قال: فأجمعت صدقاً، كان معه صادقاً، فلما استقبل الله المخلفين، وكانوا ثمانين، وقبل أعذارهم، واستغفر لهم، فلما جاء كعب قال: والله يا رسول الله، ما كنت يوم دُعيت إلى الجهاد معك بحالة أقوى من تلك الحالة، يعني ليس لي عذر، فالنبي الكريم تبسم، وقال: أما هذا فقد صدق، حتى في تقديم العذر كان صادقا، لا عذر له في

التخلف، لذلك جاء التوجيه الإلهي بمقاطعته خمسين يوماً، وبعد ذلك تاب الله عليه، فتعاملْ مع الله بصدق تكن من الفائزين.

أيها الإخوة، هذه منزلة من أقوى المنازل عند الله عز وجل:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ)

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

(سورة النجم)

أيْ كان صادقاً، أنت إذا تعاملت مع الله بصدق تكتشف حقائق قد تغيب عن معظم الناس، وقد يلقى في قلبك من السكينة ما تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وقد تشقى بفقدها ولو مكلت كل شيء.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٤-٦٠) : اليقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

اليقين:

١ – معنى اليقين:

موضوع اليوم متعلق باليقين، سأوضح لكم معنى اليقين:

أَلِف المظليون إن أرادوا أن ينزلوا من الطائرات إلى الأرض بأن يستخدموا المظلة، لكن لو عرض عليك إنسان، وأنت مظلي جهازا صغيرا يرافقك في النزول ينتج منه بالون له مفعول المظلة هل تقبل ؟ يقول لك: لعله لا يعمل، فيكون الموت المحقق، فاليقين أن تثق بالشيء مئة بالمئة.

٢ – حقائق الدين يقينيات لا شك فيها:

عظمة هذا الدين أن كل حقائقه يقينية، كل معادلاته قطعية، هو مجموعة يقينيات، لأنه من عند رب الأرض والسماوات، النبي عليه الصلاة والسلام أهدر دمه، واقتُرحت جائزة بمئتي ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، ومع ذلك يقول لسراقة: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟ لأنه موقن أنه سيصل إلى المدينة، وسيؤسس دولة، وسيحارب أكبر دولتين في العالم، وسينتصر عليهما، وسوف تأتيه كنوز كسرى إلى المدينة، ولك يا سراقة سواري كسرى.

قضية اليقين قضية كبيرة جداً، أخ يعمل في شركة دخله قريب من خمسين ألف ليرة في الشهر، أو أكثر، وهناك خلل في العلاقات في هذه الشركة، علاقات محرمة، وكذب، و غش، ويجب أن يمر هذا الغش عن طريقه، أقسم لي بالله أنه ركل هذه الوظيفة بقدمه، وليس عنده بديل آخر، لكنه موقن أنه ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

موضوع اليقين أن الحقائق التي جاء بها الدين أن الآيات الكريمة الأحاديث الصحيحة وقوعها مئة في المئة، وقوع قطعي، لذلك نحن نتعامل مع نصوص القرآن الكريم، نتعامل معها من باب التبرك،

لكن من منا يركل بقدمه تجارة تدر عليه الملايين لشبهة بسيطة، وليس عنده بديل آخر ؟ فإذا ركلها بقدمه اعتماداً على وعد الله له، عندئذ يكون من الموقنين.

أحياناً يجعل الله الحرام سهلاً وكثيرا ووفيرا، وبين يديك، وأنت مؤمن أنك إذا أطعت الله عز وجل فلن يضيعك، فترفض هذا الحرام، وليس عندك بديل، هنا اليقين.

أحياناً حينما تصدق قد تدمر، لا بد من أن تحلف يميناً على كتاب الله حتى تنجو من هذه الورطة، فالمؤمن لا يحلف، وهو موقن أنه في مقابل أنه خاف من الله، وخاف أن يضع يده على المصحف ليقول كلاماً غير صحيح، فاستسلم لله، فيأتي توفيق الله له، ويأتي نصره له.

موضوع اليقين في الأمور التعبدية القضية سهلة، تصلي، تصوم، تحج، لكن حينما يتعلق الأمر بمصيرك، أو بسلامتك، أو بدخلك، أو برزقك، وتطبق كلام الله عز وجل بحذافيره، ولا تعبأ بمصالحك ترى أن طاعة الله فوق كل شيء.

المسلمون يتعاملون مع القرآن والسنة تعاملا ضبابياً:

هناك قوانين مستنبطة من حركة الحياة، أن الفتاة التي تبالغ في زينتها، تبالغ في إبراز مفاتنها، تتوظف في دائرة، يراها مئات الرجال كل يوم، هذه تتزوج قبل غيرها، هكذا الحياة، في الأعم الأغلب يعجب بها شاب في الدائرة فيخطبها إذا كانت متفتحة طليقة اللسان، عصرية، تحضر اجتماعات نسائية، قد تعجب بها أمٌّ فتخطبها، وتتوهم الفتاة الأخرى أن هذا الحجاب، وهذه القيود التي وضعها الشرع للمرأة هذه تمنع زواجها، الآن تأتي فتاة مؤمنة تقول: ما عند الله لا ينال بمعصية الله، تتحجب، وتكون عفيفة، وتنضبط، وتخفي مفاتنها عن الناس، فإذا بزوج يفوق كل هؤلاء الذين طمحت بهم السافرة.

المشكلة أنت واثق أن الله عز وجل إذا طمأنك في آية يكون زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق هذه الآية، لو اقتربنا من أشياء واقعية: يأتي إنسان يضع ماله في مصرف حتى يرتاح، يرى أن الراحة النفسية والأمن بإيداع المال في مكان لا تناله يد السارقين، يأتي إنسان آخر يرى أن طاعة الله مقدمة على كل شيء، يقين الثاني أن الله لن يتخلى عنه، ولن يضيعه، ولن يفجعه بماله إذا خاف من الله، وأطاعه، هذا يقين، هناك مليون مثل مليون حالة المسلمون يتعاملون مع القرآن أو مع آيات الأحكام والسنة تعاملاً ضبابياً، الله يرزقنا، حتى بعضهم يقول:

زعم المنجم و الطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

***

اليقين العملي:

ليس هناك يقين أن بعد الحياة حياةً أبدية فيها نعيم مقيم أو عذاب أليم، هذا امتحان دقيق، أحياناً يأتي التوجيه الإلهي بخلاف مصلحتك، فماذا تفعل ؟ هل أنت موقن أنك إذا أطعت الله عز وجل لن يضيعك ؟ لكن ترى أن البديل خطر، البديل أن أفقد ثروتي، البديل أن أفقد عملي، لكن حينما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه، هذا هو اليقين، اليقين كيف ؟ أنك مؤمن أن البنزين سائل متفجر وأن احتمال أن ينفجر إذا قربت منه النار بالمئة مئة هذا اليقين، في قوانين فيزيائية المعادن تتمدد بالحرارة لو أنك أنشأت بناء من دون فواصل تمدد لا بد من أن يتصدع هذا اليقين.

يقينك بآيات القرآن الكريم المتعلقة بمصالحك كيقينك بالقوانين الفيزيائية، هذا هو اليقين، أما أن تقول: إن شاء الله، الله يحفظنا فليس هذا يقينا.

الله ضامن النتائج، وليس الإنسان بضامن لها:

هناك كلمات يقولها الإنسان لا تؤكد أنه موقن بالنتائج، لكن أقول لكم هذه الكلمة الدقيقة: لو أن شخصا استنصحك، معه عملة سورية ماذا يفعل بها ؟ فأنت اجتهدت وقلت له: اشترِ بها ذهباً، أو اشترِ بها عملة صعبة، أنت نصحت فنشأت ظروف استثنائية، هذه العملة التي بدل بها عملته انهارت، هذا في علم الله، هل يستطيع أن يسائلك ؟ لا، أنت نصحته، لكنك لست ضامناً للنتائج، الإنسان ليس ضامناً، لكن أنا أطمئنكم أن الله إذا أمرك بشيء فالآمر ضامن، وزوال الكون أهون على الله من ألا تأتي النتائج وفق كلامه.

١ – نتيجة الربا: محقُ مال المرابي:

مثلاً قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: ٢٧٦]

ترى شخصاً مرابياً أمواله لا تأكلها النيران، وتزداد بشكل آلي، ثم تفاجأ أنه دمر، وأنه فقد ماله كله، قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: ٢٧٦]

٢ ـ نتيجة الاختلاط: الخيانة الزوجية:

إنسان يؤمن بالاختلاط ويرى أن الحجاب شيء قديم، شيء متعلق بعصور قديمة، وقد يكون عادات وتقاليد عثمانية جاءتنا في أيام الحكم العثماني، فيؤمن بالاختلاط، ويطلق زوجته إلى أي محفل فيه رجال، ولا يعبأ، ثم يفاجئ أن زوجته تركته، وانحازت إلى شاب أكثر منه جمالاً وفقدها. والله هناك قصص كثيرة، آخر قصة سمعتها عن رجل وظّف زوجته، ووضعها في دائرة، وأقامت دورات في اللغة الإنكليزية، الآن لا تريده، قال لي: بذلت المستحيل، لأنك لست موقناً أن الاختلاط حرام، لست موقناً أن امرأة بين الرجال تفتن بهم، ويفتن بها، هذه المشكلة باليقين.

ضعف الثقة بمتائج الطاعة والمعصية سبب لضعف اليقين:

نقرأ القرآن الكريم ، نقرأ السنة، ولكن ليس عندنا يقين أن هذا القرآن الكريم كالقوانين الفيزيائية تماماً، أيّ مخالفة لها ثمن، والثمن يقيني، والعلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة والعلاقة، بين المعصية والنتيجة علاقة علمية فقد تختار زوجة من أعلى مستوى، هو يطلق بصره يمنة ويسرى، ويعتقد أن هذه الزوجة من أطيب الزوجات، ولا يربط بين تفلته من منهج الله وحسن علاقته معها، فإذا الأمر يفاجأ به أنها لا تحبه، ولا تهتم به، لماذا ؟ لوجود معصية، فحينما تضعف ثقتك بنتائج المعصية اليقينية، وحينما تضعف ثقتك بنتائج الطاعة اليقينية يكون يقينك ضعيفاً، وهذا خلل كبير في إيمانك، قال الله عز وجل:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر]

إنسان راكب مركبة، وفي منحدر شديد، والنسيم عليل، والمناظر جميلة، وفجأة اكتشف المكبح قد تعطل، وفي نهاية هذا الطريق الهابط منعطف حاد، ولا سبيل إلا للتدهور في الوادي، ماذا يقول يقيناً ؟ مُتنا، ودمِّرنا، لماذا يستخدم الفعل الماضي ؟ لأن قضية دقائق على أن يصل إلى نهاية الطريق في منعطف حاد سرعته متعاظمة متسارعة فلا مجال للنجاة.

حينما توقن أن الأمر الإلهي والنهي الإلهي نتائجه حتمية، وأن هذه الأوامر والنواهي كالقوانين الفيزيائية لا بد من أقنع.

والله أيها الإخوة الكرام، دققوا في كلمتي هذه، أقول: يكاد المؤمن يعلم الغيب، مستحيل أن يعلم الغيب.

قصة من الواقع تصور ضعف بنتائج المعصية:

مرة اشترت امرأة بيتًا مع أخيها بجمعية تعاونية، دفع أخوها نصف ثمن البيت، لكن أخته محامية، والبيت باسمها، لأن الجمعية متعلقة بالمحامين، والبيت كان ثمنه خمسمئة ألف، الآن ثمنه حوالي عشرون مليونا، والبيت باسمها، قالت له: هذا البيت لي، مع أن أخاها دفع نصف ثمن البيت عداً ونقداً، لكن طمعت في البيت، ولأنه باسمها قالت له: تأخذ مليون ليرة، وتخرج، عنده أربعة عشر ولداً، إنه دمار كامل، أين يذهب ؟ هو موظف، فدخل في اضطراب كبير جداً في حياته، الأمر رفع للقاضي، القاضي لم يحكم له كما هو الواقع، النتيجة خرج من البيت، ووضع حاجاته في مستودع في ريف دمشق، وقسم أولاده قسمين عند أقربائه، والأسرة دمِّرت، والله يقول لي هذا الأخ أحد أولاده: هكذا فعلت عمتي معنا، قلت له: الله كبير، سوف ينتقم منها، والله بعد شهر قال لي: عمتي أصيبت بالسرطان، والله بعد شهر آخر قال لي: توفيت، وذهبت إلى البيت، وألقيت كلمة ووريثها الوحيد أخوها.

أنا موقن أن هذه المرأة التي استغلت أن البيت باسمها، وأنها أقوى من أخيها، وأنها طردته، وهو يملك النصف بالتمام والكمال بقوة القانون، كيف أن الله سينتقم منها.

حينما تؤمن أن المال الحرام لا بد من أن يدمر صاحبه، لكن لا أحد موقن، والله يأكل المسلمون الأموال الحرام بلا قيد ولا شرط، وبلا وجل ولا خوف، وغاب عنهم أن هذا المال لا يدمر وحده، سيدمر معه صاحبه.

القوانين الإلهية سارية المفعول في واقع الناس:

والله هناك آلاف القصص من هذا النوع، لابد من أن تتعامل مع آيات القرآن وأحاديث الرسول العدنان كما تتعامل مع القانون الفيزيائي، الاحتمال إذا أشعلت عود الثقاب، وألقيته على صفيحة بنزين ما هو احتمال انفجارها ؟ مئة بالمئة يقيناً، هذه خصائص البنزين.

حينما تفهم كلام الله وكلام رسول الله على أنه يشبه قوانين الفيزياء تكون ناجحا، ولا تكون موقناً إن لم تفهم الآيات والأحاديث على أنها قوانين.

قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: ٢٧٦]

الآلة الحاسبة عكس القوانين، أقرضت مئة ألف رجعت مئة وعشرين ألفا، أكثر المال ما محق، بالعكس زاد، لكن حينما تكتشف بعد حين أنه بخطأ بسيط ذهب المال كله يكون هذا مصداق قول الله عز وجل :

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

حينما تختار امرأة بجمالها، ولا تعنى بدينها إطلاقاً، وتتوقع أن تعيش معها حياة سعيدة جداً فأنت لا تفهم معنى قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: ٩٧]

إن لم تكن مستقيماً، ولم تلتزم أمر الله فلن تحيى حياة طيبة.

هذا الذي أتمناه عليكم، اليقين أن تتعامل مع آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي الصحيحة كما لو أنها قوانين فيزيائية بالمئة مئة.

وضع إنسان وصلة بين خطين كهربائيين سالب وموجب، توقف الطاقة الكهربائية في البيت بالمئة مليون، هناك قوانين للكهرباء والكيمياء والفيزياء قوانين، القرآن الكريم كذلك، فاقرأ القرآن، واكتشف القوانين.

مثلاً: ما تواد اثنان في الله ففرق بينهما إلا بذنب أصابه أحدهما، ابحث عن مليون مشكلة بين إنسانين سببها معصية أحد الطرفين أو كلاهما، لكن لو أن إنسانين كانا مستقيمين على أمر الله فلا يمكن أن تزيدهما الأيام إلا وداً وحبة وتعاوناً.

نصيحة غالية:

الذي أتمناه عليكم أن تكتشفوا القوانين من القرآن الكريم ومن سنة رسول الله، وأن تتعاملوا معها كما أنكم تتعاملون مع قوانين الفيزياء والكيمياء والفلك، أما الذي يحصل أنك لست واثقاً إذا تركت هذه الشركة التي فيها شبهة في التعامل معها، وفي بالبضاعة شبهة، لست واثقاً أن الله يهيئ لك عملاً آخر أرقى منه.

والله أيها الإخوة الكرام، خمسة وثلاثون سنة ما سألني أخ في أيام التموين الصعبة أنه دعيت إلى حلف يمين على خلاف الواقع حتى أنجو من السجن، أنا ما أفتيت لأي أخ من إخواني بحلف يمين كاذب، ولو كان العقاب شديدا، والعقاب لا يتناسب مع المخالفة، لصاقة السعر وقعت من على

الثوب، يسجن صاحبها شهرين، إذا حلف هذا التاجر يمينا أن الموظف افترى عليه، واللصاقة على الثوب ينجو، لكن حلف يمينا على المصحف، والله ما أفتيت ولا لواحد بحلف يمين كاذب، وما من واحد إلا الله أنجاه، ويشمله عفو أحياناً، أو القاضي يتعاطف معه، لأنه صادق، الذي أتمناه فقط أن يكون إيمانك بالقرآن، وبهذه السنة كإيمانك بوجودك، كإيمانك أن الشمس في كبد السماء، كإيمانك أن الشمس تشرق من المشرق، وتغرب من المغرب، أما تعاملنا نحن مع القرآن والسنة فتعامل ضبابي تعامل، نقرأ القرآن، والحمد لله، لكن آيات مثل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: ٢٧٦]

والله أعرف إنساناً عنده محل بأهم أسواق إحدى المدن العربية التي فيها سوق رائجة جداً، والله ثلاث واجهات بثلاث واجهات، وتحته قبو مستودع بحجم المحل، ومكتب تجاري فوقه بحجم المحل، وبيت بمئتين وخمسين متراً، أخذ قرضا، القرض ترتبت عليه فائدة مركبة، والله باع البيت والمحل والمستودع والمكتب التجاري، وما كفى المال، القرض الربوي يدمر، ويمحق الله الربا.

فأنت معك قرآن يؤكد لك هذا القرآن مجموعة قوانين تعامل معها تعاملا يقينيا لا تعاملا ضبابيا

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٥-٦٠) : مؤمن فرعون

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

مع ايات من سورة غافر: استنباطات وعبر:

الاية الأولى: قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ

١ – في عصر الضيق اجعل مضمون العلم إسلاميا:

في سورة غافر شيءٌ يَلفت النظر، ماذا قال مؤمن فرعون ؟

أولاً: وصف الله هذا الرجل فقال:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

[سورة غافر: ٢٨]

إذا كنت في عصر الطرح الديني فيه مرفوض، والدين محارب في كل بقاع الأرض، ولن يستطيع إنسان أن يقيم عملاً له إطار إسلامي مثلاً، وأرجو الله سبحانه وتعالى ألا نصل إلى هذا المستوى، لكن إذا وصلنا إليه أليس هناك عمل إيجابي يمكن أن تبلغ به أعلى درجات الجنة ؟ اجعل مضمون العلم إسلاميا، ولا مانع من ألا يكون الإعلام عنه إسلامياً.

٢ – المؤمن الواحد يحقق أضعاف ما يحققه الإطار الإسلامي:

ماذا أقول لكم ؟ قد تكون المناهج الدراسية أسوأ المناهج، والكتب أسوأ الكتب، فإذا كان المدرس جيدا ومؤمنا وواعيا يلغي سوء المنهج وسوء الكتاب.

إذاً: حينما تعتمد على إنسان مؤمن، إدراكه واسع، عنده حكمة، يمكن أن تحقق عن طريق المؤمن أضعاف ما تحقق عن طريق الإطار إسلامي، هذه لفتة في القرآن دقيقة جداً، فقد يقوى أعداء الدين، وقد يقوى المؤمنون، قال تعالى:

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس)

[سورة آل عمران: ١٤٠]

لو أن الله عز وجل جعل أهل الحق هم المسيطرون دائماً لظهر النفاق في الأرض، ولو أن أهل الباطل تسلموا القوة بشكل مستمر ليئس المؤمنون، فلحكمة أرادها الله عز وجل جعل الحق والباطل يتناوبان في تسلُّم زمام الأمور، فإذا كنت في وضع صعب جداً، والطرح الديني الإسلامي مرفوض، ولا يوافق على أي عمل إسلامي، ألا تستطيع أن تقيم عملاً إطاره عادي، أما مضمونه فإسلامي ؟ هذا يبدو في التعليم، في الطب ، في المستشفيات، في التأليف، يمكن أن تصل إلى كل أهدافك بحنكة وذكاء، كما في هذه الآية:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

[سورة غافر: ٢٨]

٣ – نريد السلوك الإسلامي لا المظاهر:

أحياناً المظهر الديني الصارخ قد يكون حاجزاً بينك وبين الناس، فالعبرة أن تحقق شيئاً، أن تحدث شيئاً في الحياة، أن تقنع الناس بهذا الدين العظيم، أما المظاهر فأنا والله أتمناها، وأحترمها، وأقدسها، لكن إذا وقفت حاجزاً بينك وبين الناس فلا، قال تعالى:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

[سورة غافر: ٢٨ئ

لا داعي للوحات قرآنية في البيت، ومصحف معلق، وآية الكرسي، وفي المحل التجاري تعلّق الآية:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

استقم في البيع والشراء، أعط الناس سلعة جيدة بسعر معتدل، عندئذ يقدسون دينك، الناس يؤخذون بالمظاهر، نحن أحياناً نبالغ بالمظاهر، نعلق المصحف على السيارة، هذا شيء جيد، لكن نطلق البوق لدرجة غير معقولة، فإذا وجدوا مصحفاً على السيارة، يأتي الساعة الواحدة بالليل، يريد أن يأخذ زوجته من بيت أهلها إلى بيته، لا داعي أن يصعد أربعة أدراج، يبقى واضعا يده على البوق حتى يوقظ كل الجيران، وهو يضع المصحف في السيارة، لا نريد إطاراً إسلامياً، نريد سلوكاً

إسلامياً، لا نريد إنساناً مظهره صارخ، البس لباساً عادياً، لكن كن متواضعاً، كن محسناً، أنا أعلق على كلمة واحدة:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

[سورة غافر: ٢٨]

٤ ــ قد تحتاج يومًا إلى كتمان إيمانك !!!

قد تحتاج أحياناً إلى أن تكتم إيمانك، وقد لا تحتاج، وأسأل الله جل جلاله ألا نحتاج إلى وضع لا نستطيع أن نعلم إسلامنا، لكن الحياة صعبة جداً، وهناك أماكن الآن في العالم لا تستطيع أن تعلن إسلامك، لا تستطيع الفتاة أن تتحجب، إذاً: المؤمنات الطاهرات قبعن في البيوت، لو أنها نزعت الحجاب، وارتدت ثيابا محتشمة فقط تعد محجبة بلا شيء على رأسها، اللباس الطويل، والثياب السابغة، بذلك تكون إسلامية !!! نحن بخير، نحن بخير كبير، وفي بعض البلاد لا تستطيع أن تدخل المسجد إلا وتسأل، الحمد لله المساجد عامرة، والدروس عامرة، ونحن في بلد وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بالخير، فعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((بَيْنَا أَنَا فِي مَنَامِي أَتَتْنِي الْمَلَائِكَةُ، فَحَمَلَتْ عَمُودَ الْكِتَابِ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي، فَعَمَدَتْ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا فَالْإِيمَانُ حَيْثُ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ))

[أحمد]

أيها الإخوة الكرام، قد يحتاج الإنسان في ظرف صعب جداً في بلد غير هذا البلد أن يكتم إيمانه، فالعبرة بالمضمون لا بالشكل، والعبرة بإنسان مؤمن واعٍ مدرك مستقيم، العبرة أن تقرب الناس من الله عز وجل.

مثلاً: قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: ٨]

حينما تعدل تقرّب البعيد.

هناك جماعة في تركيا تسلموا الحكم، والفضل لله، حينما رفعوا مستوى المعيشة، وحينما خفضوا الديون، وحينما ارتفعت العملة، وحينما أُلغِيَت الرشوة مَن ملكوا ؟ ملكوا الطرف الآخر، نريد مضموناً، نريد إنساناً إيمانه قوي جداً يحدث تغيراً في المجتمع، لن تحدث التغيير في المظهر الإسلامي فقط، لن تحدث التغيير إلا بالمضمون الإسلامي، قال تعالى:

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ)

[سورة غافر: ٢٨]

الأية الثانية: يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ

١ – الدنيا متاع قصير زائل:

ماذا قال هذا الرجل المؤمن ؟

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

[سورة غافر: ٢٨]

ألست إذا قرأت القرآن الكريم تقول: صدق الله العظيم ؟ طبعاً، يقول الله لك:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء: ٧٧]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: ٣٨]

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: ٧٧]

سيدنا عمر بن عبد العزيز كان إذا دخل مجلس الخلافة له آية يقولها كلما دخلها:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[سورة الشعراء]

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

٢ – الحياة مليئة بالتناقضات:

أيها الإخوة الكرام، لا تستطيع أن تأكل ما تشتهي، الجسم لا يحتمل هذا الطعام الطيب اللذيذ، هذه الحياة فيها تناقضات الاستمتاع بالحياة يحتاج إلى وقت وإلى مال وإلى صحة، في البدايات الصحة موفورة، والوقت موفور، لكن ليس هناك مال، وفي منتصف الحياة الصحة موفورة، والمال موفور، لكن ليس هناك وقت، وفي خريف العمر المال موفور، والوقت موفور، لكن ليس هناك صحة.

٢ ـ الحياة مبنية على الابتلاء:

إن الحياة مبنية على الابتلاء إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وقد جعلها دار عقبى، فجعل بلاد الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

لذلك قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)

[سورة غافر: ٢٨]

حديث يقصم الظهر:

أيها الإخوة الكرام، بربكم حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام وأنا أقول: هذا الحديث يقصم الظهر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسن]

هل تنتظرون إلا...

١ ـ فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا:

فقر مفاجئ، أو اغتنى غنىً مطغياً، اغتنى وصار معه عشرات الملايين، وعنده زوجة صالحة مؤمنة محجبة، اتصل بها، وقال لها: إن لم تأتني بالبنطال، وبإبراز كل مفاتن المرأة فلست زوجتي، هذا ما اسمه ؟ إنه الغنى المطغي، ويا ليته بقي فقيراً.

٢ ـ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا:

هناك أمراض تشوه حياة الإنسان.

والهرم حين يخرف الإنسان، فيعيد القصة مئة مرة، ويصير حشريا يثقل عند أولاده، كلما جاءهم ضيف يشكوهم للضيف، ويقول: ما يطعمونني، هذا خرف مفند.

٣ ـ أَوْ الدَّجَّالَ:

أو الدجال صاحب الحرية والديمقراطية، يتفنن بإبادة الشعوب، وإذلالها، وقهرها، ونهب ثرواتها، وجئنا من أجل حريتكم وديمقراطيتكم، وهو الدجال.

أعيد الحديث:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[رواه الترمذي وقال حديثٌ حسن]

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)

[سورة غافر]

لذلك قال سيدنا علي بن أبي طالب: << الغنى والفقر بعد العَرض على الله >>.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ)

[سورة غافر]

الأية الثالثة: وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ:

١ ـ دعوة هدّامة إلى تقليد الأجانب:

هناك دعوة إلى النار، إلى التفلت، إلى السفور، إلى تقليد الأجانب.

والله زارني شاب، آلمني أشد الألم أن بنطاله فيه ثقوب كثيرة، قلت: كم هو فقير مظهره أمام الناس، كتبته في دفتري الخاص، أن أقدم له ألبسة يستر بها جسمه، وما كنت أظن أن هذا من أحدث صرعات الأزياء.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ...))

[متفق عليه]

شيء لا يحتمل، أن مصمم الأزياء للرجال والنساء، الآن على الصفر، شخص محترم مدير مؤسسة حلق شَعره على الصفر، كنا صغاراً إن أردنا أن نعاقب إنساناً عقاباً أشد أنواع العقاب أن نحلق له شعره على الصفر، الآن هي موضة، والبنطال الذي فيه رقع وثقوب أحدث صرعات الأزياء، إنه التقليد الأعمى، فلذلك:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ)

[سورة غافر]

٢ – دعوة هدّامة إلى المعصية والسفور:

لم يبق للزوج شيء من زوجته، كل مفاتنها في الطريق أليس كذلك ؟ دعوة إلى النار إما بثياب المرأة، أو بثياب الرجل، أو بالاختلاط، أو بانتشار الغناء، حتى شهر رمضان صار شهرا فلكلوريا، فيه خيام رمضانية تبدأ بالإفطار، وتنتهي بالرقص والموسيقى والغناء، قال تعالى:

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ)

[سورة غافر]

الأية الرابعة: لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ

١ – الدنيا لها منهج:

الدنيا لها منهج، إن طبقته سعدت في الدنيا والآخرة، إنها استمتاع عابر.

للتوضيح: إذا كنت تحب أن تغمر جسمك بماء فاتر في حمام البيت، لو جلست ساعة أو ساعتين أو ثلاثا، هل تصبح طبيباً بهذه الطريقة ؟ هل تصير تاجراً كبيراً ؟ هل تصير معك شهادة عليا ؟ الاستمتاع ليس له أثر مستقبلي، أما العمل الصالح، وطلب العلم فله أثر مستقبلي.

إذاً: أيها الإخوة الكرام:

(لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ)

[سورة غافر]

٢ ــ تفكروا في يوم له خروج بلا عودة إلى الدنيا:

إذا فكر الإنسان في ساعة المغادرة، أن كل يوم يدخل إلى البيت، ويخرج منه على قدميه، لكن مرة واحدة يخرج من بيته في نعش، كل يوم يقرأ مئات من النعي، وفي يوم واحد سيقرأ الناسُ نعيَه، كل يوم يخرج، ويعود، فإذا تأخر يقلق أهله، إلا إذا مات، خرج من البيت الساعة الواحدة ثم لم يعُد، لم يأت أبداً، انتهى، هذه خروج بلا عودة، هذه كلمة مخيفة جداً، في بعض البلاد إذا وضعوا له على الجواز: خروج بلا عودة، انتهى، فقد طردوه، وكل واحد منا عنده خروج بلا عودة عند الموت.

(وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ)

[سورة غافر]

الأية الخامسة: فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ

البطولة أن تعرف الحق في الوقت المناسب.

إن فرعون عرف الحق بعد فوات الأوان، لما أدركه الغرق قال:

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: ٩٠]

إذاً: كلمة

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ)

[سورة غافر]

البطولة أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان.

(وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

[سورة غافر]

الأية السادسة: يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً

١ – عذاب القبر قبل عذاب النار:

الجماعة ميتون منذ ستة آلاف سنة، وكل يوم مرتين عرض على النار والخير إلى الأمام، قال تعالى:

(يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

[سورة غافر]

اسأل شخصاً محكوما عليه بالإعدام، كلما وُضع المفتاح في الباب يقول: جاءوا ليأخذونني إلى المشنقة، أحيانا يؤخَّر إعدامه سنتين، فيُعدم كل يوم مرتين، فآل فرعون، قال تعالى:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[سورة غافر]

خلاصة نصائح مؤمن أل فرعون لقومه:

لذلك أيها الإخوة الكرام، هذا مؤمن فرعون له شأن كبير عند الله، فقد عرف الحقيقة، وبلغها لقومه، وكان يكتم إيمانه.

يستفاد من هذه القصة القصيرة أنه أحياناً إذا كان المظهر الديني الصارخ، أو الإطار الإسلامي، أو الإعلام الإسلامي مرفوضا ليس معنى هذا أن تلغي عملك، لا، أدخل بمضمون إسلامي، وبإطار عادي، هذا ممكن، ولك في هذه القصة أسوة حسنة.

أسال الله عز وجل مرة ثالثة ألا نصل إلى هذا المستوى، أن نقيم شعائر إسلامنا في بيوت الله، ونحن في مظهر ديني، وقد يكون صارخا، لكن الحياة فيها مفاجآت، والبطولة أن تعد لكل مفاجئة عدتها.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٦-٦٠) : الدعاء مفتاح الرحمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

موضوع اليوم الدعاء.

الدعاء:

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ:

بادئ ذي بدء يقول الله عز وجل:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية: ٧٧)

١ – الدعاء يقين بوجود الله:

إن دعوناه يعبأ بنا، وإن لم ندعوه لا يعبأ بنا، لماذا ؟ لمجرد أن تدعو الله عز وجل فأنت موقن بوجوده، فأنت لا تخاطب جهة ليست موجودة، إلا أن يكون في العقل خلل، فما دمت تدعو الله عز وجل فأنت موقن بوجوده، وأنت موقن أنه يسمعك، الله عز وجل يسمعك إذا تكلمت، ويراك إذا تحركت، ويعلم ما في قلبك إذا أسررت، يسمع، ويبصر ويعلم.

إذاً: هو موجود ويسمعك، ولا يمكن أن تدعو الله عز وجل إلا إذا أيقنت أنه قادر على إجابة طلبك، ولو بدا عندك مستحيلاً، ولا يمكن أن تدعو الله عز وجل فضلاً عن أنك موقن بوجوده، وبعلمه، وسمعه، وبصره، وبقدرته، بل يريد أن يرحمك، فهناك وجود، وسمع، وقدرة، ورحمة.

لذلك:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

٢ ــ عدم الدعاء خروجٌ عن العناية الربّانية:

إن دعوناه يعبأ بنا، فإن لم ندعه لا يعبأ بنا، عندئذٍ نكون خارج العناية الإلهية، وحينما يضن الإنسان أن يدعو الله عز وجل فهو خارج العناية الإلهية.

٣ ــ الدعاء عبادة وقربٌ:

قال بعضهم: إن الله جعل من الدعاء عبادة وقرباً، وأمر عباده المؤمنين بالتوجه إليه لينالوا منزلة رفيعة وزلفى، أمر بالدعاء، وجعله وسيلة للرجاء، فكل من خلقه يفزع لحاجة إليه، ويعول عند الحوادث والكوارث عليه.

٤ ــ كلُّ مخلوق يلجا إلى الله في الشدة:

والله أذكر مرة أن طائرة فيها خبراء من بلاد انهارت الآن، تؤمن بأنه لا إله ، ملحدون، فلما دخلت الطائرة في غيمة مكهربة، وأوشكت على السقوط إذا بهؤلاء الخبراء الملحدون توجهوا إلى الله بالدعاء.

٥ ــ سبحان مَن وسِع سمعُه كلَّ شيء:

سبحانه اللطيف الذي لا تخفَ عليه مضمرات القلوب، فيفصح عنها بنطق وبيان، ولم تستر دونه مضمنات الغيوب، فيعبر عنها بحركة اللسان، لكنه أنطق الألسن بذكره لتستمر على وَلَهِ العبودية، وتظهر به شواهد الربوبية، وحقيقته إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة ، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله وإضافة الجود والكرم إليه.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ :

أول آية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة الآية: ١٨٦)

حينما تراه قريباً، حينما تراه أقرب إليك من حبل الوريد، عندئذٍ يمكن أن تدعوه .

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة الآية: ١٨٦)

شروط استجابة الدعاء:

ـ إذا دعاني حقيقة.

ـ وأخلص في الدعاء:

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

ـ ولا أستجيب للداعي إلا إذا آمن بي.

ـ واستجاب لي.

ـ وأن تراه قريباً.

أن تدعوه مخلصاً بعد أن تؤمن به، وأن تستجيب له، هذه شروط الدعاء.

استثناء من شروط الدعاء:

١ ـ المضطر:

إلا أن العلماء قالوا: يستثنى من هذه الشروط دعاء المضطر، فالله يستجيب له لا لأهليته ولكن برحمته.

٢ ـ المظلوم:

ويستجيب الله عز وجل للمظلوم، ولو لم تتوافر فيه شروط الدعاء، لأنه يستجيب له بعدله، لذلك:

((اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَاب))

[متفق عليه عن ابن عباس]

منزلة الدعاء:

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أفضل العبادة الدعاء))

[أخرجه الحاكم عن ابن عباس]

بل الدعاء هو العبادة.

((أعجز الناس من عجز عن الدعاء، و أبخل الناس من بخل بالسلام))

[أخرجه الطبراني والبيهقي عن أبي هريرة]

أبخل إنسان من بخل بالسلام، السلام عليكم، بل

((أعجز الناس من عجز عن الدعاء))

((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ على اللَّهِ تَعالى مِنَ الدُّعاءِ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء))

[أخرجه الترمذي والحاكم، عن أبي هريرة]

من علو الهمة المحافظة على أداب الدعاء:

لكن من علو الهمة في الدعاء: أن تحافظ على آداب الدعاء.

١ ـ التضرع والخفية وعدم رفع الصوت:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)

(سورة الأعراف الآية: ٥٥)

ليس هناك من مبرر أن يعلو صوتك بالدعاء، بل إن سيدنا زكريا:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

(سورة مريم)

يمكن وأنت في ظرف عصيب، دون أن تحرك شفتيك، أن تدعو الله بقلبك، وهو يسمعك ويستجيب لك.

من آداب الدعاء: أن يكون خفية.

من آداب الدعاء: أن يكون تضرعاً، أي تذللاً، يا رب ليس لي سواك، يا رب أنا مذنب سامحني، يا رب اغفر زلتي، اقبل توبتي، أعقل عثرتي يا رب، التضرع مع الخفية.

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة الأعراف)

٢ ـ عدم الاعتداء:

المعتدي ؛ إنسان يعتدي على أخيه، يأخذ ماله، يذله، يعتدي على عرضه، ثم يقول: يا رب، مستحيل أن يستجيب لك إذا كنت معتدياً على أخيك،

٣ــ الاستقامة:

إذاً من آداب الدعاء: أن تكون مستقيماً:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

لذلك المعتدي لا يحبه الله، وبالتالي لا يستجيب له

من معاني الأعتداء في الدعاء:

ـ بعضهم قال: من معاني المعتدين أن تطيل في الدعاء، كما إذا قيل لإنسان: سيدي ادع لنا ساعة. مرة كان إنسان بتعزية، وإنسان آخر استلم الدعاء ربع ساعة، غفل، ثم صحا.

ـ من معاني العدوان في الدعاء أن تطيله.

إذاً من علو الهمة في الدعاء أن تحافظ على آدابه، أن تدعوه تضرعاً أي تذللاً، وأن يكون خفية، وألا يسبقه عدوان على مخلوق، حتى يستجيب الله لك.

٤ــ افتتاح الدعاء بذكر الله والثناء عليه وختمه بالصلاة على النبي:

ومن علو الهمة في الدعاء: أن يُفتتح الدعاء بذكر الله، والثناء، وأن يختمه بالصلاة على نبيه، عليه الصلاة والسلام .

سيدنا يونس حينما وجد نفسه فجأة في بطن الحوت:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ)

(سورة الأنبياء الآية: ٨٧)

فالثناء على الله دعاء.

لو أنّ إنسانا أمسك بابنك ـ لا سمح الله ـ وأنت خفت عليه منه، قلت له: أنت رحيم، كأنك تقول له: دعه، إذاَ: لمجرد أن تثني على الله فهذا نوع من الدعاء .

(إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

وأن تختمه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

٥ــ الجزم بالدعاء واليقين بالإجابة:

ومن علو الهمة في الدعاء: أن تجزم به، وتوقن بالإجابة، فلا تقل: يا رب ارحمني إذا أردت، هو يريد أن يرحمك، لا تعلق الدعاء، وهناك دعاء لا أصل له، اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف به، من الذي يمنع الله أن يلبي دعوتك كما تريد، هذا الكلام لا أصل له، يا رب لا تضربني بحجر، اجعله مفتتاً، إذا كان لا بد من أن تضربني فاجعل هذا الحجر مفتتاً، هذا كلام غير معقول أبداً، إذا دعوت الله فتيقن أن الله قادر على أن يستجيب لك، فينبغي أن تجزم بالدعاء، وأن توقن بالإجابة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعالى لا يَسْتَجِيبُ دُعاءَ مِنْ قَلْبٍ غافِلٍ لاهٍ))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ))

[البخاري]

مثلاً ـ لا سمح الله ولا قدر ـ طبيب قال للمريض: هذا المرض لا شفاء منه، الآن وبجهله يدعو: يا رب، هذا المرض لا شفاء له، يا رب، أعني على الصبر عليه، لا، قل: يا رب اشفني منه، ولو قال الطبيب: ليس له دواء، ليس عند الله شيء مستحيل إطلاقاً، اجزم، وتيقن من الإجابة.

إذاً، قولك: " اغفر لي إن شئت "، ليس من أدب الدعاء، " ارحمني إن شئت "، ليس من أدب الدعاء فليعزم المسألة، فإنه لا مكره له.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا دعاء، دعا ثلاثاً، أول مرة والثانية، والثالثة، هذا هو الإلحاح في الدعاء، وإن الله يحب الملحين بالدعاء.

وفي صحيح مسلم عَن ابْن عَبَّاسٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ:

((لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ،

كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ...))

[مسلم]

سيدنا يعقوب قال:

(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

ادعوا مرة، ومرتين، وعشر مرات، ومئة مرة، فإن الله يحب الملحين في الدعاء.

٦ ـ تعظيم المسألة:

الآن من علو الهمة في الدعاء: أن تُعظم المسألة.

للتقريب: لو قال لك ملِكٌ: اطلب وتمنّ، قال له: قلم رصاص، فقط قلم ؟ قلم من ملك ! قل له: بيت، ومركبة، ودخل كبير، إذا دعوت الله عز وجل فاطلب منه الشيء الكثير، الذي يبدو لك مستحيلاً.

((إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه))

[رواه ابن حبان عن عائشة رضي الله عنها]

٧ ـ الدعاء باسم الله الأعظم:

ومن علو الهمة في الدعاء: الدعاء باسم الله الأعظم، اختلف العلماء أي اسم من أسماء الله هو الأعظم، وهناك اجتهاد رائع جداً أن كل اسم من أسماء الله الحسنى هو اسم الله الأعظم بحسب حاله، أنت فقير اسم الله الأعظم المغني، أنت لا سمح الله مريض اسم الله الأعظم الشافي، أنت ضعيف اسم الله الأعظم القوي، يا قوي، أنت مذنب اسم الله الأعظم الغفور، فأي اسم من أسماء الله الحسنى هو اسم الله الأعظم بحسب حالك، فاختر من أسمائه الحسنى ما يناسب حالك.

٨ ـ الدعاء بأدعية القرآن الكريم وأدعية النبي:

ومن علو الهمة في الدعاء: قال أن تدعو بأدعية القرآن الكريم، اجمعها.

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة البقرة)

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)

(سورة البقرة الآية: ٢٨٦)

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)

(سورة آل عمران الآية: ٨)

اجعلني مقيم الصلاة يا رب.

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء الآية: ٨٠)

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي *وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

(سورة طه)

إذاً: من أدب المؤمن أن يدعو من أدعية القرآن، ثم بأدعية المصطفى عليه الصلاة والسلام، أما أن تقول: يا رب ارزقني المحضر ٥٧، مَحضَر أبي جرش، هذه لا تصح، تدخل أسماء محاضر، وأسماء أمراض، يا رب زوجني فلانة بنت فلان، الساكنة بالمنطقة الفلانية، الأولى أن تدعو بأدعية القرآن، وأدعية النبي عليه الصلاة والسلام.

لابد من كتاب في الدعاء:

أتمنى عليكم أن تقتنوا كتاباً لأدعية النبي عليه الصلاة والسلام، وأن تقرؤوه كثيراً إلى أن تحفظوا معظمه، هذا متى ينفعكم ؟ في العمرة، الحج والعمر كله دعاء، عندك سبعة أشواط، السعي بين الصفا والمروة، وعندك سبع طوافات، في الطواف، وفي السعي، وفي مزدلفة، وفي عرفات، النشاط الأول في الحج والعمرة هو الدعاء، ولما تكون محفوظاتك من الدعاء قليلة جداً تعاني مشكلة كبيرة، لأن الله عز وجل دعاك إليه، وفي بيت الله الحرام، وفي مشاعر الحج، وعند النبي الكريم، النشاط الأول يكاد يكون الأوحد هو الدعاء، فاقتن كتاباً لأدعية النبي عليه الصلاة والسلام، واحفظ أدعية القرآن الكريم، واقرأها كل يوم إلى أن تحفظ معظمها، إن حفظتها، وأنت في الطريق تقود مركبتك إلى العمل ادع الله،

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

رب ارزقني طيباً، واستعملني صالحاً.

اللهم اهدني واهدِ بي.

اللهم إن عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، عدلٌ فيّ قضاؤك، نافذ فيّ حكمك، في أدعية رائعة جداً.

اللهم ما رزقتني مما أحب فأجعله عوناً لي فيما تحب، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب.

اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه.

اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر.

إخواننا الكرام، صدقوا أن الدعاء قمة العبادة، الصلاة دعاء، والذكر دعاء والاستغفار دعاء، إعلان التوبة دعاء، المناجاة دعاء.

ليس بينك وبين الله وسيط في الدعاء:

الدعاء أن تخاطب الله عز وجل، ليس بينك وبينه وسيط، وليس بينك وبينه حجاب.

((ابن آدم سلني حاجتك كلها))

((ليسأل أحدكم ربه حاجته أو حوائجه كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع))

[رواه البزار عن أنس]

إن الله يحب من عبده أن يسأله عبده ملح طعامه

((سلني حاجتك كلها))

عود نفسك قبل أن تقابل أي إنسان، اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين، إن كنت طبيبا فادعُ قبل إجراء العملية.

هناك طبيب أعصاب قبل أن يبدأ بالعملية يصلي أمام المريض، ويسجد، ويدعو الله، يا رب ألهمني الصواب، أنت قوي بقدر دعائك، حينما تدعو الله عز وجل يسدد خطاك، ويلهمك الكلام الفيصل الصواب، ويعطيك هيبة.

الدعاء ملخص العبادات:

الدعاء ملخص كل عباداتك، ملخص صلاتك، وصيامك، وزكاتك، وحجك، الدعاء المستمر، بل إن الله عز وجل حينما يقول:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج)

الدعاء صلاة دائمة، لكن إياكم والإعتداء:

كيف أنت في صلاة دائمة ؟ الدعاء صلاة دائمة، فادع الله عز وجل، واطلب منه كل شيء، لكن:

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

أقول لكم هذه الكلمة المرة: حينما تعتدي على حقوق الآخرين، حينما تعتدي على أموالهم، حينما تعتدي على أعراضهم، حينما لا تكون مستقيماً لا تستطيع أن تدعو الله، أنت في حجاب مع الله، أما إذا استقمت هُتك الحجاب، وصار الطريق سالكاً إلى الله، والخط ساخناً بينك وبين الله.

أيها الإخوة، موضوع الدعاء موضوع طويل جداً، هو العبادة، وفي بعض الأحاديث مخ العبادة.

((من لا يدعني أغضب عليه))

[أخرجه العسكري عن أبي هريرة]

فإياكم وغضب الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

كيف تكون مصدقا للقرآن الكريم ؟!!

أيها الإخوة، حينما تقرأ القرآن الكريم، وتنتهي من قراءته ماذا تفعل ؟ تقول صدق الله العظيم، هذه كلمة كبيرة وخطيرة، إذا قال الله لك:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة الآية: ٢٢١)

وآثرت زوجاً لابنتك غنياً، لكن دينه رقيق جداً، فأنت بهذا التصرف لم تصدق الله، فكلمة: صدق الله العظيم " التي قلتَها كلمة كاذبة غير صحيحة، أنت ما صدقت الله عز وجل، ولو صدقته لما قبلت أن يكون زوج ابنتك رقيق الدين، آثرت دنياه على دينه، من هذا السياق هناك آلاف الأمثلة، أنت حينما تؤثر شيئاً على شيء يقربك إلى الله فأنت ما صدقت الله عز وجل في كتابه.

هذه المقدمة لآية يقول الله فيها:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

هناك شركات عملاقة، شركات متعددة الجنسيات، أرباحها بالمليارات، ذكرت لكم من قبل أن شركة سيارات يابانية أرباحها تزيد على الدخل القومي لبلد عربي إسلامي عدد سكانه سبعون مليونا، أرباح شركة واحدة عندها أربعون ألف موظف، أرباحها تزيد على جهد سبعين مليونًا.

إذا قال الله لك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

ماهي الرحمة المقصودة في الأية:

ماذا تفهم من هذه الآية ؟

إذا عرفت الله، واتصلت به، وكنت مستقيماً على أمره، وألقى على قلبك السكينة، ورحمك بالحكمة، ورحمك بالعلم، ورحمك بالرضا، ورحمك بالتوفيق، هذه الرحمة إن بالتوفيق، أو بالحكمة، أو بالعلم، أو بالرضا

(خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

لأن الدنيا مهما علا شأن الإنسان فيها تنتهي بالموت، وكلما كان الخط البياني عالياً كان السقوط مريعاً.

إذا صدقت هذه الآية تبحث عن رحمة الله، لك أن تطلب الرزق، لك أن تتقن عملك، لك أن تتزوج، لك أن تسكن ببيت، لك أن يكون لك دخل معقول، لك الأشياء المعقولة، أما أحياناً قد يتجاوز الإنسان حاجته إلى الرزق، فيدخل في سباق محموم في جمع المليارات، وهناك أناس كثيرون تجاوزوا موضوع الرزق، همّهم جمع المليارات، ويتنافسون، فلان له تسعون مليارا، فلان كذا مليار، فلان كذا مليون، الله عز وجل قال لك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

وفي آية ثانية:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس الآية: ٥٨)

فقل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت، هل يفرحك رحمة الله ؟ أم تفرحك الملايين المملينة ؟ ومتاع الحياة الدنيا، إذا قال الله لك:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء الآية: ٧٧)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

إذا قال الله لك:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

إذا قال الله لك:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

إذا قال الله لك:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

إذا قال الله لك:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

هذه الآيات من عند خالق الأرض والسماوات،: هذه آيات الخبير،: هذه آيات الخالق،: المربي،: المسير،: هذه آيات الله في الأرض.

كيف نقرأ القرآن ونخالف مضمونه ؟!!

فلذلك قضية أن نقرأ القرآن،: وألا نكون في مستواه مشكلة كبيرة،: أنت في رمضان تقرأ القرآن،: فإذا كان يفرحك أن تطلب العلم فتفهم كتاب الله،: وتعمل به،: وتدعو إليه فأنت في المستوى،: وعلامة ذلك أنْ يكون لك صديق على مقعد الدراسة،: وسلك طريق الدنيا،: وأصبح يتكلم بالملايين المملينة،: والتقييت به،: لمجرد أن تصغر أمام ما آتاك الله من القرآن،: ومن الإيمان،: ومن الاستقامة،: ومن الأعمال الصالحة،: لكن دخلك محدود،: وبيتك صغير،: ودنياك معتدلة،: فإذا دخلت إلى بيته،: ٤٥٠ مترا،: والرخام،: والثريات والمركبات،: فصغرت أمامه،: فقد حقرت ما عظمه الله،: لأنه الله قال لك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

فهم الأية سهل،: والصعوبة في تطبيقها:

أيها الإخوة،: نقطة دقيقة أتمنى أن أوضحها لكم: أحياناً الآية فهمها سهل،: لكن أن تعيشها تحتاج إلى جهد كبير،: أضرب لك مثلاً:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

لك على مقعد الدراسة صديق، أنت عندك محل متواضع، دخله يغطي نفقاتك، وعندك بيت متواضع، وهذا الصديق صار معه ملايين مملينة، لمجرد أن تقول: يا ليتني أملك مثل ما يملك فقد حقرت ما عظمه الله، أنت لم تفهم معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

علامة إيمانك أنك لا تعبأ بدينا أهل الدنيا لا ببيوتهم، ولا بمركباتهم، ولا بمكانتهم، أنت قانع أنك وعلى حق.

لذلك إذا ذهبتم إلى مقام رسول الله، أنا أظن أنه ما من إنسان على وجه الأرض له مكانة عند الخلق كرسول الله، ومع ذلك كان متواضعاً، طلب رحمة الله، كان يجلس في بيت إن أراد أن يصلي قيام الليل لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، هذه غرفته، ومع ذلك جعله الله سيد الخلق.

لذلك قال سيدنا علي: << فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا >>.

مادامت الدنيا تنتهي بالموت فلا قيمة لها:

إخواننا الكرام، ما دامت الدنيا تنتهي بالقبر فلا قيمة لها، ومن الممكن أن تدخل للتعزية في بيت ثمنه ٨٠ مليونا، وصاحبه في القبر، هذا مثوى مؤقت.

بالمناسبة، لو تصورنا بلدا له نظام إيجار عجيب، أنا أقول لكم هذا النظام: المستأجر لأي بيت بإشارة من صاحب البيت يجب أن يخرج بثيابه فقط، اشترى ثريات، اشترى السجاد، اشترى الأجهزة، اشترى المكيفات، اشترى الكمبيوترات، وبإشارة في أيّ وقت، الساعة الثالثة ليلاً يخرج المستأجر من البيت، هكذا نظام الإيجار، إذا استأجر رجلٌ بيتا، وله دخل كبير، فهل من العقل أن يضع كل هذا الدخل في أثاث ؟ وفي تزيينات ؟ وفي أجهزة ؟ لكن له بيت بعيد، ولا يزال على الهيكل، أليس من العقل أن ينفق بعضاً من ماله لكسوة ذلك البيت الذي هو مثواه الأخير، أم ينفق كل ماله إلى هذا البيت المستأجر ؟! هذا البيت المستأجر هو الدنيا، في ثانية وقف القلب، كل أملاكه المنقولة، وغير المنقولة، ومقتنياته، ومركباته، وصناديقه، وحساباته كلها آلت إلى غيره في ثانية، الموت يأخذ منك كل شيء بثانية واحدة.

فلذلك هذه الآية دقيقة جداً:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

حينما تستقيم على أمر الله، وتعرف الله، ولك عمل صالح فقد عرفت حقيقة الحياة الدنيا.

ماذا قال سيدنا موسى لما سقا للفتاتين ؟ قال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص)

يعني يا رب،: أنا مفتقر لعمل صالح،: لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله والغنى غنى العمل الصالح،: فإذا كان معك مئة مليار ليرة سورية،: ونُقلت فجأة إلى بلاد بعيدة،: هذه العملة ليست مقبولة إطلاقاً هناك،: أنت بحاجة إلى دولار واحد،: ما معك،: هذه العملة غير مقبولة هناك،: كما أنّ دنياك غير مقبولة في الآخرة،: يا رب،: أنا عندي بيته ثمنه ٨٠ مليونا،: ماذا أعمل لك ؟

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

إذاً:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

أعود وأقول: قل لي ما الذي يفرحك أقل لك من أنت،: إذا كان يفرحك طاعة الله،: ومعرفة الله،: والاستقامة على أمر الله،: والانضباط بشرع الله،: وأن دخلك حلال،: والإنفاق حلال،: وأنت في خدمة الخلق،: فلا تعبأ بكلام الناس،: أنت ملِك الآخرة.

لذلك المؤمنون يسمح الله لهم أن يردوا النار،: وورودُ النار غير دخولها،: لا بد من أن يرى المؤمن مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً،: ولا بد من أن يرى المؤمن هؤلاء الذين كانوا أغنياء الدنيا،: وفساقها،: وفجارها،: أين مصيرهم،: من أجل تتضاعف سعادته في الجنة يوم القيامة.

الفهم الجبري للقضاء والقدر مرفوض:

النقطة الثانية أيها الإخوة،: هناك من يفهم القضاء والقدر فهم جبري،: فالكافر خلقه الله كافرا،: هذا كلام غير صحيح،: ما الذي ينقضه ؟ قوله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة الزخرف الآية: ٣٣)

الناس جميعاً مخلوقون للجنة.

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ)

(سورة الزخرف)

لو أن الكافر خُلق لجهنم فلماذا يعذب في الدنيا ؟ لا داعي لذلك،: لكن كل إنسان خلقه الله عز وجل هو مطلوب لرحمة الله.

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

إذاً كل إنسان مطلوب للجنة.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية: ١١٩)

أيها الإخوة،: هناك نقطة دقيقة مؤثرة:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

(سورة الزخرف)

أية عظيمة: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ

أنت فكر،: وتأمل،: ودقق،: وحقق،: واجمع،: واطرح،: وقسم،: بعد كل ذلك اتخذ قرار،: فإن كان في هذا القرار عدواناً،: أو ظلماً،: أو بعداً،: أو معصية فانتظر قرار الله عز وجل.

حدثني أخ والده تقاعد،: كان من تجار الغنم،: قال لي: ذهبت لأشتري الصوف من البادية،: والتقيت بمورد والدي،: فوزنت هذا الصوف،: قال لي: كنت جاهلاً،: فزوّرت في الميزان،: والبدوي أمامه يسمع ٢٣ ـ ٢٧ ـ ٣٣ ـ هنا سمع ٢٣ و٨٠٠ غرام،: اضطرب البدوي لهذه الغرامات،: لكن ما غاب عنه أنه حسم ١٠ كغ،: وضاف ٣٠٠ غرام،: فهو مبدئياً أعجبه هذا الوزن،: والوزن دقيق جداً بالغرامات،: لكن هذه الكتلة يتوهمها أنه بـ٢٠ ألفا،: فأعطاه ١٥،: فقال له بالبدوي: إن غششتني في الوزن إن شاء الله تلقاها في صحتك،: الذي حدثني هو الذي صار معه هذا الحادث،: قال لي: هذه الكلمة أخافتني،: انطلقنا بالسيارة،: وفي الطريق دخل في صراع مع نفسه: هل أرجع وأقوله له ؟ أسوّي حسابه ؟ أتراجع ؟ قال لي: بقيت في صراع نفسي من مكان شراء البضاعة إلى منطقة الضمير،: قال لي: في هذا المكان اتخذت قرارا أنه ضع بالخرج،: ماذا حصل ؟ قال لي: ما أتممت هذا الخاطر،: وهو يقود سيارته ساكتاً،: إلا ووجد نفسه في بركة من الدماء،: ووقع له حادث،: والبضاعة تناثرت،: وهو في بركة من الدماء،: فكان جواب:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

انتبه إذا اتخذتَ قراراً فيه ظلم

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

أيها الإخوة،:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

اجتهد في جمع أسباب رحمة الله:

اجتهد في التعرف إلى الله واجتهد في طاعته،: واجتهد في العمل الصالح،: واجتهد في إنفاق المال،: واجتهد في خدمة أهل الحق،: واجتهد في نشر هذه الدعوة،: وهذه رحمة الله،: وهي

(خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٨-٦٠) : تعظيم الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

مقدمة حول تعظيم الله عزوجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً:

موضوع اليوم تعظيم الله عز وجل، هناك آيات كثيرة من هذه الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

١ ـ مركزُ ثقل الآية: ذِكْرًا كَثِيرًا

الكلمة في هذه الآية التي هي مركز ثقل كثيراً، لأن المنافقين يذكرون الله قليلاً، قال تعالى:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء]

إذاً: الأمر هنا ينصب على الذكر الكثير، ثم إن الله عز وجل يقول:

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج: ٧٨]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: ١٠٢]

٢ ـ المطلوب هو المستوى الأعلى:

إذاً هناك مستويات من الإيمان الدنيا لا تكفي، ولا تنجي، ولا تسلم صاحبها من عقاب الله عز وجل، المطلوب المستوى الأعلى يؤكده:

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب]

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

[سورة الحج: ٧٨]

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: ١٠٢]

مع أيات التعظيم:

الأية الاولى: إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ

١ – المطلوب الإيمان بالله العظيم:

الآن مع التعظيم، قال الله عز وجل يصف من استحق النار يوم القيامة:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة: ٣٣]

الإيمان بالله حاصل حتى من قبل إبليس، إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة ص]

فبعزتك، فآمن به رباً، وآمن به عزيزاً، وقال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)

[سورة ص: ٧٦]

وآمن به خالقاً، وقال:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

وآمن باليوم الآخر، ومع ذلك فإبليس لا شك في بعده وكفره ومعصيته.

٢ – المطلوب إيمانٌ يحجز عن المعصية:

إذًا: أن تؤمن أن الله خلق السماوات والأرض هذا الإيمان لا يقدم ولا يؤخر، لأنه لا يحجزك عن معصية الله، حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند ضعيف]

أيها الإخوة الكرام، ما لم يكن الإيمان رادعاً لك عن أن تعصي الله، وما لم يكن الإيمان حاملاً لك على طاعة الله فلا تعبأ به إطلاقاً، وهو لا يقدم ولا يؤخر، بل إن معظم البشر يؤمنون بالله، عدا قلة قليلة جداً لا يعتد بها عطلت عقلها، وكفرت بالله، حتى أرباب الأعمال التي فيها معاصي وآثام تقول لك امرأة: إن الله وفقها في هذه الرقصة، إن الله وفقه في هذا الدور، مثلاً، العمل كله محرم، فكل إنسان يؤمن بالله إيماناً يجعله يعتقد أن جهة قوية خلقت الكون، وهي توفق، وهي لا توفق فليس مؤمنا، وما دام الإنسان لم يوقع حركته وفق منهج الله فإيمانه لا يقدم ولا يؤخر، أنا أريد أن أؤكد على أن الإيمان الذي شاع بين معظم الناس هو إيمان ما لم تصحبه استقامة والتزام لا ينجي لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٣ – حقيقةٌ مُرّة: انفصال الأمر والنهي عن العبادة عند الناس:

كيف انفصل عند الناس الالتزام بالأمر والنهي عن العبادة ؟!، هو يعبد الله، يصلي، يصوم، يحج، يعتمر، لكنه ليس مستقيماً ؛ لا في كسب ماله، ولا في إنفاق ماله، ولا في علاقاته، ولا في سلوكه، فلئلا نقع في وهم، ودائماً وأبداً الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، ولو قرأتم قوله تعالى فدققوا:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة التوبة: ٨٠]

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

[سورة التوبة: ٥٤]

أثبت الله لهم الكفر، ثم وصفهم بأنهم يصلون، فأن تكون الصلاة عملاً من نوع العادات والتقاليد، من نوع أنها فرض لا بد أن تؤدى، وأن تفصلها فصلاً كلياً عن كسب مالك، وعن إنفاق مالك. مرة وصل إلى سمعي أن إنساناً يصلي في المسجد يبيع أقراصاً لأفلام إباحية، كيف هو متوازن بين إفساد الشباب وتدمير الأسر وأداء الصلاة ؟ هذه مشكلة المسلمين الأولى، يتوهم أنه إذا صلى كان ديناً، والدين لا علاقة له بشؤون الحياة.

٤ – الإسلام عبادات شعائرية وتعاملية متكاملة:

الصلاة أيها الإخوة والصيام، والحج عبادات شعائرية، ومعنى شعائرية أنها مناسبة لتقبض من خلالها ثمن عباداتك التعاملية، الأصل أن هناك عبادات تعاملية.

الأصل أن ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام.

الأصل لأن تمشي مع أخ في حاجته خير لك من صيام شهر، واعتكافه في مسجدي هذا.

الأدلة الشرعية على ارتباط العبادات بالمعاملات:

حينما توقن أن جوهر الدين أن تلتزم الأمر والنهي عندئذ أصبح للصلاة معنىً، وللصيام معنى، وللعمرة معنى، وللحج معنى، أما قبل أن تلتزم فلا تقبل العبادات الشعائرية ولا تصح.

الدليل الأول:

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ، وَلَا دِينَارَ، وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم، الترمذي]

أنا أقدم لكم الأدلة من القرآن والسنة، هذه الصلاة.

الدليل الثاني:

الصيام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري، الترمذي أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

رُبّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش.

الدليل الثالث:

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: الآية ٥٣]

الدليل الرابع:

الحج، من حج بمال حرام و وضع رجله في الركاب، وقال: لبيك اللهم لبيك، ينادى: أن لا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك.

الدليل الخامس:

بقي النطق بالشهادة،

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند ضعيف]

هذه الشهادة، والصلاة والصوم والحج والزكاة، هذه الأركان لا تقبل تلك العبادات، ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله:

لذلك ما معنى التعظيم ؟ التعظيم أن تعظم الأمر والنهي، أن تعظم أمر الله.

لذلك يمكن أن نقول: إن مشكلة المسلمين الأولى في هذه المقولة، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

لا شك أنكم تسمعون كيف أن الطرف الآخر يتفنن، يتفنن في إفقارنا، ثم في إضلالنا، ثم في إفسادنا، ثم في إذلالنا، ثم في إبادتنا، وكأنه مسموح له أن يبيدنا إبادة كاملة، لأنه هان أمر الله علينا فهنا على الله.

حقيقة التعظيم: الوسطية بين الإفراد والتفريط:

أيها الإخوة الكرام، تعظيم الأمر ماذا يعني ؟ تعظيم الأمر يعني أن لا تحققه على كمال الامتثال، أن تستخدم رخصاً واهية، إما أن تخفف كميته أو نوعيته، والصلاة كيفما كان، والصوم بغير استقامة، تركت الطعام والشراب، لكن من غير انضباط بالجوارح، ولا بلسان، إما أن تترخص برخص واهية تبعد العبادة عن كمال الامتثال، وهذا أحد أنواع عدم التعظيم، أو أن تبالغ، وتتشدد في تطبيق الأمر بشكل ليس كما فعله النبي عليه الصلاة والسلام بشكل يؤدي إلى كراهية العبادات.

١ – تكليف الناس بالمقدور المستطاع:

حدثني أخ جاء من بلد إسلامي دخل إلى مسجد، في كل ركعة صفحتان من كتاب الله، ثلاث ساعات التراويح، يبقى صفان أو ثلاثة، أيضاً المبالغة والإطالة حتى في الدعاء، وحتى في الصلاة لدرجة أن الإنسان يكره العبادة لا يجوز.

الإنسان له دخل معين، كان يعمل في فندق، كان يستخدم آلة موسيقية في فندق، وتاب إلى الله، يأتي من يقول له: هذا المال الذي جمعته مال حرام يجب أن تتخلى عنه كلياً، ماذا تعني التوبة بالنسبة إليه ؟ أن يكون فقيراً، لكن بعض العلماء قال: توبته تطهر ماله، هل يعقل أن تقول للتائب: يجب أن تعيش جائعاً، لأنك تبت، وكل شيء جمعته من ضرب على آلة معينة بفندق محرَّم يجب التخلص منه.

أوضحُ مثلٍ: جمع رجلٌ مبلغاً، تاب إلى الله، يجب أن يتخلى عن هذا المال كله، لتغدو فقيراً متسولاً، أنت بهذه الطريقة تكره التوبة للناس.

الإنسان تاب في سن معين، تقول له: يجب أن تصلي صلوات من ثلاثين عاماً سابقة، هذا فوق طاقته، هذا نوع من التنطع، ونوع من المبالغة، ونوع من تنفير الناس.

٢ – التوبة تمحو الذنوب:

مثلاً: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

[متفق عليه]

((ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه]

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[متفق عليه]

ومن تاب توبة نصوحا أنسى الهَ حافظيه والملائكة، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه.

هذه نصوص صحيحة يجب أن تكلفه بصلاة ثلاثين عاماً، هذا هو التنطع والتشدد، شخص أقام تزيينات، وهو مهندس تزيينات ديكور بمعهد غير إسلامي، قيل له: خسرت كل صلواتك لثلاثين عاماً سابقة، وطلقت زوجتك.. جعله على الحديدة.

هناك فتاوى لا يمكن أن تكون مقبولة، وهذا التشدد والتنطع، وتحميل الناس ما لا يطيقون غير مقبول.

احذرو من الغلو والتفريط:

أنا أقول: هذا أيضاً يدخل في الإفراط، الأول فرط، يعني قصر، والثاني أفرط، وأداء العبادات ينبغي أن يكون بين الإفراط والتفريط، أن تؤدى كما أداها النبي عليه الصلاة والسلام.

فأول شيء بعدم التعظيم الترخص الذي يبعد العبادة عن كمال الامتثال.

الثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي، وقد قال بعضهم: وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وإضاعة وإما، إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، الشيطان له في كل أمر إلهي نزغتان، نزغة إلى التفريط والتقليل وعدم الإتقان وعدم الأداء، نزغة إلى التفريط، ونزغة إلى الإفراط، كما أن الجافي عن الأمر مضيع له، والغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوز الحد، قال تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)

[سورة النساء: ١٧١]

بهذا أرشد رسول الله المسلمين في العبادة:

الغلو أن تتجاوز الحد، الغلو أن تأخذ فرعاً من فروع الدين، وتجعله الدين كله، الغلو أن تتشدد تشدداً ما فعله النبي عليه الصلاة والسلام.

الحديث الأول:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ))

[متفق عليه]

استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة.

الحديث الثاني:

حديث آخر:

((لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ))

[متفق عليه]

الحديث الثالث:

وفي صحيح مسلم:

((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا))

وهم المتعمقون المتشددون.

مرة أحد الصحابة صلى إماماً، وقرأ سورة الواقعة، والحديث في الصحاح، أحد المؤتمّين طال عليه الوقت، فخرج من الصلاة، واشتكى إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال له: يا معاذ، أفتّان أنت يا معاذ ؟ أفتّان، ولما صلى النبي عليه الصلاة والسلام وحده قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في ركعة واحدة، وأما إذا صلى إماماً كان أخف الناس صلاة في تمام.

أن تقلل من أداء العبادة بالتقصير، أو بعدم الإتقان، أو بعدم التمام هذا غلو، أو أن تبالغ مبالغة تخرجها عن وضعها الصحيح إلى درجة أنك تنفر الناس منها، أيام الدعاء يبقى نصف ساعة أحياناً، يعني جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال له يا رسول الله عظني ولا تطل تلا عليه قوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره قال كفيت، فقال النبي الكريم: فقه الرجل، معنى فقه أصبح فقيهاً.

الحديث الرابع:

((عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا))

[البخاري]

الحديث الخامس:

وفي السنن أنه قال:

((إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ))

لا تبغض إلى نفسك عبادة الله.

أنا والله سمعت عن أخ كريم أنه يؤم في بيته زوجته وأمه وبناته وأولاده، ويصلي التراويح، دقق، أنا أتمنى أن تأتي إلى المسجد، هذا يسعدني، لكن أنت إذا ضمنت أنك صليت التراويح بزوجتك وأمك وأولادك وبناتك فهذا شيء جيد جداً، الدين يسر.

مرة سألني أخ: التراويح كم ركعة ؟ قلت له: صلِ ثمانية، وصلِ اثنتي عشرة، وصلِ عشرين، وصلِ في البيت، وصلِ في المسجد، كله جائز، الدين يسر، يدور مع ظروف الإنسان

((إنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ))

ولا تبغضن إلى نفسك عبادة الله.

أيها الإخوة الكرام، تعظيم أمر الله أن تأتي به بشكل وسطي معتدل كما فعله النبي عليه الصلاة والسلام، من دون تفريط، ومن دون إفراط.

والله هناك متشددون يكرِّهون الناس في الدين، وبلا مبرر، وبلا أدنى حاجة إلى هذا التشدد، أما الذي يقصر في أداء هذه العبادات هذا أيضاً وقع في الغلو، قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

(سورة المائدة: ٧٧)

الوسط بين التشدد غير المبرر والتساهل غير المشروع:

فنحن نريد أن نأتي بالعبادة بين التشدد غير المبرر، وبين التساهل غير المشروع، أن تأتي بها كما أتى بها النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ قَالَ:

((أَتَيْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدْ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا، أَوْ لَا أَحْفَظُهَا، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ))

[متفق عليه]

مرة سمع النبي بكاء طفل فاختصر في صلاته، وقال سمعت بكاء صغير ينادي أمه ببكائه فرحمت أمه.

هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، أنا لا أقصد أبداً أن تقلل من أداء العبادة خوفاً من التشدد، العبادة حدية، تؤدى كما أداها النبي، أما المبالغة فيها فهي تشدّدٌ غير مبرر.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٤٩-٦٠) : التحلي بحسن الخلق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

موضوع اليوم علو الهمة في التحلي بحسن الخلق.

الأخلاق:

١ – منزلة الخلُق الحسن في الإسلام:

أيها الإخوة، الخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين.

٢ – أثر الخلُق السيئ في الفرد والمجتمع:

والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، التي تجعل صاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتحة إلى نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة.

حديث القرآن عن تزكية النفس:

أيها الإخوة، في القرآن الكريم آيات لا تزيد على ثلاث أو أربع تتحدث عن تزكية النفس.

الآية الأولى:

قال الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

الفلاح كل الفلاح، والنجاح كل النجاح، والفوز كل الفوز، والعقل كل العقل أن تزكي نفسك، لأن تزكية نفسك ثمن الجنة.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

الآية الثانية:

بالمناسبة أيها الإخوة، تزكية النفوس بالتحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن سيئها مطلب عظيم، وهو ربع الرسالة المحمدية، لأن الله عز وجل يقول:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة الجمعة الآية: ٢)

الآية الثالثة:

ربع فحوى الرسالة المحمدية تزكية النفس، ولم يجتمع في القرآن الكريم أحد عشر قسماً في آية واحدة، أو في سورة واحدة كما جاء في سورة الشمس:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا* وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا *وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

جواب القسم، جواب أحد عشر قسما:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

الفلاح، والنجاح، والتوفيق، والعقل، والفوز أن تزكي نفسك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الآية الرابعة:

وقال الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(سورة الأعلى)

من الممكن أن تؤسس مشروعا تجاريا، أرباحك بالمليارات، الفلاح في تزكية النفس، لأن الموت ينهي هذا النجاح، يمكن أن تتسلم أعلى منصب في العالم، لكن يأتي الموت فيأخذك من هذا المنصب، أو يأتي إنسان أقوى منك فيزيحك عن هذا المنصب، لكن الفلاح والفوز في تزكية النفس، وقد تجمع أكبر ثروة في العالم، بثانية واحدة تنتقل إلى الورثة، إذا توقف القلب، فلذلك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الآية الخامسة:

سيدنا موسى في القرآن الكريم يقول لفرعون:

(فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى)

(سورة النازعات)

تزكية النفوس سبب الفوز بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، الجنة بأكملها سببها التزكية، ومن أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا))

[مسلم عن زيد بن أرقم]

تزكية النفس أعلى مقامات الإسلام:

تزكية النفس أيها الإخوة، أعلى مقامات الدين، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيِّ مِنْ غَاضِرَةِ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنّ فقدْ طعِمَ طعْمَ ألإِيمَان: مَنْ عَبَدَ الله وَحْدَهُ، وَأَنّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله، وَأَعْطى زَكَاةَ مَالِهِ طيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، رَافِدَةً عَلَيْهِ كلّ عَامٍ، وَلا يُعْطِي الْهَرِمَةَ، وَلا الدّرِنَةَ، وَلا المَرِيضَةَ، وَلا الشّرَطَ اللّئِيمَةَ، وَلَكِنْ مِنْ وَسَطِ أَمْوالِكُمْ، فإِنّ الله لَم يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ، وَلا يَأْمُرْكُمْ بِشَرّهِ))

[رواه مسلم]

عندك مال فيه شيء كريم عليك، وفيه شيء هين عليك، سألك أن تعطي من أوسط مالك: ((وَلا يَأْمُرْكُمْ بِشَرّهِ))، وزكى نفسه، فقال رجل: يا رسول الله، وما تزكية النفس ؟ فقال: أن يعلم أن الله معه حيث كان، هذه مرتبة الإحسان، اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، أن تعلم أن الله معك حيث كنت.

تزكية النفس من مهمات الرسل:

أيها الإخوة، تزكية النفوس من مهمات الرسل، ومن ينوب عنهم في كل زمان، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية، وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليماً، وبياناً وإرشاداً، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الجمعة)

هذه أول آية.

الآية الثانية:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

(سورة البقرة)

الأبدان الزاكية هي التي زكت بطاعة الله، وبنتت على أكل الحلال، فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل، والدين، والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا، زكت أرض القلب فقبلت بذور العلوم والمعارف، فإن سقيت بعد ذلك بماء الرياضة الشرعية، وهي التي لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب، ولا تعطل سنة، أنبتت من كل زوج كريم من كل علم وحكمة وفائدة.

والنبي عليه الصلاة والسلام أوتي وسائل الدعوة، أوتي فصاحة ما بعدها فصاحة، أوتي ذاكرة فلا ينسى.

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى)

(سورة الأعلى)

ثناء الله على نبيه بصفة الخلق الحسن:

لقد أوتي النبي جمالاً، أوتي حكمة، كل هذه التي أتاه الله إياها هي وسائل الدعوة إليه، لم يثن عليه بها، لأنها من عطاءات الله، لكن بماذا أثنى عليه ؟ بخُلقه، لأنه من كسبه، قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

أيها الإخوة الكرام، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: " الإيمان هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ".

بشكل أو بآخر مستحيل، ألف ألف ألف مستحيل أن تكون مؤمناً وتكذب، أن تكون مؤمناً وتحتال، أن تكون مؤمناً وتخون، أن تكون مؤمناً وتخادع، هذا مستحيل.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[رواه أحمد وهو منقطع بين الأعمش وأبي أمامة]

الإنسان بين علم الطباع وعلم الاخلاق:

علم الطباع شيء، وعلم الأخلاق شيء آخر، قد تجد مؤمناً عصبي المزاج، هذا طبع، وقد تجد مؤمناً هادئاً متأنياً، وقد تجد مؤمناً حريصاً في إنفاق ماله، ما دام قد أدى زكاة ماله فلا يوصف بالبخل إطلاقاً.

((بريء من الشح من أدى الزكاة))

[رواه الطبراني عن جابر]

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

((من حمل سلعته فقد برئ من الكبر))

[أخرجه البيهقي عن أبي أمامة]

فإذا أدى زكاة ماله فلا يمكن أن يوصف بالشح، ولكن هناك إنسان إنفاقه بيسر وتساهل، وإنسان إنفاقه بدراسة متقنة، وحرص شديد، هذه طباع، هذا مقبول، وهذا مقبول، هناك إنسان يعتني بمظهره عناية فائقة، وإنسان آخر يعتني بهذا المظهر عناية أقلّ، كلاهما مقبول عند الله.

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

المؤمن لا يكذب، والمؤمن لا يخون.

الخلق الحسن رفعة عند الله وعند الإنسان:

أيها الإخوة، حينما ترى إنسانا له زي إسلامي، وله انتماء إلى جماعة، وله تقييم أنه مؤمن، فإذا كذب، أو غش، أو احتال سقط من عين الله، ومن عين الناس، على أنه يصلي، ويصوم، ويؤدي هذه العبادات، فلذلك لا شيء يرفعك عند الله بعد الإيمان بالله، وبعد أن تصح عقيدتك كإخلاصك، الذي يجعلك قريباً من الله أخلاقك الرضية التي أمرك بها، والنبي عليه الصلاة والسلام شد الناس إليه بخُلقه العظيم، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

اية قرآنية معادلة مطردة في علم الاخلاق:

١ ـ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ:

النبي عليه الصلاة والسلام على أنه سيد الأنبياء والمرسلين، على أنه يوحى إليه على أنه أوتي المعجزات، على أنه أوتي القرآن، على أنه كان أفصح العرب، على أنه على أنه، لك أن تذكر مئات الصفات التي ينفرد بها، ومع كل هذه الخصائص، وتلك الميزات لو أنه كان فظاً ليظاً لانفض الناس من حوله:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

أنت تتصل بالله، تشتق منه الرحمة، هذه الرحمة شيء في القلب، لكن ينعكس بالسلوك لينا، ولطفا، وتساهلا، عندئذٍ يلتف الناس حولك:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

٢ ـ اتصال رحمة لين، التفاف، انقطاع قسوة غلظة انفضاض:

إذاً اتصال، رحمة، لين، التفاف، انقطاع، قسوة، غلظة انفضاض، قاعدة، فأي إنسان دعا إلى الله، أو أي إنسان يحتل منصب قيادي، الأب قائد أسرة، المعلم قائد صف، مدير المدرسة قائد مدرسة، مدير مستشفى، مدير معمل، مدير في وزارة، وزير، أي إنسان يحتل منصبا قياديا لن يفلح عند الله وعند الناس إلا إذا كان أخلاقياً.

قمم البشر نوعان: اقوياء وانبياء :

الذي أقوله كثيراً: إن البشر لهم قمم، والقمم نوعان، قمة الأقوياء، وقمة الأنبياء، يعني في بالحياة بتاريخ البشرية أقوياء وأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء عاش الناس لهم، والأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء ملكوا الرقاب، والأنبياء ملكوا القلوب، الأقوياء يُمدَحون، ولكن في حضرتهم فقط، بينما الأنبياء يُمدحون ولكن في غيبتهم، والناس جميعاً من دون استثناء تبع لقوي أو نبي، فإذا كنت من أتباع الأنبياء فميزتك الأولى أخلاقك الحسنة، ميزتك الأولى الرحمة، العدل، الإنصاف، اللطف أن تكون عفواً، أن تكون متسامحاً، أو تكون لطيفاً، أو تكون

وفياً، أو تكون متواضعاً ، هذا الذي يشد الناس إليك، أما طلاقة لسانك، والمعلومات التي تحفظها، هذه لا تشد الناس إليك، يشدهم إليك الأخلاق الرضية.

لذلك ما كل عالم بداعية، لكن كل داعية يجب أن يكون عالماً، ولكن المعلومات أقلّ ما في الدعوة، أقلّ شيء في الدعوة المعلومات التي يحفظها الداعية، لكن أكبر شيء فيها القلب الكبير الذي يسع من حوله، القلب الرحيم، القلب العفو، القلب المنصف، العدل الأخلاق، هي أكبر خصيصة من خصائص المؤمن، إلا أن المشكلة التي يعاني منها المسلمون اليوم أنك تجد إنسانا يصلي، ويصوم، وقد حج بيت الله الحرام عشرات المرات، واعتمر بضع عشرات المرات، وأدى زكاة ماله، لكن ليس متخلقاً بأخلاق الإسلام، ولا بأخلاق النبي العدنان، ولا بأخلاق المؤمنين.

ليس هناك في الإسلام مؤمن لئيم، ولا مؤمن حقود، ولا مؤمن مستعلٍ، ولا مؤمن كذاب، ولا مؤمن خائن، مستحيل، الخلق السيئ والإيمان يتناقضان، فوجود أحدهما ينفي الآخر، مؤمن لن يكون كذاباً، فالذي يشد الناس إليك هو أخلاقك.

الخلق السيْ منفر عن الإسلام:

إنّ أحد أكبر أسباب انصراف الناس عن الدين أن الذي يؤدي العبادات هو عند الناس مسلم محسوب على المؤمنين، انتماءه إسلامي، ليس مستقيماً في معاملاته، وليس أخلاقياً، إذاً هذا يدعو الناس أن يكفروا بالدين، لا يؤمنوا به، بل هذا يدعو الناس إلى أن يخرجوا من هذا الدين.

إن حالات كثيرة جداً من الخروج من الدين كلياً بسبب موقف غير أخلاقي من إنسان له انتماء ديني، أحد أكبر أسباب خروج الإنسان من الدين بسبب موقف غير أخلاقي صادر عن إنسان ينتمي إلى هذا الدين.

الناس مقرب أو مبعد:

لذلك هناك مصطلحان: مقرب، مبعد، موصل، قاطع، محبب، مبغض ينبغي أن تحبب الناس بهذا الدين.

((يا رب ! أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال: يا داود ! أحب عبادي إلى نقي القلب، ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءا، ولا يمشي بالنميمة ـ تزول الجبال، ولا يزول ـ أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب ! إنك لتعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال ؛ ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي))

[رواه ابن عساكر عن ابن عباس]

القدوة قبل الدعوة والإحسان قبل البيان:

بطولتك كمؤمن، بطولتك كداعية دعوة فرض العين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، بطولتك كمؤمن، وبطولتك كداعية أن تكون أخلاقياً، القدوة قبل الدعوة، والإحسان قبل البيان، ولا تنسَ أن الصفة التي أثنى الله بها على نبيه سيد الخلق، الخلق العظيم

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

والإيمان مرتبة أخلاقية، ومرتبة علمية، ومرتبة جمالية، ولن تجد مؤمناً إلا أخلاقياً، ولم تجد مؤمناً إلا عالماً، ولن تجد مؤمناً إلا سعيداً، المؤمن سعيد مرتبة جمالية، ومرتبة أخلاقية، ومرتبة علمية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٠-٦٠) : ليلة القدر هي ليلة تتعرف فيها إلى الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير دقيق لليلة القدر:

ليلة القدر ليلةُ التعرُّف إلى الله:

أيها الإخوة ، تفسيرات كثيرة لهذه الليلة ، لكن التفسير الذي ينبع من كتاب الله هو أن ليلة القدر هي ليلة نتعرف إلى الله ، وقد يكون التعرف عليه تراكمياً ، فكلما لفت نظرك آية كونية ، أو آية تكوينية، أو آية قرآنية ، ازددت معرفة بالله ، هذه المعرفة التراكمية قد تكون ذروتها ليلة القدر ، أي ليلة عرفت الله حق المعرفة ، وقدّرته حق القدر ، ولا تنسوا أن في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين هذا:

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج الآية: ٧٨)

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٠٢)

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١))

(سورة القدر)

معرفة الأمر ومعرفة الآمر:

فليلة القدر ليلة ازدادت معرفتك بالله فيها ، ويجب أن نفرق تفريقاً واضحاً بين أن تعرف الله ، وبين أن تعرف أمره ، لذلك أكثر المعاهد الشرعية والكليات تتحدث عن أمر الله علم العقيدة ، علم الأصول ، علم التفسير ، علم الحديث ، مصطلح الحديث ، شرح الحديث الفقه ، الفقه المقارن ، تاريخ التشريع ، لكن معرفة الله عز وجل ركن من أكبر أركان هذا الدين ، أن تعرفه ، إنك إن عرفته أطعته ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعرفه ، ثم لا تحبه ، ثم مستحيل وألف ألف مستحيل أن تحبه ، ثم لا تطيعه.

بين العابد والفقيه:

فلذلك يتفاوت المؤمنون لا في معرفة الأحكام الشرعية هذه بين أيدي الناس جميعاً ومتداولة ، ومن السهل جداً أن تقتني كتاباً ، أو أن تتتلمذ على يد فقيه فتتعرف على الأحكام الشرعية ، هي أمر ونهي وأحكام شرعية ، لكن عظمة هذا الدين أن تعرفه ، لذلك عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[أخرجه الترمذي]

إخواننا الكرام ، القصص التي تنتهي إلي كثيرة جداً ، أناس لزموا المساجد سنوات طويلة ، ثم سقطوا فجأة ، سقطوا لأقل ضغط ، أو لأقل إغراء ، إغراء أسقطهم ، وضغط أسقطهم إذاً مقاومة العابد هشة.

((ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

للتقريب: حتى يكتب إلى جانب اسم الإنسان لفظ (د) فقط ، د. فلان ، كم يحتاج من دراسية ؟ من أجل أن تقول: أنا دكتور ، أو أن يخاطبك الناس بهذا اللقب ، أما من أجل أن تعرف الله.

إخوانا الكرام ، معرفة الله بحر لا ينتهي ، هناك من يقول: الله خلق السماوات والأرض ، الله رب العالمين ، لكن لو وقفت عند أسماءه الحسنى اسماً اسْماً ، تعرفت إلى قدرته ، وإلى علمه ، وإلى رحمته ، وإلى لطفه ، وإلى حنانه ، وإلى عدله ، وإلى جبروته وإلى بطشه ، لذلك إن أردت أن تعرف الله عز وجل لا بد من أن تقف عند أسماءه الحسنى وصفته الفضلى.

أنا ألح في هذه الليلة على أن نركز على معرفة الله ، إنك إن عرفته كما قال سيدنا رسول الله:

((والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

إلى أن تكون مستعداً أن تضحي بالغالي والرخيص ، والنفس والنفيس تقرباً إلى الله ، إلى أن تسعد حقيقة بقربك من الله.

والله مرة قال لي أخ ذهب إلى بيت الله الحرام حاجاً ، فلما عاد ، زرته مهنئاً قال لي كلمة لا أنساها، وهذا من عشرين عاما ، قال لي: " والله ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني".

إخواننا الكرام ، إن لم تقل هذه الكلمة عقب اتصالك بالله ، عقب منجاتك له ، عقب انطوائك تحت شرعه ، عقب محبتك لأوليائه ، إن لم تتصل اتصالا حقيقيا ، نحن أحياناً نؤدي العبادات أداء شكليا، لكن إن لم تناجه ، إن لم تستغفره ، إن لم تدعه ، إن لم تتب إليه ، إن لم تعتذر من خطأ سابق فلست سعيدًا ، لأن لذة القرب ما بعدها من لذة.

لذلك قال بعض العلماء: " في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة " ، بل إنه يقول: " ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ ".

القرأءة التعبدية التدبرية للقرأن:

إخواننا الكرام ، هناك في الناس كآبة عامة ، وضياع ، وإحباط ، وتعلق بالمادة ، وكراهية للانضباط ، ويؤدون الصلوات ، ويؤدون بعض العبادات ، العبرة أن تركز في هذه الليلة وما بعدها على معرفة الله ، نحن نقرأ القرآن ، لكن لو قرأت قراءتين قراءة تعبدية كما تسمى ختمة ، وقراءة تدبرية ، لو قرأت في اليوم نصف صفحة مع التدبر ، والبحث والدرس ، والتأمل ، والعزم على تطبيق هذه الآيات ، لكانت هذه الصفحة خبير من مئة صفحة تقرأها قراءة سريعة غير متأنية وغير مدققة.

إخواننا الكرام ، كلمة واضحة جداً:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

هذا القرآن نزل في ليلة القدر على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لكن أنت ألا تحب أن تأتي السكينة من الله ؟ ألا تحب أن يمتلئ قلبك سعادة ؟ أن يمتلئ قلبك حبوراً ؟ أن يمتلئ قلبك طمأنينة ؟ أن يمتلئ قلبك راحة ؟ أنت كمؤمن يمكن أن يلقي الله في قلبك نوراً ، أن يهبك الحكمة ، أن يهبك الراحة ، أن يهبك السعادة ، أن يهبك التوازن ، أن يهبك نعمة الأمن ، هذه من ثمار ليلة القدر ، أنت قدرت الله حق قدره ، أنت فكرت في خلق السماوات والأرض والدليل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر الآية: ٦٧)

معنى تدبر الآيات:

كأن الله أرشدنا إلى أن طريق معرفته هو التفكر في خلق السماوات والأرض ، وأقول دائماً هذه العبارات: ما معنى التدبر أيها الإخوة ؟ قرأت آية فيها أمر:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور الآية: ٣٠)

ما معنى تدبر هذه الآية ؟ أن تأتمر ، أن تسأل نفسك أين أنت من هذه الآية ؟ قرأت آية فيها نهي:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية: ١٢)

تدبر هذه الآية أن تسأل نفسك: أين أنا منها ؟

قرأت آية في وصف أهل الجنة ، ما تدبر هذه الآية ؟ أن تسعى إلى الجنة بصدقة ، بعمل صالح ، بتوبة ، بطلب علم ، بتعليم علم.

قرأت آية فيها وصف لأهل النار ما موقفك من هذه الآية ؟ أن أبتعد عن أسباب النار.

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[رواه أحمد عن ابن عباس]

أنا أمهد لك: قرأت قصة قوم سابقين عصوا وعتوا فأهلكهم الله عز وجل ، ما موقفك من هذه الآية؟ أن أتعظ ، الآن قرأت آية كونية ، ما موقفك ؟ لما قال الله عز وجل عن الماء ؟

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢))

(سورة الحجر)

البيت الذي مساحته مئة متر مربع ، لو كلفنا أن نخزن الماء عاما لاحتجنا إلى مساحة كمساحة بيتنا بالضبط ، لكن الله عز وجل جعله مخزناً في الجبال ، وجعل فتحات ، هذه الفتحة يندفع منها الماء طوال العام ، من خزنه في بطون الجبال ؟ من وضع في الجبال صخور كلسية ؟ وصخور معدنية، ومغنيزيوم ، وبوتاسيوم ، ويود ، مياه معدنية ، المياه المقطرة لا تصلح للشرب إطلاقاً ، المياه المحلاة لا تصلح للشرب أبداً ، لما قال لك:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

هذا رأس موضوع تتابعه.

إذاً: أيها الإخوة ، مما يزيد معرفتنا بالله في أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى والأمور ميسرة ، (قرص مدمج) فيه مئة اسم ، كل اسم مشروح عشرين أو خمس وعشرين صفحة ، يعني ٢٥٠٠

صفحة مع الصوت ، قرص واحد ، وثمنه أقل من ربع شطيرة ، شيء لا يذكر ، فالأمور ميسرة ، لو تتبعت أسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، لو تفكرت في خلق السماوات والأرض تعرف من هو الإله العظيم ، لأن التفكر في خلق السماوات والأرض يضعك وجهاً لوجه أمام عظمة الله.

أيها الإخوة ، ليلة القدر كما قال الله عز وجل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

وقد يسأل سائل:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣))

(سورة القدر)

ألف شهر ، يعني ثمانين سنة تعبد الله فيها من دون علم ، ليلة واحدة قدرت فيها ربك حق قدره خير من كل هذه السنوات الطويلة والمديدة مع العبادات الأكيدة.

رمضان موعد انطلاقة إيمانية معرفية جديدة:

أيها الإخوة ، أحياناً تكون المناسبة منطلقا ، أنت انطلق منذ الآن وإلى العام القادم إن شاء الله ، وأحياكم الله لأمثاله ، انطلق منذ الآن في التركيز على معرفة الله ، لأنك كلما عرفته ازددت له طاعة ، وله حباً ، وله انقياداً ، وله خضوعاً ، ثمرة هذا الشهر أن تكون لك علاقة مع الله متميزة ، لذلك يوم العيد كما قال عز وجل:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ)

(سورة البقرة الآية: ١٥٨)

معنى ذلك أنت في رمضان جاءك الهدى من خلال سماع كتاب الله بأكمله ، الآن القراءة وحدها دعوة ، آيات قليلة جداً متشابهة تحتاج إلى تفسير ، لكن معظم الآيات واضحة جلية ، بل إذا أردت أن تكلم الله فادعه ، أما إذا أردت أن يكلمك الله عز وجل فاقرأ القرآن ، إنك إن قرأت القرآن فإن الله يكلمك ، إن قرأت القرآن كأن الله يحادثك.

إذاً: العبرة في هذه الليلة أن تكون علاقة متميزة مع الله ، والله عز وجل في بعض الآثار القدسية:

((يا موسى ، أتحب أن أكون جليسك ؟ قال: كيف ذلك يا رب ؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني ؟ وحيث ما التمسني عبدي وجدني ، أنا جليس من ذكرني))

[ورد في الأثر]

من الممكن أن يكون ألم وشقاء ، والله موجود ؟ بيده كل شيء ، فإذا تعرفت إليه جعلت همك هماً واحداً ، فكفاك الله الهموم كلها.

لا أريد أن أدخل في التفاصيل ، هناك معلومات غير صحيحة عن هذه الليلة مفترات وموضوعة ، العبرة أن تكون ذروة معرفتك بالله في هذه الليلة ، حتى إذا قلت يوم العيد: الله أكبر ، الله أكبر ، معنى ذلك أنك كبرت الله على ما هداك.

أهمية العبادات التعاملية:

من باب التفاصيل ، ولا أدخل لا بمهن ، ولا بحرف ، لكن لو أمامك إنسان عبد لله ، منحك الثقة المطلقة ، لأنك عالم ، بعته حاجة تضره ، تضره ضررا كبيرا في صحته ، لكن ربحك منها عال ، اسمحوا لي بهذا التعريف: لما تضر إنسانا تضر عبدا من عباد الله ، من أجل أن تحقق ربحا معينا فكأنك لا تعرف الله أبداً ، الدين عظمته أنك منضبط بالحق ، منضبط بالاستقامة ، منضبط بالصدق والأمانة.
والله البارحة سمعت من أخ كريم قصصا تجري في حقل معين فيها غش عجيب للناس ، لكن غش مبني على تلف صحتهم ، من أجل أن تربح تتلف صحة الآخرين ، فهذا الذي لو دخل المسجد لا تنخدعوا بهذا الإنسان ، لو دخل مسجدا ، لو صلى ، ما دام من أجل عشرة آلاف ليرة تزيد في دخلك ، وتضر إنسانا في صحته فأنت لا تعرف الله أبداً.

القضية ليست قضية دخول مساجد ، ولا أداء صلوات ، قضية استقامة ، المؤمن لا يكذب ، المؤمن لا يغش ، هذه الاستقامة ترفع شأن المسلمين ، لماذا يسيء الناس أحياناً الظن بمن يعمل في الحقل الديني ؟ حتى قال لي أحدُهم: دلني على شيخ صاحب دين ، طبعاً ، هناك أخطاء كبيرة ، كونك مؤمنا يعني مستقيما ، كونك مؤمنا لا يمكن أن تكذب ، كونك مؤمنا لا يمكن أن تغش ، كونك مؤمنا لا يمكن أن تخدع ، لا يمكن أن تتكبر ، لا يمكن أن تحتال ، هذه مسلّمات ، هذه ثمرة معرفة الله ، لأن الله معك ، لا تجعل الله أقلَّ الناظرين إليك ، قلبك منظر الله عز وجل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

[أخرجه مسلم]

نصيحة في شكل رجاء وأمنية:

أرجو أن تكون هذه الليلة مناسبة لبدء ـ بالتعبير المشهور ـ مشوار طويل في معرفة الله ، في معرفته حق المعرفة ، وفي طاعته حق الطاعة ، وفي المجاهدة في سبيله حق المجاهدة ، وفي أن تتقيه حق التقوى ، هذا الذي يمكن أن يكون من ثمار هذه الليلة المباركة.

القرآن يقربك من الله ، والدعاء ، والتهليل: لا إله إلا الله ، والتسبيح: سبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ، هذه أدعية ، وتلك أذكار ، وابتهالات ، واستغفار ، هذا كله يقرب إلى الله ، ولعل أعلى هذه الأذكار أن تقرأ القرآن كل يوم ، إن قرأت القرآن كل يوم فهو شفاء للصدور.

والحمد لله رب العالمين

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥١-٦٠) : الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

القرآن الكريم والأيات الكونية:

عدة آيات يمكن أن تكون محور هذا الدرس:

الأية الأولى: أية الاستقامة:

الآية الأولى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)

[سورة الطلاق: ١٢]

١- السماوات والأرض مصطلح قرآني للكون:

ومصطلح السماوات والأرض مصطلح قرآني، ويعني الكون، والكون ما سوى الله.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

[سورة الطلاق: ١٢]

٢- علة خلق الكون لمعرفة الله وعبادته:

هذه اللام عند علماء اللغة لام التعليل، أي أن علة خلق السماوات والأرض أن تعلموا، إذاً: الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى.

٣- صفة العلم والقدرة في حياة المسلم:

لكن هذه العلم هنا مقيد باسمين فقط، قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: ١٢]

وصدق، وأيقن أنه في اللحظة التي توقن بها أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه، بل لا يمكن أن تعصي إنساناً مثلك لكنه أقوى منك إن خالفت تعليماته وصلت هذه المخالفة إليه، وهو قادر أن يوقع بك كل أنواع الأذى مع إنسان أقوى منك، يطولك علمه وقدرته، فلا يمكن أن تخالف أمره، فكيف بخالق السماوات والأرض ؟

حينما تعلم أن الله يعلم، وسيحاسب وسيعاقب لا يمكن أن تعصيه، يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: ١٢]

هذا مع المخلوق فكيف بك مع الخالق؟!

وأنا أضرب هذا المثل كثيراً، أنت مواطن عادي، ليس لك أي ميزة، وتركب مركبتك، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، واضع قانون السير علمه يطولك من خلال هذا الشرطي، وقدرته تطولك بسحب الإجازة، أو حجز السيارة، فلا يمكن أن تعصيه، يمكن أن تعصيه الساعة الثالثة ليلاً، لأن علمه لا يطولك، أو أن تكون أقوى من واضع القانون، فلا تسأل، أما إذا كنت مواطناً عادياً، وواضع القانون علمه يطولك، وقدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه.

هذه الآية:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

[سورة الطلاق: ١٢]

واللام لام التعليل، علة خلق السماوات والأرض أن تعلم.

وظيفة المجرات وعلاقتها بالإنسان:

قد يسأل سائل: نحن لنا علاقة وطيدة بالشمس والقمر، والنجوم والليل والنهار، والجبال والأنهار والبحار، والصحارى والسهول والأكمات، لكن ما علاقتنا بمجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ؟ هذا سؤال مرة سألته.

حينما تقرأ عن هذه المجرة، وتأتيك رعشة خشوع، ورعشة إكبار لعظمة الله، هذه المجرة أدت وظيفتها، قدمت لك معلومة جعلتك تخشى الله عز وجل، الكون كله من أجل أن تعرفه، والآية واضحة، هذا قرآن كريم، هذا كلام خالق الأكوان:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: ١٢]

علمه يطولك، وقدرته تطولك، فكيف تعصيه ؟

كيف تصدق المخلوق ولا تصدق الخالق ؟

التجار المستوردون لا بد من إدخال هذه الصفقة في حساباتك، لأن نسخة من وثيقة الاستيراد تذهب إلى المالية مباشرة، إذا أخفيت هذه الصفقة أهدرت حساباتك، وكلفت ما لا تطيق، لذلك ما من تاجر مستورد إلا ويدخل كل الصفقات في حساباته، وإلا يدفع أضعافا مضاعفة، دقق مع إنسان، مع إنسان قد لا تحبه، لكنه أقوى منك، أو معه سلطة عليك إن كان يعلم، وسيحاسب فلن تعصيه، فكيف بخالق الكائنات ؟ هذا الذي قاله الإمام الغزالي، قال: " يا نفس، لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، هناك أكلات طيبة، لكن بالتعبير الشامي قاتولية، لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، طبيب قال لك: هذا الطعام لا يناسبك، هذا يفاقم المرض الذي معك، تمنع فوراً، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً فما أكفرك، كافرة، أن تصدقي طبيباً دون أن تصدقي خالق الأكوان، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً ما أكفرك، ثانياً: أيكون وعيد الطبيب، الطبيب وعيده مرض، وعيده مرض يتفاقم وعيده موت، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله وعيد الله بنار جهنم إلى الأبد ؟ أيهما أشد ؟ أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلك.

بناء المنفعة على مضرة الغير جهل كبير:

كل إنسان يعصي الله مدموغ بالكفر والجهل، وأشدكم لله حباً أشدكم له خشية.

أحب أنْ أعطيكم بعض الأمثلة:

حينما تبني منفعتك على مضرة الآخرين ؛ في عملك، في طبك، عندك صيدلية، أو أنك محامٍ، أو مدرس، أو بائع، أو تاجر، أو موظف، مليون أسلوب وأسلوب يمكن تبني، به منفعة على مضرة الآخرين.

أحياناً يوضع للمريض قطعة مستوردة في مكان حساس في جسمه، المريض مخدر، وهذه القطعة منها صيني بثلاثين ألفا وأمريكي باثنين وستين ألفا، إذا وضع الطبيب قطعة رخيصة، وحاسبه على اثنين وستين ألفا من يكشفه ؟ ما من طريقة أبداً ألفا العملية انتهت ألفا وكل شيء انتهى ألفا هل يستطيع المريض أن يمتحن صدق الطبيب بإجراء عملية ثانية ؟ مستحيل حين وضع القطعة كان

مخدرا، إذاً يقدر الطبيب أنْ يربح أضعافا مضاعفة حينما يبني منفعته على مضرة الآخرين، فهو لا يعرف الله أبداً.

أتمنى عليكم أن هناك أعمالاً إن فعلتها كان إيمانك صفرا، لأن هذا إنسان أمانة في عنقك، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

[سورة النساء: ٥٨]

المريض ائتمنك، والموكل أيها المحامي ائتمنك، تعلم علم اليقين أن الدعوى غير رابحة، لكن تقول له: معنا ثماني سنوات، يمكن أن تأخذ خمسة وعشرين أو أكثر، والمبلغ ضخم جداً، بعد هذا معك جواب: أن القاضي سيئ جداً، لم يحكم بالقوانين النافذة.

أنا أريد أن أقول لكم كلمة: والله، ولا أبالغ الذي يكسب مالاً حراماً، أو يؤذي إنسانا، أو يغش إنسانا هو إنسان جاهل جهلا مطبقا.

هناك مهن راقية كثيرة لا تقدر أن تناقش صاحبها فيها، قال طبيب لمريض: أريد اثني عشر تحليلا، في مجال وهو يريد واحدا، والبقية مناصفة بينه وبين المحلل، أنا لا أتكلم من هواء، أتكلم من واقع. والله من يومين جلست مع طبيب حدثني حديثا عما يجري من أطباء لا يعرفون الله، والله شيء لا يصدق، فلمجرد أن تبني منفعتك على مضرة الآخرين فأنت لا تعرف الله إطلاقاً.

أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: ١٢]

متى تستقيم:

هذه آية الاستقامة، لن تستقيم إلا إذا أيقنت أن علم الله يطولك، أن قدرته تطولك، والمستقيم ملك ولو كان فقيراً، دائماً رافع الرأس، دائماً يشعر أن الله يحبه، وأنه في عين الله، وفي حفظ الله، وفي توفيق الله، وفي تأييد الله، وفي نصر الله، الله هو الرزاق، لمجرد أن ترى أن هذا المبلغ شيء ثمين لك، لكنه أكبر عندك من طاعة الله فأنت لا تعرف الله.

أحيانا ورقة امتحان تأخذ خمسين أو ستين أو سبعين أو ثمانية وخمسين أو أربعين، وهناك ورقة تأخذ صفرا، حينما تبني منفعة لك على مضرة الآخرين، وأنت تعلم فاعلم علم اليقين، ولا تجامل

نفسك أن إيمانك صفر، ولن تنتفع لا من صلاتك، ولا من صيامك، ولا من حجك، ولا من صدقتك، قال تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: ٥٣]

هذه آية الاستقامة يجب أن تعلم أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك.

الآية الثانية:

ومن ألطف ما في آيات الحج قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

[سورة المائدة: ٩٧]

١ – الواقع المؤلم لحياة المسلمين ومعاملاتهم:

لا أريد أن آتي بتفاصيل، والله عندي مئات القصص عن رواد المساجد يعملون في حقول متنوعة، قد تستورد مادة لا تصلح للاستعمال البشري، لكن أرباحها طائلة، العمولة كبيرة جداً، والأرباح طائلة، يمكن أن ترضي إنسانا يراقب صلاحية هذه المادة، والمبلغ كبير، أيضاً هو ضعيف الضمير، يأخذ هذا المبلغ الكبير، ولا يعبأ بصحة مئات ألوف الملايين، الدين ليس في أداء صلاة جوفاء، الدين في استقامة على أمر الله.

فيا أيها الإخوة الكرام، لكثرة ما ينتهي إلى سمعي من أساليب الغش والخداع على حساب صحة الناس، إن كان مواد غذائية، فأكثر المواد المستوردة لا يسمح باستيرادها إلا إذا كانت صالحة للاستعمال في بلد المنشأ، يمكن بمبلغ معين أن تدفعه، وتأخذ تصريحا من بلد المنشأ أن هذه البضاعة صالحة، الإنسان إنسان، ولو كان في دولة راقية فلا أحد راقيا ، الآن الكافر ليس راقيا أبداً، مصلحته فوق كل شيء.

أنا أقول: إخواننا التجار المستوردين الأطباء المحامين المهندسين المعلمين، أنا معلم، كان من الممكن أن تعمل مذاكرة فوق طاقة الطلاب، الكل يأخذ أصفارا، مصير هؤلاء جميعاً إلى دروس خاصة عندك، كل درس بألف ليرة، هذه المذاكرة احتيال، كن إنسانا عاديا من دون أي مظهر ديني صارخ، كن مستقيماً موصولاً بالله، وليكن لك مظهر ديني مذهل، أما من غير استقامة فأنت مقطوع عن الله، هذه الحقيقة الصارخة، لا مزاح مع الله، لا تخفى على الله خافية، قال تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر]

أي إنسان اشترى كمية ضخمة من البيض وجدها فاسدة، يحكي لي من باب أنه هكذا حدث معه، قال لي رأساً بعثتها مع صانع لي باعها بسوق الجمعة، تخلصنا منها كلها، هذه المادة يجب أن تتلفها، وأجرك على الله.

لو فرضنا سمانا وجد في علبة الزيت البلدي فأرة، يبيعها، والله لا أحد يعلم، يسحبها بملقط، و يبيع الزيت، أما المؤمن فلا يمكن أن يبيعها، بل يحولها إلى الصابون.

عندي مليون قصة، مليون حادثة، المسلم حينما لا يتقي الله لن ينتفع من صلاته، و لا من صيامه، و لا من قيامه، و لا من عباداته كلها، هذه هي الحقيقة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: ١٢]

٢ – لا يخلو الناس من خير وورع:

قصة لقصّاب:

مرة كنت عند قصاب، أنا أظنه مؤمناً، ولا أزكي على الله أحداً، جاءه طفل صغير يريد لمريض قطعة من الخروف، اسمها الشهباية، هذه أطرى قطعة للخروف، ضمن لحم الكتف، أي نزعها ليس سهلاً، أنا أراقب هذا القصاب، أخرجها نظفها، فرمها على الماكينة، والله لو أعطى هذا الطفل شحما لم يعلم، أكبرته إكباراً، هذا مؤمن، لن تستطيع أن تتصل بالله إذا غششت إنساناً، ولو كان مجوسيا.

قصة لبائع على الرصيف في منتهى الورع:

إن إنسانا من شدة فقره يبيع بسوق الحمدية على الرصيف، ما من عمل أقل من هذا العمل، الفضلة ثمنها خمسون ليرة، جاءت امرأة من إيران أعجبتها قطعة، أعطته عوض دولار مئة دولار، بالخطأ، هو بعد دقيقتين يسحب المال من جيبه فوجد مئة دولار، هو توهمه دولارا، أمامه محل، قال له: رجاءً عينك على البضاعة، وانطلق يتبع هذه المرأة، عثر عليها في العصرونية، قال لها: أنت أعطيتني مئة، وأنا أريد دولارا واحدا، شكرته كثيرا، هذا البائع كان صرافا، والصرافة منعت،

يريد شريكا، فوجد هذا الشاب النظيف، قال له: تشاركني ؟ قال: أتمنى، واحد يبيع فضلا على الرصيف وجد نفسه في محل، فخلال فترة بسيطة جعلوا للمحل تجهيزات، وصار محل أقمشة، دخل شريكا، سبحان الله، فتح الله عليه، واشترى بيتا، وسيارة، و هو يعيش ببحبوحة.

قصة لبائع على الرصيف في منتهى الوقاحة والمعصية:

القصة نفسها وقعت بحي السيدة رقية، نفس القصة، ثمن الفضلة خمسون ليرة، دولار، جاءت امرأة إيرانية، وبالخطأ أعطته مئة دولار، هو أخفاها وعدّها ربحا ممتازا، هي في أثناء عد أموالها انتبهت، اشتكت إلى الشرطة، أحضروه إلى المخفر، أنكر، ثم اعترف، الآن سيحال إلى النيابة العامة، دفع خمسة آلاف حتى لا يحال، الاستقامة عين الكرامة، أنت مسلم مستقيم، لا يمكن، أن تكذب، لا يمكن أن تغش، أتمنى أن تكون هذه الآية واضحة، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق: ١٢)

علمه يطولك، وقدرته تطولك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٢-٦٠) : التواضع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١٠-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

موضوع اليوم هو التواضع.

من امراض القلوب:

١ ـ الكِبْر والعُجب مِن أكبر الذنوب:

أيها الإخوة، العجب والكبر داءان مُهلِكان، المتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان، حسبنا قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر ـ ما هو الذي أكبر من الذنب ـ ؟ العُجب العُجْب))

[الجامع الصغير عن أنس بسند صحيح]

٢ ـ المتكبِّر لا يدخل الجنة:

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[مسلم

٣ ـ الكِبر مفسِد للعبادة:

قد يأتيك ضيوف كثر، وعندك كمية لبن قليلة جداً، بإمكانك أن تضيف خمسة أضعافها ماء، وتجعله شراباً سائغاً، لكن هذا اللبن الذي عندك لو أضفت له قطرة بترول واحدة تلقيه في المهملات، الكبر يتناقض مع العبادة، فأي كبر مهما دق يلغي العبادة.

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[مسلم]

الله هو الجبار المتكبر:

الله عز وجل هو الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، هو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع الغني، الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاءه، وقهر العرش المجيد استواءه واستعلاءه، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناءه، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاءه واستقصاءه، فاعترف بالعجز عن وصف كنهه ملائكته وأنبياءه، وكثر ظهور الأكاسرة عزه وعلاءه، وقهر أيدي القياصرة عظمته وكبرياءه، فالعظمة إزاره، والكبرياء رداءه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت، فأعجز دواءه.

سبحان من قهر عباده بالموت.

الأمر الإلهي للنبي بالتواضع:

وقد أمر الله نبيه بالتواضع لمن آمن به من المؤمنين قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِين

[سورة الحجر

وآية أخرى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين)

[سورة الشعراء]

أحياناً يحترم الإنسان فقط أبناء جامعه، أما المؤمن فيحترم إخوانه في المسجد، وأي مؤمن آخر، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِين)

[سورة الحجر]

الآية الأولى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين)

[سورة الشعراء]

معنى: وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين

قال بعض العلماء في شرح هذه الآية: " من اتبعك مؤمناً فتواضع له ".

وقال الإمام القرطبي: " أَلِنْ جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم ".

حقيقة المسكنة:

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي]

أراد بالمسكنة التواضع والإخبات، وألا يكون من الجبارين المتكبرين، قال ابن تيمية: " المسكين المحمود هو المتواضع لله، الخاشع له، ليس المراد بالمسكنة عدم المال، بل قد يكون الرجل فقيراً من المال وهو جبار، فالمسكنة خلق في النفس هو التواضع والخشوع واللين ضد الكبر "

قال عيسى ابن مريم عليه السلام:

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً)

[سورة مريم: ٣٢]

أيها الإخوة الكرام، قد يكون الإنسان في أدنى مرتبة في المجتمع، يدخل إلى بيته وحشًا جباراً، لا يقبل لفت نظر، ولا نصيحة، ولسانه مقذع قاس سباب، المسكنة لا تعني قلة المال، قد تكون فقيراً، وأنت جبار، وقد تكون أغنى الأغنياء، وأنت متواضع، فالتواضع والجبروت لا علاقة لهما بالمال، ولا بالمنصب، ولا بأي شيء آخر.

وكان السبكي ـ رحمه الله عز وجل ـ يقول في قوله: ((اللهم أحييني مسكيناً)): " إن المراد استكانة القلب، فمن استكان قلبه لله عز وجل، وانكسر له، وتواضع لجلاله وكبريائه وعظمته وخشيته جبره الله عز وجل ".

من صفات عباد الرحمن:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً)

[سورة الفرقان: ٦٣]

يمشي هوناً متواضعًا يألف ويؤلف.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى))

[البخاري وابن ماجه، واللفظ له]

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الآية: " يمشون على الأرض هوناً أي في سكينة ووقار، متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين، علماء حكماء، أصحاب وقار وعفة، لا يسفهون أحداً، ولو سفه عليهم حلموا.

تواضع العبد المسلم من علاقات حب الله:

التواضع أيها الإخوة علامة حب الله عز وجل، الدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: ٥٤]

صدقوا أيها الإخوة الكرام، لو كنت مديرا عاما بمؤسسة، وأنت بأعلى منصب، وعندك حاجب، لكنه مؤمن، تتواضع له، وكأنه أخوك، وأدنى مرتبة في المؤسسة حاجب، وأعلى مرتبة المدير العام، هذا الحاجب إذا كان مؤمناً فأنت تتواضع له، وكأنه زميلك، وكأنه صنوٌ لك، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه عن ابن عباس]

الجبروت يتناقض مع الإيمان:

سبحان الله ! الجبابرة في الأرض، وقد يكون جباراً في بيته، وقد يكون جباراً على صف فيه ثلاثون طالباً، طفل أخطأ فضرب ضربا مبرحا، مع استعلاء وسباب، جبار مع أن من أدنى الوظائف دخلاً المعلم، لكنه جبار في الصف، من أدنى الأزواج يكون له حرفة في الدرجة السفلى في المجتمع، وهو في البيت جبار، الجبروت يتناقض مع الإيمان يتناقض فإذا كنت مؤمناً لا يمكن أن تكون جباراً وإن كنت جباراً فقد خرجت من دينك ومن إيمانك، الآية دقيقة جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: ٥٤]

قال ابن كثير هذه صفات المؤمنين الكمل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه متعززاً على خصمه وعدوه.

الواقع الآن المؤمن ضعيف نحن في عصر القوة بيد غير المؤمنين، فالمؤمنون ضعاف دائماً ترى الإنسان المريض ينبطح أما القوي الكافر ينبطح يتذلل فإذا رأى مؤمناً ضعيفاً استعلى عليه وتفنن

في إذلاله هذا واقع، طبعاً عنده حاسة سادسة هذا قوي ولو كان مجرماً ولو كان مخطئاً ولو كان منحرفاً ولو كان كافراً ينبطح له يتذلل له، بل قال بعضهم من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، أما المؤمن يعلم أنه ضعيف يعني إذا وقع بخطأ يكبره ألف ضعف ويتفنن بفضحه يتفنن بالتشهير به، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: ٥٤]

قال بعض العلماء لما كان الذل منهم ما معنى أذلة ؟ لها معنى سياقي غير المعنى اللغوي، لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدّاه بأداة على أذلة على يعني أشفقت عليه تضميناً لمعاني هذه الأفعال فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل إنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول كما في الحديث المؤمن كالجمل الذلول والمنافق الفاسق ذليل. وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق الكذاب والنمام والبخيل والجبار. يعني هم أذلاء مع أنهم أقوياء الكذاب حينما تكشف كذبته يصبح ذليلاً والنمام حينما تكشف خطته يصبح ذليلاً والبخيل حينما يكشف بخله يكون ذليلاً والجبار أيضاً يعد ذليلاً حينما يأتي من هو أقوى منه فيسحقه.

معنى: أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

أما معنى قوله تعالى: (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهو من عز، وهي القوة والمنعة والغلبة للمؤمنين، كالولد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته.

الدار الأخرة للمتواضعين:

إنه قوي لا يخضع، لا يتضعضع، لا يستكين، لا يذل، لا يتطامن، والعلو كل العلو في الأرض، وفي الدارين للمتواضعين في الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص: ٨٣]

أحاديث نبوية في التواضع:

أيها الإخوة الكرام، أحاديث كثيرة وردت في التواضع:

الحديث الأول:

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ))

الحديث الثاني:

((ما من آدمي إلا في رأسه حكمة ـ قطعة حديد يلجم بها الفرس توضع بحنكه ـ بيد ملك، فإن تواضع قيل للملك: ارفع حكمته ـ اجعله حراً المتواضع حر ـ وإذا تكبر قيل للملك: دع حكمته))

[الطبراني عن ابن عباس بسند حسن]

الحديث الثالث:

وقال عليه الصلاة والسلام:

((ما استكبر من أكل مع خادمه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند حسن]

إنّ فئات من المجتمع المخملي يعدّون الأكل مع الخادم إهانة،

((ما استكبر من أكل مع خادمه، وركب الحمار بالأسواق، واعتقل الشاة فحلبها))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند حسن]

الحديث الرابع:

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الكبر من حمل حاجته بيده))

[ورد في الأثر]

الحديث الخامس:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ))

[مسلم]

يرفعه في الدنيا، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه فيها لتواضعه في الدنيا، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص: ٨٣]

سيدنا الصديق يقول: << وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع <<
وقال عروة بن الورد: " التواضع أحد مصائب الشرف، وكل ذي نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع ".

إذا كان الشخص متواضعا لا يحسد على هذه النعمة.

أنواع التواضع:

الآن هناك بحث مهم جداً:

التواضع الأول: التواضع للدين:

١ ـ عدم معارضته بالمعقولات:

عندنا كبر اعتقادي، الدرجة الأولى للتواضع التواضع للدين، وهو ألا يعارض بمعقول منقولاً، ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى للخلاف سبيلاً، كيف التواضع في الدين ؟

الآن دققوا، ألا يعارض شيئاً مما جاء بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة، الأول: المنحرفون، أهل الكبر من المتكلمين، أرباب العقول، يقول لك: مفكر، هؤلاء عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، يقول لك: غير معقول أن نضع المال في مؤسسة دون أن نأخذ ربحاً على بقائه في هذه المؤسسة، غير معقول، تقف الحياة، يقف الاقتصاد، واقعه المالي، النظام المالي الغربي أكبر عنده، وأكثر مصداقية، وأكثر صحة من آية في كتاب الله، هذا عارض المنقول الصحيح في الكتاب والسنة بمعقول فاسد.

وهذا الذي يجعل عقله حكماً على النصوص هو من فئة المعتزلة، العقل يمكن أن تستخدمه في التأكد من صحة النص، كما أنه يمكن أن تستخدمه لفهم النص، أما أن يكون العقل حكماً على النص، يقول لك: هذا الحكم لا يعجبني، قطع اليد، معقول نحن في أي عصر نعيش ؟ معقولاته الحضارية تجعله يرفض نصاً قرآنياً، يرفض حكماً إلهياً، بينما إذا ألغي هذا الحد في كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، أما إذا طبق هذا الحد في العام بأكمله قد يضطرون لقطع يد واحدة، هذا صاحب العقل الراجح:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ *إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

[سورة المدثر]

فهذا أحد أنواع الكبر، أن تعتز بعقلك، وأن تجعله حكماً على النقل الصحيح، على وحي السماء، على أحكام الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: ٣٦]

هذه فئة.

٢ ـ عدم معارضته بالقياس والرأي:

لشيء الثاني للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

إذا كان هناك نص بالتحريم وفي القياس غير محرم، يقدم القياس على التحريم، يقيس شيئا على شيء، والقياس له بحث طويل، وفيه مزلق قدم كبير.

٣ ـ عدم معارضته بالأحوال والأذواق:

المتكبرون والمنحرفون من المنتسبين إلى التصوف والزهد، إذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال، ولم يعبئوا بالأمر، طبعاً قلة منهم منحرفون جداً، هم تجاوزوا مرحلة التكليف، بلغوا اليقين، إذاً: لا تكليف عليهم، هؤلاء بكبرهم، وأذواقهم الفاسدة تجاوزوا النصوص مع أن المؤمن الصادق المحب.

أحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعنا

٤ ـ عدم معارضته بالسياسة:

أما الأقوياء هؤلاء يغلبون السياسة عندهم على الشريعة ولا يلتفتون إلى حكم الله عز وجل، فالإنسان قوي دينه سياسته، ولو أنها خالفت منهج الله عز وجل، والإنسان المنحرف في مواجيده وأذواقه، ولم يكن على صواب يقدم أذواقه على أحكام الشرع، ونصوص الوحيين، والذي تعمق في الفقه، واخترع موضوع القياس يغلب القياس على النص الواضح الشرعي، وأهل الكلام العقلاء هؤلاء عقولهم ربما كانت سبباً في إلغاء حكم شرعي جاء به الوحي القرآني والوحي النبوي.

تقديم شيء على الوحي نوع من الكبر:

يها الإخوة الكرام، لمجرد أن تقدم بين يدي الله ورسوله شيئاً، ولا تعبأ بما جاء به الوحي، فهذا نوع من الكبر أخطر أنواع الكبر الاعتقادي، أخطر أنواع الكبر، الكبر في الدين، لذلك صاحب البدعة لا توبة له، لأنه يرى أنه وحده على صواب، وأن الناس كلهم في ضياع، لذلك أهون ألف مرة أن يكون الخطأ في السلوك من أن يكون في الاعتقاد، لأن الخطأ في الميزان لا يصحح، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٣-٦٠) : مرتبة الشكر - يجب أن نشكر الله في كل الأحوال

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة .

تمهيد لموضوع الشكر:

١ ـ مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ

الموضوع اليوم مرتبة الشكر، أول ملمح في آية دقيقة جداً أن الله عز وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

لَمَ لم يقل إن صبرتم وآمنتم ؟

(إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

ولهذا الكلام تمهيد:

الله عز وجل حينما قبِل الإنسان حمل الأمانة في قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: ٧٢)

حينما قبِل الإنسان حمل الأمانة كرّمه الله بأن سخر له:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية: ١٣)

٢ ـ الكونُ كلُّه مسخَّر للإنسان تسخير تعريف وتسخير إرشاد:

يجب أن تؤمن أن كل الكون مسخر لك، أنت المخلوق الأول، أنت بالذات صنف البشر، الصنف الأول بين المخلوقات، لأنك قبلت حمل الأمانة سخر لك (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)، لكن هذا التسخير هو تسخيران في الحقيقة، تسخير نفعي، وتسخير إرشادي، أي شيء خلقه الله لك له وظيفتان كبيرتان، الأولى أن تنتفع به ، والثانية أن تعرف الله من خلاله، لو نظرت طعامك، لو نظرت إلى ما في السماوات وما في الأرض، لو نظرت ممّا خلق الإنسان فإنه:

(خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)

(سورة الطارق)

يا ترى دافق أم مدفوق ؟

التحليل الدقيق بمعنى مدفوق، وليس دافق، لو أنك ضغطت على ماء فيه أنبوب لخرج، هذا الماء دافق أم مدفوق ؟ مدفوق، لكن الله قال: (دَافِقٍ)، لأن هذا الماء يمشي وحده، من دون ضغط، في زيت، وفي محرك، وله سرعة بالساعة عشرة سانتي.

إذاً: التفكر في خلق السماوات والأرض يعطي الإنسان شعورا أن نعم الله لا تعد ولا تحصى. إذاً: أنت أمام نعمة تنتفع بها، وأمام نعمة تدلك على الله، لها مهمة نفعية، ومهمة إرشادية.

٣ ـ ردُّ فعلِ الإنسان من تسخير التعريف والإرشاد:

الآن: حينما تستجيب لتسخير التعريف بالإيمان، وحينما تستجيب لتسخير التكريم بالشكر والعرفان تكون قد حققت الهدف من وجودك، وحينما تؤمن وتشكر، لأن الكون أساسه العطاء من الله، أنت حسنة من حسنات الله، وجودك عطاء.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

وجودك عطاء، الشيء الآخر: إمدادك عطاء، هناك هواء، وماء، ومأوى وصوف، وثياب، وزوجة، وأولاد، وطعام، وشراب، وزهور، وجمال، فالوجود عطاء، والإمداد عطاء، والهدى عطاء، فالحياة أساسها العطاء من الله عز وجل، خلقك الله ليسعدك.

أيها الإخوة، فرد فعل التسخير التعريفي أن تؤمن، ورد فعل التسخير النفعي أن تشكر، فإن آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك.

٤ – مِن لوازم اسم الله (الشكور):

أيها الإخوة، الله عز وجل شكور، المعنى دقيق جداً، يعني مستحيل وألف ألف مستحيل أن تخطب وده، وأن تحسن إلى خلقه، وأن تنصحهم، وأن تخفف عنهم، وأن تكون مصدر أمن لهم، مستحيل أن تعمل عملاً صالحاً تبتغي به وجهه ثم لا ترى أن الله يشكرك، كيف ؟ بالتوفيق، بالحفظ، بالتأييد، بالنصر، بالإلهام، بالسداد، بالتأديب أحياناً الله عز وجل شكور لأنه حينما تتوجه إليه، وتعبر عن صدق التوجه بخدمة عبادة لا بد من أن ترى عطاءاً ملموساً.

لو كنا واقعيين، وافترضنا أن إنسانا عاديا قدم لك هدية، فالحد الأدنى أن تبتسم، وأن تشكره، وفي حد أعلى أن ترد على هذه الخدمة بهدية.

لكن أن تفعل عملاً صالحاً ابتغاء وجه الله تفعله مخلصاً لمخلوق ولو كان كلباً، فهذه البغيُّ سقت الكلب فغفر الله لها، أيّ مخلوق إذا قدمت له خدمة هي لله في الأصل، الله عز وجل سماها قرضا حسنا.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة الآية: ٢٤٥)

لذلك يجب أن تؤمن أنه:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

الله شكور لأنه قال:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

إخواننا الكرام، والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن تخطب ود الله عز وجل بطاعة، بإنابة، بعبادة، بصلاة، بصيام، بتلاوة، بدعوة إلى الله، بخدمة الخلق، لا يمكن أن تتحرك نحو الله خطوة إلا وترى الله يكرمك.

((إذا تقرب إلي العبد شبرا تقربت إليه ذراعا))

[أخرجه البخاري عن أنس]

أنت تتقرب شبر، واللهُ يتقرّب ذراع، لأنّ الله شكور، لمجرد أن تدعو إلى الله.

((إذا ذكرني ذكرته فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه))

[رواه الشيخان عن أبي هريرة]

وأقول لكم بدقة بالغة: إن لم تشعر أنك مشدود لهذا الدين لا بأفكاره العميقة والدقيقة والصحيحة والمتناسقة فقط، بل لمعاملة الله لك، لك معاملة خاصة، أنت موفق، تُلهم الحكمة، تُلهم الصواب، لك هيبة، لك استقرار نفسي، الله عز وجل ألقى محبتك في قلوب الخلق، فالذي يشدك إلى الدين معاملة الله لك، إذاً: الله شكور.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلكت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلمي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

الله شكور، والله الذي لا إله إلا هو لن يضيع عليك عمل، ولو أنك إذا سقيت كلباً، أو أطعمت هرة، أو أنقذت نملة أثناء الوضوء على حوض الغسيل، انتظرت حتى غادرت، ثم بدأت الوضوء، لن يضيع عليك هذا إطلاقاً.

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

(سورة محمد)

الشكر علم وحال وعمل وثناء:

١ ـ الشكر علمٌ:

النقطة الدقيقة أن الشكر كالتوبة تاماً، علم، وحال، وعمل، علم يجب أن تعلم أن هذه نعمة من الله، وكان من الممكن ألا تكون معك، فكلما ركبت مركبتك شكرت الله عليها، وكلما دخلت إلى بيتك شكرت الله أن آواك، وكلما التقيت بزوجتك شكرت الله هيأ لك زوجة، وكلما نظرت إلى ابنك شكرت الله، فالشكر رؤية، علم.

٢ ـ الشكر حالٌ:

الآن حال، بأعماق أعماق قلبك أنت شاكر لله عز وجل، بأعماقك ممتن، يا ربي لك الحمد، حمداً، كثيراً، طيباً مباركاً بعدد خلقك، الله عز وجل يقول لك: سمع الله لمن حمده، أنا أسمعك، تفضل وتكلم يا ربي لك الحمد، والشكر، ولك النعمة والرضا، حمداً، كثيراً، طيباً، مباركاً بعدد خلقك.

إذاً: الشكر حال، علم، معرفة، وحال امتنان وعمل.

٣ ـ الشكر عملٌ:

يجب أن تقابل هذه النعم بخدمة الخلق، أن تنصح العباد، أن تكون في خدمتهم، أن تخفف عنهم، أن تكون منصفاً معهم، أن تكون مصدر أمن لهم.

((شر الناس منزلة يوم القيامة من يخاف لسانه أو يخاف شره))

[أخرجه ابن أبي الدنيا عن أنس]

فالشكر، علم، وحال، وعمل.

٤ ـ الشكر ثناءٌ:

والشكر ثناء على الله عز وجل حدث نفسك بهذه النعم الله عز وجل قال:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ

(سورة إبراهيم الآية: ٥)

الله له أيام، أيام أنقذك فيها، ووفقك، ونجحت، وتزوجت، وعندك دخل، وعقلك سليمٌ، ما عندك مرض عضال، لك سمعة طيبة، تنام آمناً، لست ملاحقك، ليس عليك مذكرة بحث هذه كلها نعم.

أيها الإخوة، من آمن، وشكر حقق الهدف من وجوده، وحينما تحقق الهدف من وجودك تتوقف كل أنواع المعالجات.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٤-٦٠) : رعاية الأعمال والأموال والأوقات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة .

الرعاية :

الموضوع اليوم لعله جديد على أسماعكم، وهو الرعاية.

١ – الأصل المستنبَط منه موضوع الرعاية :

من أين أخذ هذا الموضوع ؟ من قوله تعالى.

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

(سورة الحديد الآية : ٢٧)

٢ – مفهوم الرعاية : وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا

المؤمن مكلف أن يرعى أعماله، وأن يرعى أحواله، وأن يرعى قربه من الله عز وجل، عبر عنه الفارق عمر رضي الله عنه : << تعاهد قلبك >>

إنه يعني المتابعة، والمدارسة، والتحليل، والتوكل، والتقييم، وفحص النية، والتأكد من السريرة الطيبة، فلو ترك الإنسانُ نفسه من دون رعاية قد يمضي طويلاً في النفاق، قد يمضي طويلاً في العجب، في الكبر، في الاستعلاء، في التوهم، وأمراضُ النفس كبيرة جداً ومتنوعة جداً، وخطيرة جداً، ويمكن أن تتسلل إلى النفس دون أن تشعر، وأنت في المسجد، وأنت في حقل ديني، وأنت مع إخوانك المؤمنين هناك دنيا، هناك تنافس، هناك حسد هناك غيرة، هناك عدم إنصاف، هناك تقصي شيطاني دون أن تشعر.

لذلك المؤمن يرعى قلبه، يرعى أحواله، يرعى عمله، يرعى واقعه المادي.

أيها الإخوة، قال ابن القيم رحمه الله تعالى : " الرعاية هي مراعاة العلم، وحفظه بالعمل ".

٣ ـ رعاية العلم وتطبيقه :

رعاية العلم تطبيقُه، أحياناً تنفصل المعلومات عن السلوك، لو كُلفت بإلقاء درس عن التواضع بأعلى بدرجة من الدقة والتعليقات الصحيحة، والتحليل، والأمثلة، لكن الذي يلقي هذا الدرس متكبر دون أن يشعر، مراعاة العلم وحفظه بالعمل، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص، أن يكون العمل ينطوي على إحسان لا على إساءة، إنسان أحياناً يأمر بالمعروف بغلظة بالغة، بقسوة بالغة، وحفظ العمل من المفسدات، المَنّ يلغي الصدقة الاستعلاء يلغي الاستقامة، أن ترى عملك شيء كبير، يوقعك في الشرك والعياذ بالله.

٤ ـ مراعاة الحال بالموافقة :

" ومراعاة الحال بالموافقة، وحفظه بقطع التفريق "، فصار عندنا رعاية العلم، وحفظه بالعمل، ورعاية العمل بالإحسان والإخلاص، وحفظه من المفسدات، من الكبر، من المَنّ من العجب.

((لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم مما هو أكبر من ذلك العجب العجب))

[رواه الخرائطي، وأبو نعيم عن أنس، والديلمي عن أبي سعيد]

ومراعاة الحال بالموافقة، وحفظه بقطع التفريق، ما يكون حالك مدعاة إلى شق صفوف الأمة، أنا لي صلة بالله، تحتقر الناس، يعني الرعاية صيانة وحفظ.

مراتب العلم والعمل :

قالوا : مراتب العلم والعمل ثلاثة، رواية وهي مجرد النقل وحمل المروي.

سئل الإمام الغزالي رحمه الله تعالى عن إنسان حفظ كتاب الأم للشافعي، فابتسم وقال : " زادت نسخة ".

فأول نوع من العلم نقل المحض، وحمل المروي، يعني حفظه، والدراية فهمه، وتعقل معناه، الدراية أرقى من الرواية، العلم يراعى رواية ودراية، فهمه وتعقل معناه، وأما الرعاية فهي العمل بموجب ما علمه، إذاً : هناك تنقلٌ، وتفهمٌ، وتطبيق، هذه رعاية العلم، وهذا المقام مأخوذ من قوله تعالى :

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

وهناك آيات تعطي المعنى من دون لفظ :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية : ١٠٢)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج الآية : ٧٨)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا)

(سورة النساء الآية : ١٣٦)

معنى ذلك أن الرعاية أن تجتهد في فحص السير، تصحيح المسار، ضبط النوايا ضبط السلوك، إيقاع العمل وفق منهج الله، تحتاج إلى بالتعبير المعاصر متابعة.

البلاد المتخلفة فيها قوانين كثيرة، لكنها لا تتابع، إذاً : لا تحقق، إذاً : لا نقطف ثمارها إطلاقاً، في البلاد الأخرى بالمقياس المادي هناك متابعة، المتابعة تعني أنه لا يمكن أن يمنعوا شيئًا إلا ويراقب مراقبة متقنة، والناس إذا علموا أن هذا الذي أصدر القرار يتابعهم يطبقونه.

إنّ النقلة همّهم الرواية، والعلماء همتهم الدراية، والعارفون بالله همتهم الرعاية، بين أن تنقل، وبين أن تدري، وبين أن تعمل.

وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً

وكنت أقول دائماً أيها الإخوة : إن هذا الدين العظيم لا يمكن أن تقطف ثماره إلا بالتطبيق، ما دمت في مستوى الحفظ، أو في مستوى الفهم، ولم ترقَ إلى مستوى التطبيق لن تقطف من ثمار الدين شيئاً، الله عز وجل ذم، من ذم بهذه الآية ؟

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

فإن كان في قلوبهم قسوة وظلمة معنى ذلك أنهم لم يتبعوا السيد المسيح أبداً، العالم الغربي بقسوته، ووحشيته، وبطشه، وتدميره، وقتله، وسفك الدماء ليس في قلبه رحمة إطلاقاً، إذاً هو ليس من أتباع السيد المسيح، لقوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

الآن :

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

الإسلام دين الفطرة، دين الواقع، دين التوازن، دين الوسطية، يسمح لك أن تعمل، وأن تتصل بالله، يسمح لك أن تكسب رزقك، وأن تعبد ربك، يقيم موازنة بين المادة والروح، بين الدنيا والآخرة، بين الحاجات والقيم، الرهبانية بخلاف الفطرة، قال عليه الصلاة والسلام:

((أشدكم لله خشية أنا ـ هكذا قال ـ أنام وأقوم، أصوم وأفطر، أتزوج النساء آكل اللحم، هذه سنتي فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[متفق عليه]

الآن هناك ملمح في الآية، الله عز وجل ذم من لم يرعَ قربة مبتدعة، فكيف بالذي لم يرعَ فريضة محكمة، الرهبانية قربة، لكن مبتدعة ما كتبها الله على الناس، والدليل أنها مبتدعة، والدليل أنها ليست واقعية، والدليل أنها تتناقض مع الفطرة :

(فما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا)

فكيف بمن لم يرعَ قربة شرعها الله، إذا ذم الله أهل الكتاب على قربة ابتدعوها، ولم يرعوها حق رعايتها، فكيف إذا قصرت في أمر إلهي شرعي.

الرعاية رعاية الأعمال، ورعاية الأحوال، ورعاية الأوقات :

يقول بعض العلماء : الرعاية رعاية الأعمال، ورعاية الأحوال، ورعاية الأوقات.

١ ـ رعاية الأعمال :

فالعمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، ووافق السنة، فأحياناً هناك انزلاق خطير، أن هذا الأمر عمل خيري، هذه الحفلة الغنائية ريعها للعمل خيري، للأيتام، وفيها غناء، وما عند الله لا ينال بمعصية الله، وأعظم مبدأ في الإسلام أن الغاية لا تبرر الواسطة، الغاية النبيلة وسيلتها نبيلة، مع أن الناس توسعوا في هذا، إلى درجة أنهم خرجوا عن منهج الله، الغايات مهما تكن نبيلة، ومقدسة فلا تبرر وسائل غير مشروعة، رعاية الأعمال أن تحقرها، كيف؟ تمكن إنسان أنْ يهدي إنساناً، فلم يعد يُكلَّم، أنا داعية كبير، لولا فضل الله عليك ما تكلمت كلمة، فآفة العمل أن تراه أمامك، وأن تعجب به، وأن تحدث الناس به، هذه من آفات العمل، لذلك كلما عتمت على أعمالك ارتقيت عند ربك، والقاعدة الذهبية : إن أكرمك الله بعمل صالح دُب لله محبة أنه أجراه على يديك.

((الخير بيدي والشر بيدي، فطوبى لمن أجريت على يديه الخير، والويل لمن أجريت على يديه الشر))

[ورد في الخبر]

والقيام بها بنشاط، من دون أن تنظر إليها، فأيّ عمل صالح تعمله يجب أن تنساه، أن تذكر أن الله أكرمك به، أما كلما التقيت مع إنسان، قدمت له حاجة تقول له : إن شاء الله أنت مرتاح بها ؟

أعجبتك ؟ أي والله، تفضلت عليّ، بعد جمعة : إن شاء الله ما فيها مشكلة ؟ لا والله، يجزيك الله الخير، كل مرة فيها تذكير، حتى يخرج هذا الشخص من جلده.

فلذلك العمل الصالح يجب أن تنساه، وإذا فعل واحد معك عمل صالح يجب ألا تنساه حتى الموت، هذا المؤمن، المؤمن كريم، المؤمن يعرف الأعمال الصالحة.

٢ ـ رعاية الأحوال :

السلامة من طرفي التفريط بالنقص والإفراط بالزيادة :

الآن عندنا شرط ثالث للأعمال، قال : التوفير أي السلامة من طرفي التفريط بالنقص، والإفراط بالزيادة، مخالفة العمل إما تفريطاً أو إفراطاً، بالمبالغات.

لو فرضنا الأب مريضًا، وبحاجة ماسة إلى طبيب، وعندك مجلس علم، الله أولى، لا، أبوك أولى هنا، هذا ليس فرضًا، عندك إنسان مريض، يجب أن تقطع أعمالك حتى الصالحة، لأنه هذه أولويات، فأحياناً هناك نقص وأحياناً زيادة ومبالغة.

يجب أن يصغر في نفسك

أيضاً أيها الإخوة، يجب أن يصغر العمل في نفسك، لا أن تراه كبيراً، والنبي الكريم قال للأنصار :

((يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا ـ ما قال فهديتكم قال : ـ فهداكم الله بي))

[أخرجه مسلم عن عبد الله بن زيد بن عاصم]

أنا وسيلة، أن تستصغرها، وأن تستقلها، ماذا قدمت أنت أمام نعمة الإيجاد ؟ أمام نعمة الإيجاد، أمام نعمة الإمداد، أمام نعمة الهدى والرشاد ؟

والله أيها الإخوة، نحن محاطون بنعم لا يعلمها إلا الله، وأقلّ نعمة لو تغيرت لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، لذلك :

((إنك ما ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني))

[أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة]

قيل : علامة إرضاء الله عنك إعراضك عن نفسك، أحياناً تضخم ذاتُ الإنسان، أينما جلس الحديث عن نفسه، وعن منجزاته، وعن أعماله العظيمة، وعن نسبه، وعن حسبه وعن نزهاته، هذا إنسان

مريض، بقدر ما تضع نفسك في التعتيم تكون أقرب إلى الله ، وبقدر ما تسلط الأضواء على نفسك، وعلى إنجازاتك تكون مريضاً.

هناك شيء اسمه في علم النفس الحاجة إلى استجداء المديح، لو قدمت طعامًا لإنسان تقول له : إن شاء الله أعجبك ؟ أي، والله طيب، أنا عندي زوجة درجة أولى في الطبخ، ما شاء الله ! ما عنده إمكان أن يسكت إلا يستجدي المديح، لذلك يجب أن تستصغر العمل في عينك، أنت لا شيء.

هناك رجل محسن قدم لجمعية خيرية بيت، بمبلغ كبير يكون مقر مشروع تأهيل الفقيرات، فأقيم له حفل تكريمي، وكل الذين القوا كلمات أثنوا على هذا المحسن الكبير إلا أخ كريم قال له : أيها المحسن كان من الممكن أن تقف في صف طويل لتأخذ معونة شهرية زهيدة، ومعك هويتك، وبصمة، وإيصال، وتوقيع، لكن الله كرمك بأن جعلك تعطي لا أن تأخذ.

كل أعمالك لا تساوي شيئا أمام نعم الله عليك :

وكل إنسان يعطي يتذكر ممكن أن يأخذ، ممكن يفتقر، علامة قبول العمل أن تستصغره، النبي قال:

((جهد مقل))

[رواه الطبراني عن قتادة بن سعد]

يا رب، سيد الخلق وحبيب الحق، الذي أعظم إنسان وكل الخلائق هدايتهم بصحيفته، ومع ذلك يا رب :

((جهد مقل))

ليس موضوع كلام، تشعر أن عملك أمام فضل الله لا شيء، جهادك وصلواتك، وحجك، وزكاتك، وانضباطك، وطلب العلم، أمام ما أعد الله لك من نعيم أبدي لا شيء، لذلك الجنة بعملك الصالح، وانضباطك، لا تدفع ثمنها، تدفع ثمن سبب دخولها ، أنت ثمن مفتاح البيت، البيت ثمنه مئة مليون، وعشر ليرات ثمن المفتاح، عملك الصالح في الدنيا كله يساوي عشر ليرات أمام الجنة، لذلك الجنة برحمة الله وفضله، أما اقتسام مراتبها فبالأعمال.

أيها الإخوة، رعاية الأحوال أن تشعر بهذه السكينة التي أودعها الله في قلبك فأنت مطمئن.

هناك قلق شديد، وعندك خلل، وخوف شديد، وخلل، واستعلاء، ويجب أن تشعر أنك متواضع، وأنك راضٍ عن الله، وأن الله يحبك، وأنك واثق من عطائه، هذه مشاعر مقدسة تأتي للمؤمن المخلص.

٣ ـ رعاية الأوقات :

إخواننا الكرام، الشيء الأخير في هذا اللقاء الطيب رعاية الأوقات، أنت وقت أنت زمن، فالبطولة لأنك وقت، ولأن هذا الوقت سينقضي، وما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، إذاً : لا بد من أن ترعى الوقت، إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل، في وقت للذكر، وقت للصلاة وقت للتلاوة، وقت للأهل، وقت للأولاد، وقت للعمل، وقت للراحة، فالأبطال دائماً أوقاتهم منظمة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٥-٦٠) : أساس العلاقة بين الله والعباد الحب وهو المركز الأساسي في الدين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

الحب أساس العلاقة بين الله وعبده:

موضوع اليوم من أبرز الموضوعات، إنه الحب، وهو أساس العلاقة بين الله وعباده، أحبَّهم فخلقهم، يحبّهم ويحبونه، وما لم يكن الحب له المركز الأساسي في الدين، فإنّ الدين يغدو ثقافة وعادات وتقاليد وفكر وفلسفة، وما إلى ذلك .

الحب يجعل قلب المؤمن كالمرجل، الحب يصنع المعجزات، الحب سبب التضحيات، الحب سبب التفوق، الحب سبب سعادة لا توصف.

منزلة الحب في الدين:

أيها الإخوة الكرام، المحبة منزلة تنافس فيها المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، هي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العين، هي الحياة الحقيقية التي من حرمها فهو في جملة الأموات، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل: ٢١]

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر]

والنور الذي مَن فقَده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمَه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذةُ التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، هي روح الإيمان، هي روح الأعمال، هي المقامات والأحوال التي متى خلَت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

صدقوا أيها الإخوة الكرام، إنّ إسلاما من دون حبّ هو جسد من دون روح، جثة وجيفة، أما الإسلام مع الحب فإنه إنسان ملء السمع والبصر، متورد الخدين، أزهر اللون، نشيط، متألق، يحمل

أثقال السائلين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس، ومن دون حب تكون أوامر الدين ثقيلة، قال تعالى:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

[سورة النساء]

أوامر الدين قيود، لكن تكون مع الدين حدودا، أوامر الدين مع الحب قربات، ومن دون حب أعباء، مراكب الحب توصلهم إلى منازل لم يكونوا من دونها أبداً واصليها، وتبوئهم مقاعد الصدق ومقامات لم يكونوا لولاها داخليها، هي مطايا القوم، الشوق مركبة التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قبل.

أيها الإخوة الكرام، إذا قرأتَ القرآن ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فلم تتأثر، صليت فلم تتأثر، ذكرت الله فلم يتحرك قلبك، ابحث عن قلب آخر، فإنه لا قلب لك، إنه مؤشر خطير، طال عليهم الزمن فقست قلوبهم، يؤدون الصلاة شكلاً، ويصومون، والصيام شهر مسلسلات، ليس شهر عبادات، يسمرون بالغيبة والنميمة بعيدين عن الله عز وجل، أساس الحياة الحب، تالله لقد ذهب أهل الحب بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سائغة.

من أعظم النعم أن يحبك الله ورسوله:

مرة كنت في عقد قران، واستمعت إلى خطيب يلقي كلمة، وذكر حديث رسول الله يخاطب سيدنا معاذ، قال له:

((والله يا معاذ إني لأحبك))

[أبو داود، النسائي عن معاذ]

والله ما رأيت في تاريخ البشرية مقاما أعلى من أن يحبك الله ورسوله، أن تكون عند الله محبوب، أسباب الحب بيديك، التعامل مع الله تعامل منهجي ليس تعاملاً مزاجياً، إن الله يحب الصادقين، إن الله يحب المحسنين، يحب التائبين، يحب التوابين، يحب المتطهرين،، أسباب الحب بيدك، لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، المحب وهو نائم أقرب من الله من المرائي والمنافق وهو في طاعة، لأن عادات المؤمن عبادات، وعبادات المنافق سيئات، أجابوا منادي الشوق إذ نادى به: حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضا والسماح، وواصلوا إليه المسير بإدلاج والغدوّ والرواح.

المحبون أذله على المؤمنين أعزة على الكافرين:

أيها الإخوة الكرام، هؤلاء المحبون أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، والله حال ضعاف الإيمان أنه قوي على المؤمن، عنده إحساس عام أنه ضعيف ما له ظهر، يتفنن بإذلاله، أما مع الكافر فمنبطح، مستسلم، البطولة أن تكون مع المؤمن متذللا، ومع الشارد عن الله قوياً، إنهم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين.

لا بد من دعوى المحبة من دليل:

لما كثر مدعو المحبة طولبوا بالدليل، فقال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

[سورة آل عمران: ٣١]

أما المدعون فقد خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلُّوا، بل هو كلام في كلام، المحب تجده عند الحلال والحرام، المحب تجده حيث أمر الله، وتفتقده حيث نهى الله، قال تعالى:

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)

[سورة المائدة: ٥٤]

المحبون باعوا أنفسهم وأموالهم لله ثمنًا للجنة، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

[سورة التوبة: ١١١]

إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، متصل بسدرة المنتهى مرة ثانية، إسلام بلا حب جثة هامدة.

مرة كنت في بلاد بعيدة جداً، ودعاني مركز إسلامي، أصحابه من المحبين، شبهت لهم المؤمن الذي يحب، ويحب ربه كالوردة الطبيعية، والذي لا يحب ربه كالوردة الصناعية، وشتان بين الوردتين، وردة تتمنى أن تشمها فواحة الرائحة، ألوانها رائعة، فيها جمال أخاذ، ووردة تمقتها، وبعد حين تضعها في المهملات.

آية تقصم ظهر مدعي المحبة:

١ ـ هل تختار الله في مقابل المصالح الدنيوية ؟

إخواننا الكرام، هناك آية والله تقصم الظهر:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

[سورة التوبة: ٢٤]

ماذا بقي ؟ بيت فخم بأربعمئة متر ثمنه ثمانون مليونا، تجارة، وكيل حصري لمادة غذائية أرباحه كل يوم مليون ليرة في هذا الشيء، مساكن ترضونها، عشيرة، أهل، أزواج، إخوان، أبناء، آباء.

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة]

أنت وكيل شركة تبيع بضاعة محرمة، أرباحك منها طائلة، إن سكت أخفيت أن هذا الغذاء فيه شحم خنزير، إن سكت فعندك أرباح فلكية، لو صليت في الجامع، لو اعتمرت عمرة كل سنة، لو حججتَ، لو زينت البيت لما كنت في الحج، لو وضعت مصحفًا وسيفًا من ذهبٍ، و:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

هذه كلها لا تنفع، ما دمتَ تتاجر بمادة غذائية محرمة، وتخفي عن الناس أن شحم الخنزير داخل فيها، هذه التجارة تخشون كسادها.

٢ ـ ماذا تفعل عند تعارض المصلحة الشخصية وأوامر الله ؟

إخواننا الكرام، عند التعارض لما تطلب منك الزوجة شيئًا لا يرضي الله، وترضيها، وتعصي الله، فقد رأيت طاعتها أكبر عندك من طاعة الله، لما يأتيك دخل كبير بالغش، هذا المبلغ الفلكي أكبر عندك من طاعة الله، لما يأتيك دخل كبير بالغش، هذا المبلغ الفلكي أغلى عندك من طاعة الله.

٣ ــ هل ترجِّح أمر أبيك وطاعته ؟

إذا كان أبوك قال لك تزوج هذه، وهذه فاسقة، وأنت من أجل أن تبقى، وأن تأخذ من أبيك ما تتمنى وافقت، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

الآن:

(وَأَبْنَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

٤ ــ هل تطيع الله في ابنِك ؟

تريده يترجم باللغة الإنكليزية، فبعثته إلى بلاد الغرب بلا رادع، ولا رقابة، ولا ضبط، ولا متابعة، وابنك شاب في ريعان الشباب، والزنا سهل جداً، رجع شارب خمر زانيًا، لكنه مترجم من الدرجة الأولى، قال تعالى:

(وَأَبْنَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة: ٢٤]

أنا لست ضد التعلم، إياكم، يجب أن يتعلم كل مسلم اللغة الإنكليزية، الآن هي لغة العصر والكومبيوتر، لكن إذا فسق وفجر، وارتكب الفواحش، لكن حقق مصلحة والده، الأب راض عنه.

الشيء المؤسف أحياناً أن ابن يتدين في البيت، الباقون متفلتون لا يحاسبَون، يحاسب هذا المتدين على العطاس أحياناً، على كلمة (لا إله إلا الله)، على غض بصره، وإذا رفض أن يجلس مع من لا تحل له أن يكون معهم تقوم الدنيا عليه، هذا قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

[سورة التوبة: ٢٤]

٥ ــ هل تؤثر المسكن على طاعة الله ؟

أنت ساكن في بيت مستأجر على النظام القديم، ثمنه عشرون مليونًا، أجرته في الشهر مئة ليرة، في السنة ألف ومئتان، وأنت موظف، والقانون يحميك، وأنت معك ثمن بيت.

(وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

[سورة التوبة: ٢٤]

هذا واضح عند التعارض.

(أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة: ٢٤]

٥ – إذا كنتَ مؤثِرًا لطاعة مخلوق على طاعة الله فالطريق مسدود:

الطريق إلى الله مسدود، إذا كانت الدنيا أحب إليك من طاعة الله فالطريق مسدود، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)

[سورة البقرة: ١٦٥]

انت محسوب على الله:

صدق أيها الأخ، وصمة عار في حقك أن تكون محسوباً على غير الله، أنت مؤمن محسوب على الله فقط، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

[سورة البقرة: ١٦٥]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: ٥٤]

المحب لا يرتد:

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يرتد المحب عن دينه، أما العابد فيرتد، الذي لا يحب يرتد.

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة]

الاحاديث النبوية في بيان المحبة:

والآن إلى الأحاديث الشريفة الصحيحة:

الحديث الأول:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))

[متفق عليه]

لقد نفى عنه رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإيمان أصلاً،

((حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))

بلا مجاملة لنفسٍ أنفسنا بهذه المقاييس. والذي نفسي بيده:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))

الحديث الثاني:

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب قال:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ))

أقول لكم كلمة صريحة وجريئة: إذا كان هناك شهوة أغلى عليك من الله فالطريق إلى الله مسدود ، هذا ملخص الملخص:

((فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ))

الحديث الثالث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه]

حلاوة الإيمان شيء لا يوصف، أما حقائق الإيمان فسهلة جداً.

أحد الشيوخ له كلمة بالعامية: " ذراعين شاش وذقن ببلاش صرت شيخ "، حقائق الإيمان سهلة، أما حلاوة الإيمان فإن سلعة الله غالية، حلاوة الإيمان ثمنها المجاهدة، بينما حقائق الإيمان ثمنها المدارسة، وأيّ إنسان ذكي معه كتاب، معه نصوص، ذاكرته قوية، حفظ، قدم فحصًا فأخذ الشهادة، هذا امتلك حقائق الإيمان، لكن الفرق بين حقائق الإيمان وحلاوة الإيمان كالفرق بين أن تلفظ ألف مليار دولار وأن تملكها، بين اللفظ وأن تملكها هذا الفرق، وفي أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربني إلى حبك))

[الترمذي عن معاذ بن جبل]

أيها الإخوة الكرام، مقام الحب أعلى مقام، وكل إنسان يتفحص قلبه، قال تعالى عن المؤمنين الصادقين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٦-٦٠) : الأسباب الموجبة للمحبة الإلهية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.
نتابع موضوع الحب، والحديث اليوم عن الأسباب الجالبة للمحبة، والتطبيق العملي.

الأسباب الجانبية للحب:

السبب الأول: قراءة القرآن بالتدبر:

قراءة القرآن الكريم بالتدبر والفهم، وما أريد به، فقال عليه الصلاة والسلام دليل:

((من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ في المصحف))

[الجامع الصغير عن ا بن مسعود، وهو حديث حسن]

لا بد للمؤمن من جلسة يتلو فيها كتاب الله، والأكمل أن تسمعه دائما، وكلما كنت مستقيماً اقشعر جلدك عند سماعه، هذا أول بند.

السبب الثاني: التقرّب بالنوافل:

التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فقبل الفجر ركعتان قيام ليل، هذه نافلة، الضحى ركعتان، عندك فراغ اتلُ القرآن تلاوة إضافية، الدليل، واتفاقنا بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

أي النوافل من صلاة وصيام وتلاوة وذكر، وهي أحد أسباب محبة الله.

السبب الثالث: دوام الذّكر:

دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين.

سمعت قصة اليوم بمصر عن أستاذ جامعي له مكانة أصيب ببعض الأعراض القلبية، ذهب إلى بريطانيا، وأجريت له الفحوص، فوجدوا شرايين ضيقة جداً، وهذا خطر على حياته، لا بد مِن جراحة قلب مفتوح، هيِّئ موعد بعد شهرين لإجراء العملية، جاء إلى مصر، مشى في الطريق، مرة رأى سيارة لحم، وامرأة فقيرة جداً تلتقط ذرات الدهن بكيس صغير في أثناء تسليم الخروف، فشده، سألها، امرأة فقيرة جداً، عندها ست بنات، ما ذاقوا اللحم من شهر، فثارت النخوة الإيمانية عنده، أخذها إلى اللحام، وقال له: تعطيها كيلوين كل شهر، وهذا المبلغ عن اثني عشر شهراً، يقول الأستاذ: شعرت بنشاط عجيب، كان إذا مشي خمس دقائق يشعر بضيق، فشعر بنشاط، فوجد فرقا واضحا، لما دخل إلى البيت شاهدوه أنه ليس طبيعيا، أبوهم نشيط، فرحوا، لكنهم أصروا عليه أن يذهب إلى لندن لإجراء العملية، المفاجأة الصاعقة أنهم فحصوا فما وجدوا تضيقا أبداً.

بالحب يحدث شيء صعب على العقل أن يصدقه، الله عز وجل على كل شيء قدير، المحب له معاملة خاصة المحب يتودد إلى الله، والله يتودد منه، لأن الله شكور، ومستحيل، وألف وَألف مستحيل أن تخطب وده، ثم لا ترى من الله هذا الود.

إذاً: باللسان والقلب والعمل والحال، لذلك من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

قال الإمام الجنيد: " من علامات محبة الله دوام الذكر بالقلب واللسان "، وهذا معنى قوله تعالى

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج: ٢٣)

بالذكر طبعاً.

السبب الرابع: إيثار محابّ الله على محَابّك عند غلبات الهوى:

إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، هناك درس علم، جلسة في المسجد على الأرض، لا ضيافة فيها، وأنت مدعو إلى سهرة مع عشاء من الطراز الأول، ورفاقك وأصحابك، وضحك، وتعليقات لاذعة، وكلام في السياسة، وفي أسعار الدولار، وأخبار الناس، وأخبار فلسطين، أصبحت أخبار فلسطين للتسلية، لأنه لا أحد يتحرك، هنا أجمل، فآثرت درس العلم في المسجد على هذه السهرة التي لا ترضي الله، عندك عبادة، ونزهة في فآثرت العبادة، لذلك حينما تؤثر محابه على محابك عند غلبات الهوى فهذا سبب كبير من القرب إلى الله.

والله حدثني أخ في هذا المسجد له زوجة صالحة جداً، وهي داعية كبيرة، قال لي: عندي سفر إلى الصين بعمل، لكن هذا العمل ساعة، لكن بين الطائرتين ثلاثة أيام، قال: آخذ معي زوجتي، امرأة شابة، وجاءها عرض سفر بالطائرة إلى استنبول، وزوجها تاجر، شيء ممتع، استنبول مدينة جميلة جداً، قالت له: كم تكلف هذه الرحلة ؟ هذه أدفعها صدقة لأسرة فقيرة، أنا بهذا أسعد ما قبلت، والمبلغ ثلاثون ألف، قالت له: هذه الأسرة أولى بهذا المبلغ.

والله أعرف تجاراً كباراً يركبون بالدرجة الأولى، أنا أحياناً أدعى كضيف رسمي بدرجة أولى، التذكرة الضعف، ما ميزاتها ؟ يأخذون المعطف، ويعلقونه لك، هذه ثمنها خمسون ألفا، لك كأس عصير، قبل أن تبدأ الضيافة يعطونك كم مجلة زيادة، ومقعدك واسع قليلاً، يمكنك أن تمد رجليك، هذه هي كلها خمسون ألفا، يتزوج بها شاب، وأعرف تجاراً مؤمنين طاهرين والله يركب درجة سياحية، والمقعد ضيق، والسفر طويل، يقول لك: الفرق أعطيه لشاب.

السبب الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها:

مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها، ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها، وأسماء الله الحسنى باب كبير لمحبة الله، اسم (اللطيف) له شرح طويل، الآن هناك أقراص مضغوطة، كل قرص فيه مئة ساعة صوتية، وألفًا صفحة نص وصوت، مع أسماء الله الحسنى، كل يوم تقرأ عن اسم بالنص، وتستمع للصوت، فالحب يحتاج إلى طلب علم، ومطالعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، وهذه أحد أسباب معرفته، ومستحيل وألف ألف مستحيل، بل كما قال ابن القيم: " مِن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، ومن أعجب العجب أن تطيعه ثم لا تسعد بقربه ". والله إن لم تقل: أنا أسعد من في الأرض إلا أن يكون الآخر أتقى مني لا تكون محباً، السعادة العظمى أين وجدها يونس ؟ في بطن الحوت، فنادى في الظلمات.

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام وجدها في الغار، قال:

((لقد رأونا، قال: لا يا أبا بكر، ما قولك في اثنين الله ثالثهما))

[البخاري عن أنس]

وأصحاب الكهف رأوها في الكهف.

السبب السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه:

دخلت إلى بيتك لك بيت، تقول: الحمد لله الذي آواني، وكم من لا مأوى له.

عندك زوجة تنتظرك، الطعام مهيأ، ترتدي لك أجمل الثياب، هذه نعمة كبرى.

عندك أولاد يملؤون البيت فرحة، صحتك طيبة، لك دخل، هذه النعم الأساسية يملكها جميع الناس، لكن شقاء الناس أنهم يكفرون النعم، الذين أكرموا بها يبحثون عن نعم لا يملكونها.

مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ومشاهدة نعمه الظاهرة والباطنة.

السبب السابع: انكسار القلب بين يدي الله:

لكن أقرب طريق إلى محبة الله انكسار القلب بين يدي الله.

نور الدين الشهيد لما واجه التتار سجد، وقال: "يا رب، مَن هو الكلب نور الدين حتى تنصره ؟ انصر دينك ".

كلما انكسرت أمام الله ازدادت محبة الله لك، كن عزيزاً قدر ما تستطيع أمام الخلق، كريماً، عفيفاً، لك مكانة، لكن بقدر ما تستطيع تذلل أمام ربك، اسجد، ابكِ في السجود، تذلل له، يا رب، ما لي غيرك، أكرمني يا رب، اغفر لي زلتي، يا رب آمن روعتي، يا رب اقبل توبتي، يا رب غمرتني بفضلك، غمرتني بحلمك، غمرتني برحمتك، ناجِه في الليل، ومن أعجبها انكسار القلب بين يدي الله عز وجل، يقول بعض العلماء: " والله لو جمع العابدين جميع لذات الدنيا بحذافيرها لكان امتهان أنفسهم لله بطاعته ألذ وأحلى عندهم من ذلك ".

السبب الثامن: الخلوة لمناجاة الله:

الخلوة لمناجاة الله، تصلي بغرفة الجلوس تسمع الأخبار، يتناقشون، يتقاتلون، أنت معهم ليس مع الله عز وجل، في كل بيت قديماً كان مسجد صغير، غرفة صغيرة، زاوية بغرفة، طرف غرفة، الضيوف يدعون للصلاة، يدخل الشاب يصلي هنا في هدوء، في صمت، في تجلّ، في إقبال، اجعل في بيتك مصلى صغيرا، تصلي فيه الزوجة والزوج والأب والابن والأخوات، خلوة في وقت النزول لمناجاة، وتلاوة كلامه.

أنا أقول لإخواننا في الحج: إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تجلس في عرفات في الخيمة، لماذا ؟ فيها خمسون إنسانا، مستحيل أن تبكي أمامهم، مستحيل أن تناجي ربك أمامهم، مستحيل أن تتذلل لله أمامهم، لا تقدر، هناك تقاليد عامة، قل له: اذهب تحت شجرة، خذ مصحفك، وهناك ابك، هذا لقاء مع الله، هذا أهم يوم في حياتك.

السبب التاسع: مجالسة المحبين:

مجالسة المحبين ليست في المجتمع المخملي الذي كله فسق وفجور، المحبون ولو كانوا فقراء، والله أحياناً تجلس مع إخوة مؤمنين تقول: والله نحن في الجنة، وقد يكون البيت متواضعا، مع كأس من الشاي وكعكة فقط، لكن هناك حب، ومذاكرة علم، وشجون، ومبادلة أحوال، مجالسة المحبين والصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، هذا من أسباب محبة الله لك، أين نجد هذا ؟ مع المؤمنين، مع المتواضعين، مع المخبتين، مع الصادقين، لذلك من أكبر نعم الدنيا أن يكون لك جلسة مع إخوانك المؤمنين.

السبب العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل:

يمكن أن تشاهد شيئًا قطع، غض بصرك، لا تفتح إلا على شيء صحيح فقط، أخرج هذه الشهوة من نفسك كلياً، ومادام هناك إطلاق بصر ومتابعة، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، عندك أم المؤمنين، امرأة طاهرة عفيفة مستقيمة رائعة، لكن ما عندها هذا الشكل، الذي تبدو به من على الشاشة أنت لماذا تحجب ؟ ما أخذت مثل هذه مثلاً، كل شيء يمكن أن يصرفك عن الله عز وجل ابتعد عنه.

السبب الحادي عشر: استعداد النفس لهذا الشأن وانفتاح عين البصيرة:

هذه الأسباب العشرة بها وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا إلى الحبيب، وملاك ذلك كله في أمرين، الأمر الأول استعداد النفس لهذا الشأن والثاني انفتاح عين البصيرة.

السبب الثاني عشر: قطع علائق الدنيا:

أحد الأسباب الأخرى قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فإن القلب مثل الإناء لا يتسع لشيئين ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

مما يدعو إلى الحب قوة معرفة الله عز وجل، قرأت كتابه قرأت تفسيره، قرأت الحديث الشريف، قرأت السيرة، عندك ذخيرة كبيرة جداً من الحقائق عن الله عز وجل.

السبب الثالث عشر: معاملة الله بالصدق والإخلاص ومخالفة الهوى:

آخر سبب معاملة الله بالصدق والإخلاص، ومخالفة الهوى، فمن أدام النظر بقلبه ورثه الله الفرح بالمحبوب، ومن آثره على هواه ورثه ذلك حبه إياه، ومن اشتاق إليه وزهد فيما سواه ورعى حقه، وخافه بالغيب ورثه ذلك النظر إلى وجهه الكريم.

هذه ثلاثة عشر سبباً يمكن أن تكون أسباباً حقيقية لمحبة الله لك، والله عز وجل يقول:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة: ٥٤]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٧-٦٠) : الأدب هو الربع المكمل للإسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

الأدب:

١ – الأدب رُبع الإسلام:

موضوع اليوم الأدب، إذ صح أن الإسلام عقيدة، وعبادات، ومعاملات، فإنه يصح أيضاً أن الآداب هو الربع المكل للإسلام، عقيدة، وعبادة، ومعاملة، وآداب.

٢ – منزلة الأدب:

والأدب إن رغبت به نجع، أي آتى أُكله، وإن تعطرت به سطع، كالمصباح الوضاء، وإن ترديت به نفع، إنْ كان لباسك لباس أدب نفع، من اكتسب أدباً اكتسب نسباً.

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب

***

فالأدب نسب، والأدب سبب لملك الأرب، تصل بالأدب إلى أقصى غاياتك، ولقطات الأدب قطع من الذهب، وإن حُلي الرجال ما يحسنونه، وحُلي النساء ما يلبسونه ، ذكِّ عقلك بالأدب كما تذكّي بالنار الحطب، وزكِّ عقلك بالأدب، واعلم أن الأدب أقرب الطرق إلى الله، فلله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، وأقرب الطرق إلى الله طريق الذل والانكسار، وهما من خصال الأدب.

الأدب في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

(سورة التحريم الآية: ٦)

قال ابن عباس: << أدبوهم وعلموهم >>

الأدب سلوك اجتماعي، فالأدب يؤذن بالاجتماع، وأنت وحدك، مع الله طبعاً، لكن يغلب على الظن أن طبيعة الأدب طبيعة جماعية، أنت مع الناس دخلت إلى مجلس، خرجت من مجلس، لقيت إنسانا في الطريق فسلّمت عليه، زارك ضيف، في الأعم الأغلب الأدب اجتماعي.

وفي التعريف الدقيق اجتماع خصال الخير في العبد، فهو كما قيل: أخلاق كريم ظهرت في زمن كريم، مع قوم كرام، ومنه المأدبة، الطعام الذي يجتمع عليه الناس، ولا يتكامل أدب العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق.

١ – أدب الطعام:

مثلاً: آداب الطعام جمعت كلها في سطر واحد في كتاب الله، سيدنا إبراهيم:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ)

(سورة الذاريات الآية: ٢٦)

قالوا: انسلّ خفية، هناك شخص يقول: هل تتعشون ؟ قولوا لي بصراحة، فيخجلون، الضيف لا يستأذن في تقديم الطعام، استئذانه إحراج شديد له، سيتعفف، قال:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ)

أيْ انسلّ خفية.

(فَمَا لَبِثَ)

(سورة هود الآية: ٦٩)

أحياناً دعيتَ إلى طعام فتنتظر ساعة، وساعتين، وثلاثا، فتضجر وتملّ،

(فَمَا لَبِثَ)

كان مستعدًا.

(أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

(سورة هود)

طعام طيب، المؤمن كالنحلة لا يأكل إلا طيباً، ولا يُطعم إلا طيباً، الطعام ذوق.

إذاً:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ)

انسلّ خفية،

(فَمَا لَبِثَ)

أنْ قدّم الطعام سريعاً،

(أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

وهو عجل جيد، الآن:

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

(سورة الذاريات الآية: ٢٧)

أحياناً الطاولة كبيرة، والصحن الذي فيه طعام طيب في الزاوية، الضيف يستحي، الآن هناك طاولة تدور، لها مسننات، هذه أدق،

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

الطعام أمامه، أحيانا المضيف ينسى ضيوفه، يأكل، وهناك صحون بعيدة، وصحون انتهت.

كنت مرة في بلد الحرمين، دُعيت إلى طعام، عندهم آداب دقيقة جداً، المضيف لا يأكل، يحوم حول الضيوف، يلبي حاجاتهم ورغباتهم.

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

أحياناً تدخل بيتًا، وأنت جائع، يوضع لك طبق فاكهة، والحديث طويل، ساعة أو ساعتين، لا يقول لك: تفضل، وأنت استحييت أن تمد يدك، الآن:

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)
(قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

(سورة الذاريات)

كم هو جميل هذا الأدب ؟ انسلّ خفية، ولم يستأذن ضيفه بالطعام، ما لبث أن كان تقديم الطعام سريعاً،

(أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

طعام جيد،

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

الحياة كلها أدب، بالأدب يفهم العلم، ويمكن للرجل بأدب أن يستعير عقول الرجال كلهم، وبسؤال لطيف، من استشار الرجال استعار عقولهم، تلتقي مع عالم فتأخذ خبرته كلها بسؤال مؤدب، وهناك سؤال فيه سوء أدب.

لذلك بعض العلماء قال لطالب علم غير أديب: " يا بني، نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك ".

إذا رأيت أدب أصحاب النبي الكريم مع رسول الله وجدتَه يفوق حد الخيال.

سُئل عم النبي: أيهما أكبر أنت أم النبي ؟ قال: << هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله >>

بعض المحسنين الكرام يضعون الصدقة بيد الفقير، يجعلون يدهم من تحت حتى يجبر خاطر الفقير، يده عليا، أخذها ويده عليا، بالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تُنال الحكمة، وبالحكمة يكون الزهد، وبالزهد تُترك الدنيا، وبترك الدنيا يُرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تُنال الرتبة عند الله.

٢ – أدب القرآن في الكناية عن العلاقات الزوجية:

هناك كلمة أنا اعترض عليها اعتراضا كبيرا، يمكن أن تلفظ العورات باسمها السوقي، ويقول لك: لا حياء في الدين، الدين كله حياء، أرأيت إلى تعبيرات القرآن في العلاقات الزوجية ؟

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٩)

كلمة تغشاها، أو:

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا)

(سورة المائدة الآية: ٦)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

(سورة المؤمنون)

دقق:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

(سورة المؤمنون الآية: ٧)

ينطوي تحت هذه الكلمة مئة انحراف جنسي، مئة شذوذ، مع البهائم، ومع المسليين، والعياذ بالله، أرأيت إلى حياء القرآن، إلى دقة لفظ القرآن، ما بال أناس يقولون: لا حياء في الدين ؟! والدين كله حياء.

إذا صحت المحبة تاكدت على المحب ملازمة الادب:

إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب، أحيان يقع الحب، ويسوء الأدب، هذا خطا كبير، أحياناً يكون مدرس في ثانوية، والمدير صديقك الحميم، لكن بطولتك أن يكون صديقك خارج المدرسة، أما في المدرسة فأنت مدرس، وهو مدير، أن تعامله كمدير، هذه في منتهى اللباقة، هو صديق حميم، وبينكم علاقات طيبة، وعلاقات حميمة، ورفع كلفة بالبيت، أمات في المدرسة فإذا تجاوزت الأدب، وألغيت الكلفة ضعضعت مكانته أمام المدرسين.

لذلك إذا تأكدت المحبة لزم الأدب، اللهم صل عليه، لما وصل إلى المدينة حينما لا يعرفه أهل المدينة، وسيدنا الصديق ظنوه أنه هو رسول الله، فجاء بثوبه، وظلل به النبي ، ما تكلم ولا كلمة، وحينما ظلل النبي به قالوا: هذا رسول الله، وهناك شخص يمشي أمامك دائماً.

مرة رئيس جمهورية، يمشي أمامه رئيس الوزراء، قال له: خطوة للوراء، ليُعلم أن في فرنسا رئيس واحد وليس رئيسين.

الأدب أن تبقي مسافة بينك وبين الذي أنت تمشي معه، أما كتف في كتف فهذه منافسة.

والأدب كما ورد عن رسول الله في موضوع الرفق:

((الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه))

[أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

الأدب يجعل العلاقات الاجتماعية راقية جداً، أحياناً تذكر آية يكون معك واحد والله أعرف أنك تحفظها، تضطر وتسرع أنت فيسبقك هو، لأنه حافظٌ لها، يحكيها معك ولا يقدر أن يسكت.

أحيانا في الندوات تبدأ بآية يكملها المحاور، معروف أنه يحفظها، اسمح له أن يتكلم بهدوء ويجلس على المقعد، هكذا رجليه، أخذ حصته وحصة المقعد الثاني، وكلما ارتقيت عند الله عز وجل تنتبه.

قالوا عن الادب:

ـ إذا خرج المريد، أي طالب العلم عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء.

ـ وقالوا: من لم يتأدب للوقت فوقته مقتٌ، ومن أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه.

ـ يقولون: إن الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان في أثناء صعوده للمنبر جاء غلام وغمزه، يعني قرصه، فقال: خذ الرهن، كان ذكيا جداً، يبدو أن هناك مراهنة، قال له: خذ الرهن، يعني حلُم عليه، فهذا الغلام أعجبته القضية، غمز خليفة آخر فقطع رأسه، فقالوا: حِلمُ معاوية قتلَ الغلامَ.

أحيانا يجرّئ إنسان ابنه، لا تخف، كن وقحًا مع الناس، فيقع مع جبار ظالم يسحقه سحقا، علّمه الأدب، وهناك تربية فيها خطأ كبير، ينبغي أن نلزم الأدب ظاهراً وباطناً قال: ما أساء الأدب أحد ظاهراً إلا عوقب ظاهراً، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً، كيف ؟ فيما بينك وبين نفسك لست متأدباً مع الله، تعاقب عقابا داخليا، تقف لتصلي فلا تجد شيئًا، الخط مقطوع، هناك حجاب، إن لم تكن متأدباً مع الله في خلوتك تحجب عنه في صلاتك، وإن لم تكن متأدباً مع الله في ملأ من الناس فهناك مَن يذمك، ويشهر بك.

ـ قيل: أدب الخدمة أعز من الخدمة.

المبالغة في الادب من سوء الادب:

هناك مبالغة، أحياناً في الأدب هي من سوء الأدب، زرت مريضًا، وفرح بك، وهو متضايق، ارتاح معك جداً، وهو مرتاح، جلست دقيقة، يقول لك: تفضل اجلس، فتقول: لا أقدر، النبي علمنا أن لا نطيل عندك، يقول لك: والله أنا مرتاح، اجلس قليلاً، أنا مستأنس بك، لا يرضى، فأحياناً المبالغة في الأدب من سوء الأدب، اجلس هنا، لا أنا أجلس هنا، أخي هنا أنسب، هنا في باب لأنه، تجلس هنا والباب مفتوح إذا مرت امرأة، هنا أنسب، هنا صدر أم غير صدر، اجلس بهذا المحل وانتهى، قال لك اجلس هنا، هو الضيف ويعرف أين المكان المناسب، المبالغة في الأدب أحياناً من سوء الأدب.

ـ بعضهم كانوا إذا أرادوا قراءة كتاب الحديث تنظفوا، ولبسوا أجمل ثيابهم أدباً مع رسول الله.

ـ ولما ورد أبو حفص العراق جاء الجنيد، فرأى أصحاب أبي حفص وقوفاً على رأسه يأتمرون بأمره، لا يخطئ أحد منهم، فقال: يا حفص، أدبت أصحابك، أدّب الملوك، فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان الأدب في الباطن.

هناك أدب باطن، بقدر ما تكون متأدباً في أعماقك ينعكس هذا الأدب على ظاهرك.

أحيانا تعيش مع إنسان ثلاثين سنة لا تسمع منه كلمة نابية، كلمة واحدة، هو ضابط للسانه، هذه من صفات المؤمن.

ـ وقال ابن المبارك: " من تهاون في الأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون في السنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون في الفرائض عوقب بحرمان المعرفة ".

كلما قصرت في جانب طمع الشيطان أن تقصر في جانب أعلى منه، والأدب أقل شيء، طبقت الأدب فرزقت السنن، طبقت السنن حافظت على الفرائض، وهكذا.

النفس مائلة إلى سوء الادب والإسلام يدعو إلى حسن الأدب:

طبع النفس، النفس مجبولة على سوء الأدب، معنى مجبولة، أن الإنسان يرتاح بثياب خفيفة مثلاً، أما عنده ضيف يستقبله بالقميص الشيال، تفضل، أهلاً وسهلاً، هذا عيب، ارتدِ شيئا لائقًا، أحيانا لا في البيوت إطلاقاً، الابن يتجول في البيت بثيابه الداخلية أمام أخواته الشابات، و أحيانا البنت الشابة ترتدي ثيابا شفافة أمام إخوتها الذكور، هذا من سوء الأدب.

بشكل عام أيها الإخوة، الإيمان يدعو إلى التستر، والشيطان يدعو إلى التعري، بمعنى أن كل سنتمر من ثياب الفتاة متعلق بدينها، وكل سنتمر من ثياب المؤمنين متعلق بدينه ، وهناك آباء لا يمكن أن يخلع ثيابه أمام أولاده، وهذا أدب كبير، والبيت فيه أدب، أن الابن يخلع ثيابه ويبقى بالثياب الداخلية أمام أمه وأبيه، أو بالعكس، هذا لا يحصل أبداً.

والله أعلم أن أكثر الانحرافات التي تبدأ من البيوت بسبب سوء الأدب في الثياب، في البيوت نفسها، فأن تكون بثياب خفيفة هذا راحة لك، أما التكليف فيقتضي أن تكون ثيابك كاملة.

والأدب في تعريف بعض العلماء: حفظ الحد بين الغلو والجفاء، الغلو من سوء الأدب، والتساهل من سوء الأدب.

النبي علمنا حسن الأدب:

صحابي جليل لما رأى الموقع الذي أمر النبي أن يكون في معركة بدر، الصحابي بحسب خبرته الموقع غير جيد من أمر به ؟ سيد الخلق، حبيب الحق، الذي يوحى إليه، الذي عصمه الله عن أن يخطئ، والموقع غير جيد، فجاء إليه، دقق، قال: يا رسول الله، هذا الموقع وحي أوحاه الله إليك ؟ يعني إذا كان الأمر كذلك فليس لنا كلمة، أم هو الرأي والمشورة ؟ فالنبي ببساطة وبطبع لطيف قال له: بل هو الرأي والمشورة، قال له: والله ليس هذا بموقع، قال له: أين الموقع المناسب ؟ دله عليه، قال له: بارك الله بك، وأمر أصحابه فتحولوا.

النبي علّمنا كيف تقبل النقد، كيف تستوعب النقد، كيف يتسع صدرك للنقد، كيف تثني على من انتقدك.

إخواننا الكرام، بأي مكان، بأي عمل، بأي مؤسسة، بأي تجمع، بأي ثانوية بأي جامعة، بأي مستشفى، بأي معمل، بأي جامع، إذا ألغيت المعارضة تدهورت، بطولتك أن تصغي إلى المعارضة، لأن الذي يرفعك الذي ينتقدك، أما الذي يمدحك ليلاً ونهاراً هذا ليس في صالحك، هذا

يدفعك إلى الكسل، كيفما تكلمت كان كلامك مقبولا، ما فلا داعي أن تعتني بكلامك، ولا أن تحضّر درسك، لكن هناك إنسان له ملاحظة بأدب وعلى انفراد.

والله أحياناً من أعماق أعماقي أشكر إنسانا نبهني إلى ملاحظة، وأنا من عادتي أقول: والله هناك أخ نبهني، لا تنقص مكانتك أبداً، إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق قال الله له:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

من أنت ؟ المعصوم طُلب منه أن يشاورهم، وهذه القيادة الجماعية، فالنبي علمنا أن نستوعب المعارضة.

الأدب وسط بين الانحراف إلى أحد الطرفين:

إن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء هو قلة الأدب، والأدب الوقوف في الوسط بين الطرفين، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

أقام رجل تزيينا لمعبد، طبعاً هذا غير إسلامي، سأل شيخا فقال له: خرجت من دينك، وبطلت صلاتك، وصيامك، وحجك، وطلّقت زوجتك، والله هذا غير معقول.

إذا كان في أحد عظام المرأة كسر، ووضعت الجبيرة، يقال لها: يجب أن تعيدي الصلاة لستين يوم في أثناء التجبير، لأنه وقت التجبير لم تكن على طهارة، كانت مغمى عليها، أخذوها إلى المستشفى فجبروا لها يدها، إذاً بقيت ستين يوما يدها مجبرة، يجب أن تعيدي الصلاة ستين يوما، والله هذا كلام غير معقول.

هناك غلو في الدين لا يحتمل إطلاقاً، مع أن النبي مسح على الجبيرة، وما قال: على هذا وضوء، فالأدب بين الغلو والجفاء والمبالغة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٨-٦٠) : تتمة الأدب - الأدب مع الله ورسوله والمؤمنين والوالدين والأقارب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أقسام الادب:

مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة، ولا زلنا في موضوع الأدب، الأدب مع الله، والأدب مع رسول الله، والأدب مع المؤمنين، ومع الوالدين، ومع الأقارب.

الأدب مع الله:

الأدب مع الله أنواع ثلاثة:

ـ أن تصون معاملتك من أن يشوبها شائبة في علاقتك مع الله.

ـ وأن تصون قلبك من أن تلتفت لغير الله.

ـ وأن تصون إرادتك من أن تتوجه لغير الله القلب ينبغي أن يحب الله، والإرادة التوجه إلى الله، والمعاملة أن تكون وفق منهج الله.

ومَن صاحبَ الملوكَ بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل.

إن امرأة وحيدة طلّقها النبي، قال لها ضراتها: إذا دخل عليك النبي قولي له: أعوذ بالله منك، فقال: الحقي بأهلك.

الإنسان أحيانا بكلمة يخسر حياته، بكلمة يخسر شيئًا ثمينًا.

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثـــــعبان

كم في الـمقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

وإذا ترك المؤمن أدبه مع ربه فقد هلك مع الهالكين.

أحيانا باعتراض، وأحيانا بكلمات لا تليق بذات الله عز وجل.

من أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله، وتعلمون أنه ما مِن إنسان تأدب مع الله كرسول الله، وقد ورد عنه، والحديث في كلام بسنده

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[أخرجه ابن السمعاني عن ابن مسعود]

والمؤمن يتأدب بأدب الإسلام، المؤمن عنده حياء، عنده خجل، لسانه نظيف يده نظيفة، جوارحه منضبطة.

سُئل الحسن البصري عن أنفع أدب مع الله فقال: " التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك ".

لا تسألنَ بُنَيّ آدم حــاجة   وسل الذي أبوابه لا تُحجَب

الله يغضبُ إن سألت سؤالهُ   وبُنَيّ آدم حينما يُسألُ يغضبُ

***

الأدب مع الله أن تسأله هو.

ردخل خليفة المسلمين هارون الرشيد إلى الحرم المكي، فالتقى بعالم جليل، قال له: " سلني حاجتك، قال له: والله إن أستحي أن أسأل في بيت الله غير الله، التقاه خارج المسجد، قال له: هنا سلني حاجتك، قال له: والله ما سألتها من يملكها، أفسألها من لا يملكها ؟ قال له: ما حاجتك ؟ قال له: دخول الجنة والنجاة من النار، قال له: هذه ليست عندي، قال له: إذاً ليس لي عندك

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

تذوب نفسه، الله يعلم أنك أنت صابر، الله يعلم حجم المشكلة، وقوتها، يعلم قوة العقبات، والصوارف، يعلم الضائقة المادية التي تعاني منها، وإذا سألك سائل وأعطيته يعلم ذلك.

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

(سورة المزمل الآية: ٢٠)

حاجة ".

والله أحياناً أقرأ آية عن سيدنا أيوب:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

(سورة ص الآية: ٤٤)

إنه إنسان ساق الله له مصيبة، قال له: يا رب، لك الحمد، أنا صابر، وما شكا إلى أحد.

ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

علمه بحالي يغني عن سؤالي

هناك أشخاص عندهم صبر وجلد، أما إذا قرأ قوله تعالى: قس عليها كل شيء.

قيل: " العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ويصل بأدبه إلى طاعته ".

اداب أهل الدنيا كلام وشعر:

الآن آداب أهل الدنيا، يقول لك: فلان معه لصنص بالآداب، معه أدب عربي قال: آداب أهل الدنيا الفصاحة والبلاغة.

المتنبي كان من أبلغ الشعراء، قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبه وأسمعت كلماتي من به صمـم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصـم

الخليل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

***

وكان في طريقه من البصرة إلى حلب تبعه أحد أعدائه فولى هارباً، فقال له غلامه: ألم تقل: الخيل والليل والبيداء تعرفني

قال له: قتلتني قتلك الله، وعاد فقتل.

الشعراء يتبعهم الغاوون، أدب أهل الدنيا الفصاحة والبلاغة.

بلاني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبـــالِ

فكنت إذا أصـابتني سـهام تكسرت النصالُ على النـصالِ

***

والله هذا كلام جميل، الشعر جميل.

أصابت المتنبي الحمى فقال لها:

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من ازدحام

شاعر آخر يبدو أنه سمع غناء مغنٍّ فخرج من جلده من رداءة صوته، فقال:

عواء كلب على أوتار مندفة في قبح قرد وفي استكبار هامان

و تحسب العين فكيه إذا اختلف ا عند التنغم فكي بغــل طحان

***

هذا الأدب، أدب أهل الدنيا فصاحة وبلاغة.

أدب أهل الدين في رياضة النفوس:

أدب أهل الدين، أدب أهل الدين في رياضات النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، آداب أهل الدين من نوع آخر، آداب أهل الدنيا فصاحة وبلاغة.

آداب الخواص من المؤمنين في طهارة القلب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور، ومقامات القرب. ومن قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بإخلاص.

مرة ثانية: الدين عقيدة ، وعبادات، ومعاملات، وآداب، فمن وصل إلى الآداب وصل إلى التفاصيل. الأدب عند ابن المبارك رحمه الله تعالى كما قال: " معرفة النفس، ومعرفة رعوناتها "

أحيانا تنحرف النفس، وتتطاول أحياناً، وتستعلي، وتتكبر، وتقول: أنا.

إن تجنب تلك الرعونات هو الأدب.

إنّ مركز الإنسان إذا كان قويا لم يعد يُكلَّم، حجمه المالي كبير، يزور قريبه الساكن في بيت مساحته ٨٠ مترا، فيقول هل: كيف وسعك هذا البيت ؟ والله لا يربط فيه، هل من ا لمعقول أن تتكلم هذا الكلام معه ؟ بيته هذا هو مستور فيه، لأنه مساحة بيته هو ٤٠٠ متر، ما معه ثمن بيتك، دخل بالاستعلاء، فكل إنسان يستعلي يمدح بيته، يمدح مكانته، ويمدح شهاداته يمدح دخله، يمدح مركبته، هذا من سوء الأدب، فهذا الإنسان لما يستعلي يغتني، ويقوى، ويأخذ شهادة عليا، أخذ موقع الاستعلاء قال الشاعر:

رقصت الفضيلة تيهاً بفضلها فانكشفت عورتـــــها

لو أن الفضيلة إنسان رقصت تيهاً بفضلها لانكشفت عورتها، حتى في الحقل الديني، يصلي قيام الليل يطبل الدنيا به، هناك من يعبد الله وهو ساكت، من دون ضجيج، إذا كان صائما يقول: سيدي هل أنتم صائمون اليوم ؟ لا والله، أنا والله صائم الحمد لله، لأنه صائم يريد أن يطبل الدنيا بهذا الصيام.

الأنبياء اكمل الناس ادبا مع الله:

إن الأنبياء أكمل الناس أدباً مع الله:

١ ـ آدم عليه السلام:

(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

(سورة الأعراف)

٢ ـ إبراهيم عليه السلام:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء)

٣ ـ أيوب عليه السلام:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

٤ ـ يوسف عليه السلام:

(هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي)

يخاطب أخوته:

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

(سورة يوسف الآية: ١٠٠)

والجبّ ؟ الجب أخطر، السجن الحياة مضمونة فيه، أما الجب ففيه موت محقق، فلم يذكره لئلاً يحرجهم، لئلا يحمّر وجوههم، ولم يقل: جاء بكم من مجاعة، لا، قال:

(وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ)

(سورة يوسف الآية: ١٠٠)

لم تكونوا جائعين، وإخوة يوسف أجرموا في حقه، قال:

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)

(سورة يوسف الآية: ١٠٠)

نسب القضية للشيطان،

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)

هذا كله من أدب الأنبياء.

٥ ــ الخضر عليه السلام:

سيدنا الخضر:

(فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)

(سورة الكهف الآية: ٧٩)

(فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا)

(سورة الكهف الآية: ٨٢)

٦ ــ موسى عليه السلام:

سيدنا موسى لما سقى للفتاتين قال:

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

(سورة القصص)

٧ ــ عيسى عليه السلام:

(إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

(سورة المائدة الآية: ١١٦)

يا رب، وأنا ما قلته، إذا قلت لأحد فأنا فقد علمتَه،

(إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

(وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة المائدة الآية: ١١٨)

أنت يا رب لك القرار، لو قرأتم خطاب الأنبياء لله عز وجل لوجدتم فيه أدبا يفوق حد الخيال.

٧ ــ النبي عليه الصلاة السلام:

نبينا عليه الصلاة والسلام:

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

(سورة النجم)

أحيانا يجلس إنسان في بيت عيونه عشرة عشرة على من دخل، ومن خرج، الشهادة، الكتب، وهناك إنسان يجلس بأدب ولا ينظر،

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)

(سورة النجم)

كان مصدقاً لما رآه من ربه عز وجل، وكان عليه الصلاة والسلام أشد حياء من العذراء في خدرها، سألته مرة امرأة: كيف تتطهر من العادة، من الحيض، قال لها: تأخذين قرصة ممسكة فتطهري بها، يعني قماشة ممسكة معطرة، تطهري بها، قالت: كيف أتطهر بها ؟ فامتلأ وجهه دماً وحياء وخجلاً، فسحبتها السيدة عائشة، قالت: تعالي تطهري بها، امرأة.

أحيانا تجد على الهاتف سؤالا من خصوصيات المرأة التي يستحي أن يستمع الإنسان إليها، بكل بساطة، بكل جرأة، يخاطبي رجل، لا يصح أن تحكي له أدق أدق التفاصيل، هناك أشياء نسائية خاصة.

إخواننا الكرام، هناك شطحة من شطحات الصوفيين لكنها لطيفة، قال السري :... صليت وردي ليلة من الليالي، ومددت رجلي في المحراب، فوقع في قلبه: أن يا سري هكذا تجالي الملوك ؟ فضممت رجلي، ثم قلت: وعزتك وجلالك لا مددت رجلي أبداً، قال الجنيد: فبقي ستين سنة ما مد رجله لا ليلاً ولا نهاراً، هذه القصة لها مغزى فقط، حتى لو كنت وحدك فهناك أدب مع الله. هذا الذي اغتسل عُرياناً قال له النبي: خذ إجارتك، لا حاجة لنا بك، إني رأيتك لا تستحي من الله، فالتعري بلا سبب، والتبذل بالثياب بالبيت، مع أهله من سوء الأدب.

والله أسمع قصصًا والله لا تصدق، فقد يكن الرجل بالثياب الداخلية طول وقته، مع أمه، وأخته، وعمته، وزوجته، وبناته، هذا من سوء الأدب، فالذي اغتسل عُرياناً، ولم يستتر قال له النبي الكريم: خذ إجارتك، أو أجارتك، لا حاجة لنا بك، إني رأيتك لا تستحي من الله.

الادب في العمل:

وقيل: " الأدب في العمل علامة قبول هذا العمل ".

حتى إذا تصدقت بأدب، حتى إذا نصحت بأدب.

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

[رواه البيهقي عن ابن عمر)

ومن نهى عن منكر فليكن نهيه بلا منكر، بغير منكر.

((الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه))

[أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٥٩-٦٠) : الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها بل من فرائضها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

الخشوع في الصلاة:

١ – الخشوع من فرائض الصلاة:

موضوع اليوم الخشوع، الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها، بل من فرائضها.

٢ – ما هو الخشوع ؟

- الخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع، والذل والاجتماع عليه، ورقة القلب وسكونه، وانكساره وحرقته، قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة]

- الخشوع خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، دخان الصدر الحقد والكراهية، والبغضاء والإحباط واليأس، والشهوة الطعام والشراب والمرأة، الخشوع خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب، تعظيم الله عز وجل، واستحضار عظمة الله وهيبته وجلاله، الخشوع قاسم مشترك بين الأخلاق والعقيدة والعمل، وتطبيق العقيدة العمل، والأخلاق المحسنات كلها مترابطة مع الخشوع، وتغذيها خشية الله، فتؤدي مقصودها في النفس والقلب معاً.

- الخشوع معنىً شرعي، فهو سلوك سني، أي تطبيق سنة رسول الله فيه، والانقياد لله رب العالمين.

قال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب ".

أيها الأخ، تذلل لله في السجود، لأن الله يعزك، أما أهل الدنيا فينبطحون أمام الأقوياء، ويذللون لهم، أما إذا التقوا بضعفاء فيستكبرون عليهم، بعكس المؤمن، فهو يتذلل لله، يمرغ جبهته بأعتاب الله، يخاطب الله بانكسار، وبتضرع بتذلل ورجاء واستعطاف، لكنه يملك عزة على أهل الدنيا تفوق حد الخيال، فلا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، هو لله، ولا يرضى أن يكون لغير الله، لا يساوم، ولا يستخذي، ولا يخضع، ولا ينبطح، ولا ينافق، ولا يرائي.

القلب أمير البدن، فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر، وخشع الوجه وسائر الأعضاء، وما ينشأ عنها حتى الكلام،

((ألاَ وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))

[البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير]

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى تستقيم جوارحه))

[مسند أحمد عن أنس]

ـ الخشوع يقظة دائمة لخلجات القلب ولخفقاته وللفتاته حتى لا يتبلد.

أيها الإخوة الكرام، إذا أهمل أحدنا نفسه مع مضي الزمن يتبلد ويتصحر، ويموت قلبه، فيكون عليه الران، لا يلوي على خير، فهو في يقظة دائمة، وحذر شديد من هواجس النفس ووساوسها.

سيدنا عمر كان يخطب على المنبر، فجأة قطع الخطبة، وقال: << كنت عميرا ترعى الغنم لبني مخزوم على قراريط >>، وتابع الخطبة، ما فهم الصحابة هذا الموقف، عمر ـ رضي الله عنه ـ يخطب في المسلمين، فقطع الموضوع، وتكلم هذه الكلمات، وتابع الخطبة، فلما انتهى من خطبته سأله أصحابه: ما الذي حصل ؟ قال: << جاءتني نفسي، فقالت لي: ليس بينك وبين الله أحد ـ أنت قمة المجتمع ـ فأردت أن أعرفها مقامها >>.

ـ فالخشوع يقظة وحذر، واحتياط من سهوات القلب وغفلاته ودفعاته خشية أن يزيغ وتعتريه القساوة، المنافقون طال عليهم الأمد فقست قلوبهم.

أنا أحذر حتى رواد المساجد، إذا لم يطبق الذي يسمعه تطبيقاً دقيقاً يصبح الحضور عادة من عاداته، فيقسو قلبه، ويصبح الدين ثقيلاً عليه، وأثقل شيء في الدين الصلاة، لأنها من دون خشوع متعبة، خمسة أوقات، وكل وقت توضأ وصلّ وسنة قبيلة، وسنة بعدية، وفرض، وازدحام في العمل، وفي السوق، وذهاب مع إياب، أما مع الخشوع فتغدو العبادة متعة، وتغدو مسعدة، فترتاح بها، بينما من دون خشوع ترتاح منها.

ـ الخشوع علم نافع يباشر القلب يوجب له السكينة والخشية، والإخبات والتواضع، والانكسار لله، كل أولئك رَشَحٌ من فيض الخشوع، يقول تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

من علامات آخر الزمان: ذهاب الخشوع من الصلاة:

كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن عين لا تدمع، ومن دعوة لا يستجاب لها))

[مسلم عن زيد بن أرقم]

في آخر الزمان لا يخشع القلب، ولا تدمع العين، ولا تشبع النفس، ولا ينفع العلم، أول شيء يرفع من الأمة الخشوع، وآخر شيء الصلاة، الصلاة مع خشوع أرقى حالة، وبلا خشوع بلا صلاة. يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن أول ما يرفع من الناس الخشوع))

[مسلم]

عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً))

وقال حذيفة: << أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة >>

مح الله الخاشعين في القرآن:

وقد مدح الله الخاشعين فقال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)

[سورة الأنبياء]

مرتبة عالية جداً، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ)

[سورة الأحزاب: ٣٥]

والله أقول بلا مبالغة: أحيانا أطلّ على طلاب يصلون فأراهم خاشعين، أراهم منيبين، يغمضون أعينهم، يتوجهون إلى ربهم، والله أصغر أمامهم، إذا كنت خاشعاً فأنت بطل.

دخل إنسان إلى المسجد يريد أن يختار إنسانا صالحا يضع عنده أمانة كبيرة جداً بسبب ذهابه إلى الحج، تأمل في وجوه المصلين، رأى شخصاً يغمض عينيه، ويشتد على نفسه، فأعجبته الصلاة، فلما انتهى من صلاته قال له: أنا أعجبتني صلاتك، وأريد أن أضع عندك أمانة، فقال له: أنا أيضاً يا سيدي صائم، قال له: صيامك لم يعجبني، هناك تصنعٌ للخشوع.

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنَاً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

[سورة آل عمران]

أيها الإخوة الكرام، المخبت هو الخاشع، قال تعالى:

(فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

[سورة الحج]

من هو الخاشع ؟ يخطب ود الله، من هو الخاشع ؟ يتذلل إلى الله، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون]

اقرأ القرآن وتدبره بخشوع:

أعتقد أن في القرآن أربع آيات فقط فيها: (قد أفلح)، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

اقرأ القرآن الكريم بهدوء، اقرأ الفاتحة بهدوء، إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، تذكر بعض نعم الله، منحك نعمة الإيجاد، منحك نعمة الإمداد، عندك بيت، عندك مأوى، عندك زوجة، عندك أولاد، صحتك طيبة، مكنك من عمل لك دخل، سمعتك طيبة، ليس هناك مذكرة بحث عنك، أليس هذه نعمة، أنت طليق، الحمد لله رب العالمين، الآن الرحمن الرحيم، الكون كله رحمة وجودك رحمة، مالك يوم الدين، أنت مخير لوقت محدود، بعد هذا الوقت مالك يوم الدين، إذاً: إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، تأتي الآيات، قال تعالى:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء: ٥٣]

ضبط لسانه، ركع، يا رب، سمعاً وطاعة، اسجد، يا رب، أعني على ضبط لساني، صار للصلاة معنى، في سؤال إياك نعبد إياك نستعين، طلب الصراط المستقيم، فجاء الجواب في الآية التي تقرأها بعد الفاتحة، ركعت خضوعاً، وسجدت استعانة، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً)

[سورة الإسراء]

من فوائد الخشوع:

١ – الخشوع طريق إلى الجنة:

أيها الإخوة الكرام، الخشوع طريق إلى أعالي الفردوس:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[سورة هود]

معنى أخبتوا أي خشعوا إلى ربهم.

٢ – الخشوع ثباتٌ على المنهج:

قال تعالى:

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة الحج]

٣ – القلب الخاشع بعيد عن الشيطان:

قال تعالى:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

[سورة الحجر: ٤٢]

من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

لقد عاتب الصحابة الله عز وجل، والله أيها الإخوة الكرام، هذه الآية تاب بعد قراءتها مئات ألوف البشر، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد: ١٦]

إلى متى وأنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمـري في المقام شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المـحب لمن يـحب يطيع

***

يروى أن إنسانا مسرفا على نفسه بالشهوات، خمور، وقيان، وجوار، وبالتعبير المعاصر ليالي حمراء، وبالتعبير الآخر موائد خضراء، طرق بابه، فتح خادمه، قال له رجل صالح: قل لسيدك إن كان سيداً فليفعل ما يشاء، وإن كان عبداً فما هكذا تصنع العبيد، فلما ألقى على مسامعه هذه الكلمات صعق، وخرج حافياً يتبع هذا الرجل ليستزيد منه، فسمي بشر الحافي، وصار من كبار العارفين بالله.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ:

أحيانا الصلحة بلمحة يا أيها الإخوة، ألم يأن، إلى متى ؟ أما آن أن تصلي بخشوع ؟ أما آن أن تذكر الله ؟ أما آن أن تصلي بخشوع ؟ أما آن أن تذكر الله ؟ أما آن أن تتصل به ؟ قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

[سورة الحديد: ١٦]

قالوا: هذا عتاب من المولى الكريم الرحيم.

والله أيها الإخوة الكرام، أحياناً يخطر في بالي أن يا رب غمرتنا بلطفك، غمرتنا بحكمتك، غمرتنا برحمتك، غمرتنا بمغفرتك، غمرتنا بتوبتك، يا رب، أقلَّ عثرتنا، واقبل توبتنا، واستر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وآمنا في أوطاننا، هب لنا عملاً صالحاً نتقرب به إليك.

قصة وعبرة:

مرة أخ عنده مشكلة نفسية وكآبة، تعاظمت الكآبة، ذهب إلى طبيب غير مسلم، طبيب نفسي، سمع قصته بالتفصيل، قال له الطبيب بالضبط: أنت مشكلتك عندك شعور أن الله غضبِن منك، تريد أن

تناجيه طوال الليل، وتخاطبه، وتترجاه أن يسامحك، ابحث عن رجل مؤمن الزمه، جاء إلي يبكي، قال له: أنا طبيب نفسي غير مسلم، هكذا ينصحني ؟ خجل من الله عز وجل.

مرة قبل أن يصطلح مع الله وهو ساكن في بيت متواضع جداً، وهذا البيت في حي فقير شعبي، بيت عربي متعب كثير، وإذا به يعرض عليه بيت فيبيعه صاحبه بدافع السفر، هذه القصة قديمة جداً يساوي خمسة وثلاثين ألفا، وهو معروض بخمسة وعشرين، ثلث ثمنه حسم بدافع السفر والسرعة، معه عشرة آلاف نقصه خمسة عشر، معه سندات، باع بضاعة بسندات بطريقة هي طبعاً محرمة، يحسم السندات في البنك، فيعطونه مبلغًا، السندات بأقل بستة بالمئة، وهم يحصلونها بأوانها، قال لي: دخلت إلى مدير بنك غير مسلم، قال له: معي سندات، اسمعوا ماذا قال له، قال له: يا أبا فلان، أنت مسلم، وهذه حرام في دينك، بكي، قال: يا رب، لا أريد بيتاً، أبقى في بهذا البيت العربي، وخجل من الله عز وجل، ذهب إلى محله، دخل إلى المحل فوجد شخصاً ينتظره، صديقه قديماً، قال له: أين أنت ؟ منذ ساعة وأنا أنتظرك، قال: لا يوجد موعد بيننا، قال: جئت، وانتهى الأمر، أنا معي مئتا ألف، ولا يلزمونني إطلاقاً، أريد أن أضعها عندك أمانة، وأناشدك الله أن تستعملهم، يريد عشرة جاءه مئتان، ما ترك عبداً شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

اخشع فقط لله عامله، ناجه، خاطبه، توسل له، ترجاه، اطلب منه العفو، اعمل، فيه الحظ، وفيه الخشوع لذكره، وتلقي ما نزل من الحق، أما القلب الذي خمد وجمد، وقسا وتبلد فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله، فالله يحيي الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبت والزهر، وتمنح الفواكه والثمار، وكذلك القلوب، والله عز وجل حينما يستبطئك بالرجوع إليك يعاتبك بعتاب لطيف.

أيها الإخوة الكرام، نتابع هذا الموضوع في درس قادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٧هـ - صلاح الأمة في علو الهمة - الدرس (٦٠-٦٠) : تتمة الخشوع - صفات الخاشع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٦-١١-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس صلاح الأمة في علو الهمة.

صفات تجتمع في الخاشع:

الموضوع أيضاً هو الخشوع، الخاشع تجتمع فيه صفات عديدة، من هذه الصفات:

١ – الخوف من الله:

قال تعالى:

(فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

[سورة الحج]

إذاً من هو الخاشع ؟ الذي إذا ذكر الله اضطرب قلبه، أحياناً تدمع عيناه، أحياناً يقشعر جلده، هذه حياته، القلب الذي لا يتأثر بذكر الله كالبيت الخرب، مثل الذي يذكر الله ولا يذكره كمثل الحي والميت، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل: ٢١]

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر]

مقبور بشهواته، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام وصفه الله عز وجل فقال:

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)

[سورة النجم]

آفاقه عالية جداً، وهناك آفاق متدنية جداً، لا همّ له إلا بطنه، تعس عبد البطن ما له، هم إلا فرجه تعس عبد الفرج، ما له هم إلا ثيابه وأناقته، لا يصلي العصر، يقول لك: البذلة مكوية، أين أُصلي الآن ؟ تعس عبد الخميصة، تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، تعس عبد الخميصة، يعني الثياب، وسعد عبد الله عز وجل.

قال الله عز وجل:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)

[سورة الزمر: ٢٣]

إذاً: علامة الخشوع إذا قرأت القرآن فهناك حياة فيها اضطراب، وبكاء، وجلد يقشعر، وقلب يخشع، وعين تدمع، وأذن تسمع، وذكر، هذه واحدة، علامة الخاشع تعتريه حالة اضطراب إذا ذكر الله.

بلا تشبيه: إذا خاطب شخص، والفتاة يحبها كثيرا، ومن أسرة راقية جداً، واتصلت به، يتلعثم، مثلاً، يشعر قلبه، قال لي مرة أحدهم: قلبي سيخرج من صدري لما خبرتني، لأنه يحبها، فكيف إذا كان الإنسان يحب الله عز وجل، وقام ليصلي ؟!

كان عليه الصلاة والسلام إذا حضر وقت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه، لا يعرفنا ولا نعرفه، دخل في الخشوع إلى الله عز وجل، هذه أول صفة.

٢ ـ البكاء من خشية الله:

البكاء من خشية الله هو الأصل، فإذا حج الإنسان يبكي في الحج، والأصل أن يبكي في الطواف وفي عرفات، الآن إذا بكى يقال له: ماذا بك ؟ خير إن شاء الله، النفوس ميتة، البكاء حالة شاذة، هو الأصل، فإذا ما بكى المسلم فهذه حالة شاذة، وإذا ذهب الواحد إلى بيت الله الحرام واجه الكعبة، وذهب إلى عرفات، و دعا، إذا ما بكى تكون حالته شاذة، الآن إذا بكي ينظر الناس إليه ماذا حدث له؟ البكاء هو الأصل في الخشوع، وهذا أرقى بكاء.

إياك من بكاء يفسد الصلاة:

أيها الأخوة، لكن هناك بكاء يفسد الصلاة، كيف ذلك ؟ إذا تأسف إنسان على شيء فاته من الدنيا، وبكى في الصلاة فصلاته فاسدة، مسموح أن تبكي خشوعاً لله حباً لله، أما إذا بكيت أسفاً على شيء فاتك من الدنيا بطلت صلاتك، لذلك يروى عن سيدنا الصديق أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا. والله أيها الإخوة الكرام، أنا لا أرتوي من هذه الأبيات، مع أنها قيلت في إنسان هو أقلّ بمليار مرة أن يستحقها.

خاطب أبو فراس الحمداني سيفَ الدولة، أما إذا أدرتها نحو الله عز وجل فهي شيء رائع جداً:

فليتك تحلو و الـحياة مريـرة وليتك ترضى والأنـام غضـاب

وليت الذي بيني وبـينك عامر وبيني وبين العالمين خـراب

وليت ودادي من شرابك سائغ و شربي من ماء الفرات سراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تـراب

***

هذا حال المؤمن هذا حال الخاشع، في رواية:

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تـراب

***

من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا، البكاء إذاً علامة خشية الله، قال تعالى:

(قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً *وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً)

[سورة الإسراء]

والله حينما أبكي في الصلاة أسعد كثيراً، أتمنى أن يحاول الواحد منا أن يبكي، فإذا ما بكي يتباكى ويتصنع البكاء، لعل الله عز وجل يبكيه حقيقة، ويبكيه قرباً ومودة وفرحاً.

٣ ـ الصبر على قضاء الله:

من علامة الخشوع الصبر على قضاء الله.

والله أيها الإخوة تقرأ قوله تعالى:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

[سورة ص: ٤٤]

لا يجتمع الكمال الدنيوي لأحد:

هل يوجد شخص ما عنده مصيبة منا ؟ هذا في صحته، هذا في دخله، هذا في ابنه، هذا في زوجته، ما مِن واحد كامل، لأن الكمال يحول بينك وبين الآخرة، لحكمة بالغة جعل الله في دنيانا مشكلات، المتزوج في ممتاز، لكن ما جاءه أولاد، يريد طفل الأنبوب، ويحتاج مبلغَ مئة وخمسين ألفاً، وليس ما معه، وتضايق من زوجته، هذه مشكلة، الآن جاءه أولاد، الزوجة ليست جيدة، والأولاد موجودون، الزوجة ليست مطواعة، عنده زوجة، وأولاد لكنه بلا شغل، عنده شغل لكن صحته معلولة، لا تتم الدنيا بالكمال مع إنسان، لذلك إن هذه الدنيا دار التواء، لماذا ؟ مرة سألني شاب: ما الحكمة إذا في رجلٍ عنده زوجة سيئة ؟ هو منزعج من زوجته كثيراً، قلت له:

من أجل أن نراك في الدرس، إذا كانت جيدة لا نراك، ونحن نريدك، أحياناً الشيء الوسط نعمة أيها الإخوة، تبقى ملتفتاً إلى الله، وإذا كانت كل حياتك كاملة فإنك لا تريد الله، ولا تريد الموت، ماذا تريد من الموت ؟

إذاً: من علامات الخشوع الصبر على قضاء الله، زوجتك قدَرك، فاقبلها، ويا أختي الكريمة زوجك قدَرُك فاقبلي لوجه الله.

دخل الجاحظ على زوج وزوجة، الزوجة كفلقة القمر، وهذا الزوج دميم إلى شكل لا يحتمل، فقال له: " أنا أدخل الجنة شكراً، وزوجتي تدخل الجنة صبراً "، هو يدخل في باب الشكر على هذه الزوجة، وهي تدخل في باب الصبر على هذا الزوج.

مرة أذكر أني كنت في القاهرة فالتقيت ببعض العلماء، هذا العالم يقول لي: إن والده فرضاً قدَره، مرة واحد ذم لي أمه، فقلت له: طلقها، قال: ما أطلقها ؟ هذه أمك قدَرُك، وأبوك قدرك، وأولادك قدرك، فاقبلهم، وحاول أن تصلحهم، فعلامة أنك خاشع أنْ تصبر على قضاء الله وقدره.

كان شخص يطوف حول الكعبة يقول: يا رب، هل أنت راض عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي فقال له: يا هذا، هل أنت راض عن الله حتى يرضى الله عنك ؟ قال: يا سبحان الله ! كيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال له: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، إذا كنتَ تتلقى قضاء الله وقدره بالصبر والرضى فأنت مؤمن ورب الكعبة وخاشع.

٤ ــ إقامة الصلاة:

الآن إقامة الصلاة من الخشوع، قال تعالى عن المنافقين:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء]

إيتاء الزكاة، طبعاً أحياناً تأتي الصلاة والزكاة بمعنى آخر، سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لخص الدين كله في كلمتين، قال تعالى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ)

[سورة مريم: ٣١]

هناك حركة عمودية نحو الله تعبداً، وحركة أفقية نحو الخلق إحساناً، إن أردت أن تضغط الدين كله بكلمتين فهو اتصال بالخالق، وإحسان إلى المخلوق.

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: ٣١]

وإيتاء الزكاة، قال تعالى:

(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

[سورة الحج]

أي الخاشعين.

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة الحج]

هذه صفات الخاشعين، قال تعالى:

(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ *الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة الحج]

٥ ــ اليقين بلقاء الله عزوجل:

من صفات الخاشع أنه موقن بلقاء الله عز وجل، نقل اهتماماته للدار الآخرة، بصراحة مؤلمة: معظم المسلمين اليوم الآخر ليس داخلاً في حساباتهم إطلاقاً، كيف وهو مسلم يغتصب محلاً تجارياً ؟ يغتصب شركة ؟ يغتصب بيتاً ؟ يأخذ ما ليس له، يموت أبوه، فيأخذ معظم التركة له، هو قوي، وأكبر أخواته، ترك أخواته بلا شيء، كيف وهو مسلم ؟ والله، ثم والله، ثم والله، لو أيقنا باليوم الآخر تنقلب مقاييسنا مئة وثمانين درجة.

رأى النبي عليه الصلاة والسلام تمرة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

((أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد تحت جنبه تمرة من الليل فأكلها، فلم ينم تلك الليلة، فقال بعض نسائه: يا رسول الله، أرقت البارحة، قال: إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها، وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه))

[مسند أحمد]

اشتهاها، لا يقدر أن يأكلها سيد الخلق، الآن يمرق جمل، هكذا.

قال أحدهم: يا رب، دلني على شيخ صاحب دين، صار هناك احتراف للمشيخة، ثلاث طلقات طلقها نهائياً، أرجع له إياها بألف ليرة.

اليقين بلقاء الله، قال تعالى:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

[سورة البقرة]

أخي الكريم بطولتك أن أيّ عمل تعمله تتصور أنك بين يدي الله يوم القيامة، لمَ فعلت هذا ؟ لماذا كذبت ؟ لماذا طلقت ؟ لماذا كسرت هذا الإنسان ؟ لماذا ضربت ابنك ؟ أحضِر معك لله جوابًا. مرة قال لي موظف تموين في الأيام العصيبة، حيث كان أقلّ عقوبة للمخالفة التموينية السجن شهرين، قال لي: انصحني، أنا أحببت أن اغرس فيه شوكًا وإيقاظًا، قلت له: اكتب الناس ضبوطًا قدر ما تستطيع، وفي ضعها رقبتي، قال: ما هذا الكلام ؟ قلت له: إذا كنت بطلاً فهيئ لله جواباً، ولا بد أنْ تعد للمليون عن كل ضبط تكتبه، عبد لله ما عمل شيئاً، السعر معتمد، لكن أنت معك تسعيرة منذ ثلاث سنوات لا تتناسب مع هذه التسعيرات، هو ما ربح إلا بالمئة عشرة، القانون معك، لكن الحق معه، هيئ لله جواباً.

إذاً اليقين بلقاء الله، والرجوع إليه.

٦ – تعظيم شعائر الله:

ومن علامات الخشوع تعظيم شعائر الله، قال تعالى:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج]

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

[سورة آل عمران]

هذه مرتبة الخشوع، وهي سبع علامات للخشوع، وأعلى هذه العلامات الخشوع في الصلاة، قال تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون]

عن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ في قوله:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

يعني أنهم متواضعون.

وعن مجاهد:

(وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ)

أي خاشعين،

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

يعني خاشعين.

الخشوع واجب في الصلاة ليس من فضائلها، بل من فرائضها، وهو أرجح الأقوال.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس